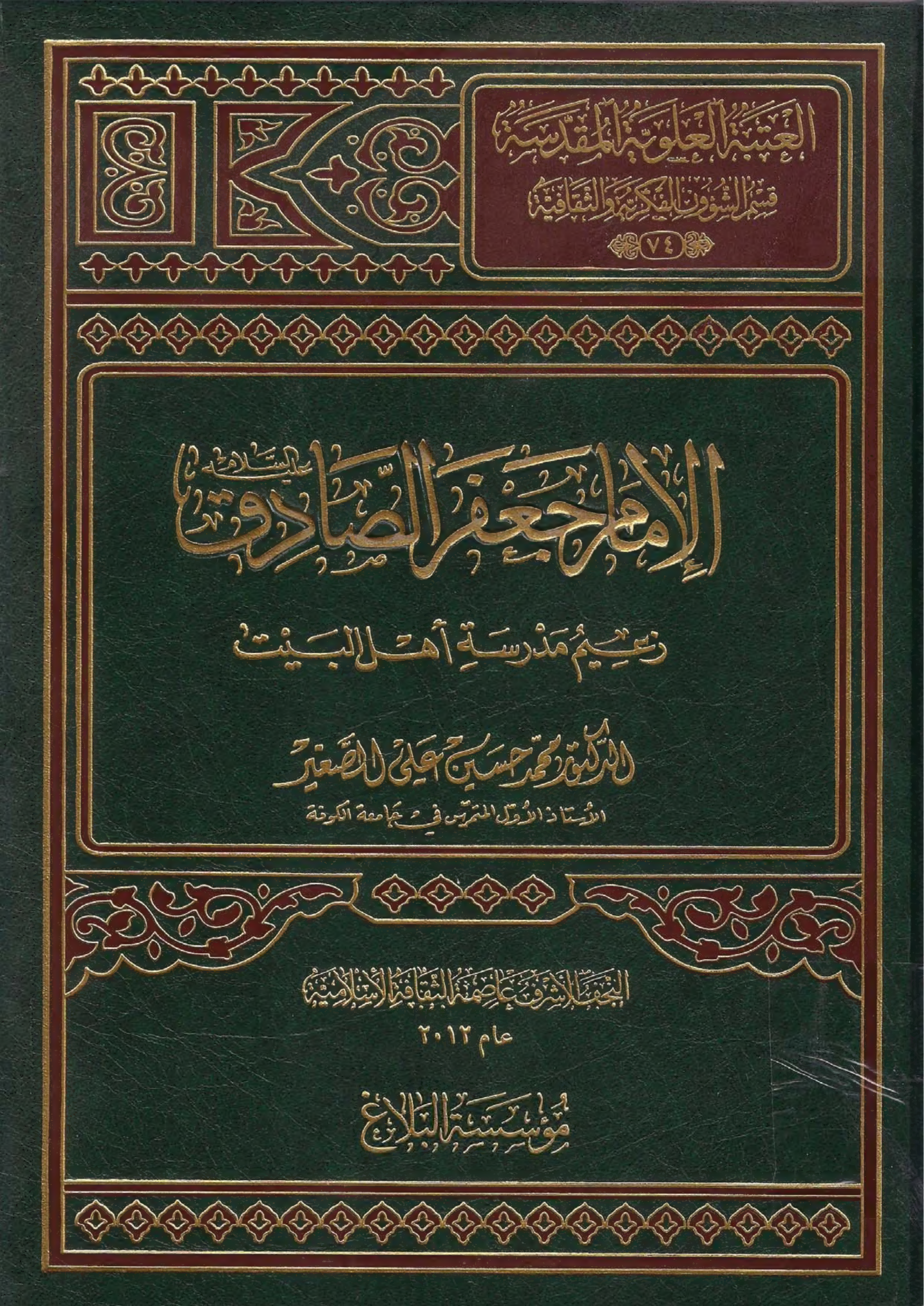
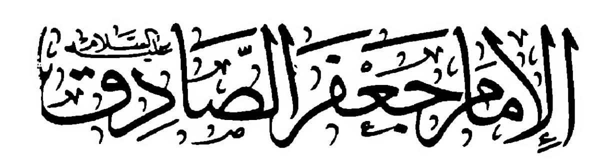
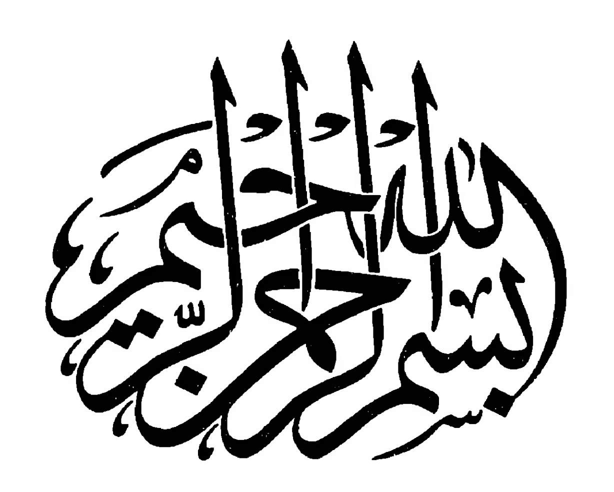

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٧٤)
الإمام جعفر الصادق عليه السلام
زعيم مدرسة أهل البيت
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة
النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢
مؤسسة البلاغ



شبكة الفكر
alfeker.net




زعيم مدرسة أهل البيت



العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٧٤)

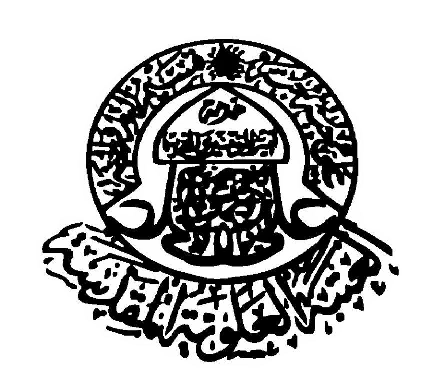
# الإمام جعفر الصادق عليه السلام

## زعيم مدرسة أهل البيت

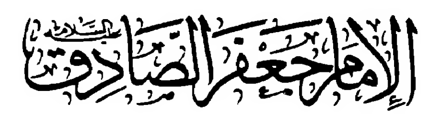
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية

مؤسسة البلاغ



www.imamali-a.net
info@imamali-a.net




زعيم مدرسة أهل البيت

**المؤلف:** الدكتور محمد حسين علي الصغير

**الناشر:** العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

**الإخراج الفني:** محسن اليوسفي

**الطبعة الأولى**

**تاريخ الطبع:** ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

**التنفيذ الطباعي**

**مؤسسة البلاغ**
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط
ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف: (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٢١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com
E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، واشهد إن لا اله إلا الله شهادة يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان، وصلى الله على رسوله محمد الذي بعثه رحمة للعالمين وعلى آله الغر الميامين الذين من سبقهم ضلّ ومن تأخر عنهم هلك، لاسيما وصيه ووزيره أمير المؤمنين عليه السلام.

ما اعتادت الدنيا ان ترى الأفذاذ في كل أدوارها.. لذا كان ظهورهم فيها حدثا خطيرا وامرا جسيما، ومن أولئك الأفذاذ المصلحين: خاتم الانبياء محمد وعترته الطيبين الطاهرين.

وقد يصعب على الإنسان الخوض في هذه الشخصيات الإسلامية الفذة والفريدة التي تمثلت فيها جميع المثل الإنسانية العليا، لما لها من منزلة سامية ومكانة محفوفة برضوان خالقها وموجدها، فهم اختصوا بمعرفة الله تعالى التامة دون سواهم، ونالوا رتبا عالية رفعتهم عن سائر المخلوقين، حتى روي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه واله انه قال: (يا علي لا يعرف الله إلا أنا وأنت، ولا يعرفني إلا الله وأنت ولا يعرفك إلا الله وانا) فكيف ترتقي لوصفهم الأقلام، وتصف أسرار تلك النفوس الزكية.

لقد كان في كل صفة من صفاتهم معجزة.. فأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين آية من آيات الله العظمى، فهم اصل الدين وفرعه

ومعدنه ومنتهاه، بهم بدأ الله وبهم يختم.

وهذه الموسوعة الإسلامية الخاصة بآل البيت عليهم السلام لمؤلفها الاستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين بن الشيخ علي الصغير ما هي الا نفحة من النفحات العطرة عن هذا البيت النبوي الطاهر، وعرفانا من العتبة العلوية المقدسة لهذه الجهود الكبيرة في تأليف هذه الموسوعة، قامت الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة باعادة طباعة هذه الموسوعة ونشرها للقراء الكرام اثراء للمكتبة الإسلامية في نشر فكر وتراث اهل البيت صلوات الله عليهم اجمعين.. والله من وراء القصد.

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

النجف الأشرف



# المقدمة



ركبٌ حضاريٌ متطوّر، وفكر إنساني متجرّد، ورسالة علمية متأصّلة، غمرت أشعتها الأفق الإسلامي، وشملت أضواؤها أقاليم الأرض، فكانت الألق الهادي للإنسانية جمعاء، ومثّلت التراث الموضوعي لأهل البيت عليهم السلام، وهي عالمية الدلالة فكراً وعطاءً، تاريخية الرسالة بُعداً وأثراً، متفتّحة الذهن على الإبداع، وارفة الظلّ بكل جديد رائد، تغذّ السير نحو الأمثل، وتقطع الطريق بأناة وحكمة ورويّة، رفعت العلم لواءً، واستوعبت الإغناء والأثراء شمولية، تلك هي مدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في استقرائها حياة الفكر ومناخ العقل، واكتشافها المجهول بحثاً وتمحيصاً، واعتمادها الموضوعية نهجاً وابتكاراً، وهي تتولّى بقيادة الإمام زعامة مدرسة أهل البيت تأصيلاً، وتفجر ينابيعها الثريّة عمقاً وموسوعية، وهذا ما تتبنى هذه الأطروحة التأكيد عليه، وتتوخّى الكشف عنه بروح رياضية، بعيدة عن التعصُّب والأثرة، في عرض جديد ومنهج جديد، فالإمام الصادق للعالم كلِّه، وحياته ملك لأمته وللبشرية، ومخزونه الثقافي الهائل تراث الإنسان الهادف المتحضِّر.

وكانت طبيعة هذا الكتاب المنهجية أن انتظم في بابين، وانتظم كلُّ باب منه بأربعة فصول، ونهض كلُّ فصل بعدَّة بحوث.

وكان الباب الأول بعنوان: (**الإمام الصادق وآفاق عصره**) ونهد الفصل الأول فيه الحديث عن (**الإمام عبقرياً في قيادته للأمة**).

تناول: البداية المشرقة لفجر الإمام الصادق، ووراثته لمدرسة أهل البيت، وبحث بيئته العلمية واستمع إلى صدى الأجيال في تقييم الإمام، وألقى الضوء على خصائص الإمام في مَعزل عن المنهج التقليدي.

**وكان الفصل الثاني بعنوان (الإمام في خضمّ الأحداث السياسية)**

وقد ركّز بالحديث الواعي عن مسيرة الإمام السياسيّة في ظلِّ طواغيت العصر الأموي، وقيادة الانقلاب العباسي، وخلافة أبي العباس السفّاح، وملك أبي جعفر المنصور، وكشف عن النضال السلبي المستميت في سياسة الإمام، بما يعتبر فصلاً سياسياً تحليلياً صادق التأريخ.

**وكان الفصل الثالث بعنوان: (الحياة العقلية وظواهرها الاجتماعية).**

وقد ألقى بأضوائه الكاشفة عن العصر، وأبرز مظاهر الثورة المضادّة عند الإمام في المناخ العقلي، وسلَّط الضوء على ظاهرة الغلوِّ والغلاة، وعرض بالتحليل لحركات الزندقة والإلحاد،، وتحدَّث عن المذاهب الكلامية للخوارج والمعتزلة والمرجئة والأشاعرة وسواها في عصر الإمام.

**وكان الفصل الرابع بعنوان: (الكفاح الثوري في عهد الإمام الصادق).**

وتناول بالبحث رؤية المناخ الثوري في منظور الإمام، وكشف عن الأسباب والنتائج لثورة الشهيد زيد بن علي، وثورة محمد «**النفس الزكية**»، وثورة إبراهيم «**أحمر العينين**»، وما رافق تلك الثورات من التداعيات والمؤثِّرات والمشاهد الدموية، وما كان من آثارها في القتل

والاضطهاد والإرهـاب الدموي، وأكَّد الفصل على اكتـواء الإمام بلهيب هذه الثورات.

**وكان الباب الثاني بعنوان: (معالم مدرسة أهل البيت عند الإمام الصادق).**

وقـد تكفَّـل ببيـان مفـردات وموضوعـات وأطاريح مدرسـة أهل البيت عليهم السلام بأبرز الفنون والثقافة المعرفية الشاملة.

فكان الفصـل الأول متخصصًا بـ**(الأبعـاد العلمية لدى الإمـام الصادق)** وتناول بالبحث المكثَّـف: موارد علم الإمام، وظواهـر علم الإمام، وأثر تلامذة الإمام في انتشار علم الإمام.

**وكان الفصل الثاني بعنوان: (علوم الشريعة الغرَّاء).**

وعرض بعمـق وتأصيل بعـد التمهيـد المنهجي للموضـوع لثلاثة معالم تتناول: **(أشـعة القرآن العظيـم)** و**(رحاب الحديث الشـريف)** و**(الفقه وأصول الفقه)** وقد اشـتمل موضـوع القرآن على جزء ممّـا أفاضه الإمام الصادق في توحيـد الله وولاية أهـل البيت، وتهذيب النفس الإنسـانية، وآيات الأحكام في فقه القرآن وقد اشـتمل موضوع الحديث الشـريف على ملامح مركَّزة من إشـراف الإمام على حركة تدويـن الحديث بعد المنع، وعلى مدارسة أحوال رجال الحديث بين الجرح والتعديل، وعلى دراسة مشكلة السـند، واختتم باختيار الألفاظ الجارية مجرى الأمثال في أحاديث الإمام الصادق عليه السلام.

واشـتمل الموضوع الأخير على مبحثين في الفقـه الإمامي وأصول الفقه.

وكان الفصل الثالـث بعنوان **(العلوم التجريبية)** وقـد أكَّد على أربعة مظاهر رئيسـية في حقل العلوم الصرفة هي الكيميـاء، والفيزياء، وعلم

الطبّ، وعلم الأفلاك والكواكب، وأشار إليها بضغط مكثّف كبير خشية الإطناب.

وفي الكيمياء أكَّد البحث سبق الإمام إلى ممارسة علم الكيمياء اكتشافاً وابتكاراً في ميادين شتى، تعهدت بدربة تلميذه جابر بن حيان الكوفي على ذلك.

وحققت القول فيما أبدعه الإمام من النظريات السائرة في الموضوع والتي أكَّدها العلم الحديث ببحوثه التجريبية بعد أن تناولها الإمام قبل ثلاثة عشر قرناً.

وكان موضوع علم الفيزياء رحباً في نظريات الإمام في نشأة الكون، وقانون الأجسام الصلبة، ونظرية الزمان والمكان ونسبتيهما، ونظرية الضوء، ونظرية أشعة الليزر، وخلق الإنسان والطبيعة الأرضية، وكان كل أولئك نماذج صالحة للاستدلال بذكرها على ما لم يذكر.

وكان (علم الطب) يرتاد ميادين اكتشاف المجهول من قبل الإمام، وآرائه وتوصياته وإشاراته في الأمراض الباطنية، وطب الأطفال والأمراض النفسية، والطب الوقائي. وأحال على الموسوعات في استقراء التفاصيل وكان الحديث عن علم الأفلاك والكواكب متناولاً لأبرز نظريات الإمام في الضوء والمسافات وجغرافية الفلك، وحركة الأرض، وتكوين الليل والنهار، وحياة الفصول الأربعة، وعوالم النجوم والسيارات بما يعتبر جديداً في عصره.

**وكان الفصل الرابع في الإنسانيات في مبحثين مهمين:**

**الأول:** مبادئ الفلسفة والأدب والنقد التاريخي والتطبيقي.

وتناول بالبحث المركز مشاهد وظواهر من أفكار الإمام في الفلسفة الحقة ومبادئ الحكمة والرياضة النفسية ورأي الإمام في مواكبة الأدب للعلم في مسيرته، ونظرية الإمام المنهجية في النقد التاريخي، ونظريته في النقد التطبيقي وفق ما توصل إليه النقد الحديث في أوروبا.

وكان المبحث الثاني بعنوان (**السلوك العرفاني ومجابهة الحياة الاجتماعية**) وقد حقق القول المركّز في نظرة الإمام إلى التناقض السلوكي في عصره نتيجة التراكم التاريخي، والموروث السياسي المتخلِّف، وأوضح البحث توجه الإمام في الدعوة إلى تداول الطيبات من الرزق، وإبراز أثرها في التنعم، وأداء حقها بشكرها، ورأي الإسلام في إباحتها من الحلال.

وتناول البحث موقف الإمام الصارم والحاسم من الدعوة إلى الفرار من الحياة والتهرُّب من الواقع الاجتماعي بتوجيه صوفي بعيد عن المحتوى الإسلامي وحياة التقوى والاندماج في صفوف الأمة.

وعرض البحث إلى مشاهد من مظاهر الإمام في تجملّه وأناقته والعناية بالمظهر العام، والتأكيد على النظافة والزينة والوقار.

وقارن البحث بين الزهد وحياة العزلة الاجتماعية، وأبان عن مكنون علم الإمام وهو الزاهد الحقيقي؛ بمفهوم الزهد والتقشُّف دون الشطحات الصوفية، وركب التصنع والانحراف بذلك.

وأعطى البحث مفهوماً عصرياً جديداً لعلم العرفان عند الإمام رفض فيه الثنائية والتثليث وأكد فيه مبدأ التوحيد الإلهي، وهذّب من نزعات الغلوِّ والتطرُّف والإفراط في هذا الاتجاه.

ومن ثم كانت خاتمة البحث.

ولا أدّعي لهذا الكتاب الكمال والإحاطة والاستيعاب، فالكمال لله وحده، والإحاطة لا يحقّقها هذا البحث القائم على النماذج لا الإحصاء، والاستيعاب لايدرك أمده مع هذا السيل المتدافع من المخزون الإنساني العريض لدى الإمام الصادق عليه السلام، وكل أملي أن يشارك هذا البحث في إلقاء بعض الضوء على مسيرة الإمام العلمية الرائدة، وأن نقتبس منها ذلك الألق المتموّج الوهّاج الذي يهدينا السبيل إلى منهج أهل البيت في الهدي والأثر والعلم والإضافة الإنسانية في حقول المعرفة.

سائلاً المولى عز وجل أن يجعل هذا الجهد المتواضع في ميزان الأعمال الصالحة يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

وما توفيقي إلا بالله العليّ العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

**النجف الأشرف**

**محمد حسين علي الصغير**

# الباب الأول

# الإمام الصادق وآفاق عصره

* الفصل الأول: الإمامُ عبقرياً.. في قيادتِهِ للأمة.
* الفصل الثاني: الإمامُ في خضمِّ الأحداثِ السياسيةِ.
* الفصل الثالث: الحياةُ الفعليّةُ وظواهرُها الاجتماعيةُ.
* الفصل الرابع: الكفاحُ المسلّحُ ورؤية الإمام الإستراتيجية.



# الفصل الأول

## الإمامُ عبقرياً.. في قيادته للأمة

* البداية المشرقة.
* الإمام وريث مدرسة أهل البيت.
* البيئة العلمية المتطورة.
* صدى الأجيال.
* أضواءٌ من خصائص الإمام.





# البِداية المُشرِقة

الإمام أبو عبد الله: جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن الإمام الحسين سيِّد الشهداء بن أمير المؤمنين وسيِّد الوصيين الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام.

نسبٌ كأن عليه من رأدِ الضحى
ألقاً.. ومن فلق الصباح عموداً

***

ولد في المدينة المنوَّرة في السابع عشر من ربيع الأول عام ٨٣ من الهجرة النبوية.. وقيل في غرّة رجب عام ثمانين من الهجرة.

وتوفِّي في الخامس والعشرين من شوال عام ١٤٨ من الهجرة. فعلى القول الأول يكون عمره الشريف ثلاثة وستين عاماً، وهو المشهور بين الإمامية. وعلى القول الثاني يكون عمره الشريف ثمانية وستين عاماً.

وأمه: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وهذا معنى قول الإمام الصادق عليه السلام: **«إن أبا بكر ولدني مرتين»**[1].

***

وليست مفاجأة اعتباطية أن يقترن ميلاد هذا الإمام بيوم ميلاد جدِّه الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالنبيُّ هو المؤسس لهذا الدين، والإمام هو المجدد.

وكانت البداية المشرقة أن ترعرع الإمام في منازل الوحي مضارب آبائه وأجداده، ودرج في معاقل الرسالة مهبط الروح الأمين، فانتهل من ذلك العباب الزاخر تلك العصارة التي نوّر بها الأجيال، وأطلّ منها على العصور رمزاً نابضاً في العلم، والإفتاء، والفقاهة، وأسرار الشريعة الغراء، وعوالم المعرفة الإنسانية في شتى حقولها، وأعمق مصادرها الأولى.

لقد أدرك الإمام اثنتي عشرة سنة من حياة جده العظيم الإمام زين العابدين عليه السلام، وهو ينشر العلم في الآفاق والأمصار، فتُشدُّ إليه الرحال، وتجثو بين يديه الأساطين، وهو في إفاضاته كالسيل المنحدر من الأعالي، يجيب هذا، ويسعف ذاك والمسلمون ـ زرفاتٍ ووحداناً ـ بين أخذٍ من عطائه والتماس من بركاته.

وفوق هذا.. ذلك الصفاء الروحي في السلوك، وتلك الإشراقة الرائعة في السيرة، فبقيت الخواطر شاخصة في ذهن الإمام، وذكريات الصبا حبيبة إلى النفس، قريبة من الإحساس الداخلي، ترسخ فيها القيم

---

(١) قارن بين الأقوال في كل من: الكليني، أصول الكافي ١/ ٤٧٢، ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٩٩، الأمين العاملي: أعيان الشيعة ٤/ق٢/٨٩.

المتأصلة، وتصقل من نضارتها الناشئة، وتعيد الوعي الباطن إلى روحية فذة، ولا كبير أمر فـي تصور هذا الفتـح المبين، فالإمـام من جده عن قرب وعن كثب، في إلفِ هادٍ يرصد الإحاطة بحقائق الأشـياء، ويلتمس الإضاءة في طريق السالكين، فقد ألف منه: طلاقة المحيا، وهيبة الإنابة، وصدق العبادة، وفلسـفة الدعاء الزكي، ورصد من جده: صدقات السـر تصل في الخفاء وتمرس أصناف الرفق بالضعفـاء وذوي الحاجة، ورأى أفواج المتعلمين، وعايش طبقات القرّاء والفقهاء والمحدثين.

في هـذا الأفق المتمـوج بأضوائه اللامعـة، صحب الإمـام الصادق في صبـاه أقرانه مـن المتأدبين، وأحيا نشـأته الوادعة في إحيـاء المبدأ والصلابة: عمـلٌ هادفٌ لا تشـوبه مغريـات الحيـاة، وعقيـدة متأصلة لا تخامرها الشـكوك، وواقعية نضـرة لا جفاف معهـا، وتنفس الصعداء وهو يرى تبتل جده من جهة، ولوعته لمذبحة كربـلاء الرهيبة من جهة أخرى، فالإنابة لله تمتزج بالحزن والأسـى، والتضـرع الصادق يحتضن التواضـع في الـذات، والإصرار علـى النداء يقتـرن بالخلـق الرفيع في إعداد الإنسان.

وتكـررت لدى الإمام مشـاهد الدعـاء الخالـص، وتلاحقت أصداء النداء الخفي يطلقهما جدّه الحكيم، وهـو يصارع حكّام الزمان، ويجابه طواغيـت الأمة، فأرهـف لذلك سـمعاً واعيـاً، وأصغى له حسـاً ثاقباً، وعايشـه ميدانياً ومعاينة، فكان الصبي المميز للحدث الفاعل، والشاهد الناقد لمجريـات المنـاخ النضالي، ولم يكن هـذا التفاعـل ليتم بنظرة سـطحية عابرة، وإنما جـاء نتيجةً منطقيـةً لحدس ملهم، وذهـن وقّاد، وبصيرة نافذة.

هذه المشاهد المثقلة بالقيم النبيلة، ثبتت في قرارة الضمير لدى الإمام، فأحاطت به إحاطة القلادة بالجيد، فامتزجت أفكاره الناشئة بأفكار جدّه تسامحاً وإنابة وخشوعاً، فنهضت ذاته الشابّة تقتطف محاسن الشمائل، ودأبت مداركه الواعية تستلهم مآثر العلم الخالص، واستوعبت ملكاته مدارج النهوض التكاملي. وكان هذا الإمداد الوراثيُّ بداية الرعاية الحقة التي خلقت من الإمام جعفر الصادق عليه السلام رجل الرجال في المستقبل المنظور.

***

حتى إذا التحق الإمام زين العابدين عليه السلام بالرفيق الأعلى، وتسنم الإمام محمد الباقر عليه السلام سدة القيادة، وجده الإمام الصادق مجدداً لما اندرس من الآثار، ومشيّداً لما تضعضع من أركان الدين الجديد، ورآه معيناً من العلم لا ينضب، وسراجاً من النبوغ لا يخبو، وشعلة من النضال لا تنطفئ، وسائراً على المحجة البيضاء دون تردد.

ووقف الشاب المتطلع موقف المستضيء بهذا الفلق الهادي، وهو متكامل القابلية، متوازن الكفاية، متفتح الأسارير، يحتذي حذو أبيه فيما أسس، وينضم تحت لوائه فيما حرر، ويستجد معالم مدرسته الكبرى بما أصّل.

وكان الشاب المتحفز يترصد حياة أبيه بتوءدة وأناة، ويعي أبعادها المترامية بخبرة وتجربة، فأوحت له هذه المؤشرات بمؤهلات قيادية قادمة، وحصّنته بتجارب ريادية مؤثرة.

وكانت مميزات هذا الأب القائد أطهر من ماء السماء انسكاباً، وأنقى من النسيم الندي انسياباً، سلوكية مثلى مستقيمة، وسيرة ملائكية هادفة

وعطاءً ضخماً متماسكاً وأخلاقاً إنسـانية نابضة بالأدب والمواصلة والبرّ والإحسان، وعزوفاً عن الدنيا والجاه والرئاسة.

وكانت ظاهـرة الإنابة والإخبات لله وحده لا شـريك لـه، تدفع نحو أبيه بـآلاف الدارسـين المعنيين بشـؤون العقيـدة والديـن، رآهم وهم يقطعون فجاج البيـد للمثول بين يديه، وكان تفـرده بالعلم ـ وهو باقر العلم ـ يحدو بأبناء المسلمين من الأقاليم والقصبات على الهجرة إلى المدينة المنوّرة، للاغتراف من ذلك النمير الفياض.

وكان تمحض الإمام الباقر عليه السلام لتبليغ الرسـالة، وتفرغه لأداء الأمانة العلمية، قد عطـف عليه قلب الشـعب المسـلم، وجذب إليـه العقول تلقائياً، وعاد التلقي منه والأخـذ عنه، قائماً على قدم وسـاق.. جمهور إثـر جمهور، ورعيـل تلو رعيـل، والصادق عليه السلام يشـارك هـذا الزحف المقدس، وذلك النفر مـن الرجال، تفقهاً ودراية ومعـارف، ولكنه ينفرد عنـه بخصائص نـادرة في كل شـيء حتـى قال عنـه أبـوه عليه السلام: «**هذا خير البرية**»[1].

ولم يكن هذا القول الكريم وليد عاطفة أبويـة، ولا نتيجة ميول في النفس، وإنما هو المنطق الذي يقيد تصرف الإمام في القول والعمل.

وكانت إمامة الباقر عليه السلام قد امتدت قرابة عشـرين عاماً (**٩٥ ـ ١١٤هـ**) حدب الإمام الصادق على استثمارها، وغاص في أعماق كنوزها، فالتقط منها ما يشاء، بل اسـتوعب معالمها حذو القذة بالقذة، يضاف إلى ذلك كله: علمه اللّدني وفيضه الموهبي الذي لا يخضع في شـوارده وأوابده لمواصفات المقاييس البشرية.

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٣٠٦.

وأنت تجد الإمام الصادق عليه السلام في ظلال هذه اللمحات الخاطفة: سليل بيت النبوة بحق، ووريث مجد الشريعة المقدسة كابراً عن كابر، ضم بين برديه مآثر الحمد والسؤدد، واحتبك معاقد العز والشرف والكرامة، فهو ابن أبيه بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها، تربية ورفعة وكياناً، وهو شبيه جده رقةً وسلوكاً وموضوعية.

***

واعتلى الإمام الصادق عليه السلام مدارج الإمامة في الحقبة **(١١٤ - ١٤٨هـ)** وعرف بأبي عبد الله كنية[١].

واشتهر بالصادق لقباً[٢]. حتى عرف به، وأغنى لقبه عن اسمه، واشتهر به شهرة عظيمة، حتى كان له الصادق علماً «**وإنما لُقّب بالصادق لصدقه في مقالته**» ولأنه لم يعرف عنه الكذب قط. ويقال: إنما سمي صادقاً لأنه ما جُرِّب عليه قط زلل ولا تحريف[٣].

وكان خلقه المفضال، وصدره الرحب، وأدبه الرفيع، وتواضعه المحمود، مما رفعه بين الناس، وجعله رمزاً يقتدى به، وقد أجمع على ذلك أعداؤه قبل أوليائه، وشانئوه قبل أحبائه.

وهكذا شأن العظماء: حقيقة تتجاوب أصداؤها في المشرق والمغرب، وأمثولة يتأمل صورتها القريب والبعيد.

---

(١) الكليني: أصول الكافي ٤٧٢/١.

(٢) ظ: ابن الأثير الكامل: ٢٧/٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٠٥/١٠، الذهبي سير أعلام النبلاء ٢٥٥/٦.

(٣) قارن بين الأقوال عند كل من: أبو الفداء، التاريخ ٥/٢، ابن خلّكان: وفيات الأعيان ١/ ٢٩١، اليافعي: مرآة الجنان ١/ ٣٠٤، الأمين العاملي: أعيان الشيعة ٤/ ق٢/ ٩١.

هذا في شمائله الخاصة، ووصف في ملامحه العامة بأنه:

ربع القامة، أزهر الوجه، أشم الأنف، أنزع، حالك الشعر، رقيق البشرة، آدم اللون[١].

وهذه سمات مشتركة بين الناس قد يشاركه فيها غيره، فهو من البشر خلقاً ومثالاً، بيد أنه امتاز بخصائص ومميزات، وعرف بالتأهيل القيادي، ودرج في الإعداد الرسالي، حتى عدّ في حقيقته فتحاً بين الرجال، وظاهرة لن تتكرر من الأفذاذ.

وكان زهده في الحياة الدنيا مضرب المثل مع التجمل وحسن المظهر، وكان إعراضه عن الجاه والاستطالة مما عطف عليه قلوب الأمة، وكان تمحضه للعبادة مما وجه إليه أنظار الخلق، حتى قال أنس ابن مالك فقيه المدينة:

**«كان الإمام الصادق رجلاً لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إمّا صائماً، وإما قائماً، وإما ذاكراً».**

**«وكان من عظماء العبّاد وأكابر الزهّاد الذين يخشون الله ﷻ»**[٢] و**«كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرئاسة»**[٣].

وكان هذا المَعْلَم مؤشراً بارزاً في روحيته الفطرية، وقد أشار إليه ابن طلحة الشافعي، وأضاف أن الإمام:

**«ذو علم جم، وعبادة موفَّرة، وأوراد متواصلة، وزهادة بيِّنة، وتلاوة كثيرة»**[٤].

---

(١) ظ: ابن الصباغ: الفصول المهمة ٢٠٥، ابن شهر آشوب: المناقب ٣/ ٤٠٠.
(٢) الصدوق: الخصال ٧٩، المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/١٦.
(٣) سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص ٣٥١.
(٤) ابن طلحة الشافعي: مطالب السؤول ٢/ ٥٥.

وكان تواضعه مما زاده هيبةً ومنزلةً، وترسله مما أكسبه عِزَّةً ومنعةً، فهو يجالس الفقراء والضعفاء، ويعنى بالمساكين وذوي الحاجات، ويجلس مجلس الزهّاد حتى قال ابن تغري بردي: «**وكان من تواضعه أن يجلس على الحصير دون الفراش الوثير**»[1].

كل ذلك لئلا يزري بالفقير فقره، وبالضعيف عجزه، وكان نكرانه للذات، ورفضه للاعتبارات الزائلة، من أبرز خصائصه النفسية جبلة وإرادة، ومن أهم شمائله تكويناً وإثارة، فهو من الأرض وإلى الأرض، حتى إن رجلاً من السواد كان يلازمه، والإمام في معشرٍ معه، يقربه ويدنيه، فافتقده يوماً، وسأل عنه، فقال رجل مستهيناً به: إنه نبطي.

فردّ الإمام بالقول: «**أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، وكرمه تقواه، والناس في آدم مستوون**» فاستحيا الرجل.

وكانت مكارم أخلاقه في المستويات كلها؛ مدعاةً للإكبار والإجلال، وهي تبدو في تعامله مع الناس، وتغافله عن أخطائهم، وصبره على مداراتهم، وسعيه في حاجاتهم، ودرئه لمشكلاتهم، والاندماج بسائرهم، فهو معهم كأحدهم، له مالهم، وعليه ما عليهم، مسلِّماً لله في الشدة والرخاء، متوجهاً إليه في السرّاء والضرّاء، هذا مع سمت الصديقين، وشمائل الأبرار.

ولك أن تستقرئ نقاء سريرته من حسن سيرته، مما تتكفل بإلقاء الضوء عليه صفحات هذا الكتاب، على أن العرض لها جاء موجزاً، والإشارة إلى ملامحها سريعة، لأن القضية المركزية لهذا الطرح هو زعامته لمدرسة أهل البيت العلمية والريادية والتشريعية، بيد أن هذا

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٧٦.

الانتظام التركيبي في نفسية الإمام وسلوكيته قد يتأثر به هذا العرض الموضوعي، يضاف إليه ذلك العطاء الضخم للإنسانية في شتى الحقول، مما كان به الإمام رائداً «**والرائد لا يكذب أهله**».

وهكذا كانت البداية المشرقة لزعيم مدرسة أهل البيت.

## الإمام وريث مدرسة أهل البيت

نشــأ الإمام الصــادق عليه السلام ـ فيمــا ألمحنا إليــه ـ دارجــاً في ظل مدرستين عملاقتين، سبق الحديث عن أبعادهما في عملين مستقلين.

هاتان المدرســتان ـ دون مغــالاة ـ عصارة الحضارة الإنســانية في اســتقراء علم الأوليــن والآخريــن، لأنهما تتفجــران من مورد الســماء، وتتصلان بصاحب الرســالة (ص) وصاحب الرســالة يتلقاها من الله عزّ وجلّ بوساطة الروح الأمين.

وفي حالة اســتقراء المناخ العلمــي المزدهر لهما، لابد من الإشــارة إليهما اســتطراداً، لتواصل الأفق المعرفي بهما، وتعميم أثرهما في آفاق مدرســة الإمام الصادق عليه السلام وهي تســتوعب معالم التشــريع الإسلامي، وتتولــى ثقافة الأجيــال، وتتبنــى تطوير الشــعوب لدى تزعمها رئاســة الفكر الإمامي.

ونظرة فاحصة في تراث هاتين المدرســتين، توحي بأنهما لم تكونا تقليديتين ولا اعتباطيتين، بل وجدنا فيهما انفتاحاً نموذجياً على مناحي الحيــاة والعالم المتحضر، ولمســنا بوضــوح انطلاقاً خلّاقــاً نحو الأفق اللامحدود فــي العطاء والإثــراء، واســتقبالاً متوهجاً للظواهــر العلمية،

وشاهدنا عن كثب استيعاباً موضوعياً متأصلاً لمفردات موسوعية هائلة في ظل معارف أهل البيت السائرة.

هذه الملامح، وإن ركزت على العلم التشريعي فهو هدف مركزي لها، إلا أنها لم تقف جامدة باهتة إزاء عصر الترجمة والامتزاج الثقافي بين الأمم، بل وجدنا تجاوباً فاعلاً وتلاقحاً فكرياً حذراً مثّل ذلك: الاستبسال الشجاع في وجه المقالات الخارجة عن روح الإسلام، طالعتنا به فلسفة الفكر الواعي في إنقاذ الأمّة من متاهات الغلو والزندقة والانحراف العقائدي، وأوصلتنا إليه مهمة العودة بالضمير الإسلامي إلى واقع الرسالة وهو ما نهض به الإمام الصادق عليه السلام وأتباعه وأصحابه وتلامذته في حملات كبرى أغمض عنها التاريخ طرفاً، وضرب عنها الرواة صفحاً، وتجاهلتها كتب السنن والصحاح لاهثة وراء الهراء.

إن الانفتاح الكبير لدى القيادة الرائدة التي أمسك بزمامها الإمام الصادق عليه السلام هو الذي دفع بالأمة إلى شاطئ الأمن والسلام، لأنها تعيش حرية مطلقة في رفضها التعاون مع الحاكمين، فهي - إذاً - غير مرتبطة بعقود مالية، وليست مقيّدة بالانصياع لأوامر الطغاة، بل مثلت الاستقلالية في الفكر والعمل، وبدأت تخوض معركة فاصلة متواصلة الأعداد بين قوى الخير المستضعفة، وبين القوى الطاغية المتهورة، ولم تكن هذه المعركة متكافئة في الفرص والإمكانات، ولكنها حثيثة في إرادة الإصلاح الديني والتغيير الاجتماعي، نتيجة منطقية لمبادئ قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام فمدرسة زين العابدين (ع) التي أشرنا إليها امتداد طبيعي لمدرسة أبيه في النضال المستميت والنصر المستقبلي، وانتداب تأريخي لمدرسة عمه في التخطيط الرسالي، واستثمار

موضوعي لمدرسة جده أمير المؤمنين عليه السلام في العلم والتقوى والكفاح المسلح والعدل الإنساني.

لهذا وسواه فقد وجد البحث أن مدرسة الإمام زين العابدين عليه السلام تمثل خلاصة التجربة النضالية الشاقّة لدى الإمامين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، وتجسّد الثبات الصارم لدى أمير المؤمنين والعلم المستفيض، وبهذا فقد اجتمع فيها من التفوق النوعي ما لم يجتمع بمدرسة أخرى، حيث ارتبط الفكر بالفكر، والوعي بالمعرفة والدين بالسياسة ببركة وتصميم القيادات السابقة، فأطلت بأشعتها الذهبية المتموجة على العالم، وهي تحمل الشعلة المتوهجة لإنقاذ البشرية من الجهل والظلام وعصور التخلف الاجتماعي، فنهضت بالمهمّات الصعبة في نشر المعارف الحضارية كافة، وانفتحت على حياة رسالة السماء تحتضنها بقوة وثبات واقتدار، فقدمت القرآن أداءً وفهماً وتفسيراً، وأكبت على استكناه السنة في الفروض والتشريع، وحدبت على العلم النافع، واستخرجت ذلك كله من معادنه المتجذرة في التفقه والاستنباط، وتسلمته من ينابيعه الأولى تراثاً ومدارسةً.

إن هؤلاء الروّاد الأوائل يمثلون حركة التأسيس الصلب لقواعد المنهج والتبليغ والأصول لمدرسة أهل البيت التي ارتبطت عوالمها بأشخاصهم في التلقي والإفادة والانتشار، فكانوا المثل الأعلى في الموسوعية والأصالة والابتكار، وهو ما استند إليه زين العابدين في قيادته على حين من التكامل الرسالي، في الوقت الذي تخمد فيه الأنفاس وتحتبس الأصوات، مما يضفي طابع الاعتداد في تحمل أعباء المسؤولية.

ولك أن تبحث عن شخصية هذا الإمام الذي أنحلته العبادة حتى عاد كالشنِّ البالي ـ على حدّ تعبير الرواة ـ لتجده نموذجاً عجيباً في النضال السلبي والإيجابي بوقت واحد، وهو يواجه ضراوة العنفوان الطاغوتي لجبابرة الملوك الأمويين والأمراء والولاة.

وبحسبه أن يسبق العالم المتحضِّر إلى تبني حقوق الإنسان، وأن يغطِّي بمعطياته على الثورة الفرنسية في لوائحها الإنسانية، وأن يطاول الأمم المتحدة في مقرراتها الدولية لصيانة حياة الشعوب، وأن يستأثر بقراراته العالمية بالتخطيط الشامل لإنقاذ الإنسان من العسف والظلم والتمييز العنصري، في حين يأخذ بعضده إلى حياته المثلى في الصدق والبرّ والكيان العائلي والحقوق المتبادلة بين الخالق وعبده، والعبد ونفسه، والنفس وأعمالها، مما يعدّ ـ بجدارة ـ أطروحة إنسانية تجمع بين الدنيا والآخرة، وهو ما تخلو منه، وتفتقر إليه جميع المقررات الدولية التي اهتمت بعنصر الحياة ليس غير.

يضاف إلى هذا كله تلك النسمات الهادئة من الدعاء في الخلوات، وتلك النفحات الروحية لأعمال الليالي والأيام، وتلك الصرخات المدوّية من الاحتجاج الهادر في صحيفته السجادية.

إن الطرح الموضوعي الذي قدمته مدرسة زين العابدين لحفيده الإمام الصادق، ليعدّ ـ بحقٍّ ـ لبنةً أساسيةً متماسكةً في بناء الصرح الجامعي الأصل لمدرسة أهل البيت، وكان هذا الأنموذج الفريد في أضوائه اللامعة من الركائز التي قام عليها هذا الصرح الشامخ.

حتى إذا انفرد الإمام محمد الباقر عليه‌السلام بثقل الإمامة، واستقلَّ بعبء قيادة الأمة، وجدناه ـ دون مبالغة ـ منار الأمم، وعملاق الشعوب،

وشـهاب الإشـراف العالمي؛ فقد تفرغ في حقبة إمامتـه المباركة لبعث التراث، وإحياء معالم الشريعة الغراء، وتجديد الحضارة الإسلامية، وبناء حقوق الإنسـان، واسـتيحاء القرآن العظيم فـي علومه وتفسـيره العام، واستلهام فقهه وقصصه وأمثاله وكشف تراكيبه ودلالة ألفاظه، واستنباط معنى المعنى والمعنى الثانوي، ورأيناه يحتضن مدرسة الحديث النبوي، وييسـّر ركب الفقـه الإسـلامي. ويبتكر قواعـده العامة، ويؤسـس علم الأصول، ذلك كله فـي خطوات وئيدة بنّاءة، وتخطيـط منهجي متوازن، وفكر ثاقب متفتح.

وكانت مدرسـته السـيّارة متسـعة المضارب على نضائـد التحضر العالمي، فقصدها المسـلمون بلهفـة ورغبة ملحّة، ونهلـوا من معارفها فرادى وجماعات، وضمت إليها الجيل المثقف من شـتى أقطار الأرض، ووسـعت دائرتها لتشـمل وجوه التابعين وأئمة المذاهـب، فكان الإقبال شـديداً متحفِّـزاً، والشـباب مهيئاً للأخـذ والتلقـي، والبعثـات تتوالى كثرة واسـتزادة، والمعلومات النادرة تنصـبّ انصبّابـاً، وإفاضات الإمام تنثال انثيالاً.

وكان رؤسـاء الديـن يجلسـون بين يديـه جلسـة المتعلـم، وروّاد الحديث يتهافتون على اسـتقبال الرواية، وفلاسـفة الإسـلام يتزاحمون في موقع الإفادة، وكان المتكلمون في حيـاة عقلية جديدة، والفقهاء في إمداد فقاهتي متواصل، والكل يحيا حقبته الذهبية، ويقترب من حضيرة التيقّـظ الفكري، والفـرص متكافئة للجميـع، وهم بين عالـم ومتعلم، وسائل ومتكلم ومستخبر ومترجم، والإمام يقذف من ذلك البحر المائج جواهر أفكاره، لآلـئ آرائـه، فيلتقط تلامذتـه شـذرات المعرفة، حتى

أشير إليه بالبنان متفرداً، وعاد حامل لواء الإسلام، ومصدر الدراسات الفكرية العليا.

وإن العلم ليقف عن الجري في متابعة الرافد العلمي للإمام الباقر عليه السلام وحسبنا الإشارة إلى قول الثقة الأمين محمد بن مسلم الثقفي الطائفي:

**«ما شجرني في قلبي شيء قط، إلا سألت عنه أبا جعفر عليه السلام، حتى سألته عن ثلاثين ألف حديث، وسألت أبا عبد الله عليه السلام عن ستة عشر ألف حديث»**(١).

وحسبه فخراً ـ وهو قائد الفكر الإمامي ـ أن ناظر المعتزلة والمرجئة وأهل القدر والخوارج، فأذعنوا له، وجثموا بين يديه، فما أدركه سابق، ولا سبقه لاحق، فكان له قصب السبق في ذلك كلِّه.

وكان الإمام الباقر عليه السلام داعيةً حقاً، فلم يكن له أن يريح أو يستريح، ولم تكن مسؤوليته لتسمح له إلا بالعمل المثمر والسعي الجادّ، ولم يكن شعوره النابض بضرورة إعادة التراث حيّاً، ليكتفي منه بالنظرة العابرة للثغرات التي تنخر في بنية التشريع الإلهي دون الاستنفار بقواه العقلية لمقارعة الجهل والتخلُّف والأنانية، فكان جهده المضاعف يستدعي نشاطاً متلاحقاً، وكان هذا النشاط متمثلاً باستدرار إفاضاته متتابعة بين أطناب المعاهد العلمية، وصروح مدارس الإسلام، وهكذا كان، فبدأت سحب الجهل بالانحسار لدى طبقات المتعلمين، وتكثف الجهد الإضافي في البحث والتدوين والتنقيب، فأُشحذت القرائح والذهنيات، وتفتحت الأفكار عن مصادر جديدة في الثقافة بعامة، وحضارة الإسلام بخاصة.

---

(١) ظ: الشيخ المفيد: الاختصاص ٢٠١، الكشي: الرجال ١٠٩.

إذا نظرنا هذا المحتوى المشـرب علماً وعملاً.. وضح لدينا الطريق لاسـتقراء حياتية الإمام جعفر الصادق، ونشأته العلمية الرائدة، مما يدفع كلَّ المعوقات عن الرؤية المهذبة، فبدا في الذروة من البعث الإسـلامي، ولاح فـي القمة مـن الإحياء التراثـي، وتبـوأ مقعد صدق فـي اللحظة الحاسمة، وتراه عند ذاك قد شمّر عن سـاعديه للذبِّ عن حياض الشرع المقدس، ونصب نفسـه علماً شـاخصاً فـي كيان الأمة، حتـى قال إمام المذهب المالكي مالك بن أنس:

**«ما رأت عينٌ ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، أفضل من جعفر الصادق.. فضلا وعلماً وعبادة وورعاً»**[١].

وكان سـمته الخارجـي، ووقـاره وهيبتـه مـن الدلائل علـى ذاتيته وداخليَّته، معبـرةً عن الأصل السـامي بما تحدث عنه أبـن أبي المقدام بقوله: **«كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين»**[٢].

وكانت موسـوعيته في شـؤون العلم تصبّ في بحر متعدد الروافد، وتصدر عن نبع زاخر بمعارف سبقت عصره في كل معطياتها الجديدة.

وغنيٌ عن البيان ما أمدّ به الإمام الصادق عليه السلام الدراسـات العليا في الإسلام بالتفسـير وعلوم القرآن ومعالم الحديث والدراية، وعلمي الفقه وأصوله، وما طوّق به عنق البشـرية الزاحفة من المنّة في تفصيل القول بالعلوم التجريبية والصرفـة، كالفلك، والنجوم، والهندسـة، والكيمياء، والفيزيائية، والأحياء، والطب الوقائي، والتشـريح، والطب العام، وسوى ذلك مما أصّله في الاكتشاف والريادة والإبداع.

---

(١) ظ: ابن شهرآشوب: المناقب ٤/٢٠٠.

(٢) النووي: تهذيب الأسماء واللغات ١/١٤٩.

إن أعرق المدارس الأوروبيـة حضارةً لا تسـتطيع ـ بكل حوافزها المتوافرة ـ الإحاطـة بأغوار الإمام الصـادق في مخزونـه العلمي، وإن أبلغ الناطقين بالضاد ليس بمقدوره التعبير عن تجارب الإمام المعرفية، وهي تنبض بالحـس والحيـاة والحركة، فتجتـاز موطنهـا الأصلي في المدينة المنورة لتشـمل مسـاحات كبيرة من الأقطار والأقاليم، فتتوهج باللمعان لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وهي تصدر عن رجل خشن في ذات الله، مرنٍ في معاشـرة الأصفياء، متسـامح في مواصلة الأعداء، بسيط في عيشه وإدارته، كريم في بيته وساحته، عزيز في نفسه وأسرته، غزير في علمـه وفضله، كثيـر في تلامذتـه وطلابه، رقيـق في صلاته ومعاملاته، دقيق في توجيهه وتسـديده، ذلك هو الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

وليس جديداً أن نذهب بالقول إلى أن الإمام الصادق زعيم مدرسـة أهل البيت عليهم السلام في أبعادهـا المتجدِّدة، فقد دخل التاريـخ من كلِّ أبوابه وهو يجـدد ما انـدرس من معالم التشـريع، ويحيي سـنن المرسـلين، ويعيد إلى الديـن بهاءه ونضارتـه في مهمـة علمية صلبة لا تسـتلين، وثابتة لا تتقهقر، حتى اسـتدرك متاهات الجهل بظواهر العلم، وتوسـع في موضوعاته توسُّـع الأكفاء، وتبحَّر في مداركه تبحر الأسـاطين، ولا غرابـة بذلك، فهـو الوريـث الشـرعي لعلم السـابقين، وهـو المصدر الرئيسـي لتراث جده رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كان ذلك بما أتاحته له الظروف في سـعة من الزمان، وانفراج في الأزمات بحدود ليسـت بالقليلة عدّاً، ولا بالممتدة زمناً، ولكنها بين بين، فاستطاع إرساء قواعد هذه المدرسة بمفرداتها الضخمة التي اسـتوعبت الماضي والحاضر والمسـتقبل فكراً ورجالاً وأطاريح.

ولـم تتقوقع هذه المدرسـة علـى ذاتها، بـل امتد عطاؤها بسـخاء ليشمل أبناء الإسـلام أنّى كانوا، فإذا توقفنا قليلاً عند مسيرة المذاهب الأربعة وجدنا الإمام الصادق هو الرافد الأصل لمنابعها الثرة.

فقـد كان الإمام أبو حنيفـة: النعمان بن ثابـت (ت ١٥٠هـ) من رعيل تلامذة الإمام حتى قال: «**لولا السنتان لهلك النعمان**»[(١)].

يشير بذلك إلى حضوره عند الإمام لأخذ العلم، والتفقه في الدين، فتخرج عليه قائلاً: «**ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد**»[(٢)].

وعلى أبي حنيفة أخـذ الإمام مالـك (ت ١٧٩هـ) وعلـى مالك أخذ الإمـام الشـافعي (ت ٢٠٤هـ) وعلى الشـافعي أخذ شـيخ الحنابلة الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

وعلى هذا، فالإمام الصادق أستاذ الأئمة دون منازع.

* وليس هذا رأياً نحن ابتدعناه، ولا أمراً نحن ابتدأناه، وإنما سـبق إليـه الحفّاظ والـرواة والمحدثـون والمؤرِّخون، فذكر ابـن أبي الحديد المعتزلي: «**إنّ فقهاء المذاهب الإسـلامية قد أخذوا علمهم عن الإمام الصادق بطريق مباشـر أو غير مباشـر، لأن أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسـف ومحمد (بن الحسـن الشيباني) وغيرهم قد أخذوا عن أبي حنيفة، وأمّا الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفـة، وأمّا أحمد بن حنبل، فقرأ على الشـافعي، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد**»[(٣)].

---

(١) ظ: التحفة الاثني عشرية: ٨.
(٢) ظ: الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢/٩.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١/١٨.

وقد نسي ابن أبي الحديد الإمام مالكاً، ومالك نفسه يتحدَّث عن اختلافه إليه، وأخذ العلم على يديه، فيقول:

«اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال:

إمّا مصلٍّ، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته يحدّث إلا على طهارة»[١].

لهذا ذهب الرواة إلى القول عن الإمام: «**قد حدّث عنه الأئمة**»[٢].

كذلك قالوا: «**واحتجّ به سائر الأئمة**»[٣].

والمراد بالأئمة وسائر الأئمة: أئمة المذاهب الأربعة وسواهم.

يقول الأستاذ الجليل محمد حسن آل ياسين:

«**والتفّ حول هذا الإمام العظيم؛وارث وحي السماء وأسرار التنزيل - وهو الذي اتفق الجميع على كونه أوحد زمانه في كلّ العلوم، وفي مقدمتها التفسير والفقه والحديث - علماء الإسلام وطلاب الدين، وروّاد الفكر، وعشّاق المعرفة، فتجاوز عدد الرواة عنه، والمغترفين من بحره أربعة آلاف راوٍ ومستفيد، وفيهم من أصبح معدوداً مِن المشاهير على كلِّ صعيد**»[٤].

هذه العالمية في ممارسات الإمام العلمية، واتساع رقعة ذلك جغرافياً وبلدانياً يترجمه لنا مغزى قول ابن حجر الهيثمي:

(١) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠٤/٢، المجلسي: بحار الأنوار ١٦/٤٧.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٥٧/٦، الشبلنجي: نور الأبصار ١٣٣.

(٣) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠٤/٢، الذهبي: تذكرة الحفاظ ١٦٧/١.

(٤) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ١٠٢.

«نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان»[1].

وكانت طبيعة توجه الإمام منطقيةً في حساباتها الإستراتيجية...

فالعباسيون ـ وقبلهم الأمويون ـ لا يسمحون بأيٍّ نشاط سياسي مهما قلّت قيمته الفاعلة، ولا يرغبون بسيادة العلويين لفصائل المجتمع إلا ما أرغموا عليه، والإمام بين الأهم والمهم، بين أداء الرسالة ـ وهي الأهم ـ وبين تولي القيادة ـ وهي المهم ـ فرأى أن التكليف الشرعيّ ـ وكل إمام من أئمتنا يتحرك من خلاله ليس غير ـ يقضي باختيار الأهم ولا سيما أن الإعداد الجهادي غير متوافر الأسباب، ولا متكامل العدّة، ولا يساعد عليه الأفق العام، وهذا يعني أن الاتجاه لتسلّم السلطة والحكومة يفضي إلى سفك الدماء دون الحصول على الأهداف المعلنة أو الخفية، فكان الأسلم عقلاً، والمتعين شرعاً، أن يضرب صفحاً عن التحرك السياسي، هذا في المنطق الأولي لأيديولوجية الموازنة بين القوى، أما كونه إماماً معصوماً فتلك قضية أخرى، يقرر في ضوئها الإمام برامجه كافةً، وليس لأحد الاعتراض والإشارة بخلاف ذلك، فهو من مختصات الإمام وحده، نعم، على أوليائه ومستشاريه أن يشيروا وعليه أن يرى، فإذا رأى أمراً كان ذلك هو القرار.

لهذا كان توجُّه الإمام واضح المعالم، وخطواته ظاهرة السمات، فهو يخوض غمار العلم الهادف، وهو يدرّب تلامذته على اصطفائه، وهو يغزو الفكر المضادّ بفكر مثله، ويقابل الفلسفة بفلسفة أعمق، ويعبّر عن آرائه بيسرٍ وسماح، ويتعقَّب مستجدّات العلوم ليثبت فيها

(١) ابن حجر الهيثمي: الصواعق المحرقة ١٢٠.

نظره، وهو في حجاجه وجدله يرفض المنهج التحاملي ويدعو إلى التريث والحكمة في ضوء المنهج الإقناعي، ويلتزم جانب الصمت مع الجهلة، ويتابع الحوار مع الأقران، حتى دان له القاصي والداني بالعلم، يقول اليعقوبي:

**«وكان أفضل الناس، وأعلمهم بدين الله، وكان أهل العلم الذين سمعوا منه، إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم»**(١).

وكان الإمام قد احتوى طبقات الدارسين في حلقات بحثه العالي، واستقطب صفوة العلماء النابهين يقول الأستاذ أبو زهرة: **«والعلماء الذين عاصروه، والذين جاؤوا من بعده، وصفوه بأنه في الذروة من العلماء، واعترفوا له بالإمامة في فقه الدين»**(٢).

وكانت حياته العلمية حلقة مفرغة تستأثر بمصادر العلم الإلهي، وقد روي عنه أنه قال:

**«والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره، كأنه في كفي، فيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان، وخبر ما يكون، قال الله ﷻ: فيه تبيان كل شيء»**(٣).

وقد استثمر طلابه هذا العطاء الضخم، وتجمعوا حوله، فكانوا أربعة آلاف بين راوٍ ومحدّث، وفقيه ومتكلم، وفلكي ورياضي، وواعظ ومتعظ، ومشتغل بالعلوم التجريبية والمختبرية، ومتطلع لفلسفة الإغريق ومترجم، وباحث في القرآن ومفسِّر.. وهكذا وهو يطمعهم في نفسه، ويحثُّهم على الاستزادة من علمه ما دام حياً، ويدعوهم إلى

---

(١) اليعقوبي: التاريخ ٣/١١٥.

(٢) محمد أبو زهرة: الإمام الصادق ٤.

(٣) الكليني: أصول الكافي ١/ ٢٩٩.

مســاءلته وحديثه، وقد روي عنه أنه قال: «**ســلوني قبــل أن تفقدوني، فإنه لا يحدِّثكم أحــدُ بعدي بمثل حديثــي**»[1] وعبارة «**ســلوني قبــل أن تفقدوني**» كبيرة جداً، حتــى ذهب الأعلام إلى أنه مــا قالها أحد إلا افتضــح، لأنها عامة غير مخصصــة، ومطلقة غير مقيدة، فهي تعني الســؤال عن كل شــيء، وهذا ما لا يســتطيعه إلا المســدّد بقــوة غيبية، فهو من شــأن أئمة أهل البيت وحدهــم، وكان الإمام علــي أمير المؤمنين عليه السلام قــد أطلقها عدة مرات فيما يروى.

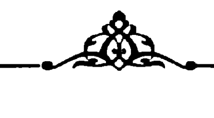
ومن كان في هذه القدرة الخارقة على احتواء شــرائح العلم شاملة، كان جديــراً بوراثــة مدرســة أهــل البيــت عليهم السلام وكان حريّاً بقيــادة هذه المدرسة في أبعادها الموسوعية الشاسعة، ولمّا كان الإمام قد تفرغ فعلاً لزعامة هذه المدرســة. والتي قد تســمى: «**جامعة أهل البيت**»، وهي أكبر من جامعة وجامعات، ونحن لا نريد هذا المعنى في طرحنا لذلك، وإنما الذي فرض علينا أن نســميها (**مدرســة**) لأن مبتكر كل فن، ومبتدع كل نظريــة، وذا الثقافة الموضوعيــة العريضة، والمتمــرس بالعلوم العظمى: يعتبر صاحب مدرسة ومؤسس مدرسة، ومدرسة وحده.

ولمّــا كان الإمام جعفــر الصادق عليه السلام مبتكــراً، ومنظّراً، ومتمرســاً، وصاحب نظريات عدة، وذا ثقافة موسوعية فهو صاحب مدرسة.

ولمّــا كان أهل البيت عليهم السلام أصــل المعارف الإلهية، وينبــوع الموارد التشريعية، ورمز البعد الحضاري الإنساني، فكلٌّ منهم: صاحب مدرسة. وقد انتهت زعامة هذه المدرســة إلى الإمام الصادق، حامل لواء العرفان، وبطل العلم غابــره وحاضره، وســراج الدنيا في الإشــراق الفكري، بما

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٧.

طرحه من ثقافات متنوعة، ومــا امتاز به من تطوير الحيــاة العقلية، وما انفرد به من خلق العلمــاء وقادة الأمة وجهابذة العلــوم، وما أثر عنه من الآراء والنظريات والمشــاريع والمنطلقات والفنون، وما خلّفه من التراث العظيم، وما أنجبه من التلامذة الميامين، حتى عــاد في ذاته كياناً علمياً محضاً لــه خصائصه ومميزاته واســتقلاليته، كما ســترى بعض هذا في اســتطراد منهجي، لبيئته العلمية التي أذكت في ذهنه شــعلة الوعي في عهد مبكّر.



## البيئة العلمية المتطورة



واتسمت نشأة الإمام الصادق عليه السلام وهو في عنفوان الشباب، بالظواهر المتطورة التي اصطبغت بها بيئته العلمية، وشاع من ذلك ما تجاوز به الحدود الخاصة إلى المعرفة العامة، بما أسفر عنه التلقي اللامع من آفاق جديدة في الريادة والمنطلق، حتى اعتبر فيها المبتكر الأول والمؤسس القائد.

وكانت عوامل النبوغ وملامح الذكاء المفرط، تذكي حرارتها في نفس هذا الشاب المتحفز، وخصائص الوراثة المباركة تضفي أشعتها الزهراء على ملكاته وخواطره النابضة، بالحسّ والحياة، والإحاطة المستوعبة للجزئيات المتناثرة في المناخ الثقافي توحي بالشمولية المكتسبة جداً وتحصيلاً.

وقد ظهر من هذه الموجات المتدافعة في تيارها المعرفي الزاخر، ذلك الشعاعُ الهادي الذي ارتفع بمستوى عطائه إلى الذروة، يضاف إلى هذا كله شخصية الإمام في القيادة، فهي تفرز بقابليتها مظاهر الزخم الحضاري، فتزيده إقراراً ورسوخاً، وهي تقدر بحساباتها الدقيقة المضنية مدى الإفادة من مراحل الفكر المتدرجة لإضاءة درب السائرين في الرحلة إلى استقراء المجهول، ويضاف إلى ذلك أيضاً

تلك المميزات الراسخة في تراث الإمامة علماً وفضلاً وإيحاءً ونفحات قدسية، لأنها لا تخضع لما ألفنا من معايير ومقاييس، حتى إذا بلغ المدّ العلمي إلى القمة، كان الإمام في الأعالي وقد أشير إليه بالبنان، وهو ما جعله يحتل المركز الأسمى في تاريخ الإمامية، حتى قيل: المذهب الجعفري.. والفقه الجعفري.. والفكر الجعفري.. والقضاء الجعفري.. وفلسفة الصادق.. ومدرسة الصادق.. وأصحاب الصادق، مما يطول معه التعداد، إلا انه يكشف عن عباقرة الإسلام، والصادق منهم في الرعيل الأول المتقدم.

إن نظرة فاحصة في حياة الإمام الصادق العلمية منذ عهد الصبا والشباب، توحي بأصالة ما نذهب إليه، إذ تعاهد مدرسة أبيه الإمام الباقر عليه السلام فصقل روحه بمواهبها، وشحذ فكره بمعطياتها، فكانت له جولات علمية سبقت عصره وهو صبيٌّ مميز، وقد أثبت العلم الحضاري صحة نظرياته بعد ثلاثة عشر قرناً، هذا ما صرح به الأوروبيون والمستشرقون، وأكدّه المتخصصون من علماء الإسلام فيما بعد.

وأضع بين يدي القارئ بعض هذه النظريات الكبرى نموذجاً للاستدلال:

١ـ لقد سمع الإمام الصادق عليه السلام من أبيه الإمام الباقر عليه السلام في درس الفيزياء رأي أرسطو في الكون، وأن أصله إنما يتألف من عناصر أربعة:

التراب.. الماء.. الهواء.. النار..

وأرسطو ـ فيما يذهب إليه ـ حجة على العلماء ذوي التخصص في الكون وسواه مما سيّره للأجيال وحتى اليوم، إلا أن الإمام ناقش

ذلك، يقول باحث أوروبي معاصر: «**فأبدى جعفر الصادق عليه السلام استغرابه؛ لأن أرسطو لم يتنبه إلى أن العناصر الأربعة، ومنها التراب، ليست عناصر بسيطة غير قابلة للتجزئة، وقال: إن التراب مركب من أجزاء وعناصر كثيرة، منها الحديد، وهو بدوره مركب من أجزاء، كل جزء منها يعتبر عنصراً مستقلاً.. بل إن هذا الدارس الشاب ذهب إلى أبعد من هذا عندما أصبح مدرّساً وزعيماً لمدرسة أبيه الإمام الباقر عليه السلام ففند رأياً آخر لأرسطو بخصوص الهواء، وقال: إن الهواء بدوره ليس عنصراً بسيطاً، بل هو مركب من أجزاء وعناصر شتى**»[1].

ونقف عند هذين الرأيين بالتعليق الجزئي على البعد الفيزيائي فيهما:

فأصل الكون عند اليونانيين من الإغريق يتكون من هذه العناصر الأربعة، وكلٌّ منها في نظريتهم جزء لا يتجزأ، بيد أن الإمام الصادق اعتبر التراب ـ كما عليه العلم الحديث ـ مركّباً من عناصر وأجزاء أخرى، كلٌّ منها في حدّ ذاته يعتبر عنصراً مستقلًّا وضرب لذلك مثلاً بالحديد، ليستدلّ بما ذكر على ما لم يذكر من العناصر الأخرى كالفلزّات والمعادن الموجودة في التراب.

وكذلك اعتباره الهواء مركباً من عناصر مختلفة، يُعتبر كلُّ جزء منها عنصراً قائماً بذاته، وله وظيفته الخاصة في الكون، وهي بمجموعها ضرورية للتنفس وعمل الرئتين، ولاستمرار الحياة في الكون للإنسان والحيوان والنبات والكائنات المجهولة، وبتعبير آخر فإن الهواء بكل مركباته ـ لا الأوكسجين وحده ـ ضروري للحياة، وإن اشتمل على عناصر أخرى لها استقلاليتها في عملها، وهذا ما اكتشفه الإمام.

---

(١) جماعة من كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٢٠.

٢ـ وفوق هذا الاكتشاف ذهب الإمام الصادق عليه السلام إلى أن بعض أجزاء الهواء يساعد على الاحتراق، وبعض أجزائه ينفذ في الأجسام ويذيب الحديد، وهذا ما لم يكتشفه أحد قبل الإمام عليه السلام بل وإلى منتصف القرن التاسع عشر، والعلم لم يوفق إلى حقيقة إذابة الحديد بفعل الأوكسجين. ومع أن العالم الإنكليزي جوزيف بريستلي (ت ١٨٠٤م) قد اكتشف الأوكسجين، ولكنه لم يصل إلى خصائصه ومركباته، في حين اكتشف العالم الفرنسي لافوازييه (ت ١٧٩٤م) بعض الخصائص الكبرى له «**ولكن لافوازييه الذي عيّن خصائص الأوكسجين لم يوفق إلى تجربة ذوبان الحديد بفعل الأوكسجين، وهي النظرية التي اضطلع بها جعفر الصادق عليه السلام قبله بألف عام**»[1].

إن هذا السبق لاكتشاف الأوكسجين في جملة خصائصه التجريبية على يد الإمام الصادق عليه السلام قد يسر للباحثين والعلماء المتخصصين:

أ) الاضطلاع بمكوّنات الهواء وعناصره العليا، وفي طليعتها الأوكسجين، وهو من ضروريات الحياة العامة بالإضافة إلى بقية أجزاء الهواء.

ب) إتاحة الفرصة للصناعات بإذابة الحديد بغاز الأوكسجين، والانتقال بها من الحالة البدائية إلى حالة علمية افضل، تختصر الزمن، وتختزل الجهد، وتتحرى الدقة والنظام.

ج) الإفادة من هذه النظرية في استخدام المصباح الكهربائي مضيئاً ما دام السلك الحديدي متوهِّج الحرارة بفضل الأوكسجين المصنّع داخل المصباح.

---

(١) ظ: المصدر السابق نفسه ١٢٧.

د) التوصل إلى معرفة خصائص الأوكسجين وتأثيره في الأشياء الأخرى.

و) الإفادة باستخلاص الأوكسجين وحصره في صفائح معدنية، وهو مضغوط على شكل سائل يتحول إلى غاز لدى الحاجة في حالات عديدة يستعين بها الطب في أمراض الربو والقلب والإنعاش وأمراض الجهاز التنفسي وعمل الرئتين وسوى ذلك.

***

٣ـ وقد اشتهر شهرة عظيمة بلغت حدّ التواتر جيلًا بعد جيل: أن جابر بن حيّان الكوفي ـ العالم الكيميائي العربي الذائع الصيت ـ قد أخذ علم الكيمياء ـ وهو مؤسسها في الإسلام ـ عن الإمام الصادق عليه السلام.. وقد جمع ما أفاده من الإمام في كتاب في ألف ورقة[١].

وأنه ـ أي جابر ـ قد ألف خمسمئة رسالة في الطب والكيمياء[٢].

وهذا يعني أن الإمام الصادق عليه السلام لم يغفل العلم التجريبي وهو في غمرة مهماته التشريعية ولم ينسَ الأسس المختبرية التي يقوم عليها علم الكيمياء ولا المعادلات الرياضية التي يفتقر إليها.

٤ـ وقد تواتر القول ـ كما سترى في موقعه من الكتاب ـ أن الإمام قد أفاض الحديث في علم الطب بشتى فروعه، بما اشتهر بين الناس من (طب الإمام الصادق) كتباً ومجموعات ومحاضرات، وأضاف إليها علم التشريح، وفن الجراحة، وأمراض العظام والمفاصل، والطب الوقائي، ودروسه القيّمة وأماليه عن الجوارح والأعصاب وتراكيب

(١) ظ: ابن النديم: الفهرست.

(٢) ابن خلّكان: وفيات الأعيان ١/ ١٥٠.

الهيكل العظمي وإعداده ومواضعه ومواقعه من جسم الإنسان، بما لا إضافة للطب الحديث وعلم الفسلجة عليه.

٥ـ وإذا تركت هذا الجانب إلى الوعي النظري في أحداث الطبيعة، ومخلّفات البيئة، رأيت فيه السابق إلى الحملة الصحية المنظّمة لتفادي التلوث في الآفاق والمياه، حفاظاً على البيئة، وحرصاً على سلامة الإنسان والحيوان والنبات من الآفات، وصيانة لجمال الطبيعة من التلوث والنفايات الضارة، وتلافياً لمخاطر السموم القاتلة والفيروسات الدقيقة التي تفتك بحياة الكائنات، كما عالج الهبوط بالمستوى الكافي للأوكسجين في ظروف مناخية معينة تتحكم بإفساد الهواء.

٦ـ وإذا أمعنت النظر وجدت الإمام قد سبق الفيزيائيين في أصل العالم ونشأة الكون، كما سبق الفلكيين في مسيرة النجوم والكواكب والشمس والقمر، ونبههم إلى قوانين ميكانيكية الأفلاك والأجرام، التي تدور حول نفسها وحول الشمس، وليس جديداً أن الإمام قد سبق إلى القول بدوران الأرض حول نفسها لتكوّن بذلك الليل والنهار في يوم واحد، والى دوران الأرض حول الشمس في سنة كاملة لاستقبال الفصول الأربعة: الصيف والربيع والشتاء والخريف.

ويرى أحد كبار المستشرقين أن الإمام قد اكتشف قانون الجاذبية فقال: **«ولا يستبعد أن يكون الإمام العالم جعفر الصادق الذي اكتشف نظرية دوران الأرض حول نفسها، قد توصل قبل ذلك إلى: «قانون الجاذبية» فهذا القانون هو** أساس تلك النظرية، ومن المنطقي أن يكون اهتداؤه إلى قانون الجاذبية قد هوّن عليه الاهتداء إلى نظرية دوران الأرض حول نفسها»[1].

---

(١) ظ: جماعة من كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٧٢.

٧ـ والمعروف أن الإمام الصادق عليه السلام قد تصدر لمنصب التدريس وهو شابٌ يافع في حياة أبيه الإمام الباقر عليه السلام ولم يقتصر تدريسه على المنهج الشائع بين المسلمين، بل تجاوزه إلى آفاق جديدة كان أبرزها «**علم الفلك الجغرافي**» الذي قصّر العرب عن الفوز بأسبقيته كما هو شأن الأغريق. وله بذلك نظرية مبتكرة نسج على منوالها المتأخرون من العلماء والباحثين، وتدور أحداث هذه النظرية على تخطئة بطليموس في نظريته: بوجود حركتين للشمس؛ حركة في البروج الاثني عشر حول الأرض مرةً كلَّ سنةٍ، وحركة حول الأرض مرةً كلَّ يوم وليلة.

وكان بادرة عظيمة أن يقول الإمام الصادق:

**«إذا كانت الشمس تدور حول الأرض، وتنتقل من برج إلى آخر في ثلاثين يوماً لتتم دورتها مرةً كلّ سنة، فما هو السرّ إذاً في غياب الشمس كلَّ ليلة لتظهر في صباح اليوم الثاني؟ وإذا كانت الشمس تستقرُّ في كلِّ برج شهراً واحداً، فلابد إذاً أن نراها بصورة مستمرة، فلا تغيب عنا كلَّ مساء»**[1].

ولقد أدرك العصر الحديث أهمية هذا الاكتشاف في حقله العلمي، لأن النهوض بما توصَّل إليه الإمام الصادق في هذه النظرية، لم يكن بمقدور الذهنية العربية أن تدركه آنذاك وإن أدركته اليوم، وكان خوض الإمام في أمثال هذه العلوم تجربة جديدة في الإسلام، إذ كانت ميادين العلم لديه عامرة بشتى المفردات التي تنهض بالإنسانية جمعاء، والإمام الصادق ليس ملك نفسه بل هو ملك أمته، بل ملك الإنسانية في كلِّ الأجيال.

---

(١) المرجع نفسه: ٩٤.

لهذا وغيره نهد الإمام باتساع لا ضبابية عليه، فنفض غبار السنين ليبرمج معارفه بفنون عصماء وكان من بينها:

علم التشريع.. علوم القرآن.. الحديث وروافده.. الفقه وفروعه، علم الأصول.. علم التفسير.. علم الكيمياء.. علم الفيزياء.. علم الفلك.. علم الكواكب والنجوم.. علم الجغرافيا.. علم التاريخ.. علم الكلام.. علم الفلسفة.. علم الأدب.. علم البلاغة.. علم النقد المنهجي.. علم النقد التطبيقي.. علم الفلسفة والحكمة الإلهية.. علم العرفان، وما وراء هذه العلوم من بحوث تمهيدية، ودروس تكميلية بين يدي هذا العلم وذاك.

وإذا ذهبنا إلى زعامة الإمام الصادق عليه السلام لمدرسة أهل البيت فلتوافر هذا الزخم الهائل الذي لم يتحقق جماعاً لسواه من المعصومين.

ولقد جنّد الإمام الصادق عليه السلام لهذه المدرسة مئات المتخصِّصين طيلة أربعين عاماً من حياته الحافلة بالتبعات الثقيلة، وهو يحرِّر العقل البشري من الجمود، ويبني الأفكار المبدعة على قاعدة صلبة من العطاء الأصيل، فكان اختيار الرجال مهمّة صعبة، ولكن الإمام كان ناقداً خبيراً، ومتفرساً ضليعاً باختيار تلامذته الأبطال الذين شاركوا مشاركة فاعلة في استمرارية مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وكان من الطبيعي ـ تأريخياً وسياسياً ـ أن تندثر مبادئ أهل البيت جرّاء الضغط السياسي، ونتيجة الإرهاب الدموي الذي رافق منتسبي هذه المدرسة منذ العصر الأموي وفي العصر العباسي، ولدى التسلُّط السلجوقي، وفي ظلّ الحكم العثماني حتى اليوم بما رافق تلك العصور وهذه الأيام من دعوات منحرفة تحاول إلغاء الدور البارز لأهل البيت في بناء الإسلام.

ولكن الإمام استطاع بقيادته وتلامذته وتخطيطه المستقبلي أن يبقي هذه المدرسة متلألئة الأضواء رغم الأجواء الغائمة التي تحاول حجب شعاع الشمس.

وسيأتي - بإذن الله تعالى - الحديث عن تلامذة الإمام في الباب الثاني.



# صدى الأجيال

حقق الإمام الصادق عليه السلام شهرة سائرة، وانتشر ذكره في الأقاليم وذاع صيته في الآفاق، وكان تمرسه فيما عرف به من الإمداد العلمي، وكان احتياطه لنفسه ولدينه ولأمته قد استهوى المشاعر والأحاسيس، وكان انتقاؤه لأصحابه ومستشاريه وتلامذته قد انتظم في سلك قيادته البنّاءة، وفتح الطريق بين يدي معارفه النادرة، وهي تخترق الحاجز الإقليمي إلى الأفق العالمي، وكانت موسوعيته قد عطفت عليه آمال ذوي التخصص المتعدّد وكانت موضوعيته قد جلبت النفر الأكثر لنهل موارده واستضافة روافده؛ وخلص من هذا الزخم من المواهب، أن حظي بعاطر الذكر، وعرف باستطالة الباع، فامتدت إليه الأكف متشابكة.

وكان تصاعد هذا التراكم التراثي يعود بفاعليته إلى عقلية الإمام الحرّة، فهو يغزو كلَّ علم، ويشارك في كلِّ فن، ويسعى إلى كلِّ مبادرة رشيدة، وكان الإقبال البشري عليه في أوج تدفقه العارم، وهو يشيع الحب والسلام بين الشعوب حمايةً لها من متاهات الفتن والمحن، لئلا تتآكل والسياسة تنخر في جذورها نخراً والنضال الدموي قد فتك بها فتكاً ذريعاً.

ولم يكن هذا الملحظ لدى الإمام بداوعي الهدوء والاطمئنان، ولا من مخلفات الخور والجبن ـ وهو القائد الشجاع ـ وإنما كان بلحاظ الإبقاء على الناس؛ فقد أخذ منها السيف ما فيه الكفاية، وحذر التورّط بأحداث دامية لا أول لها ولا آخر، لأنها عديمة الجدوى في ظل البطش والإرهاب والطغيان.

وكان أسلم الحلول عائديةً، وأجداها نفعاً أن يلقي الإمام بثقله الثقافي في الميدان، ويطرح بمخزونه العلمي للروّاد، دون اللجوء إلى العنف أو الاعتساف، ولا سيما أن رسالته رسالة إصلاحية هادفة لها تسويفها الأخلاقي والتشريعي.

يقول الأستاذ أسد حيدر رحمه الله:

**«ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا إن الإمام الصادق كان أعلم أهل عصره، وهو أولى الناس بحفظ الدين، ولا نبعد عن الواقع بالقول: إن تلك الخطوات التي سار عليها في عصر ازدهار العلم قد أعطت الأمة درساً، وعلمتهم كيف يجب أن يكون المصلح الذي يقتدي به علماء الأمة ورجال الدعوة، وأن يستقبل العلم بمؤهّلاته النفسية، ويفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحية بدون التزام بالقوة، بل الأولى أن يكون مقبولاً من حيث هو لا من حيث الإرهاب والسلطة، أو المغريات الخدّاعة، وإن الكثير ممّن درسوا حياة الإمام الصادق عليه السلام إنّما سلكوا طريق الحذر والتكتّم، فتلك دراسة سطحية لا تتجاوز حدود دائرة الحذر والتعصب»**[1].

الواقع العلمي يفرض أن يُدرَس الإمام الصادق عليه السلام في ضوء المنهج التاريخي القائم على النقد والنظر والاستنباط، باعتباره زعيماً لمدرسة

---

(١) أسد حيدر: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١/ ٥٢.

أهل البيت على الأصعدة كافة، وبيان عائدية هذه الشـــخصية الفذّة على هذه المدرسة الإسلامية المتحضِّرة.

لقد أشار الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) بشيء من هذه الظاهرة استدراجاً، لكثرة ما نقل عن الإمام من الآثار، فقال ـ قدس سره الشريف ـ :

**«ونقل الناس عنه من العلوم ما ســارت به الركبان، وانتشر ذكره في البلدان، ولم ينقل عن أحد من أهل بيته من العلماء ما نقل عنــه، ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقلة الأخبــار، ولا نقل عنهم كما نقلوا عــن أبي عبد الله، فإنّ أصحــاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل»**[1].

وتفســر هذه الظاهرة بديهياً أن الإمــام ترعرع بين عهديــن، العهد الأمــوي وهو في طــور الاندثــار والتلاشــي، والعهد العباســي وهو في دور النشــوء والتأســيس، فخلص له من جــرّاء هذيــن العاملين: أن ملأ الدنيا علمه وفقهه على حدِّ تعبير الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)[2] والجاحظ أقرب النقاد العرب لعصر الإمام الصادق عليه السلام.

وكانت ظاهرة اختلاف العلماء على الإمام الصادق عليه السلام شــائعة لدى الباحثين والمؤرخين، وكثرة من أخذ عنه الحديث والســنة وبقية الفنون متواترة، حتى قال علي بن عيسى الأربلي (ت ٦٩٣هـ):

**«وروى عن الصادق عليه السلام من مشــهوري أهل العلم أربعة آلاف إنسان، وصُنِّف من جواباته في المســائل أربعمئة كتاب هي معروفة بكتب الأصــول (الأصول الأربعمئة)**

---

(١) الشيخ المفيد: الإرشاد ٣٠٣.

(٢) ظ: حسن السندوبي: رسائل الجاحظ ١٠٧.

**رواها أصحابه وأصحاب أبيه وأصحاب ابنه موسى (الكاظمعليه السلام)، ولم يبق فنٌّ من فنون العلم إلا روي عنه عليه السلام فيه أبواب»**[1].

وقال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي:

«جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت وساداتهم، ذو علوم جمّة، وعبادة موفورة، وأوراد متواصلة، وزهادة بيّنة، وتلاوة كثيرة، يتتبع معاني القرآن ويستخرج من بحر جواهره، ويستنتج عجائبه، ويقسّم أوقاته على أنواع الطاعات، بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر بالآخرة، واستماع كلامه يزهد في الدنيا، والاقتداء بهديه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبّوة، وطهارة أفعاله تصدع أنه من ذريّة الرسالة، نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من أعيان الأمة وأعلامهم، مثل:

يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأيوب السختياني وغيرهم، وعدُّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها، وفضيلةً اكتسبوها»[2].

وقد أكد ابن حجر الهيثمي دراسة هؤلاء الأعلام على يد الإمام[3] وهؤلاء إنما يذكرون عليه القوم والملأ، ويعرضون لمن عرفوا واشتهروا، وكم من عالم خفي ذكره، وطوي أمره.

(١) الأربلي: كشف الغمة ٣/ ٣١٨.

(٢) الكنجي الشافعي: مطالب السؤول ٢/ ٥٥.

(٣) ابن حجر الهيثمي: الصواعق المحرقة ١٢٠.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء الأعلام أئمة المذاهب، ورجال السنّة، وكوكبة عاليةً من محدِّثي الإمامية وعلمائها، علمنا جزءاً من المنزلة التي تصدَّرها الإمام الصادق في حياة التشريع.

لقد تكفَّلت كتب (الرجال) بسرد أسماء الآلاف ممن حضر عند الإمام، وتلقى عنه العلم، وسنأتي على ذكر جهودهم فيما بعد، ولعل في الطليعة منهم: أبان بن تغلب، ومحمد بن مسلم الثقفي، ومعاوية ابن عمّار، وأبو بصير، وزرارة بن أعين، ومعروف بن خربوذ، وحريز بن عبد الله، وحمران بن أعين، ومحمد بن النعمان مؤمن الطاق، وهشام ابن الحكم، وهشام بن سالم، وبكر بن أعين، وبريد بن معاوية العجلي وأضرابهم من حملة الفكر الإمامي.

وكانت تعددية الفنون تخلق متخصِّصين في الموضوعات، وتخرّج طائفة من النابهين في كلِّ فنٍ، وهنا نشير إلى أن الأستاذ السيد مير علي الهندي ـ من أعلام القرن العشرين ـ قد أشار ببحوثه الرضية، وأبان صريحاً أن المناقشات الفلسفية في العالم الإسلامي، قد حررت الفكر العربي من الجمود على يد الإمام فقال: «**إن الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن أبي طالب المسمَّى بالإمام الصادق، وهو رجلُ رحب أفق التفكير، بعيد أغوار العقل، ملّمٌّ كلَّ الإلمّام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية**»[1].

(١) مير علي الهندي: الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية ٣/١.

ـ إن اعتدادنا بهذا الرأي ينبع من كونه يسلط الضوء على الفكر الرحيب للإمام الصادق عليه السلام بموضوعية منهجية، ويركز النظر على شذراتٍ دقيقة تشير إلى ما نحن بصدده من شدّ الرحال لحضور حلقة درس الإمام من أنحاء العالم الإسلامي، وكون الإمام مؤسساً لمدرسة الإسلام الفلسفية، وأنه لم يقتصر في حضور بحثه على رؤساء المذاهب، بل جذب إليه عشاق الفلسفة، وهو يغذي بها حياة العقل الإنساني المتطلع للإحاطة دون أولئك الذين اقتنعوا بالنزر اليسير، فمات حين ماتوا، وذهب حيث ذهبوا.

وهذا يوحي بأن الإمام ليس حكراً على طائفة، ولا مقتصراً على مذهب، ولا جامداً على علم، بل هو يبدع الأفكار النابضة، ويحقق النظريات المصيبة، لتقطع الحضارة في مسيرتها الكبرى شوطاً بعيداً في العطاء وتحرير الإنسان من الجهل والأنانية.

إن هذا الملحظ في نظري باحثاً، وفي نظر المتحررين فكراً وثقافة، هو الذي جعل من الإمام الصادق عليه السلام أمثولةً في الوعي والتجرُّد العلمي، وهو الذي قدَّمه عملاقاً ينقذ الأمة ويحرِّرها في عبقرياته الناطقة بالتطوير والتحرير، وتجاوز العقبات في التمذهب والتأقلم.

لقد فتق الإمام الصادق القول في إبداعيات العلم باعتباره علماً محضاً، يصل به المرء إلى الحقيقة، والوصول إلى الحقيقة المطلقة يعني الوصول إلى الله، وهذا ـ وحده ـ هو الدافع الإستراتيجي في تخطيط الإمام المعرفي، فبادر إلى كشف الكنوز العلمية واستخراجها من ذخائرها، وسخّر ذلك للأجيال بأسلوب جديد، وبعرض جديد، وبقيم جديدة، فأيقظ العقل الإنساني من سبات عظيم، وأهاب بالإنسان أن يبعث حياة أخيه الإنسان بالحكمة والتربية والتفاضل الأخلاقي، فكان

استنباط العلوم لديه سبيلاً لخلق الإنسان المتكامل، وكان السخاء به على تلامذته ضرباً من الشمم والقيم الواعية، وكان الاعتناء بمتطلباته تطبيقاً لنظام السماء في الأرض.

وهي بعدُ: صوت اجتماعي مدوٌّ لتوحيد الجنس البشري في ظل نظام عميق يدعو إلى الحرية العلمية التي لا تحدُّ بحدود.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة عن الإمام في هذا الملحظ وسواه: **«وكان قوةً فكريةً في عصره، فلم يكتفِ بالدراسات الإسلامية وعلوم القرآن والسنة والعقيدة، بل اتجه إلى دراسة الكون وأسراره، ثم حلّق بعقله الجبار في سماء الأفلاك، ومدار الشمس والقمر والنجوم، كما عني عنايةً كبرى بدراسة النفس الإنسانية، وإذا كان التاريخ يقول: إن سَقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الإنسان، فإن الإمام الصادق قد درس السماء والأرض، والإنسان وشرائع الأديان»**[1].

إن الهبة الفطرية الكامنة في مشاعر الإمام الصادق، هي التي جعلته يتحدّث عن العوالم المرئيّة بالمستوى نفسه الذي يتحدث فيه عن العوالم الخفيّة، وليس هناك من أمر متصوَّر أو متخيَّل إلا وللإمام رأي فيه لو سئل عنه، وهو بذلك يتعدى المألوف الإنساني إلى حدود ما وراء الغيب، منحة خالصة من الله تعالى.

وظاهرة أخرى؛ تلك الطبيعة الصافية في إثراء المتلقِّين في سخاء لا مثيل له، فلا يضنُّ بعلم على أحد، ولا يخجل سائلاً قط، ولا يخيّب طالب فقه أو حديث أو فلسفة أو رأي، شأنه بذلك شأن حملة الفكر العالمي في إرادة انتشار المخزون الثقافي لدى حملته، وفي ذلك

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ١/ ١٠٣ نقلاً عن الإمام الصادق للشيخ محمد أبو زهرة.

مكافحة للعزلة العلمية - إن صح التعبير - وهو يدعو إلى الانفتاح على الآخرين، فلا يبخل عليهم بشيء.

ولما كان الإسلام عالميَّ الرسالة، ومعارفه إنسانية الإرادة، ومبادؤه شاملة الدلالة، فهو لا يقتصر على زمن، ولا يتحدد بجيل من الناس، ولا يتأطر بالإقليمية والفئوية، كان على الإمام - وهو في الموقع القيادي من الإسلام - أن يذيع مآثر وأفكار هذا الدين، ويوصلها إلى الأمم والجماعات في أقطار الأرض، فضلاً عن الأفراد المتمرِّسين والمتخصِّصين.

لهذا فإن الإشارة إلى الإمام في إطار المقاييس قد لا تكون متكاملة، وفي حالة استثنائية متفردة يتضح للبحث أن الإمام يشكل دائرة علمية ملبية لكل الافتراضات القائمة، إذ لم يتفق ولا مرة واحدة أن تخلف هذا التواصل والتداعي مع الطبقات كلها، في حياة الإمام نظرياً أو تطبيقياً، ولم يلح لنا في الأفق مطلقاً تسجيل أي عجز أو تلكؤ من قبله في أي محيط علمي، أو مستوى اختباري، أو مسألة معقّدة، ولم يحدث أن وجدنا شيئاً من الحيرة أو التردد في إجابةٍ ما، والذي نلحظه باستمرارية مذهلة أن الإمام حريص كلّ الحرص على إنعاش الأمل العلمي في كل جزئية وكلية، ذلك ما يدعو إلى الدهشة من جهة، وإلى الاغتباط والبهجة من جهة أخرى، فالتجارب والإحصائيات التي بين أيدينا تؤكد المنهج التكاملي للإفادة الدائبة عند الإمام في إيجابية مقصود إليها، لهذا فإن البحث يفضل الغوص في أعماق السيرة والتاريخ وحياة العظماء لاستقراء الحقائق العلمية التي شكلت أطروحة الإمام في ميادين الإبداع، لأن الإمام لم يعتمد كتاباً أو مصنفاً أو محاضرات مؤلفة في بحوثه، ولم يسجل شيئاً منها في صحيفة أو مدونة أو مخطوطة قبل أن

يلقيها، وإنما كانت تتلى ارتجالاً دون الاستعانة بوسائل النقل الثقافي، ودون التسجيل لها قبل الإلقاء، وهذا ما يفسر لنا نظرية الإمامية القائلة: إن علم الإمام لدنيٌّ إلهاميٌّ، وإلا فبماذا يفسر خوضه في فنون لا عهد للجزيرة العربية بها لا من قريب ولا من بعيد، ولا سيما في الفيزياء والكيمياء والجبر والفلسفة.؟!

وسيأتي الحديث عن **(علم الإمام)** في الباب الثاني من هذا الكتاب بإذن الله. والطريف في الأمر أن هذا العالم المتميز لم يقتصر على حياة علمية محضة، وإنما بصّرنا بخصائص في السلوك والزهد والعرفان، قد يتعذَّر الخوض في تيارها، إلا أننا سنتحدث عن بعضها على سبيل المثال.



## أضواء من خصائص الإمام



لا أريد بخصائص الإمام تلك الثوابت التي لا تتحول عن العصمة تكويناً، أو الطهارة من الرجس نصاً قرآنياً كريماً، ولا كون الإمام: أعلم أهل زمانه، وأعدلهم، وأورعهم، وأزهدهم، وأكرمهم، وأشجعهم، وأفضلهم..

فهذا ما لا يتناوله البحث؛ لسبق أهل الكلام إلى إثبات ذلك، وهو من المُسَلَّمات التي لا تقبل تبديلاً عند الإمامية.

وإنما أريد بهذه الخصائص بعض المؤشرات الناطقة التي اتسم بها الإمام شهرة وذيوعاً في مجالي الجدّ والعمل والحياة العامة في البرّ والإحسان والإتجار والاقتصاد، وفضيلة المواساة بما يعتبر من الظواهر الإنسانية الكاشفة عن خلفية الإمام وهو يمارس أعماله بنفسه. ويشرف على تنفيذها شخصياً، مع كثرة من يساعده في ذلك، وتوافر الأولياء في المسارعة لإنجاز مهماته نيابةً عنه، إلا أن الإمام من خلال واقعيته وتواضعه يأبى إلّا أن يتولّى بذاته المقدَّسة شؤون حياته الاقتصادية والمعاشية، وأن يتابع ـ بدافع ذاتي ـ وجوه البرّ واستباق الخيرات رضي الناس أم سخطوا، وأن يحترف الإتجار المشروع والمستحب لإعانة نفسه وتقويم عائلته، أو لإعانة الفقراء والضعفاء،

وإغاثة الملهوفين وأهل الاحتياج، وبذلك يضرب لنا المثل الأعلى في طلب الرزق الحلال، والحث عليه، معرضاً صفحاً عن الاعتبارات الوهمية، ومبتعداً عن العنوان القيادي الذي ينظر به إليه، فهو يلج باب الحياة بقواه البدنية، ليكون النموذج الذي يقتدي به الناس في الأعمال.

فالإمام حين يسعى إلى الكسب بيده، ويباشر شؤون معاشه الخاصة، فإنه يرفض ذلك الكابوس الثقيل الوافد من التمايز الطبقي الذي شاع في عصره، ولا يستسلم لمشاعر القداسة التي تحيط به، فذلك شيء، وبناء حياة الإنسان الحُرَّة شيء آخر، ولذة العمل لا تعدلها لذة، وبذل الجهد بسبيله شرف لا يدانيه شرف.

وكان من حصافة الرأي أن جعل الإمام أمواله في شرائح متعددة من المرافق التجارية، فإذا أخفق مشروع ما، نجح مشروع آخر وقد سأله من استنصحه قائلاً: «يا أبا عبد الله، كيف اتخذت الأموال قطعاً متفرقة؟ ولو كانت في موضع واحد كان أيسر لمؤونتها، وأعظم لمنفعتها.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: اتخذتها متفرقة، فإن أصاب هذا المال شيء سلم هذا، والصرّة تجمع هذا كله»[1].

وربما استنكر بعضهم تولي الإمام أموره، وربما استعظم ذلك من لا يعتقد رجحان ذلك من قبل الإمام، فيجيب الإمام كُلاً بما يناسبه مقتضى الحال، فعن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: «استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في بعض طرق المدينة في يوم صائفٍ شديد الحرّ، فقلت: جعلت فداك، حالك عند الله عزّ وجلّ وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!!!

(١) الكليني: الكافي ٥/ ٩١، المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٥٨.

فقال: «**يا عبد الأعلى، خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك**»(١).

إذ لا محالة؛ إما أن يطلب الإمام الرزق كما رأيت، وإمّا أن يتكل على الآخرين، فاختار ما هو أمثل له.

وقد يتبرع من يقوم بعمله نيابة عنه، وتبرُّكاً بخدمته، فلا يقرّ ذلك، ويشير في لفتة ذكية جداً إلى معنى عرفاني دقيق، فيه رضى النفس، وفيه توجيه الأتباع، فعن أبي عمر الشيباني، قال: «**رأيت أبا عبد الله عليه السلام، وبيده مسحاةٌ، وعليه إزارٌ غليظ يعمل في حائط (بستان) له، والعرق يتصابّ عن ظهره، فقلت: جعلت فداك، أعطني أكفك، فقال لي: إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة**»(٢).

والإمام بهذا يضرب المثل الرائع، لئلا يأنف أحد من ذوي المنزلة من متابعة أعماله وأشغاله. فعن داود بن سرحان، قال: رأيت أبا عبد الله يكيل تمراً بيده، فقلت: جعلت فداك، لو أمرت بعض ولدك أو بعض مواليك فيكفيك...(٣)

وفلسفة هذا الاعتداد تلبية داعي الضمير في الاعتماد على النفس، ومجانبة الاتكال على الآخرين، وفيه من الكرامة والعزّة للمؤمن ما يضع حدّاً لذلِّ المسألة ودواني الأمور، وقد روى محمد بن عذافر عن أبيه، ما يعزِّز هذا الملحظ صراحة. قال: أعطى أبو عبد الله أبي ألفاً وسبعمئة دينار، فقال له: أتجِر لي بها، ثم قال: أما إنه ليس لي رغبة في ربحها، وإن كان الربح مرغوباً فيه، ولكن أحببت أن يراني الله عزّ وجلّ متعرضاً

---

(١) الكليني: الكافي ٥/ ٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ٥/ ٧٦.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧ / ٥٧.

لفوائده، قال: فربحت له فيها مئة دينار، ثم لقيته فقلت له: قد ربحت لك فيها مئة دينار، قال: ففرح أبو عبد الله عليه السلام بذلك فرحاً شديداً، ثم قال لي: أثبتها في رأس مالي[1].

والملاحظ في هذا النصّ أن الإمام قدَّم مالاً للإتجار به ليراه الله متعرِّضاً لفوائده، ثم ربح المال ففرح الإمام بذلك فرحاً شديداً، مما يعني أن مشروعه التجاري لم يصب بالفشل، وإن كان الربح متواضعاً، وكان الإمام بالربح زاهداً، إلا أنه أمر أن يضاف إلى رأس ماله، معتبراً ذلك تنمية للمال، ليقتدي به سواه.

والإمام قد يندرع للعمل بعدته، وهو يتعقب جزئياته ومقتضياته بذاته المقدسة، فعن إسماعيل بن جابر، قال:

**«أتيت أبا عبد الله عليه السلام، وإذا هو بحائط (بستان) له، بيده مسحاة، وهو يفتح بها الماء، وعليه قميص شبه الكرابيس، كأنه مخيط عليه من ضيقه»**[2].

وقد يستعين الإمام بالعمّال لإنجاز متطلّبات زراعته أو تجارته، وفي هذا مؤشران: عام وخاص، فالعام إتاحة الفرصة لذوي الحرف بممارسة نشاطهم، وتشغيل الأيدي العاملة حذر البطالة، والخاص الكشف عن مدى عناية الإمام بالجانب الاقتصادي لإعالة نفسه وعائلته، وإغاثة أخوانه وأرحامه؛ ونشاهد الإمام في المؤشر العام، يعجّل بدفع أجور العمال دون تأخير، فعن شعيب، قال: تكارينا لأبي عبد الله عليه السلام، قوماً

(١) الكليني: الكافي ٥/٧٦.
(٢) المصدر نفسه والصفحة، المجلسي: البحار ٤٧ / ٥٦.

يعملون في بستان له، وكان أجلهم، إلى العصر، فلما فرغوا، قال لمعتب: أعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم»[١].

وفي المؤشر الخاص، نلحظ الإمام متوخياً وجوه البر والإحسان، ومتحرياً مواساة البؤساء والضعفاء، تطبيقاً لتعاليم القرآن العظيم، وتجسيداً لرسالة السماء، وتمثيلاً لمسلكية الرسول الأعظم (ص) وسيرة آبائه الطاهرين. فعن يونس أو غيره ممن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: جعلت فداك بلغني أنك كنت تفعل في غلة (عين زياد) شيئاً، وأنا أحب أن أسمعه منك، قال: فقال لي: نعم، كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت آمر في كل يوم أن يوضع عشر بنيات[٢] يقعد عند كل بنية عشرة، كلّما أكل عشرة جاء عشرة أخر، يُلقى لكل منهم مدّ[٣] من رطب، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم: الشيخ والعجوز والصبي والمرأة، ومن لا يقدر أن يجيء فيأكل منها، لكل إنسان منهم مدّاً، فإذا كان الجذاذ وفّيت القوّام، والوكلاء، والرجال، وأحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوتات، والمستحقين: الراحلتين والثلاث والأقل والأكثر على قدر استحقاقهم، وحصل لي بعد ذلك أربعمئة دينار، وكانت غلتها أربعة آلاف دينار..[٤]

إن هذا السخاء دليل المروءة، ومصداق التعاطف على بني الإنسان، وهو بعد منهجية رائعة لتحقيق التكافل الاجتماعي وإشاعة الإيثار.

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٥٧ ينقله عن الكافي ٥/ ٢٨٩.

(٢) البنيات: الأقداح يوضع فيها ما يؤكل كالأواني.

(٣) المد: ثلاثة أرباع الكيلوغرام، ويحتاط بعضهم بجعله تسعمئة غرام.

(٤) ظ: الكليني: الكافي ٣/ ٥٦٩، المجلسي: البحار ٤٧/ ٥١.

وكان من حبّه أن يراه الله ﷻ، وقد أجهد نفسه في طلب الحلال، ما حدث به هشام بن أحمد: أنه دخل على الإمام الصادق عليه السلام في ضيعة له، في يوم شديد الحرّ، والعرق يسيل على خده، فيجري على صدره[1].

هذه الواقعية المثالية التي جسدتها سيرة الإمام الصادق عليه السلام في كسبه، وتعقب موارده بنفسه، هي التي يصبو إلى تحقيقها الإسلام في نظمه وحياته الاقتصادية، مضافاً إلى ترويض الذات الإنسانية على العمل وإصلاح المال، وبذلك تتحقق أصالة الروح المتواضعة في تهيئة العيش الكريم، وتتلاحم القوى الفاعلة في زيادة الإنتاج. وتتضافر الأيدي في ممارسة الاتجار المشروع.

وكان الإمام في عمله التجاري يتحرى الحيطة في الأرباح، ويتحاشى فدح الناس في الأسعار، فهو رؤوف رحيم بالمسلمين، وهو مشفق حدباً على الأمة، يكتفي من الرزق باليسير، ويتطلب الربح القليل، ويكافح الاستغلال والأثرة، ويرفض الاحتكار والغلاء.

دعا عليه السلام مولىً له يقال له مصادف، فأعطاه ألف دينار، وقال له: تجهز حتى تخرج إلى مصر، فإن عيالي قد كثروا، قال: فتجهزت بمتاع، وخرج مع التجار إلى مصر، فلما دنوا من مصر استقبلتهم قافلة خارجة من مصر، فسألوهم عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة ـ وكان متاع العامة ـ فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء، فتحالفوا وتعاقدوا على ألا ينقصوا متاعهم من ربح دينار بدينار، فلما قبضوا أموالهم، انصرفوا إلى المدينة، فدخل مصادف على أبي عبد الله عليه السلام، ومعه كيسان

(١) ظ: محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات ٥/ ٦٤.

في كلٍّ واحد ألف دينـار، فقال: جعلت فـداك، هـذا رأس المال وهذا الآخر ربح، فقـال: إن هـذا الربح كثير، ولكـن ما صنعتم فـي المتاع؟ فحدثه كيف صنعوا وكيـف تحالفوا؛ فقال: سـبحان الله! تحلفون على قوم مسـلمين ألا تبيعوهم إلا بربح الدينار ديناراً؟! ثم أخذ الإمام عليه السلام أحد الكيسين، فقال: هذا رأس مالي، ولا حاجة لنا في هذا الربح.

ثم قال: يا مصادف.. مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال[1].

وقد تفتقد السـلع ويختفي الطعام في الأسواق، والإمام يخشى على الناس المجاعة، فيواسيهم بما ادخره لعائلته وضيوفه ومتطلبات مكارمه وعوائده ومنحه، ثم يقدر على نفسه وعلى أسرته في المعيشة.

فعن معتـب، قـال: قال لـي أبـو عبـد الله عليه السلام، وقد تزيد السـعر بالمدينة: كم عندنا من طعام؟ قال: قلت: عندنا ما يكفينا أشـهراً كثيرة، قال: أخرجه وبعه، قال: قلت له: ليس بالمدينة طعـام!! قال: بعه، فلما بعته، قال: اشـتر مع الناس يوماً بيـوم، وقال: **«يا معتب، اجعـل قوت عيالي نصفاً شـعيراً ونصفاً حنطة، فإن الله يعلـم أني واجد أن أطعمهـم الحنطة على وجهها، ولكني أحب أن يراني الله وقد أحسنت تقدير المعيشة»**[2].

وكان من تقديره للمعيشـة ذلك الكرم الفياض الذي يروى عنه في أحاديث تثير الدهشـة، وذلك الإيثار على حسـاب عياله في سـبيل الله لمتابعـة احتياج الضعفـاء والمعوزين، فهـو إنما ينفق عليهـم من ماله الخاص، وإنما يتفقدهم فبمحض جهوده في العمل الخالص مما يملك، وهو أكثر مما يحصى، فهو على منهج آبائه في العطاء.

---

(١) الكليني: الكافي ٥/ ١٦١، المجلسي: بحار الأنوار ٤٧ / ٥٩.

(٢) الكليني: الكافي ٥/ ١٦٦، المجلسي: بحار الأنوار ٤٧ /٦٠.

فعن الفضل بن قرة، قـال: كان أبو عبد الله عليه السلام يبسـط رداءه، وفيه صـرر الدنانير، فيقول للرسـول: اذهب بها إلى فلان وفـلان ـ من أهل بيته ـ وقل لهم: هذه بعث بها إليكم من العراق، قال: فيذهب الرسـول إليهم، فيقول ما قـال، فيقولون: أما أنت فجـزاك الله خيراً بصلتك قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما جعفر فحكم الله بيننا وبينه، قال: فيخرّ أبو عبد الله ساجداً ويقول: «**اللهم أذل رقبتي لولد أبي**»[1].

وعن هشـام بن سـالم قال: كان أبو عبـد الله إذا أعتـم وذهب من الليل شـطره، أخذ جراباً فيه خبز ولحم والدراهم فحمله على عنقه، ثم ذهب إلى أهل الحاجة من أهل المدنية فقسـمه فيهم ولا يعرفونه، فلما مضى أبو عبـد الله عليه السلام فقدوا ذلك فعلموا أنـه كان أبا عبد الله صلوات الله عليه[2].

وهذه هي صدقة السرِّ المندوب إليها في الشرع.

وعن أبي الهياج بن بسطام قال:

«**كان جعفر بن محمد يطعم حتى لا يبقى لعياله شيء**»[3].

والإمام يصل من أمـر الله بصلته وإن قطعه واعتـدى عليه، فحينما حضرته الوفاة، روي أنه أمر أن يعطى الحسـن الأفطس سـبعين ديناراً، فقالـت له مولاتـه سـالمة: أتعطي رجـلاً حمل عليـك بالشـفرة يريد أن يقتلك؟

---

(١) ظ : المجلسي : بحار الأنوار ٤٧ / ٦٠ وانظر مصدره.

(٢) الكليني : الكافي ٤ /٨، المجلسي : البحار ٣٨/٤٧.

(٣) المجلسي : البحار : ٤٧ / ٢٣.

قال: تريدين ألا أكون مـن الذين قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾[1].

نعم يا سالمة، إن الله خلق الجنة فطيّبها، وطيّب ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها قاطع رحم[2].

وهذا المبـدأ في صلـة الأرحام يتخـذه الإمـام منهجاً فـي التكرُّم والإحســان، وهو يحيطه ـ عادة ـ بالإســرار والكتمـان، ليكون خالصاً لوجه الله تعالى.

روى أبو جعفر الخثعمي قال: أعطاني الصادق عليه السلام صرة، فقال لي: ادفعها إلى رجل من بني هاشم، ولا تعلمه أني أعطيتك شيئاً.

قال: فأتيته، قال: جزاه الله خيراً، ما يزال كلَّ حين يبعث بها فنعيش به إلى قابل، ولكني لا يصلني جعفر بدرهم في كثرة ماله»[3].

ومن مكارم أخلاق الإمام عتقه لعبيده ومواليه قربـةً إلى الله تعالى، وبشروط شرعية تعود بالنفع على العبد المعتق بالالتزام الديني.

فعن إبراهيم بن أبي البـلاد، قال: «**قرأت عتق أبي عبـد الله عليه السلام فإذا هو شـرحه: هذا ما أعتق جعفر بن محمد، أعتق فلاناً غلامه لوجه الله، لا يريد منه جزاءً ولا شـكوراً، على أن يقيم الصلاة، ويؤدي الزكاة، ويحج البيت، ويصوم شـهر رمضان ويتولى أولياء الله، ويتبرأ من أعداء الله، شهد: فلان بن فلان، وفلان، وفلان.. ثلاثة**»[4].

---

(١) سورة الرعد: ٢١.

(٢) الشيخ الطوسي: الغيبة ١٢٨.

(٣) المجلسي: البحار ٤٧ / ٢٣.

(٤) الكليني: الكافي ٦/ ١٨١.

وكان الإمام عليه السلام يحثُّ على الصدقة، ويتصدق بأحب الأشياء إليه[1].

وكان عليه السلام يستنزل الرزق بالصدقة، فقد أمر ابنه بالتصدق بفضل نفقته وهي أربعون ديناراً، فما لبث حتى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار، فقال لولده: يا بني، أعطينا لله أربعين ديناراً، فأعطانا الله أربعة آلاف دينار[2].

وكانت هذه الأعطيات ابتداءً من تلقاء نفسه، فإذا سئل الإمام أغنى وأقنى، فقد روي أن فقيراً سأله، فقال لعبده: ما عندك؟ قال أربعمائة درهم.

قال: أعطه اياها، فأعطاه وولى شاكراً، فقال لعبده: أرجعه (فأرجعه) فقال يا سيدي: سألتُ فأعطيتَ، فماذا بعد العطاء؟ فقال له: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خير الصدقة ما أبقت غنى، وإنّا لم نغنك، فخذ هذا الخاتم، فقد أُعطيت فيه عشرة آلاف درهم، فإذا احتجت فبعه بهذه القيمة»[3].

هذه شذرات من مكارم أخلاق الإمام الصادق عليه السلام، جاءته على سجيتها استكمالاً لطلب الرزق الحلال، وإصابة البِرّ مواقعه،وهي نموذج لا احصاء، ومثالٌ لا استقصاء، يقول الأستاذ الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ دام علاه ـ:

**«ويجب علينا ألا نغفل.. أن ذلك الكرم والسخاء لم يكن بسبب وفرة الأموال الشرعية التي كانت ترد إلى الإمام من أطراف العالم الإسلامي، لأن إنفاق تلك الأموال في مواردها المشروعة لا يعدّ جوداً منه أو كرماً، وإنما هو جزء لا يتجزأ من صلب**

---

(١) المصدر نفسه: ٤/ ٦١.

(٢) المصدر نفسه: ٤/٩.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧ / ٦١، وانظر مصدره.

**واجبه الديني المقرَّر فـي أن ينال كلُّ ذي حق حقَّه، ويصل إلى كلِّ ذي سـهم في ذلك المال سـهمه المعيّن كاملاً غيـر منقوص ولكن كثيـراً من ذلك السـخاء والعطاء إنّما يرجع في الواقع إلى ماله الخاص الذي يحصل عليه من أربـاح زروعه وغلاّت أراضيه، وقد عرفنا منهـا بالذات، أرضـه التي كانت تعرف بعيـن زياد، وكانـت غلتها أربعة آلاف دينار».**

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الإمام عليه السلام في متابعته حياته الاقتصادية بنفسـه، وممارسـته للاتجار المشـروع، كان محروماً هـو وأولياؤه من حقوقـه المفروضـة فـي واردات الدولـة العريضـة، وكان مصـادراً في الموارد الشـائعة بين المسـلمين، وهـذا يعني الاضطهـاد والحرب، وما بعـد الاضطهـاد المالي من اضطهـاد، فهـو ـ بحكم الضـرورة ـ كان عليه أن يتيح له ولعائلتـه وأوليائه العيـش الكريم، وهكـذا كان، وفيه احتجاج ظاهر وخفي على السـلطات الغاشـمة التي انتزعت موارد أهل البيت المالية.

# الفصل الثاني

# الإمام في خضمّ الأحداث السياسية

* الإمام وطواغيت العصر الأموي.
* الإمام وقيادة الانقلاب العباسي.
* الإمام وخلافة السفاح.
* الإمام في عهد المنصور.
* النضال السلبي في سياسة الإمام.





# الإمام الصادق وطواغيت العصر الأموي



مُنِيَ الإمام الصادق عليه السلام بمحنة كبرى من طواغيت العصر الأموي في حقب عصيبة شهدت أفظع المآسي المروّعة، وعمرت مسارحها بالفسق والفجور والخروج عن حضيرة الإسلام، وبُلي الإمام عليه السلام بالعديد الأكثر من الخلفاء الأمويين الذين تجاوزوا القيم النبيلة إلى الأعراف الجاهلية، وهي تلوِّث تاريخ الإنسان بسفك الدماء، وتثبت حكمها بالجور والظلم والاعتساف، وتسوِّد صحائف الزمن بمحافل اللهو والعبث والخمر والمجون، وتعلن العداء لأهل البيت والاعتداء على أتباعهم.

وقد أدرك الإمام قرابة خمسين عاماً من عهود الأمويين، وقد حفل هذا التوقيت بجملة من طواغيت بني أمية وحكّامها، وهم:

١ـ عبد الملك بن مروان.

٢ـ الوليد بن عبد الملك بن مروان.

٣ـ سليمان بن عبد الملك بن مروان.

٤ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان.

٥ـ هشام بن عبد الملك بن مروان.

٦ـ الوليد بن يزيد.

٧ـ يزيد بن الوليد.

٨ـ مروان بن محمد الحمار.

وكان المناخ العام لهؤلاء.. ـ عدا عمر بن عبد العزيز ـ هو عزل الدين عن الدولة في الأعمال والتطبيق، وطرح الدين شعاراً في المظالم والمكتسبات، ومسخ الإسلام وسيلة لترسيخ قواعد السلطان، والحاكم من هؤلاء يحكم عباد الله بمخالفة شريعة الله، فهو ظلُّ الله في الأرض، وإن ظلم عباد الله، وجاهر بمعصية الله، وجانب كتاب الله.

وقد يتعذَّر على البحث بيان المفردات الضخمة لما اقترفوه من السيئات والكبائر، وما اجترحوه من الحرمات والفضائح، ولما خالفوا به الكتاب والسنة، ولما جانبوا به الشرف العربي، والانحرافات التي تمثل شرخاً فاضحاً لأبسط مقومات السلوك الإنساني، وتشكل دلالة على سقوط النفس وتردي الموازين.

فعلى مستوى الولاة؛ كان من أبشع تحديات عبد الملك، توليته الحجاج على أهل الحرمين، يسيء إلى محسنهم، ويتهاون بدمائهم، ويذيب شحمتهم، حتى إن إبراهيم بن محمد بن طلحة صديق الحجاج وحبيبه، قد أنكر ذلك على عبد الملك وقال له: **«لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه وتعجرفه، وبعده عن الحق، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما، وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي والأخيار، يطؤهم، بطغام أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا إزاحة باطل، ويسومهم الخسف، ويحكم فيهم بغير السنّة، بعد الذي كان من سفك دمائهم، وما انتهك من حرمهم، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين**

**نبيك غداً إذا جاثاك للخصومة بين يدي الله في أمته، أما والله لا تنجو هنالك إلا بحجة، فاربع على نفسك أو دع»**[١]..

ولكن عبد الملك كافأ الحجاج على هذا المنهج الدموي فولاه العراق استقلالاً منه للحرمين، فأكثر فيه الفساد بما سبق عنه الكلام في عمل مستقل[٢].

وكان الحجاج لعبد الملك كما وصفه زياد بن عمر العتكي: **«إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم»**[٣].

ووصف الحجاج نفسه بقوله: **«إني - والله - لا أعلم على وجه الأرض خلقاً هو أجرأ على دم مني»**[٤].

وكانت لذته في سفك الدماء، ولا ينجو من ذلك إلا من نافقه أو شهد على نفسه بالكفر، فقد أوقف القرّاء بعد معركة دير الجماجم، وأمره عبد الملك أن يعرضهم على السيف، فمن أقرّ بالكفر في خروجه عليه خلّى سبيله، ومن زعم أنه مؤمن ضرب عنقه.

- قال الحجاج لمطرف بن عبد الله الشخير: أتقرّ على نفسك بالكفر؟ قال: أصلح الله الأمير، إن من شقّ العصا وسفك الدماء، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر، فخلّى سبيله، ثم قال لسعيد بن جبير أتقرّ على نفسك بالكفر؟ قال: ما كفرت منذ

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٨٠.
(٢) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/ ١٣٧.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ١٧٦.

آمنت، فضرب عنقه، ثم استعرض الأسرى، فمن أقر بالكفر خلّى سبيله، ومن أبى قتله. حتى أتى بشيخ وشاب، فقال للشاب: أكافر أنت؟ قال: نعم، قال: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر، فقال له الشيخ: أعن نفسي تخادعني يا حجاج؟! والله لو علمت أعظم من الكفر لقلته، فضحك الحجاج، وخلى سبيله»[١]..

وقد وصف الحجاج نفسه لعبد الملك بن مروان قائلاً:

**«أنا لجوج لدود، حقود حسود، قال عبد الملك: ما في إبليس شرٌّ من هذا»**[٢] وكتب إلى عبد الملك مفضِّلاً إياه على رسول الله ﷺ والعياذ بالله.

قال الحجاج: إن خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلةً من المرسلين[٣]، ولم يعاتبه عبد الملك على هذا، بل أغراه بالجهل، وهذا غير مستبعد من الحجاج في سلوكه الانحرافي، فقد رمى الكعبة بالمنجنيق، وأخاف أهل الحرم، وقد آمنهم الله ورسوله، وارتجز وأهل الشام لدى رمي الكعبة بالقول:

**خطّارة مثل الفنيق المزبد**
**يرمي بها عواد هذا المسجد**[٤]

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢ / ١٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٣٥٤.

(٤) ابن عساكر: التهذيب ٤/٥.

وكان يلتفت الحجاج إلى وفاد المسجد النبوي يزورون رسول الله ﷺ فيقول: «**تباً لهم، إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية، هلاّ طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك. ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله**»[1].

وكان عبد الملك يعجب بكتب الحجاج التي يعظّم فيها الأمويين، ويودّ أن يحاجج الخوارج بها[2].

ولقد بلغ به أصحابه منازل الأنبياء تزلفاً وملقاً، وكان قد تولى كبر ذلك (**مضافاً إلى الحجاج**): يوسف بن عمر وابن شفي وخالد القسري[3].

ومع كل سيئات عبد الملك إلا أنه كتب للحجاج فيما قيل:

جنبني دماء بني عبد المطلب، فليس فيها شفاء من الحرب، وإني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي[4].

ولكنه أشاع القتل في أتباع أهل البيت، وأخذهم على الظنة والتهمة، فسمل العيون، وهدم البيوت، وسجن النساء، وصادر الأموال، وكان جادّاً في تغيير هويتهم العقائدية «**حتى إن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال له: محب لعلي**»[5].

وكان لأتباع أهل البيت ومواليهم في الكوفة النصيب الأوفر من ظلم الحجاج، ووصفهم بأنهم أهل الشقاق والنفاق والمراق، ومساوئ الأخلاق، أما بيت مال المسلمين، فقد بذّر في المؤامرات، وعلى رجال

---

(١) ظ : ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ١٥/ ٢٢٢.

(٢) ظ : الجاحظ : الحيوان ٥/٣.

(٣) ظ : باقر شريف القرشي : حياة الصادق ٣٦/٧ وانظر مصدره.

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٤٠١/٤.

(٥) القندوزي : ينابيع المودة ٥٢٧.

البلاط الأموي، وأغدق فيه على المتملقين والانتهازيين، وكانت للشعراء الرسميين حصة الأسد منه، فقد أمر عبد الملك لجرير بن عطية بمئة ناقة سوداء الحدق، وثمانية رعاء، وصحاف من فضة[١].

ودخل عليه أعشى ربيعة فأنشده:

**وإنـــي وإن فـضّـلـت مـــروانَ وابـنَـهُ**

**على الـنـاس قـد فضّلت خير أبٍ وابـنِ**

فأمر له بعشرة آلاف[٢].

وحينما دهمه الموت شعر بفداحة ما ارتكب من المآثم وعظائم المحارم، فقال: «**وددت أني كسبت قوتي يوماً بيوم، واشتغلت بعبادة ربي وطاعته**»[٣].

وحكي أن عبد الملك لما ثقل، وكان قصره يشرف على بردى، رأى غسّالاً يلوي بيده ثوباً، فقال: وددت أني كنت غسّالاً مثل هذا أعيش بما اكتسب يوماً فيوماً، ولم ألِ الخلافة.

فذكر ذلك لأبي حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه[٤].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/ ٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٣١٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٩ /٦٨.

(٤) ظ: عباس القمي: الكنى والألقاب ١/ ٧٣ وانظر مصدره.

وهكذا شـأن الطغاة، يهلكون الحرث والنسـل، ويسودون صحائف التاريـخ بجرائمهـم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾[1].

وأحسـب أن هذا ـ إن صحّ ـ فهو من الرياء من جهة، ومن النفاق السياسي من جهة أخرى، فعبد الملك وأضرابه لا يستشعرون خوف الله تعالى، فإنه عهد بالخلافة إلى ولده الوليد وأوصاه:

**«انظر إلى الحجاج، فإنه هـو الذي وطّأ لكم المنابر، وهو سـيفك يا وليد، ويدك على من ناواك، فلا تسـمعن به قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا.. فقل بسيفك هكذا..»**[2].

وقد نفّذ الوليد وصية أبيه، فأرخى العنان للحجاج وللطغاة الصغار، وحصد الـرؤوس بسـيفه الدمـوي، وهو شـاب طائش نزق، لـم تهذبه الظروف، ولا عجمت قناتـه الأحداث، فعاش بين باطيـة وزقّ، ومخنث وجاريـة، ومغنية وقينـة، وكان كما قال عمـر بن عبد العزيـز: إنه ممن امتلأت الأرض به جوراً[3].

وكان جبّاراً متطـاولاً، تدخـل في ذهنـه الأباطيل، حتى لقد سـأل الزهري: **«ما حديث يحدثنا به أهل الشـام؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته، كتب له الحسنات، ولم يكتب له السيئات.. قال الزهري: باطل»**[4].

---

(١) سورة المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٢٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٣.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/٦٠.

وكان متهـوراً؛ فقد جلس علـى المنبر يـوم جمعة حتـى اصفرت الشـمس، فقال له أحدهم: إن الوقت لا ينتظـرك، وإن الرب لا يعذرك، قال: صدقت، ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغي لـه أن يقوم مثل مقامك. من ههنا من أقرب الحرس؟ يقوم إليه فيضرب عنقه[1].

وقد أمضى الإمام الصادق عليه السلام في عهده عشـر سـنوات، وهو يرى منكرات الأعمال، والاستهتار بالقيم، ولا حول له ولا طول.

وللوليد هذا مداخلة مع الإمام الصادق، أجملها بما يلي:

فقد دخل الوليد المسـجد النبويَّ في المدينة المنوّرة متفقداً أعمال التوسـعة والتعمير فيه، وازدلف إلى رواق الإمام الباقر عليه السلام التدريسـي، فسلّم علـى الإمـام، وأنصـت إلـى تدريسـه، وكان موضـوع الدرس الجغرافيا، وهو غريب على الوليد، فسـأل الإمام: ما هذا العلم؟ فأجاب الإمام: علم يتحدث عن الأرض والسماء والشمس والنجوم.

وكان الإمام الصـادق عليه السلام ضمن حلقـة أبيه التدريسـية وكان يافعاً فوقع نظـر الوليد عليـه، ومعه عمر بن عبـد العزيز، فسـأله: من يكون هذا الصبي بين الرجـال؟ فقال عمر: هو جعفر بن محمد الباقر، فسـأل الوليد: وهل هو قـادر على فهم الدرس؟ فقال عمر بـن عبد العزيز: إنه أذكى من يحضر درس الإمام، وأكثرهم سـؤالاً ونقاشاً، فاستدعاه الوليد وسأله: ما اسمك؟ فقال عليه السلام: اسمي جعفر فسأله الوليد: أتعلم من كان صاحب المنطق؟ قال الإمام: كان أرسـطو ملقباً بصاحـب المنطق، لقّبه إياه تلامذته وأتباعه.

قال الوليد: ومن صاحب المعزّ؟

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٥٣.

قال الإمام: ليس هذا اسماً لأحد، ولكنه اسم لمجموعةٍ من النجوم، وتسمى أيضاً «**ذو الأعنة**»[١] فاستولت الحيرة على الوليد، وعاد يسأله: هل تعلم من صاحب السواك؟ أجاب الإمام: هو لقب عبد الله بن مسعود صاحب جدي رسول الله ﷺ فقال الوليد: مرحباً ومرحباً بك، وخاطب الإمام الباقر عليه السلام بالقول: «**إن ولدك هذا سيكون علاّمة عصره**».

وصدقت نبوءة الوليد، وتحقق ما توسم في الإمام الصادق، لأنه أصبح أعلم العلماء، بل أعلمهم على الإطلاق[٢].

وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد الوليد عام ستة وتسعين ومات سنة تسع وتسعين، فردّ جملة من المظالم، وانتقم من آل الحجاج، وعهد إلى عبد الملك بن المهلب بتعذيبهم، وعزل جميع ولاة الحجاج[٣].

وأطلق في يوم واحد من سجنه واحداً وثمانين ألفاً، وأمرهم أن يلحقوا بأهاليهم. ووجد في سجن الحجاج ثلاثون ألفاً ممن لا ذنب لهم، وثلاثون ألف امرأة[٤].

وكان سليمان فاتكاً غادراً؛ فبعد أن عزل موسى بن نصير بعد بلائه في الفتوح، أوحى إليه: أغرم ديّتك خمسين مرةً. فقال موسى: ما عندي ما أغرمه، فقال والله لتغرمنها خمسمئة مسألة مرة، فحملها عنه يزيد ابن المهلب[٥].

---

(١) هذه المجموعة من النجوم تسمى في المصطلح: (أوريكا)، أو (أوريجا).

(٢) ظ: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١١١ ـ ١١٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٨.

(٤) ابن عساكر: التاريخ ٥/ ٨٠.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٤٢٨.

وكان مسـرفاً في احتجـان الخراج وجبايـة الأمـوال، وأجحف في حقوق الأمة، فشـكا عامله على مصر أسـامة بن زيد، أنـه أنهك الرعية وأجهدهم، فصرخ سليمان في وجهه: «**احلب الدر، فإذا انقطع فاحلب الدم**»[1].

وكان هذا هو الخطُّ العام للأمويين: سـلب الأموال، وتبديد الخراج وتسليط ولاة الجور، وابتزاز حقوق الشعب المسلم، وتبذيرها في الترف والبذخ، وتوفيرها لدعاة السـلطان من المتزلفين. حتى قال الأسـتاذ فان فلوتـن: «**وبدل أن يتخـذ الخلفاء - خلفـاء بني أميـة - التدابير لمحاسـبة الولاة، ومنعهم من الظلم، نجدهم يقاسـمونهم فـي فوائدهم من الأموال، التـي جمعوها بتلك الطرق المفضوحـة، وهذا معناه رضـى الخلفاء بسـوء تصرف العمال مـن أهل البلاد، بالإضافة إلى أنه دليل على أن بعضهم كان يهمه الخزينة المركزية بالدرجة الأولى**»[2].

وكان سـليمان مبطاناً مسـرفاً في الأكل حتى كبت به بطنته، ولقي حتفه جراء استهتاره بتخيّر الأطعمة، والإكثار منها دون حساب[3].

وحكم بعده عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) فنعى على السابقين له سياستهم الإرهابية، وسلوكهم المشين، وتطاولهم على أعلام المسلمين، وسبهم لسـيد الوصيين، الإمام علي عليه السلام، فرفع عنه السبّ والشتم، وردّ فدكاً للعلويين، ووصل آل أبي طالب.

وأفاد عمر من نصائـح الإمام الباقـر عليه السلام بحدود معيّنـة، ولكنه ما اسـتطاع تغيير الواقع الأموي الراسـخ في عنت الولاة وغطرسة العمّال،

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ٣٢.

(٢) فان فلوتن: السيادة العربية ٧٣.

(٣) ظ: ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/ ٤٣٠ - ٤٣٢.

ولا استطاع الإجهاز على الأرستقراطية الأموية في انتقاء الذهب والفضة ومصادرة الأموال، وهم يرون أنفسهم أسياد الأمة.

وكان دور الشعراء ذكياً في إنكار سياسة الأمويين المالية، فما عرضوا للخلفاء بشيء، وألقوا باللائمة على الولاة والعمال، حذراً من ردّة الفعل المعاكسة من قبل ملوك بني أمية.

وكان الراعي النميري من أجرأ الشعراء حينما خاطب الخليفة الأموي بقوله:[1]

**أخليفة الرحمن إنّا معشرٌ**

**حنفاء نسجد بكرةً وأصيلا**

**إن السعاة عصوك حين أمرتهم**

**وأتوا دواهي لو علمت وغولا**

**أخذوا العريف فقطعوا حيزومه**

**بالأصبحية قائماً مغلولا**

**حتى إذا لم يتركوا لعظامه**

**لحماً... ولا لفؤاده معقولا**

**جاؤوا بصكهم وأحدر أشأرت**

**منه السياط يراعه احفيلا**

**أخذوا حمولته.. فأصبح قاعداً**

**لا يستطيع عن الديار طويلا**

(١) ابن سلاّم: طبقات الشعراء: ٤٣٩.

ولم تنفع هذه الاستغاثة، فكانت صرخة في واد، حتى إذا جاء عمر بن عبد العزيز كان إفراز سيرته عن سيرة ولاته لدى الشعراء، فقد قطع عليه أحد الشعراء خطبته قائلاً[١]:

إن الذين بعثت في أقطارها
نبذوا كتابك.. واستحل المحرمُ
طلس الشياب على منابر أرضنا
كلٌّ يجور. وكلهم يتظلم
وأردت أن يلي الأمانة منهم
عدلٌ.. وهيهات الأمين المسلم

وقال كعب الأشقري مخاطباً له[٢]:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما
عمّال أرضك في البلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذي تدعو له
حتى تجلّد بالسيوف رقابُ
بألف منصلتين أهل بصائر
في وقعهن مزاجر وعقابُ

وهذا نموذج مما قدّم الشعر احتجاجاً في عصر عمر بن عبد العزيز، وقد سبق لنا أن عرضنا المنهج الاحتجاجي في شعر الكميت بن زيد، وهو يتناول الموضوع[٣].

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/ ٣٥٩.
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٣٥٨.
(٣) ظ: المؤلف الإمام الباقر: مجدد الحضارة الإسلامية.

وحكم بعد عمر: يزيد بن عبد الملك، فألغى سـيرة عمر[١]. واعتبره مغروراً، وأسرف في البغي والعبث، وأخباره مع حبّابة جاريته مما يندى له الجبيـن، وحينما ماتت تركهـا ثلاثة أيام بلا دفن حتـى أنتنت، وهو يشـمها ويقبلها، وكلمه بعض جلاوزته بدفنها فأذن فـي مواراتها، وعاد إلى بلاطه كئيباً حزيناً[٢].

ولم يهنـأ يزيد بعـد حبابة بالحياة، فقـد طعن فـي جنازتها، ودفن بعدها في سبعة عشر يوماً[٣].

وكانت أخبـاره في المجـون والغنـاء والخمر والجـواري والقينات والمغنيات قد فتحت باباً من المأسـاة الاجتماعية لم يغلق، وتطلب في مظانها من كتب الغناء.

وقام بعده هشـام بن عبد الملك، شـاهراً السـيف، مغمداً الرحمة، في خلافة قيصرية استمرت عشـرين عاماً، سيطر فيها الإرهاب الدموي، واتسـمت بقطع الرقاب وانتزاع الملكيات، وعرفت بالانتـزاء على الأمة بالسفهاء، والتبذير في كل شـيء، حتى إنه خرج ـ فيما يزعم ـ حاجاً، فحمل ثياب طهره على ستمئة جمل[٤].

وكان طاغيـة جبـاراً، موصوفاً بالشـح والبخـل، ومعروفـاً بالحقد والأنانية، بعيداً عن المروءة قريباً من الفظاظة، خبيث اللسان، لم يحدث نفسه برأفة أو لين.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٢٤١.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ١٩١.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٤٤٥.
(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٤٤٦.

وقد سبق لنا بيان جزء من سيرته مع الإمام الباقر وترحيله إلى الشام، واعتقال الإمام، وتمرد السجانين على الأمر، وإرجاع الإمام إلى الحجاز، بعد توهين استطاع الإمام أن يجعله عليه نقمة وسخطاً[١].

وسلوكه يغلب عليه التهور والانحراف، لا يتزين من الحلم بطائل، ولم يتسع للمعروف في شيء، وليس له من مؤهلات الحكم إلا البطش والطغيان، وكان تمرده على القانون الإلهي طبيعياً؛ فقد بلغه أن ابنه سعيداً ـ وهو واليه على حمص ـ يفجر بالنساء، ويستبيح الزنا، فما نهاه عن ذلك، بل زوّده بتعليمات أدهى وأمرّ، قال له: **«يا بن الخبيثة، تزني وأنت ابن أمير المؤمنين؟! افجر فجور قريش، اقتل هذا وخذ مال هذا»**[٢].

وحسبه من الشؤم المقيت أن كانت ثورة الشهيد زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام في عهده نظراً لما لمسه من فداحة الظلم والجور، وما شاهده من تعطيل الكتاب والسنّة، وما ارتكبه من إذلال الناس وكبت الحريات، وما تلاعب به من مقدرات الشعب المسلم، مما ذكرناه في كتابنا عن زين العابدين عليه السلام وبما سنعرض له في موقعه من هذا الكتاب. وبويع بعده للوليد بن يزيد سنة خمس وعشرين ومئة، وقتل سنة ست وعشرين ومئة، وكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً[٣].

ولم يكن الوليد صاحب دولة وسلطان، فهو جليس جارية و زير نساء، وذهب في الخمرة مذهباً جديداً، فقد اصطنع لنفسه بركة من

---

(١) ظ: المؤلف الإمام محمد الباقر: مجدد الحضارة الإسلامية، الفصل الأول.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٤٤٨.

(٣) الطبري: التاريخ أحداث سنة ١٢٥هـ، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٤٥٢.

الخمر، وكان إذا استخفه الطرب رمى نفسه فيها، وشرب منها حتى يتبين النقص في أطرافها[١].

ووصفه ابن عساكر: **«أنه كان منهمكاً في شراب الخمر، واللذات، ورفض الآخرة وراء ظهره، وأقبل على القصف والتلذذ مع الندماء والمغنين، وكان يضرب بالعود، ويوقع بالطبل، ويمشي بالدف.. ولم يكن في بني أمية أكثر منه إدماناً للشراب والسماع، ولا أشدّ مجوناً وتهتكاً، واستخفافاً بأمر الأمة منه، وقد واقع جارية له وهو سكران، فحلف ألا يصلي بالناس إلا هي، فلبست ثيابه، وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرانة»**[٢].

ولهج الوليد بالنساء والغناء والشراب والصيد، فأرسل إلى المدينة فحملوا له المغنين، فلما قربوا منه أمر أن يدخلوا المعسكر ليلاً، وكره أن يراهم الناس[٣].

وذكر ابن الأثير أن الوليد اصطنع قبة على قدر الكعبة، وأراد أن ينصبها فوق سطح الكعبة، ويجلس هو وأصحابه هناك، واستصحب معه الخمور وآلات الملاهي، وغير ذلك من المنكرات، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ذلك خوفاً من الناس[٤].

وتولى بعده يزيد بن الوليد في رجب سنة ست وعشرين ومئة، وما لبث أن مات في العشرين من ذي الحجة من العام نفسه، فما بدا من سيرته ـ لقصرها ـ ما يعكر مسيرة الإمام الصادق عليه السلام. ثم تولى بعده أخوه إبراهيم، وكان أمره مضطرباً، يدخل عليه قوم فيسلِّمون بالخلافة،

(١) ظ: الجاحظ: الحيوان ١/ ٧٢.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٧/ ٦٤ وانظر مصادره.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٤٥٤.

(٤) ظ: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٢٥٦.

وقوم يسلمون بالإمرة، وقوم لا يسلمون بخلافة ولا إمرة، وجماعة تبايع، وجماعة لا تبايع، فمكث أربعة أشهر هكذا حتى قدم مروان بن محمد، فخلع إبراهيم، وتولى حكم الأمويين[١].

وكان مروان هذا أحزم بني أمية، وأنجدهم، وأبلغهم، ولكنه ولي الخلافة، والأمر مدبرٌ عنهم[٢].

وكثرت الاضطرابات في عهده، ونشطت دعوة بني العباس، وتبعته عساكر العباسيين، فهرب إلى (بوصير) من مصر، وقتل هناك يوم الخميس لخمسٍ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وكان حكمه خمس سنين، وستة أشهر، وعشرة أيام.

ولم أجد فيما بين يدي من المصادر أنه قد ضايق الإمام الصادق عليه السلام في شيء، أو أن الإمام شكا منه، وما ذاك إلا لانهيار الدولة الأموية، وانشغال مروان بما هو أهم، ولله أمر هو بالغه.

وكانت نهاية الحكم الأموي أن شُيّع إلى الأبد، بعد أن ركبوا ما نهى الله عنه، واستحلوا ما حرّم، وسلبوا الحق من أصحابه، واغتصبوا السلطان من أربابه الشرعيين، وناصبوا العداء للأئمة الطاهرين، وتعقبوا أتباعهم تحت كل حجر ومدر، وبالغوا في إخفاء معالم أهل البيت، حتى كان مجرد ذكرهم جريمة لا تغتفر، وشددوا النكير على من ذكر أمير المؤمنين علياً بالذات، حتى إذا روي عنه حديث أو أذيع خبر، كان يقال: قال أبو زينب، أو قال الشيخ.

---

(١) ظ: الجاحظ: الحيوان ١/ ٧٣.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤٦٨/٤.

جاء عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ) أنه سأله أحد الأمويين مسألة، قال: فاسترجعت بنفسي، لأني أقول فيها بقول علي عليه السلام، وأدين الله به، فكيف أصنع؟ ثم عزمت أن أصدقه وأفتيه بالدين الذي أدين به الله، قائلاً إن بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي عليه السلام ولا يأخذون به، وكان عليٌ لا يذكر باسمه بين الفقهاء، والعلامة بين المشايخ أن يقولوا: قال الشيخ»[1].

ومهما يكن من أمر، فقد انتهى حكم الأمويين بهزيمة مروان بن محمد، وانتقم الله منهم انتقاماً كبيراً، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر، فذهبت الصولة، وتلاشى ذلك الطغيان، وتهدَّمت دولة القيان والجواري والصبيان؛ ولكن البديل لم يكن بأفضل منهم، فقد تسلَّط شباب بني العباس على الرقاب، فكانوا أشدَّ فتكاً، وأسوأ أثراً، وأعق ملكاً، وولغوا في الدماء حتى دماء الطيبين، وقتلوا على الظنة والشبهة، واستأصلوا شأفة الأمويين أيما استئصال، فأبيدوا زرافاتٍ ووحداناً، حتى إذا بلغ الإسراف حدَّ العسر والحرج، كان هناك من يريد أن يخفِّف من غلوائهم فما استطاع، وكان لعبد الله المحضّ ـ وهو المكتوي بجمرة الأمويين ـ موقفٌ عُدَّ من المروءة بمكان، فقد روى الأصمعي قال:

«عزم عبد الله بن علي على قتل بني أمية بالحجاز، فقال له عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم:

**«إذا أسرعت بالقتل في أكفائك، فمن تباهي بسلطانك؟ فاعف يعفُ الله عنك»**[2].

---

(١) هاشم معروف الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٥٤.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/ ١٨٨.

وما علم عبد الله المحضّ أن مصيره ومصير ولديه: محمد وإبراهيم على يد بني العباس مع كوكبة من أبناء الحسن عليه السلام.

والحق أن مصير العلويين في القتل والإعدام والتشريد والتغريب لم يكن بأقل من مصير الأمويين، حتى قال القائل:

فليت جور بني مروان عاد لنا
وليت عدل بني العباس في النار



# الإمام وقيادة الانقلاب العباسي



هناك حقيقة تاريخية ثابتة ـ قلَّ من تنبّه إليها ـ وهي:

أن العباسيين كانوا بمعزل عن قيادة أهل البيت السياسية منذ عهد مبكر، كانوا يعملون ويخططون لأنفسهم وهم يستقبلون الحدث السياسي بتخطيط دقيق، ويوجهون تطلعاتهم بسرّية تامّة، ووفق معايير قيادية مدرَّبة خاصة بهم. ولم يكن أمراً اعتباطياً أن يخلو ميدان الطف من العباسيين شيوخاً وشباباً وحفدة، وهم يشكّلون عدداً ضخماً لدى ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء. بل كان الاستغراق السلبي تجاه أحداث الثورة ومآسيها، لا يفسَّر إلا بالتكتُّل الذاتي لدى بني العباس، دون أي تفكير بالاندماج في خط أهل البيت عليهم السلام، وقد يصوِّرون أنفسهم للسلطات الحاكمة من بني أمية أنهم في منأىً عن المعارضة، فتعجل لهم الصلات، وينفردون بالعطاء الجزل، ويتمتعون بالحرية التامة تنقلاً واستقراراً وتنظيماً.

واستغلّ العباسيون المناخ الدامي شعبياً، فأشاعوا «**ظلامة أهل البيت**» بين صفوف السواد الأعظم، وأثاروا بذلك مشاعر الناس لحسابهم الخاص، واتصلوا بالعشائر والقبائل والزعامات، وهم يتفجعون لما

أصاب الحسين عليه السلام، وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ليصبّ هذا التفجُّع والتوجُّع في روافد رصيدهم لدى الشعب المسلم.

فهم في فرجة سياسية من الأحداث، لم يشاركوا فيها، ولم يؤيدوا رجالها، ولم يكتووا بلهبها، ولم يتحملوا حتى الجزء اليسير من تبعاتها، فهم مع السلطان في أمانيه وأحلامه، وهم في صومعة تبتعد أواصر بالثوار من أهل البيت، ولكنهم يهيِّؤون أنفسهم للانقلاب على الأمويين، دون إثارة أو حساسية، في الوقت الذي يجاملون به العلويين، ويُظهرون الانخراط في صفوفهم خديعةً ومكراً.

ولم يكن لبني العباس في العصر الأموي كيان اجتماعي، ولا أثر من عزم أو حزم أو سياسة، وإنما كانوا في الظل تجاه المركز المنظور لأهل البيت عليهم السلام ولم يدر بخلد أحد من بني العباس أن الحكم سيصل إليهم لولا ما أوحى به أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب قبيل موته، فقد أفضى بأسرار الدعوة في سنة ثمانٍ وتسعين من الهجرة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وعهد إليه أن ينهض بأعبائها، وعرف بينه وبين دعاتها[1].

ومن هذا الطريق كان للجيل الأول من العباسيين علم بما سيؤول إليه أمر الخلافة، حتى تسرَّب ذلك إلى الأمويين، فقد ضرب الوليد بن عبد الملك عليَّ بن عبد الله بن عباس بالسياط، وشهره بين الناس، وصائح يقول: هذا علي بن عبد الله الكذّاب، فقال له قائل: ما الذي نسبوك إليه من الكذب؟ قال: بلغهم قولي: إن هذا الأمر سيكون في ولدي، والله ليكوننّ فيهم حتى يملكه عبيدهم الصغار العيون.. وكذلك

(١) ظ: المسعودي: التنبيه والإشراف ٣٢٨.

قال هشــام بن عبد الملك مشــيراً إليه: إن هذا الشــيخ قد خرف وأُهترّ، يقول إن هذا الأمر ســينتقل إلى ولده، فسمع عليٌّ كلامه، فقال: أي والله ليكونن ذلك، وليملكن هذان، مشيراً إلى المنصور والسفاح[1].

وقد أجاب النقيب أبو جعفر يحيــى بن زيد، أجاب ابن أبي الحديد عن ســؤال يقول: من أيِّ طريق عرف بنو أمية أن الأمر ســينتقل عنهم، وأنه ســيليه بنو هاشــم..؟ فقال: أصل ذلــك كلِّه، محمد بــن الحنفية، ثم ابنه عبد الله المكنى أبا هاشــم؛ فقد طالب بالميــراث العلمي - من الحسن والحســين عليهما السلام - فدفعا إليه صحيفة لو أطلعاه على أكثر منها لهلك، فيها ذكر دولة بني العباس، وصارت عند أبي هاشم، فدفعها إلى محمد بن علــي بن عبد الله بن عبــاس، وهي التي كان آباؤنا يســمونها صحيفة الدولة، في صندوق من نحاس صغير..[2]

واشرأبت أعناق العباسيين للخلافة على حذر وخوف ووجل، ولكنّ مؤتمر الأبواء الذي عقده الهاشــميون قد قارب بين أحلامهم، وتصريح الإمام الصادقعليه السلام بحقيقــة الأمر قد لــوّح لهم بانتصارهــم، بل جزموا بذلك وعقدوا عليه الخناصر.

لقــد تــداول العلويون مــن أبناء الإمــام الحســن بن علــي بن أبي طالب عليه السلام والعباســيون من أبنــاء علي بن عبــد الله بن عباس شــؤون الدعوة والدعــاة، وحديــث الانقضاض علــى الحكم الأمــوي، واختيار المؤهل للخلافــة من بينهــم، فعقدوا في الأبــواء مؤتمراً ســرياً حضره مــن العباســيين إبراهيم الإمــام، ومعه: الســفاح والمنصــور وصالح بن

---

(١) ظ: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧/ ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ٧/ ١٤٩.

علي وسواهم، ومن العلويين عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين، ومعه ابناه: محمد وإبراهيم، ومحمد بن عبد الله بن عمرو وغيرهم.

ولدى تكامل هذا الجمع بعيداً عن الرؤية الإعلامية والرصد الأمني لأجهزة الحكم الأموي، قام فيهم خطيباً صالح بن علي قائلاً:

**«إنكم القوم الذين تمتد أعين الناس إليهم، فقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاجتمعوا على بيعة أحدكم، وتفرقوا في الآفاق، وادعوا الله أن يفتح عليكم وينصركم»** فقام أبو جعفر المنصور وقال:

**«لأي شيء تخدعون أنفسكم؟ والله لقد علمتم: ما الناس أميل أعناقاً، ولا أسرع إجابةً منهم إلى هذا الفتى، وأشار بيده إلى محمد بن عبد الله بن الحسن، فآمنوا على قوله بالقول: صدقت، إنّا لنعلم هذا. وقاموا فبايعوا محمداً ذا النفس الزكية جميعاً بما فيهم إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور»**[1].

وكان هذا الانفراج من العباسيين - في أغلب الظن - خدعةً سياسيةً، فقد يراد بها استشرافهم على عمل العلويين الثوري، وبخاصة أبناء الإمام الحسن عليه السلام، لأنهم يتسمون بالعنف والحمية والغضب للدين وللأمة، ولقد كان يجول في خواطر بني العباس ما تداولوه من أمر صحيفة الدولة، وإلا فبماذا نفسر قول عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور، لعبد الله بن الحسن، وقد تجاذبا أطراف الحديث في آخر أيام بني أميّة، و معهما داود بن علي، فقال داود لعبد الله بن الحسن:

(١) أبو الفرج الأصبهاني، مقاتل الطالبيين ٢٥٦.

«لم لا تأمر ابنيك بالظهور؟ فقال عبد الله بن الحسن: لم يئن لهما بعد، فالتفت إليه عبد الله بن علي قائلاً: أظننت أن ابنيك قاتلا مروان؟ فقال عبد الله بن الحسن: إنه ذلك، قال: هيهات، ثم تمثل:

سيكفيك الجعالة مستميتٌ

خفيف الحاذِ من فتيان جَرْمِ

أنا والله أقتل مروان وأسلبه ملكه، لا أنت ولا ولدك»[1].

وكان الإمام جعفر الصادق عليه السلام في غياب عن اجتماع الأبواء.

ولم يفكر أن يتجه إلى العمل السياسي بالشكل الذي يذهب إليه هؤلاء وهؤلاء، وله تكليفه الشرعي باعتباره إماماً، إلا أن الهاشميين أرسلوا إليه لدى مبايعة النفس الزكية، وعرضوا عليه ما توصّلوا إليه، فنهى بني عمه الحسن عن التورط في هذه المتاهة الكبرى، وقال: «**لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد**».

فغضب عبد الله بن الحسن، وحسب هذا الموقف من الحسد، فبدره الإمام: «**لا والله ما ذاك يحملني، ولكن هذا - وأشار إلى أبي العباس السفاح - وأخوته، وأبناؤهم، دونكم**».

وخرج الإمام عن الاجتماع، فتبعه عبد الصمد، وأبو جعفر المنصور، فقالا له: «يا أبا عبد الله أتقول هذا؟

قال: نعم، والله أقوله وأعلمه»[2].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٧٤.

(٢) أبو الفرج الأصبهاني: مقاتل الطالبيين ٥٥٥.

وطلب الإمام من عبد الله المحض أن يتخلى عن هذا الأمر، حقناً لدمائهم جميعاً، فأبى ذلك، فقال الإمام: **«إنها - أي الخلافة - والله ما هي إليك، ولا إلى ابنيك، ولكنها لهؤلاء - وأشار إلى بني العباس - وإن ابنيك لمقتولان»**[(١)].

وكان اللمح الغيبي للإمام الصادق عليه السلام قد تحقق بالفعل؛ لأن مورده آباؤه الطاهرون، فقد روى العباسيون والعلويون عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه افتقد عبد الله بن عباس، فقال لأصحابه:

**«ما بال أبي العباس لم يحضر؟ قالوا: ولد له مولود، فلما صلى علي عليه السلام الظهر، قال: انقلبوا بنا إليه، فأتاه فهنأه، فقال له: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، فما سميته؟ قال: لا يجوز لي أن أسميه حتى تسميه أنت. فأمر به فأُخرج إليه، فأخذه، فحنكه، ودعا له وردّه، وقال: خذه إليك أبا الأملاك، وقد سميته عليّاً، وكنّيته: أبا الحسن»**[(٢)].

وقد صكّ العباسيون أسنانهم على هذه الرواية، فقد جاءتهم من عين صافية لا شائبة معها، وتحفزوا للدعوة بكل ما أوتوا من حول وطول، وجنّدوا لها الإمكانات والإعلام والدعاية بكل وسائلها، فلم يدعوا فرصة إلا اهتبلوها، ولا ثغرة إلّا سلكوها، والتمسوا لدعوتهم خراسان دون بقية الحواضر، فالكوفة علوية، والبصرة عثمانية، والجزيرة خارجية، والشام أموية، ومكة والمدينة بمعزل عن الاتجاهات.

وما وفى العباسيون لبيعة محمد ذي النفس الزكية، وإنما استأثروا بالمكاسب لأنفسهم فحسب، واستغلوا ظلامة أهل البيت لصالح

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني: مقاتل الطالبيين ٥٥٥.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ١٠٣.

الدعوة، واستشرقوا للمجتمع الإسلامي، وهم يصورون مقتل أمير المؤمنين، وسم الإمام الحسن واستشهاد الإمام الحسين، وتضحية مسلم بن عقيل، ومصرع زيد بن علي، ومقتل يحيى بن زيد عليهم الصلاة والسلام. بأن جميع ذلك كان اعتداء أثيماً على رسول الله ﷺ بالذات، وهو كذلك، ولكنهم ما أرادوا ذلك، وإنما شهروا تلك الأسماء اللامعة بمآسيها الدامية شواخص للإنكار على الحكم الأموي، بغية الإفادة منها في الانقضاض عليه.

ولدى دراسة مسيرة الدعوة العباسية يظهر بوضوح أن العباسيين انطلقوا بدعوتهم من الكوفة، وخراسان لا من خراسان وحدها، إلا أنها كانت محاطة بالسريّة التامة في الكوفة، وأسفرت عن وجهها في خراسان؛ فقد وجه زعيمها محمد بن علي ـ والد السفاح والمنصور ـ بمولى أبيه (ميسرة) يتولى نشر الدعوة سراً في الكوفة، ويموت ميسرة فيعهد بها إلى بكير بن ماهان، ويظهر ابن ماهان من التفاني في الدعوة والعمل لها ما يفوق حد التصور، كان ذلك في خلال عشرين عاماً حتى وفاته سنة ١٢٧هـ، ويستخلف أبا سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد، فيجد في الأمر ما استطاع لذلك سبيلاً.

وقد مهّد هؤلاء منذ عام مئة للهجرة حتى عام ١٣٢هـ للدعوة في الكوفة سراً، واحتضنوا مخطط بني العباس في الاستقلال بالحكم دون العلويين، واستطاعوا أن يخفوا بين ظهرانيهم أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور، حتى بويع للأول منهما في الكوفة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول عام ١٣٢هـ.

وأمّا في خراسان فقد أرسل العباسيون الدعاة في أعداد هائلة، وهي تذكّر الخراسانيين بفوادح الخطوب التي سببها الأمويون للهاشميين،

وكان هذا من توجيه شيخ الدعوة العباسية محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في قوله: «**ولكن عليكم بأهل خراسان، فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل وهامات، ولحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة، وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق**»[1].

وكان هذا التوجه إستراتيجياً فيما ذكره وفصّل فيه القول خَلقياً ونفسياً وإعلامياً كما رأيت، فقد أكّد على العُدَّة والعدد والأجسام والأصوات، واللغات وفخامة الألفاظ وتضاءل بمشرق الدنيا.

ويموت محمد بن علي فيتولّى زعامة الدعوة إبراهيم الإمام. فيعيّن قبل مقتله أبا مسلم الخراساني، وكان عمره تسعة عشر عاماً، قائماً على الدعوة بخراسان، وقد جاء بكتاب التأمير:... «**أني قد أمرت أبا مسلم بأمري، فاسمعوا له وأطيعوا، وقد أمرته على خراسان، وما غلب عليه**»[2].

وكان هذا الترشيح مدعاة معارضة من قِبَل زعماء العباسيين ودعاتهم على حدٍّ سواء، ولكن إبراهيم كان مصيباً ـ سياسياً ـ في دراسة هذا الرجل، عارفاً بقابلياته وقيادته الباهرة، وكان من أهم أسباب نجاح العباسيين اعتمادهم على عنصر الشباب في الدعوة، وإعطاؤهم صلاحيات بلا حدود، فاستماتوا من أجلهم، وقامت الدعوة على قدم وساق، وانطلقت علنياً بقيادة أبي مسلم لتستولي على تلك القصبات والأقاليم بعشرات الآلاف من المقاتلين المعاندين، واندفعت الرايات

---

(١) البشاري المقدسي: أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم ٣/ ٣٩٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك أحداث ١٢٨هـ.

السود من خراسان سنة إحدى وثلاثين بقيادة (قحطبة الطوسي) لتحتلَّ الكوفة الغرّاء.

ويسير الأمويون يريدون الكوفة أيضاً، ويلتقي الجيشان على ضفاف الفرات بالقرب من الكوفة، وتدور رحى القتال على أشدِّها، ويتم النصر لقحطبة بعد أن يقتل. ويستولي محمد بن خالد القسري على الكوفة، ـ وهو عباسي النزعة ـ ويخرج والي الأمويين وأهل الشام منها[١].

ويتولّى الحسن بن قحطبة الطوسي قيادة الجيش العباسي بعد أبيه، ويدخل الكوفة فاتحاً، فيسلم الأمر إلى أبي سلمة الخلال[٢].

ويخرج أبو العباس السفاح من مخبئه، ويدخل قصر الإمارة، ويتسلل منه إلى جامع الكوفة، فيبايع بالخلافة[٣].

وبهذا يتحوّل الحكم في الدولة الإسلامية من الشام إلى العراق، وتنتقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى الكوفة، مما راق لأهل الكوفة أول الأمر، ففي مراسم إعلان السفاح خليفة، وقف عمُّه داود بن علي، يلقي خطبة الاستخلاف، يهاجم فيها بني أمية، ويعلن:

**«ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد»**[٤].

وكانت المناداة باسم أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام خطة أيديولوجية مؤقَّتة، ريثما يتم توطيد دعائم الحكم الجديد، وهو بَعْدُ

(١) ظ: المؤلف: الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري ٣٣٤.
(٢) ظ: المسعودي: مروج الذهب ٢/ ١٧٥.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ١٧٦.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ١٦٧.

يــدرج، إلا أن العراقيــن عامــة، والكوفيين خاصــة، قد اغتبطــوا بهذا الإعلان، لاعتقادهم بأن دولة فتية، ذات شــوكة وقوة سوف تنتهج سياسة الإمام علي عليه السلام، في الحــق والعدل والمســاواة، وتذيقهــم لباس الأمن والدعة والاســتقرار، وما ألهفهم علــى هذا، فقد قســت عليهم الظروف وجار الســلطان، ولكن الذي حــدث كان على الضدّ ممــا تصوروا، فلم تكن حركة العباســيين ثــورة على مظاهــر الظلم والاســتبداد والإرهاب الدموي، بل كانت انقلاباً اســتبدل طغاةً بطغاة، وحكّامــاً بحكّام لا أكثر ولا أقلّ، إذ لــم تغيّر فكراً بفكــر، ولا منهجاً بمنهج، نعم؛ اســتعاضت عن الأرســتقراطية العربية الطاغية بأرستقراطية فارسية طاغية، واستبدلت الطغام الصغار مــن ولاة الأمويين بطغــام كبار من قــوّاد الفرس، وعمر الميدان من جديــد بالجبابرة والطواغيــت، وأقبلت الفتــن كقطع الليل المظلم يدهــم بعضها بعضــاً، وأدرك العراقيــون أن الظلم العباســي لا يقلّ ضراوةً وغطرســةً عن الظلم الأموي إن لم يزد عليه، وأصيب شيعة أهل البيت بخيبة أمل، ونفضوا أيديهم مــن أبناء عمومة العلويين، وعاد الحديث كأمــس الدابر، فبدلاً من أن يرفع بنو العبــاس الضيم عنهم، أو يخففوا عبء السنين العجاف عن كواهلهم، وإذا بهم يترصدونهم تحت كلِّ حجر ومــدر، وإذا بأبناء علــيّ أمير المؤمنين يســتبعدون من جديد عن الحكم والولايات كما اســتبعدوا في عصور الأمويين، وإذا بدمائهم تسيل كلَّ مسيل، وإذا بشــيعتهم يكتالون بالميزان الأوفى أطنان الحيف والتعسف والاضطهاد، ويخضعون لأبشع مآسي القتل الجماعي.

يقول الأستاذ فان فلوتن: **«إن ما لقيه العلويون من الاضطهاد في عهد الأوليَّين – يعني السفاح والمنصور – من خلفاء بني العباس، لم يلقوا مثله من قبل»**[1].

---

(١) فان فلوتن: السيادة العربية ١٠٨.

ومهما يكن من أمر، فقد كان للاستئثار السياسي في كل مرافق الدولة الكبيرة، وسدّ منافذ التعددية؛ الأثر السلبي في تأليب الفكر الشيعي ضد الحكم، فما نعمت الدولة العباسية بالدعة والاستقرار، بل **«اندلعت الثورات في أرجاء الدولة الإسلامية في وجه العباسيين، وانتشرت الاضطرابات، وتعرّض الخلفاء وولاتهم لأزمات شديدة، فاضطروا أن يسرفوا في سفك الدماء، ولم يتورَّعوا أن يرتكبوا أفظع الجرائم وأشدها هولاً في سبيل تأمين سلامة عرشهم»**[1].

ولو أن العباسيين أنصفوا الناس، واحتاطوا لأنفسهم، وسلكوا المحجة البيضاء، وتركوا أتباع أهل البيت على فطرتهم، وعدلوا فيما بينهم، واستضاؤوا بتوجيه أئمة الحق، لما حدثت تلك المآسي الدامية، ولما تفجَّر الموقف بالصراع الذي لم يُبقِ ولم يذر، ولكنهم دعاة ملك وطغيان، لا طلَّاب دين وإيمان، والسلطان شيء، والدين شيء آخر، فإن الدين قيد الفتك والسفك، والملك يبيح المحظورات، وهم أبناء دنيا ولهو وخلاعة، وقادة جور وجبروت في الأرض.

وكان الإمام الصادق عليه السلام، قد اكتوى بهذه السياسة الحمقاء، وأدرك من الطغاة، أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور.

وليس من الأصالة في شيء المقايسة بين دعاة الظلم ودعاة الحق، ولا من الإنصاف أن نضع هذين الجبارين في قبال الإمام الصادق عليه السلام ولا من سبيل كما يرى ذلك الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

**«لأيِّ وجه من وجوه المقارنة بين جعفر بن محمد الصادق، وبين أولئك المتربعين على أرائك الحكم من الفسقة الفجرة؛ شاربي الخمور، ومرتكبي الشرور،**

(١) يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة ١٠٨.

وقاتلي النفوس المحترمـة، ولا مجال لأي شـك أو تردد في كون جعفـر بالذات هو الإمام الأوحد في ذلك العصـر، الذي يجب على كل مسـلم الإقرار بإمامتـه الدينية، والإيمان بولايته الشرعية، والاعتراف بعدم وجود أي منازع له في ذلك بالقطع واليقين القائمين على النص والتعييـن من جانب، وعلى اجتماع الشـروط والصفات من جانب آخر.. وهل الانقلاب العسكري وسيلة شرعية من وسائل الإمامة كما فعل العباسيون عندما انتصروا على الأمويين في الحرب، وانتزعوا منهم السلطة، وادّعوا بأنهم أصبحوا الأئمة والخلفاء بعد رسول الله؟؟»[١].

---

(١) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ٥٢.



# الإمام الصادق وخلافة السفاح



واستهلّ أبو العباس السفاح خلافته بخطاب العرش في جامع الكوفة، فصعد المنبر، وقال: «يا أهل الكوفة، أنتم محلّ محبتنا، ومنزل مودّتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مئة درهم، فأنا السفّاح المبيح، والثائر المنيح»[١].

فسمي السفاح لهذا الخطاب، وذكر صاحب الكنى والألقاب: «قيل لقب بالسفاح لكثرة سفحه دماء المارقين من بني أمية وغيرهم»[٢].

ونزل أبو العباس من المنبر ومعه عمُّه داود بن علي حتى دخل قصر الإمارة، وبقي أبو جعفر المنصور في المسجد يأخذ البيعة فيه على الناس، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلّى بهم العصر ثم المغرب والعشاء إلى ساعة متأخرة من الليل[٣]، وأنت ترى في هذا الخطاب استثمار السفاح لولاء أهل البيت في الكوفة، فمحبة الكوفة لعلي ووُلده عليهم السلام، ومودّة أهل الكوفة لذوي القربى، وأهل الكوفة لم يتغير

(١) ظ : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/ ٣٢٥.
(٢) ظ : عباس القمي : الكنى والألقاب ٢/ ٢٨٩.
(٣) ظ : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/ ٣٢٥.

ودّهم عن أهل البيت، فهي مستقر شيعتهم، وملتقى أوليائهم، وأكرم الناس عليهم، والحاكم الجديد جرّد من نفسه ممثلاً لأهل البيت، وأهل البيت شيء، وبنو العباس شيء آخر، فهو إذاً يستغلُّ ولاء الكوفة لغيره ليفيد به لنفسه، واستبشر الكوفيون بادئ الأمر في هذا المنحى، ولكن سرعان ما تبدَّدت الأوهام وخابت الظنون، فقلب لهم النظام ظهر المجنّ، وكانوا على العلويين وأهل الكوفة على سواء، أشدَّ من الأمويين انتقاماً، وارتكبوا في حقهم فظائع الأمور كما سترى هذا. ولم يرق لأبي العباس مقره في الكوفة، وهي عاصمة علي وولده عليهم السلام، فخرج منها مسرعاً، وأقام بمعسكر أبي سلمة الخلال في حمّام أعين، ريثما يبني عاصمة ملكه في الهاشمية.

ووجَّه السفاح بجيوشه لقتال مروان بن محمد بقيادة عمه عبد الله بن علي، وكان مروان الحمار من أحزم ملوك بني أمية، فاستعدّ للمعركة استعداداً كاملاً، ونزل الزاب قرب الموصل، وجرّد من رجاله مئة ألف فارس على مئة ألف فارح، وكانوا ممن اختارهم من أهل الشام والجزيرة، ونظر إليهم، وقال: «**إنّها لعدّة، ولا تنفع العدّة، إذا انقضت المدّة**»[1].

وكأن مروان كان متشائماً في هذه المعركة مع إعداده لها، لأنه شعر بزوال الملك الأموي، نظراً لما سبق إليه من الروايات.

وكان قائد العباسيين عبد الله بن علي فاتكاً جريئاً، سار بالمسودة من أنصار الدولة الجديدة، وقد شارف الزاب في جيشه، وفي أوائلهم البنود السود، تحملها الرجال على الجمال البُخت، وقد جعل لها بدلاً من القنا أعمدة الصفصاف والغرب، وفي ذلك من الرهبة والجلبة

---

(١) ظ: المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٦٥.

والإعـلام المضاد ما امتلأت به قلـوب الأمويين فزعاً، حتـى قال مروان لمن حوله: «**أما تـرون رماحهم كأنها النخـل غلظاً، أما تـرون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السـود. فبينما هو ينظرها ويعجب، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السـود، فنزلت على أول عسـكر عبد الله بن علي، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود، ومـروان ينظر، فازداد تعجبـه وقال: أما ترون إلى السـواد قد اتصل بالسواد حتى صار الكل كالسحب السود المتكاثفة**»[1].

إن هـذا الفَرَق والذهـول والتعجُّب الـذي أصاب مـروان يدل على الانهيار المعنوي العام، فقد تزلزلت قدماه مـن تحته، وقد ارتجف قلبه بين جنبيه، فشكل مناخاً نفسياً لديه لا يحسـد عليه، وكان هذا الشعور المتدفق في تهويله أول الهزيمة كما سترى.

وتسـاءل مروان عن قائد الجيش، فقيل له: عبـد الله بن علي، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم خاطب صاحبـاً بالقرب منه قائلاً: أتعلم لم صيَّرت الأمر بعدي لولدي عبد الله وابني محمد أكبر منه؟ قال: لا، قال: إن آباءنا أخبرونا أن الأمـر صائر بعدي إلى رجل اسـمه عبد الله فولّيته دونه، ثم بعث مروان بعـد أن حدّث صاحبه بهذا إلـى عبد الله بن علي سـراً، فقال: يا بن عمّ، إن هذا الأمر صائر إليك، فاتق الله واحفظني في حرمي، فبعـث إليه عبـد الله: إن الحق لنا فـي دمـك، وإن الحق علينا في حرمك»[2].

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧/ ١٣٤.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٧٤.

قال ابن أبي الحديد: إن مروان ظن أن الخلافة تكون لعبد الله بن علي، لأن اسمه عبد الله، ولم يعلم أنها تكون لآخر اسمه عبد الله، وهو أبو العباس السفاح[1].

ومهما يكن من أمر، فقد استعر لهيب الحرب بين الطرفين، واندحرت الجيوش الأموية اندحاراً مروّعاً، واستولى العباسيون على المعسكر يقتلون ويأسرون ويغنمون، وكان القتل على أحرّه، حتى تفرقوا أيدي سبأ، وانهزم مروان شرَّ هزيمة نحو الموصل، فمنعه أهلها من الدخول، فأتى حرّان، وكانت دار إقامته، فاتبعه عبد الله بن علي بجنوده، فهرب مروان وعبر الفرات، ونزل عبد الله بن علي على حرّان، فهدم قصر مروان بها، وكان قد أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم، واحتوى على خزائن مروان وأمواله، وانحدر مروان مع شرذمة قليلين من أتباعه، ونزل قريباً من حمص عند نهر أبي فطرس، وطاردته جيوش العباسيين، فسار يريد دمشق، فبلغه احتلال بني العباس لها، وقد قتل فيها عبد الله بن علي جمهرةً كبيرةً من الأمويين وأتباعهم، ونزل على نهر أبي فطرس، فقتل من بني أمية هناك بضعة وثمانين رجلاً، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومئة[2].

أما مروان فقد هرب من أبي فطرس، ونزل فلسطين بعد أن رفعت المسودة أعلامها في الأردن، فانهارت قواه، وتملكه الذعر من بطش العباسيين، فهرب بأهله وذويه إلى مصر، ونزل في قرية (بوصير) فتبعه صالح بن علي ومعه عامر بن إسماعيل، فقتلوه وقتلوا من كان معه من أهله وبطانته، وهجم على الكنيسة التي فيها بناته ونساؤه فأخذهن،

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧/ ١٣٥.

(٢) ظ: المصدر نفسه ٧/ ١٢٢.

وجرت بين صالح بن علي وابنة مروان محاورة ومناظرة، انتهت بحمل النساء إلى حران بناء على طلبهن[١].

وحمل رأس مروان إلى أبي العباس السفاح، فلما أتي به سجد وأطال، ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي لم يبقِ ثأرنا قبلك وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك، وأظهرنا عليك، ما أبالي متى طرقني الموت، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بني أمية، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي كما أحرقوا شلوه، ثم تمثل بقول العباس بن عبد المطلب:

لو يشربون دمي لم يَرْوِ شاربهم
ولا دماؤهمُ جمعاً ترَوِّيني

ثم حوّل وجهه للقبلة، فسجد ثانية ثم جلس فتمثل:

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت
قواطعُ في أيماننا تَقطُرُ الدّما

تورثن من أشياخ صدق تقربوا
بهن إلى يوم الوغى فتقدما

إذا خالطت هام الرجال تركتها
كبيض نعامٍ في الثرى قد تحطّما

ثم قال: أما مروان فقتلناه بأخي إبراهيم، وقتلنا سائر بني أمية بحسين، ومن قتل معه وبعده من بني عمنا أبي طالب[٢].

---

(١) ظ: المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٦١ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢.

وتتبع العباسيون بني أمية في كلٍّ من الحجاز والشام والكوفة والبصرة والجزيرة والري وخراسان والحيرة وواسط، وقتلوهم قتلاً ذريعاً لا مثيل له، وفرّ منهم من فرّ لا يلوي على شيء، وقصدوا بجاوه والمندب، ثم تحولوا إلى مكة في زي الحمالين[١].

واختفى الكثيرون منهم، واستتر آخرون، ومنهم من طلب الأمان إلى السفاح فآمنه[٢] ومنهم من حرض الشعراء على قتله فقتل شر قتلة، كما حصل هذا لسليمان بن هشام ومن معه من بني أمية[٣]. ولثمانين أموياً كانوا عند السفاح لما حرضه عليهم مولاه سديف بن ميمون[٤].

وكان داود بن علي يمثِّل ببني أمية، يسمل العيون، ويبقر البطون، ويجدع الأنوف، ويصطلم الآذان. وكان عبد الله بن علي يصلبهم منكسين، ويسقيهم النورة والصبر، والرماد والخل، ويقطع الأيدي والأرجل.

وكان سليمان بن علي بالبصرة يضرب الأعناق[٥].

لقد ضاقت الأرض بما رحبت على بني أمية، وشملهم القتل الذريع، وذاقوا كأساً مصبرة من الجزاء، وما اكتفى العباسيون بذلك، بل زادوا عليه بتعقب الأموات، ونبش القبور، واستخراج الجثث.

فقد روى المسعودي في (مروج الذهب) عن الهيثم بن عدي قال: حدثني عمرو بن هاني الطائي، قال: خرجت مع عبد الله بن علي لنبش

---

(١) ظ: اليعقوبي: التاريخ ٣/ ٨٤.

(٢) ظ: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٠٦.

(٣) ظ: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧/ ١٢٨.

(٤) قارن في ذلك بين المبرد في الكامل شرح المرصفي ٨/ ١٣٤ وابن أبي الحديد ٧/ ١٢٥.

(٥) ظ: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧/ ١٥٦.

قبور بني أمية في أيام أبي العباس السـفاح، فانتهينا إلى قبر هشـام بن عبد الملك، فاسـتخرجناه صحيحاً، ما فقدنا منه إلا عرنين أنفه، فضربه عبد الله بن علي ثمانين سـوطاً ثم أحرقه، واسـتخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابـق، فلم نجد منه شـيئاً إلا صلبه ورأسـه وأضلاعه فأحرقناه، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية، وكانت قبورهم بقنسـرين، ثم انتهينا إلى دمشق فاسـتخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيـراً، واحتفرنا عن عبـد الملك فما وجدنا إلا شـؤون رأسـه، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منـه إلا عظماً واحداً، ووجدنا من موضع نحره إلى قدمه خطاً واحداً أسود، كأنما خط بالرماد في طول لحـده، وتتبعنا قبورهم فـي جميع البلـدان، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

قال ابن أبي الحديد: قـرأت هذا الخبر على النقيـب أبي جعفر بن أبي زيد العلوي في سـنة خمس وسـتمئة، وقلت له: أمّا إحراق هشـام بإحراق زيد فمفهوم، فما معنى جلده ثمانين سوطاً؟

فقال رحمه الله: أظن عبد الله بن علي ذهب في ذلك إلى حدّ القذف، لأنه يقال: إنه قال لزيد: يا بن الزانية، لما سـبّ أخاه محمداً الباقر عليه السلام، فسبّه زيد، وقال له: سماه رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم الباقر، وتسـميه أنت البقرة!! لشد ما اختلفتمـا، ولتخالفنه في الآخـرة، كما خالفته في الدنيـا، فيرد الجنة وترد النار.

وهذا استنباط لطيف[1].

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧/ ١٣١ ـ ١٣٢.

وهكذا نجد الإجهاز على الأمويين من قبل العباسـيين صاعاً بصاع، تحقيقاً لمضامين الحديث القدسي: الظالم سيفي انتقم به وأنتقم منه.

وقد شهد الإمام الصادق عليه السلام هذه الأدوار الانتقامية وهي تمثل على مسـرح الحياة السياسية في عهد السـفاح، دون التدخل في شؤونها، ولا التعرض لقيادتها، ولا الاتصال بأبطالها إلّا ما أُكره عليه، وكان في شغل شاغل عن هذه المشاهد بالقيام بمسـؤوليته الشرعية في نشر علوم أهل البيت، وتطوير المدرسـة العلمية التي ثبت قواعدها أبـوه الإمام محمد الباقر عليه السلام من ذي قبل، واسـتطاع بذلك أن يفوّت الفرصة على السفاح وأجهزته مـن المجابهة، وإن لم يسـلم من المراقبة، علـى أن الإمام قد تحرك علميـاً ـ وفي الحركـة الحياة ـ فانتقـل إلى الكوفـة حيناً، ثم أقام في الحيرة حينـاً آخر، وذلك في عهد السـفاح، أمّا في الكوفة فقد تفرغ لإفاضة العلـم الخالص، وحدب على أتباع أهـل البيت في رعاية روحية شـاملة، وحقق حياة عقلية في المبادئ العليا لأصول العلوم كان ثمرتها جمهرة من الفقهاء والمحدثيـن وفطاحل العلماء، حتى قال علي بن الحسن الوشـا قوله المشـهور الذي تناقله أغلب الرواة: «**أدركت في هذا الجامع تسـعمئة شـيخ كلٌّ يقول: حدثني جعفر بن محمد الصـادق**» وهو يعني بذلك جامع الكوفة، وهذا ينحل إلى وجود تسـعمئة حلقة دراسـية في شتى المعارف يشرف عليها أحد العلماء وهي موصولة الحلقات بالإمام الصادق عليه السلام.

وأمّا في الحيرة، فقد كان احتفاء المسلمين بالإمام، وتجمهر طلاب العلم عليه، قد بلغ حداً كبيراً بحيث لا يسـتطاع الوصول إليه من شدة الزحام. قال محمد بـن معروف الهلالـي: «**مضيت إلى الحيرة إلـى جعفر بن**

**محمد عليه السلام أيام السفاح، وقد تداكّ الناس عليه ثلاثة أيام متواليات، فما كان لي حيلة، ولا قدرت عليه من كثرة الناس، وتكاثفهم عليه»**[١].

وما يدرينا!! فلعل سكنى الإمام في الكوفة والحيرة كان بإيحاء من بني العباس، لالتقاط أنفاسه، ومتابعة توجهاته، وإحصاء الوافدين عليه، وفرز أفكارهم وآرائهم وتطلعاتهم، ليتم اتخاذ الإجراء المناسب في الوقت المناسب، بينما يرى الأستاذ باقر شريف القرشي في أكبر ظنه: **«إن ذلك لم يكن ناجماً عن ضغط سياسي، وفرض إقامة جبرية على الإمام من قبل السلطة العباسية، وإنما كان ذلك ناشئاً عن رغبة ملحة لسكنى الكوفة التي كانت المركز المهم لشيعة أهل البيت عليهم السلام ومنها انتشر التشيع في أنحاء العالم الإسلامي، كما أن أفواج الطلبة التي كانت تتهافت بشوق عارم للانتهال من علوم الإمام.. كان معظمهم من أهل الكوفة»**[٢].

وكان منهج الإمام طيلةَ حكم السفاح متمثلاً بالتوجيه الديني، ونشر المعارف الإنسانية، والحفاظ على وحدة الصف الإسلامي، وكان أبو العباس السفاح أعقل من أن يجابه الإمام بشيء، والدولة بعد ناشئة، والحكم في بداية التأسيس، ولا سيما أن الإمام يحتل المركز الأسمى في قلوب المجتمع الإسلامي، إلّا أننا لا نستطيع أن نصف سياسة السفاح بالبراءة التامة، فقد كان ولاته يعمدون إلى الإساءة إلى الإمام بطريق وأخرى، فقد كان الوالي على مكة والمدينة واليمامة واليمن عمّ السفاح: داود بن علي، وكان إرهابياً لا يرحم، وطائشاً لا ينزع عن غيِّه، وقد أساء إلى الإمام إساءة مباشرة ليست بمعزل عن علم السفاح ودرايته، فقد قتل أحد أعلام أصحاب الإمام، وهو المعلى بن خنيس،

---

(١) عباس القمي: سفينة البحار ٢/ ٢٠.

(٢) باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٧/ ٩٧.

لأنه لم يدل على شيعة الإمام، وكتم أمرهم، فغضب عليه داود فأمر بقتله، فحزن عليه الإمام، وغضب على الوالي ودعا الله عليه، فاستجاب الله دعاءه، وأخذه عاجلاً أخذ عزيز مقتدر[١].

وروى المبرد أن سليمان بن علي والي السفاح على البصرة، قد قتل غلاماً للإمام الصادق عليه السلام، فهدده الإمام بعرض اسمه على الله خمس مرات في اليوم[٢].

ولا مانع أن تكون هذه البداية غير الساخنة من رأي السفاح نفسه، فما كان للولاة أن يتجرؤوا على موالي الإمام لولا استقبالهم للضوء الأخضر في ذلك، ومع هذا يمكن القول بأن السفاح كان يخشى عواقب تعرضه للإمام وجهاً لوجه نظراً لأن الدولة حديثة العهد، ولأن الحكمة تقتضي الأناة والتريُّث؛ فقد أظهر السفاح احترام العلويين حذراً من تجمعهم ضد النظام، وربما وصلهم بالمال والعطاء، فقيل إنه أمر لعبد الله بن الحسن بألف ألف درهم، وأتي بجوهر مروان فحبي به[٣].

وسواء أصح ذلك أم لم يصح، فإن السفاح آنذاك كان يعيش على مائدة أهل البيت إعلامياً، وكان فتات تلك المائدة مما يحرص على التقاطه، ليقيت به حياة الدولة التي يرأسها.

ومع هذا كلِّه؛ فقد كان الإمام الصادق حذراً من دسائس السفاح وأجهزته الاستخبارية، ومتيقظاً من استغفاله واستدراجه فيما لا تفكير للإمام فيه، فهو أسمى من أن يغرر بنفسه وأصحابه وأوليائه استجابة

---

(١) ظ: الكشي: الرجال، ترجمة: المعلى بن خنيس.

(٢) ظ: المبرد الكامل ٨١.

(٣) ظ: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٧٤/٥.

للعواطف الثائرة، أو الأحاسيس الموقتة، وليس هو بعد من الذين يقعقع لهم بالشنان، فينخدع بهذا أو بذاك.

لقد أدرك أبو سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد أنه لم يصب الحق في إسناد الأمر إلى العباسيين، وشاء باللحظات الأخيرة أن يحوّل الأمر إلى العلويين، وربما كان ذلك عن مكر وخديعة، وقد يكون عن وعي تلقاه نفسياً إن صحّ أن يؤنبه ضميره على ما قام به من إحكام الأمر وإبرام العقد لبني العباس، ويبدو لي أن الرأي الأخير هو الذي يرجحه البحث، لأن السفاح غدر به، ولو كان عن ائتمار معه لما حصل له من القتل غيلةً ما حصل.

ومهما يكن من أمر، فقد كتب أبو سلمة الخلال ثلاثة كتب يعرض فيها شأن الخلافة على أحدهم، وهم: الإمام الصادق عليه السلام، وعبد الله بن الحسن، وعمر الأشرف بن الإمام زين العابدين عليه السلام، وسلّم هذه الكتب إلى أحد مواليهم، في الكوفة، وأوفده إلى الحجاز وأوصاه:

**«اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، فإن لم يجب فالق عبد الله المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر الأشرف»** وتقيد الرسول بالوصية حرفياً، فبدأ بالإمام الصادق عليه السلام، وسلّمه الكتاب ليلاً، وحدثه بحديث أبي سلمة، وتناول الإمام الكتاب فقرأه، وقال للرسول: **«ما أنا وأبو سلمة، وهو شيعة لغيري»**. فقال الرسول: اقرأ الكتاب، وأجب عليه بما ترى. فقال الإمام لخادمه: أدنِ السراج مني، فأدناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق، قال الرسول: ألا تجيبه؟ فقال الإمام: قد رأيت الجواب، ثم تمثل بقول الكميت:

**فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها**
**ويا حاطباً.. في غير حبلك تحطب**

فخرج الرسول من عنده، وأتى عبد الله المحض، ودفع إليه الكتاب، فقرأه واستهواه ما به فأتى دار الإمام الصادق عليه السلام مبكراً، ورحب به الإمام، وقال له: يا أبا محمد، ما أتى بك؟

قال عبد الله المحض: هو أجلُّ من أن يوصف.

قال الإمام: ما هو؟

قال عبد الله: هذا أبو سلمة يدعوني إلى الخلافة، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان، فاحتج عليه الإمام بالدليل البديهي قائلاً:

«يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ وأنت أمرتهم بلبس السواد؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته، فكيف يكونون شيعة لك؟ وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك.

ولم يقتنع عبد الله المحض بنصيحة الإمام، وأخذ يحاجج الإمام جزافاً فقطع الإمام حديثه بقوله:

**«قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف ادّخره عنك، فلا تمن نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء - يعني العباسيين - وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك»**[1].

وفي هذا الحدث الصارخ يبدو الإمام ـ عدا كونه معصوماً ـ ناقداً بصيراً، وخبيراً إستراتيجياً في دقائق الأحداث الخطيرة، وله فيها موقفان صريحان: موقف مع أبي سلمة الخلّال، وموقف مع ابن عمه عبد الله المحض؛ فقد نصحه وأوقفه على ما هو كائن من صيرورة

---

(١) ظ: المسعودي: مروج الذهب ٣/ ١٨٤.

الدولة لبني العباس بسابق علم علمه، بعد أن حاججه بالبرهان الذي لا يخامره الشك، أما موقفه مع أبي سلمة، فقد أوقفه عند حدود، وأبان له تهوراته، وأوضح له أنه شيعة لغيره، وهو بعد لا يثق به، بل ويستهجن عمله، ويحرق كتابه إهانة له من جهة، وإجابة بالرفض المطلق لما في الكتاب، وقد لمح إلى ما ينتظر أبا سلمة من المصير المجهول حينما تمثل بشعر الكميت ويرى الأستاذ باقر شريف القرشي دام علاه:

**«إن دعوة أبي سلمة - إن كان جاداً بها - لم تكن بداعي الإيمان بحق أهل البيت عليهم السلام، وإنما كانت ناشئة عن دواعٍ أخرى؛ من ضياع مصالحه وآماله، وإلّا فلماذا لم يراسلهم قبل هذا الوقت الحافل بالأخطار، فإن الجيوش العباسية التي زحفت إلى احتلال العراق لم تكن شيعة للعلويين، وإنما هي شيعة لبني العباس، قد صهرتهم دعوتهم، فكيف يستجيب الإمام لدعوة أبي سلمة، أو يسير في مجاهل هذه التيارات القائمة المحفوفة بالمهالك والأخطار»**[١].

ولم يكن الأمن العباسي غافلاً عن هذا التحرُّك، وهو بالمرصاد لكل البواعث والاستفزازات على نظامه الجديد، فقد بثَّ العيون والأرصاد.

وراقب كبار رجال الدولة فضلاً عن الآخرين، فكيف يسمح لأبي سلمة بمثل هذا الانقلاب المفاجئ، ولو تمَّت استجابة الإمام لأبي سلمة، لوقع الزلزال الذي لا يعرف مصير ضحاياه الجدد، ولكن حكمة الإمام درأت هذا المنحى من التقريظ، كما أن تحرك أبي سلمة قد دفع ثمن هذا الارتباك السياسي غالياً، فكان ضحيته، وذهب دمه هدراً، فقد تحدَّث المؤرخون عن اتفاق سريّ بين السفاح وأخيه المنصور، يخرج فيه المنصور إلى خراسان ويحدث أبا مسلم الخراساني بأمر أبي سلمة،

(١) باقر شريف القرشي: حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ٣٥٠.

ويطلب إليه القضاء عليه، وانتهى المنصور إلى أبي مسلم، وعرض عليه الخطة، فقال «أفعلها أبو سلمة؟ أنا أكفيكموه» ثم دعا أحد قواده، وهو مرار بن أنس الضبي ـ وكان فاتكاً شجاعاً ـ وقال له: انطلق إلى الكوفة فاقتل أبا سلمة حيث لقيته، وانته في ذلك إلى رأي الإمام.

فسار مرار إلى الكوفة في كوكبة من جنده، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح، فلمّا خرج منه ليلاً، هجموا عليه وقتلوه وأشاعوا في الصباح أن الخوارج قتلوه[1].

ولئن كان موقف الإمام حازماً مع أبي سلمة: حفص بن سليمان الخلال، فلقد كان أشدَّ حزماً مع أبي مسلم الخراساني، الذي كتب للإمام:

**«إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فلا مزيد عليك»[2].**

فأجابه الإمام جواباً بليغاً صادقاً جاء فيه:

**«ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني».**

ولئن سلم الإمام الصادق بعبقريته الفذّة في عهد أبي العباس السفاح، وهو يخوض غمار هذه المتاهات القاتمة، فإنه لم يسلم هو وأبناء عمومته في عهد أبي جعفر المنصور.

---

(١) ظ: الطبري: التاريخ أحداث سنة ١٣٢.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٢٤١.



# الإمام الصادق في عهد المنصور



بويع لأبي جعفر المنصور بوصية من السفاح عند وفاته، لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة ست وثلاثين ومئة[1].

جاء المنصور إلى السلطة، وقد أحكمت الدولة العباسية قواعدها، ورسخت أسسها بالقهر والاعتداء وسفك الدماء، وأقبل عليها المنصور وهي ثابتة الأركان، فأسفر عن وجهه في الاعتساف، وبرز على حقيقته في التنكيل والتعذيب، وبنى بغداد واتخذها عاصمة للخلافة، ولئن عمرت بغداد بالقصور الفخمة والمساجد والحمّامات، وازدهرت أسواقها بالتجارة والبضاعة والرخاء، وانتقل إليها مئات الآلاف من الناس، وأهل الحرف وأرباب الصناعات المختلفة، فقد جعل منها المنصور سجناً كبيراً للمسلمين، واستن فيها للطواغيت أساليب الدمار الشامل، وابتكار الأحكام العرفية التي ما أنزل الله بها سلطاناً؛ فبنى من السجون وزنزانات الاعتقال ما لا يعرف به الليل من النهار، وألقى بالمعارضين وأشباه المعارضين ممن يؤخذ على الظنة والتهمة، في الأقبية والطوامير المرعبة، واستحدث لإزهاق الأرواح ما لا يخطر على قلب بشر، فكانت الأسس والقواعد من البيوت تلتهم الناس أحياءً، وكانت الأسطوانات

---

(١) ظ: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ١٣.

المجوّفة يقذف فيها الشباب ويبنى عليهم وهم أحياء فينطمس كل أثر.. وهكذا..

وقد روى الطبري أنه اختزن في زج كبيـر رؤوس الثائرين من قتلى العلويين، وفي آذانهم رقاع فيها أنسـابهم وأسـماؤهم شـيوخاً وأيفاعاً وأطفالاً، وأوصى بتسليم مفاتحها إلى المهدي يفتحها بعد موته[1].

وكان المطبق سـجناً رهيبـاً في تصميمـه، فما دخله أحـد إلا فقد الإبصار، وتعرض للتسمم، وفارق الحياة، وإذا عاش كان نسياً منسياً.

واستن المنصور الختل والغدر والاغتيال السرّي، وأمعن في التصفية الجسـدية لخصومه أنى كانوا، فلاقى أبو مسـلم الخراساني ـ أمين آل محمد فيما لقبوه ـ القتل صبراً على يديه، وغدر بعمه عبد الله بن علي بعد حبسـه تسـع سـنين، وبعد أن أعطاه أماناً كاذباً، فقتله شرّ قتلةٍ مع جارية له، وضعهما في فراش واحد، وهدم عليهما المعتقل[2].

وسـيّر الهاشـميين من أبنـاء الإمام الحسـن عليه السلام، أسـرى مربطين بالسلاسـل والأغلال من المدينة حتى العـراق، وزجَّ بهم في السـجن، وهدمه فيما بعد عليهم، وأذاق عبد الله المحض شـتى صنوف التعذيب والتوهين حتـى قتله في المطبـق، وأحضر محمد بـن إبراهيم الديباج، وكان وجهه يتلألأ نوراً، فقال له المنصور:

«أنتَ المسـمى بالديباج الأصفـر؟» قال: نعـم، فقال المنصـور: أما والله لأقتلنك قتلة، ما قتلتها أحداً من أهل بيتك!!

(١) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٣٢٠.

(٢) ظ: المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٣٠٥.

وأمر بأسطوانة فرغت من الأحجار، وأدخل فيها، ثم بنيت عليه وهو حي[١].

وغدر بكثير من أصحابه فضلاً عن الثائرين وبطرق مختلفة.

فقد اغتال محمد بن أبي العباس على يد طبيب نصراني، كان يستعين به على قتل من لا يحبّ أن يتجاهر بقتله، وقد اتخذ سماً قاتلاً يضعه في دواء من يريد أن يغتاله[٢].

وأمّا ما جرَّته الانتفاضات والثورات المسلَّحة على المنصور من مآسٍ ووقائع وأحداث، فأمرٌ أفظع من أن يصوّر، وسترى جزءاً منه في موقعه من الكتاب.

ولم يكن المنصور متخفياً بغدره وفتكه، ولا متنكراً بفجوره ومكره، بل كان متجاهراً معروفاً بذلك في عصره ولدى المؤرخين.

فقد وصفه ابن هبيرة، وهو معاصر له، فقال:

**«ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر ولا أنكر، ولا أشد تيقظاً من المنصور»**[٣].

ويسوق الطبري وابن الأثير وابن أبي الحديد وابن عبد ربه جملة من جرائمه اللاإنسانية، حتى انتهى ابن الأثير إلى القول:

**«كان أبو جعفر سادراً في بطشه، مستهتراً في فتكه»**[٤].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٣٩٨.

(٢) باقر شريف القرشي: حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ٣٧٤.

(٣) ظ: اليعقوبي: التاريخ ٢/ ٣٩٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٣٥٥.

وثمة عقوباتٌ أنزلها المنصور في الشعب المسلم استقاها من بني أمية، وزاد عليهم؛ فهو لا يشاور ولا يحاور، وإنما يأمر بزجر، ويتصرف بعنف، وينفِّذ ما يجري به هواه.

فقد ذكر المؤرخون أنه: أجاع أهل المدينة، وجعلهم في فقر مدقع، وقطع عنهم الميرة في البرّ والبحر[1].

وسلّط عليهم رباح بن عثمان المريّ، وكان لئيم النفس، خبيث السريرة، انتقاميَّ النزعة، فلقد خطب على المنبر في مدينة الرسول الأعظم، قائلاً:

**«يا أهل المدينة، أنا الأفعى بن الأفعى، ابن عثمان بن حيّان، وابن عم مسلم بن عقبة، المبيد خضراءكم، والمفني رجالكم، والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب»**[2].

وإذا كانت مدينة الرسول الأعظم (ص) ودار هجرته، تتعرض لهذا الوعيد والتهديد، فما بالك في بقية الحواضر والأقاليم.؟!

إلّا أن أهل المدنية قد استشاطوا غضباً، وتمرَّدوا على هذا التهور المستطير، وجوبه رباح بكيل الصاع صاعين، فكتب إلى المنصور بأنباء هذا التداعي عليه، فكتب المنصور رسالة إلى أهل المدنية حمّلها جزاف القول، وأغلظ فيها بلغة القوة، وتحدث بمنطق الغطرسة والاستكبار، وأمره بقراءتها عليهم: **«يا أهل المدينة، إن واليكم كتب إلي يذكر غشكم، وخلافكم، وسوء رأيكم، واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين يقسم**

---

(١) المصدر نفسه: ٥/ ٣٦١.

(٢) اليعقوبي: التاريخ ٣/ ١١٠.

**بالله لئن لم تنزعـوا ليبدلنكم بعد أمنكم خوفاً، وليقطعن البـر والبحر عنكم، وليبعثن عليكم رجالاً غلاظ الأكباد، وبعاد الأرحام.. يفعلون ما يؤمرون»**[١].

ونفذ المنصور وعيده، فقد تنمّر لهم رباح وبطانته الشريرة، إلا أنهم هبّوا في وجهه: **«كذبت يا بن المجلود حدّين، لتكفن أو لنكفنك عن أنفسنا»**[٢].

ورموه بالحجارة والحصى، ففرّ إلـى مقصورته والتجأ إليها، فدخل عليه رجل السـوء أيوب بن سـلمة، ودعاه إلى الانتقـام، والتمثيل بهم، قائلاً:

**«أصلـح الله الأميـر، إنمـا يفصـل هــذا رعـاع النـاس، فاقطـع أيديهـم، واجلد ظهورهم»**[٣].

واسـتهجن أشـراف المدينة هذا الإجراء، وأشـاروا علـى الوالي أن يجتمع بوجوه الناس، ويقـرأ الكتاب، ففعل ذلك، فجبهـه كلٌّ من أبي عبيدة بن عبد الرحمن الأزهر، وحفص بن عمر الزهري بالقول:

**«كذبت والله، ما أمرتنا فعصيناك، ولا دعوتنا فخالفناك»**.

وقالا لرسول المنصور: أتبلغ المنصور عنا؟ فقال: ما جئت إلّا لذاك، قالا: **«... أما قولك: إنك تبدل المدنية وأهلهـا بالأمن خوفاً، فإن الله ﷻ، وعدنا غير هـذا، قـال ﷻ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ﴾ فنحن نعبده لا نشرك به شيئاً»**[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ٣/ ١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ١١١.

(٣) اليعقوبي: التاريخ ٣/ ١١١.

(٤) اليعقوبي: التاريخ ٣/ ١١١.

وفي ضوء ما رأيت، فإن أهل الحرمين لم يكونوا في حال يحمدون عليها من خلافة المنصـور؛ فقد صكهم بهذا الجلـف الجافي، ورماهم بالجوع والفقر، وبثَّ فيما بينهم عيونه وأجهزته، تسـتخفّ بالأشـراف، وتهين الأعلام، وتهزأ بالعامة، وتسـخر بالخاصة، فأدخل بذلك الرعب والذعر في النفـوس، وقيّد الحركات والسـكنات من النـاس، حتى عاد المناخ الاجتماعي مشـحوناً بالتذمُّر والاسـتفزاز، وشـاهد الناس امتهان أبناء رسول الله ﷺ من حسنيين وحسينيين، فقد أخذ عليهم بالمخنق، فصادر الحريـات قبل الممتلـكات، وخنـق الأنفاس قبل الرقـاب، وفاه بالبهتان المبين.

***

وكان الإمام الصادق عليه السلام يتمتع بذروة السـؤدد في المجتمع العربي والإسلامي، وكانت مسـيرته حافلة بأعداد العلماء والأساطين، بعيداً عن العنف السياسـي، لم يحدث نفسه أن يحسـب على جهة، ولم يتبنَّ أية معارضة، وهو أرفع من هذا وذاك، ذو كيان مسـتقلّ بنفسـه، ورمز قائم بذاته، دقيـق الفكر لا تهزُّه العواطف التي لا تسـتند إلـى تخطيط رائد، ولا يسـتجيب للنزعات الثائرة التـي لا تعتمد على ركـن وثيق، لذلك كان منهجـه واضحـاً لا غبار عليـه؛ بناء الصـرح الحضاري للإسـلام، وتهيئة الكـوادر العلمية المتقدمة، والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر ما اسـتطاع إلى ذلك سـبيلاً، والحفاظ علـى البقية الخيّرة مـن أتباعه وأصحاب أبيه، وهم حملة العلم وقادة الفكر.

ولم يكن هذا التوجـه مجهول المعالم لدى المنصـور،إلّا أن الزخم الجماهيـري الحافل الذي يلتـفُّ حول الإمـام كان يثيـر المخاوف في نفسه، مع علمه أن الإمام لا ينازعه سـلطاناً، ولا يحفل ببهرجة الحكم،

وهو سائر بطريقه نحو الله، يهدي ويستهدي، ويُهتدى بنور علمه، وهكذا كان شأن الأئمة عليهم السلام، يبتعدون عن دوائر الظلم والجور، ويرفضون التعاون مع الحكومات الطاغية، ويتقربون إلى الله تعالى بنشر أحكامه، وتبليغ رسالته، وهي المهمة الأولى.

ولقد عزَّ على المنصور أن يكون الإمام الصادق عليه السلام بهذا المستوى الرفيع من الوعي والثبات، وجرت بينهما المحاورة الآتية:

قال المنصور للإمام: لم لا تخشانا كما تخشانا الناس؟

أجاب الإمام: ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها، ولا تراها نقمةً فنعزيك، فما نصنع عندك؟

قال المنصور: إنك تصحبنا لتنصحنا..

أجاب الإمام: من أراد الدنيا فلا ينصحك، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك. وعلَّق المنصور على هذه الإجابة بالقول:

والله لقد ميّز عندي من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة، وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا[1].

ومع وضوح هذه الرؤية عن الإمام الصادق عليه السلام لدى المنصور، فقد عُرِّض إلى الضغط الشديد، وكابد من الآلام والمتاعب ما لم يجرؤ عليه الحكم الأموي.

---

(١) الأربلي: كشف الغمة ٢/ ٣٦٠.

فقد أُخِذ الإمام بالرقابة الصارمة، وحجب المنصور أهل العلم عنه، وأحاطت الشرطة بدار الإمام، ومنعت الناس من الدخول عليه[1].

وما اكتفى المنصور بذلك حتى عمد إلى دار الإمام، فأوعز إلى عامله في المدينة أن يحرقها، وشبّ فيها الحريق، وبادر الإمام إلى إخماد النار بنفسه، وهو يقول: أنا ابن أعراق الثرى، أنا ابن إبراهيم خليل الله»[2].

وتمادى المنصور في غيّه، فقد كان يؤرقه هذا الالتفاف التاريخي حول الإمام من قبل أبناء المهاجرين والأنصار، والتوجه الشعبي من طبقات الشعب المسلم، والمناداة باسم الإمام زعيماً للحركة العلمية في عصره، وتوافد العلماء والفقهاء عليه، للإفادة من إفاضاته المعرفية. فحاول أكثر من مرّة الاعتداء على الإمام، والانتقاص من مكانته.

في إحدى جولات المنصور مع الإمام، قال للإمام:

أنت الذي يجبى إليك الخراج؟

قال الإمام: إليك يجبى الخراج يا أمير المؤمنين.

قال المنصور: أتدرون لم دعوتكم؟ وكان معه الحسن بن زيد.

قال الإمام: لا.

قال المنصور: أردتُ أن أهدم رباعكم، وأغوّر قليبكم، وأعقر نخلكم، وأنزلكم بالشراة حتى لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق، فإنهم لكم مفسدة.

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٧/ ١٤٩.

(٢) الكليني: أصول الكافي ١/ ٤٧٣.

والتفت الإمام بحكمة ورفق وأناة إليه قائلاً:

**«يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظُلِم فغفر، وإنك من ذلك النسل».**

وارتدّ المنصور على عقبيه باهتاً، وقال للإمام: أعد عليّ ما قلته.. فأعاد الإمام ذلك، وقال المنصور:

مثلك فليكن زعيم القوم، قد عفوت عنكم..(٣)

ولم يكن الخراج يجبى للإمام، ولم يضع نفسه هذا الموضع، بل قد يصل إليه شيء بسيط ومن سهم الإمام وسهم الهاشميين ينفقه على مستحقيه، والمنصور يعلم هذا جيداً، ولكن النزعة العداونية تملي عليه تهديد الإمام بهدم الرباع، وتغوير القُلُب، وعقر النخيل، وتسوغ له التشريد والاغتراب والحجر السياسي. إلّا أن الإمام بصبره ومداراته عالج الأمر بروية، وانتهى معه بسلام.

وقدم المنصور المدينة، ورغب في لقاء الإمام، فأرسل عليه الربيع، فسأله الإمام: ما جاء بك؟ فأخبره الربيع بأمر المنصور، وكان الإمام كارهاً لذلك، عازفاً عن لقائه، زاهداً في الاجتماع به، فوعظ الربيع بآيات بيناتٍ من القرآن، عرّض فيها بالمنصور، والتفت إلى الربيع ليبلغ المنصور صوته: **«قل له: إنا والله قد خفناك، وخافت لخوفنا النسوة اللاتي أنت أعلم بهن، فإن كففت وإلا أجرينا اسمك على الله - عز وجل - في كل يوم خمس مرات، وأنت حدثتنا عن أبيك، عن جدك، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع دعوات لا يحجبن عن الله تعالى؛ دعاء الوالد لولده، والأخ بظهر الغيب لأخيه، والمظلوم، والمخلص».**

(٣) عباس القمي: سفينة البحار ٢/ ٢٢.

وأبلغ الربيع المنصور بمقالة الإمام، فقال له: ارجع إليه، وقل له: الأمر في لقائك إليك، وأمّا النسوة اللاّتي ذكرتهن فعليهن السلام، فقد آمن الله روعهن، وجلا همهن.

فأبلغه الربيع بذلك، فوعظه الإمام، وفصّل له أحوال الدنيا، وعاقبة الأمور[1].

ولم يشأ المنصور أن يريح أو يستريح، فقد كان يعاود الإمام بالاستدعاء، ويكرر عليه التهديد، ويكثر له من الوعيد، والإمام صابر محتسب.

في إحدى هذه الجولات استدعى المنصور الإمام، وهدده بالقتل لدى اجتيازه بالربذة، والإمام هناك، فقال للإمام بصلف: أما والله لأقتلنك.

قال الإمام: ارفق، فوالله لقلّما أصحبك..

والتبس الحال على المنصور، أنعى الإمام نفسه أم نعى المنصور؟!!

فأوضح الإمام أنه هو الذي سيسبق المنصور إلى الموت[2].

واستدعاه إلى الكوفة، وحمل إليه، وهو يسبح الله ويقدسه، ويستجير به من شر الطاغية، ويتوجه لله بالدعاء والإنابة، ليكفيه أمر المنصور، وكان المنصور قد عزم على قتله هذه المرّة، ودعا المسيّب بن زهير الضّبي، وقال له: إذا دخل جعفر بن محمد فخاطبته، وأومأت إليك، فاضرب عنقه، ولا تتأخر.

---

(١) ظ: ابن طاووس: مهج الدعوات ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٩.

وأبلغ الربيع الإمام بذلك، فقال له الإمـام: لا يروعنك ذلك، وأُدخل الإمام على المنصور، وهو يدعو الله بالآتي:

**«يـا إله جبرائيـل وميكائيـل وإسـرافيل، وإله إبراهيم وإسـماعيل وإسـحاق ويعقوب، ومحمد ﷺ تولّني في هذه الغداة، ولا تسـلّط عليّ أحداً من خلقك بشيء لا طاقة لي به».**

وكانت هذه الدعـوة مسـتجابة، إذ تغيّـر موقف المنصـور بصورة مذهلة، وأنحـى باللائمة علـى بني عمه من الحسـنيين، وقـال للإمام: **«يا أبا عبد الله يعزّ عليّ تعبك، وإنما أحضرتك لأشكو إليك من أهلك، قطعوا رحمي، وطعنوا في دينـي، وألّبوا الناس عليّ، ولو ولـي هذا الأمر غيري، ممن هـو أبعد رحماً لسمعوا وأطاعوا».**

فهدأ الإمام غضبـه، وأوصاه بالصفح عنهم. وسـأله المنصور حديثاً في صلة الأرحام، فحدثه الإمام بعدة أحاديث في ذلك وخرج[1].

واسـتمع المنصور لأقوال السّـعاة، وهم يبلغونه أن الصادق عليه السلام لا يرى الصلاة خلفك، ولا يسلم عليك بإمرة المؤمنين، وو..الخ.

فقال المنصور للربيـع: ائتني بجعفـر بن محمد، قتلنـي الله إن لم أقتله، وتغافـل الربيـع ـ وكان يدين بـولاء الإمام ـ فزجـره المنصور وتوعده بالقول: ائتني به، قتلني الله إن لم أقتلـه، وقتلني الله إن لم أبدأ بك، إن أنت لم تأتني به.

فوافى الربيع الإمام، وهو يصلي فـي الجامع النبوي، وقال له: **«يا أبا عبد الله، أجب أمير المؤمنين للتي لا شوى لها».**

---

(١) ابن طاووس: مهج الدعوات ٢٣٢ وما بعدها.

فذهب الإمام معه، ودخل على المنصور، وسلم عليه بالخلافة، فلم يردّ عليه، وصاح به متعالياً آفكاً متطاولاً:

**«يا مراءِ، يا مارق، منّتك نفسك مكاني، فوربت عليّ، ولم ترَ الصلاة خلفي، والتسليم عليّ»**.

فهدأه الإمام، وأمره بالتثبُّت، فزال غضبه، في حديث طويل[1].

وأطال المنصور قلق الإمام، وكرّر إثارته وإزعاجه عن مأمنه، وكدّر عليه صفو حياته الروحية، فاستدعاه إلى بغداد، وقال له بصلف واستكبار: **«يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على أهل هذا البيت من بني العباس، وما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسد ونكد»**.

قال الإمام: «ما فعلت شيئاً من هذا، ولقد كنت في ولاية بني أمية، وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لناولكم، وأنهم لاحق لهم في هذا الأمر، فو الله ما بغيت عليهم، ولا بلغهم عني سوء مع جفائهم الذي كان لي، وكيف ـ يا أمير المؤمنين ـ أصنع اليوم هذا؟ وأنت ابن عمي، وأمس الخلق بي رحماً، وأكثرهم عطاءً وبراً، فكيف أفعل؟

فقال المنصور بلهجة غاضبة: بطلت وأثمت.

فاستخرج له المنصور عدة كتب، ورمى بها للإمام قائلاً:

هذه كتبك إلى أهل خراسان تدعوهم إلى نقض بيعتي، وأن يبايعوك دوني.. فاستنكر الإمام ذلك: لا والله ما فعلت، ولا هذه كتبي، ولا خطي، ولا خاتمي..[2]

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٧/ ١٥١ ـ ١٥٣.

(٢) ظ: تفصيل هذه الأحداث: ابن طاووس/ مهج الدعوات ٢٣٧ ـ ٢٤٧.

وكان المنصور مصمماً على قتله، فقد قال لمنصور بن محمد الإسكندري:

يا بن محمد، لقد هلك من أولاد فاطمة، مقدار مئة ويزيدون، وبقي سيدهم وإمامهم جعفر بن محمد ـ وهو يعني من قتله من الطالبيين ـ فقال له الإسكندري: «**إنه رجل أنحلته العبادة، واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة**». فردّ عليه المنصور: يا بن محمد، قد علمت أنك تقول بإمامته، ولكن الملك عقيم.

وفي قصره ببغداد استدعى الإمام عدة مرات، وانتضى السيف من غمده مراراً يريد قتل الإمام، وقد صدّه عن ذلك كثير من الكرامات والإرهاصات، فأرجعه إلى المدينة قائلاً: «**أظنك يا جعفر صادقاً**»[1].

ولم يزل هذا ديدن المنصور ووكده مع الإمام عليه السلام، يستدعيه ويسمعه ما يكره ويطلقه، لأن الملك عقيم كما يقول؛ مع علمه أن الإمام في تخطيطه الرسالي قد اعتزل العمل السياسي، ولكنه يتخوف جماهيرته وهيبته وتأثيره على الجماعة الإسلامية.

وشاء للمنصور الاعتداء الأثيم أن يغتال الإمام بالسم فيما يرويه المؤرخون، وكان ذلك على يد عامله على المدينة، فكانت وفاته فيها في الخامس والعشرين من شوال عام ١٤٨هـ على المشهور[2].

(١) ظ : تفصيل هذه الأحداث : ابن طاووس/ مهج الدعوات ٢٣٧ ـ ٢٤٧.

(٢) ظ : الكليني : أصول الكافي ١/ ٤٧٢، المفيد : الإرشاد : ٣٠٤، الأربلي : كشف الغمة٢/ ٣٧٣، ابن شهرآشوب : المناقب ٤/ ٢٨٠.

ودفن الإمام عليه السلام في بقيع الغرقد عند أبيه الإمام محمد الباقر وجده الإمام زين العابدين، والإمام الحسن عليهم السلام، وبذلك انطوت صحائف النور الهادي، إلا أن ألقها يضيء ما بين الخافقين.



## النضال السلبي في سياسة الإمام



كان منطلق الإمام الصادق عليه السلام السياسي أن يشاطر الأمة مأساتها فيما أصيبت به من نكسات وكوارث جراء تسلُّط الجبابرة وتحكّم الظالمين، ولم يكن الإمام ليلقي الحبل على الغارب تجاه الممارسات اللا إنسانية لذوي النفوذ والقرار، وليس باستطاعته ـ وهو ذو الولاية العامة ـ الكفاح المسلّح لما أوضحناه سابقاً: قلة من الأنصار، أجواء غائمة من الإرهاب، عدٌّ تنازليٌّ في الوعي الرسالي، سياسة خرقاء في القسوة والعنف، انتقام من المعارضين لا حدود له، ضغوط نفسيه مكثفة ضد أهل البيت وأوليائهم، آلاف المرتزقة، من عملاء الأنظمة الجائرة، مئات العيون والأرصاد والمسالح تحوط المشتبه بولائهم للنظام العباسي، وُعاظ السلاطين يبيحون كلَّ شيء للحاكم دون أية تبعة، فالدماء تذهب جباراً، والممتلكات تصادر استيلاءً، والأفواه تكمّ استرهاباً، والألسن تجذّ استلالاً، والحريات تخنق انتهاكاً، وحقوق الإنسان في دوامة مفجعة من الضياع.

هذا التخبُّط العشوائي في الإجراءات بلغ ذروته في عهد أبي جعفر المنصور، فلم يترك حرمة إلا انتهكها، ولا ذمة إلا خفرها، ولا جريمة إلا ارتكبها، حتى نسي الناس عهد الأمويين والجاهلية.

سأل المنصور عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، وهو صديقه قبل الخلافة: كيف سلطاني من سلطان بني أمية؟

فأجابه صديقه الأفريقي بصراحة تامة: «**ما رأيت في سلطانهم من الجور شيئاً، إلا رأيته في سلطانك**»[١].

هذا التقرير ينطلق به لسان الأصدقاء وهم مشفقون على النظام، فما رأيك في المعارضين وهم مغضبون؟

والرزية الكبرى أن يرحب المأجورون للمنصور بفداحة أعماله، ويؤيدوا خطوات تهوراته، باعتباره ظلَّ الله في الأرض.

وقد رأى الأستاذ الشرقاوي: «**أن المنافقين قد أحاطوا بالمنصور فأوهموه بأنه فوق الحساب لأنه ظل الله في الأرض، حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه، ثم وصل فجور هؤلاء المرتزقة إلى آخر مدى، فوضعوا الأحاديث النبوية لخدمة الطبقة الحاكمة، حتى الأحاديث لم تسلم من تزييفهم**»[٢].

ولقد كان المنصور جبّاراً في الأرض، وكان مثلاً بارزاً في البغي والفساد والاضطهاد، وكان يثأر لنفسه من أية منافسة يقررها فكره وتفكيره.

وكان الإمام الصادق عليه السلام ـ ولا مقارنة بين الرجلين ـ قد تجاوزت شهرته الحدود الإقليمية للحجاز، واتسعت رقعة قيادته الدينية في العالم الإسلامي، وهذا ـ في تفسير الحاكمين ـ منافسة في العنوان، وإن لم يكن منافسة في السلطان ومعنى هذا أن القاعدة الشعبية التي

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٧٨.
(٢) عبد الرحمن الشرقاوي: شخصيات إسلامية ٤٣.

يستند إليها الإمام، قد وصلت إلى الحدّ الذي يرى فيه الحكم خطراً محدقاً بزعامته.

وكان مبدأ الاحتواء السياسي قديماً قدم السلاطين، ولقد فشلت كلُّ محاولات احتواء الإمام واستمالته من قبل النظام العباسي كما رأيت وسترى.

وكان الإمام خبيراً بموقعه، وشطر الأمة يرى إمامته وعصمته وأحقيَّته بالخلافة، والناس ليسوا سواء في التجربة ودقة النظر، والإمام بين عاملين متقابلين، إما أن ينخرط في سلك العمل السياسي في غير عدة منظورة، وأما أن يبتعد عن الأجواء السياسية.. وكان دوره المسؤول يقضي بالاعتزال عن المناخ السياسي دون الرضوخ إلى إرادة الحاكمين، ولكنه يتحرك عبر قنوات أخرى في إطار لا يعين به الظالم، ولا يؤيد سطوته، ولا يسير بركابه، ولا يتركه وشأنه، وإنما ينطلق من خلال ما يمليه الواجب الرسالي وحده، فهو في الوقت الذي يتحاشى فيه الاصطدام مع الحاكمين، نراه يدعو إلى الابتعاد عن حضيرتهم، ويشجب التعاون معهم، ويعتبر الانتماء إليهم انهياراً في المثل والقيم، وحبطاً للأعمال والمبرّات، وكان هذا السبيل هو النضال السلبي في تخطيط الإمام، وقد دعم ذلك قولاً وعملاً، قال عليه السلام: **«إنه من خضع لصاحب سلطان ولمن يخالفه في دينه، طلباً لما في يديه من دنياه، أخمله الله عز وجل، ومقته عليه، ووكله إليه، فإن هو غلب على شيء من دنياه فصار إليه منه شيء، نزع الله عز وجل اسمه البركة منه، ولم يأجره على شيء ينفقه في حج ولا عتق ولا بر»**[1].

---

(١) الكليني: الكافي ٥/ ١٠٦.

إن هذا التقرير الصارم لو اُلتزم به لتفكّكت عرى الالتقاء بين الأنظمة الظالمة والناس، ولكانت الهوّة سحيقةً بين الرعية والحكّام، ولأصبح من المعتذر على الحكام تلافي الأخطار المحدقة بأنظمتهم، ولترك الناس العمل في ظل سلطانهم، ولعادوا لا يقدرون على إدارة دفة الحكم، فهم في عزلة قاتلة.

قابل أحد عمال الدولة الأموية الإمام، وقال للإمام:

ـ «جعلت فداك.. إني كنت في ديوان هؤلاء القوم، فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً أغمضت في مطالبه.

فقال الإمام الصادق عليه السلام: لولا أن بني أميّة وجدوا من يكتب لهم، ويجبي الفيء، ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم، لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم، ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم.

فقال الفتى: جعلت فداك، فهل من مخرج؟

قال: إن قلت لك تفعل؟

قال: أفعل.

قال الإمام: فأخرج من جميع ما اكتسبت في ديوانهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدقت به، وأنا أضمن لك على الله الجنة.

فأطرق الفتى برأسه طويلاً، ثم قال: قد فعلت جعلت فداك..»[١]

إن هذا النموذج من الأمر، وهذا النموذج من الامتثال، كفيلان بزلزلة الأنظمة الجائرة، واقتلاعها من القواعد.

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

أنت تشاهد هنا فتىً يفر بدينه للإمام، وأنت ترى الإمام يفرض عليه التخلي عن أمواله التي اكتسبها في الولاية الظالمة، الإجراءات هنا صعبة التنفيذ، ولكن الاستجابة إيجابية، وكم من الناس يفعل هذا؟!

ويتابع الإمام هذا التوجُّه، فيقول بالنسبة إلى حكّام الجور في ولايتهم:

**«ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاءً، وأن لي ما بين لابتيها، لا ولا مدة قلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد»**[1].

وهذا من قبل الإمام بلاغ وإبلاغ في وقت واحد، فهو بلاغ لما عليه الإمام من التحرُّج عن إعانة الظالمين، وهو إبلاغ لسواه بما أعد الله لأعوان الظلمة من العذاب الشديد.

وقد اعتبر الإمامُ الانضمامَ إلى ولايات القوم والانتظام في سلك دواوينهم، عملاً لا يأمن صاحبه من الحرام والجرأة على الله تعالى، ومقارفة الظلم الفردي والجماعي، وأن التحرُّز من ذلك من قبيل تناول السماء.

طلب من الإمام أحد أصحابه وساطته لدى داود بن علي العباسي أن يدخله في بعض أعماله، فقال له الإمام: لا أفعل، قال له: جعلت فداك إني فكرت في إبائك عليّ، فظننت أنك إنما منعتني وكرهت ذلك مخافة أن أجور أو أظلم، وإن كلَّ امرأة لي طالق، وكل مملوك حرٌّ، علي وعلي إن ظلمت أحداً، أو جرت عليه ولم أعدل.

قال له الإمام: كيف قلت؟

(١) الكليني: الكافي ٥/ ١٠٧.

يقول: فأعـدت عليه الأيمان. فرفع الإمام رأسـه إلى السـماء، فقال: تناول السماء أيسر عليك من ذلك[١].

بينما نجد في قبـال هذا مـن يتأثم ويتحـرج من أصحابـه بإيحاء داخلي عن محاولة الاقتراب من الظالمين وغشيان أبوابهم.

سأل الإمام أحد أصحابه:

أما تخشى سلطان هؤلاء؟

فقال: لا.

قال الإمام: ولم؟

قال: فراراً بديني.

قال الإمام: فعزمت على ذلك.؟

قال: نعم،

فقال له الإمام: الآن سلم لك دينك[٢].

وقد يتـورط بعـض أصحابه فـي العمل عنـد هـؤلاء، فيطلب من الإمـام المخرج من هذا المـأزق، فيجد الطريـق غير مهيَّـأة أمامه، فقد سأله بعضهم:

«إني ولِّيت عملاً، فهل لي من ذلك مخرجٌ؟

قال الإمام: ما أكثر من طلب المخرج من ذلك فعسر عليه.

فقلت: فما ترى؟

(١) المصدر نفسه: ٥/ ١٠٨.

(٢) المصدر نفسه: ٥/ ١٠٦.

قال: أرى أن تتقي الله عز وجل ولا تعده»[١].

إن هذه اللغة الجادّة في مقاطعة الحاكمين، تضفي عدم الشرعية على أنظمتهم، وتنبه الآخرين إلى حرمة التعاون معهم، وإذا تحقق هذا في أبعاده كافةً، بقي السلطان بلا أعوان ولا أتباع، وفي حالة الاضطرار إلى ذلك، نجد الإمام يقول: «**كفارة عمل السلطان: الإحسان إلى الإخوان**»[٢].

وقد يجد الإمام من المصلحة أن يدفع بعض الجور عن بعض أوليائه، فيقوم بدور الشفيع لمن يستحقُّ ذلك لدى من يلمس منه الاستجابة؛ فقد هرب بعض أوليائه من بعض الولاة لخراج فيه زوال نعمته، وخروجه عما يملك لو أدّاه، فكتب الإمام في شأنه:

«**بسم الله الرحمن الرحيم؛ إن لله في ظلِّ عرشه ظلاً لا يسكنه إلّا من نفّس عن أخيه كربة، وأعانه بنفسه، أو صنع إليه معروفاً ولو بشق تمرة، وهذا أخوك المسلم...**».

ثم ختمها الإمام ودفعها إلى وليّه، وأمره أن يوصلها إلى الوالي، ففعل ذلك. قال: فصرت إلى بلادي واستأذنت عليه قائلاً: رسول الصادق عليه السلام بالباب، يقول: فإذا به وقد خرج إليّ حافياً.. سلّم عليّ، وقبّل ما بين عيني، وقال: يا سيدي، أنت رسول مولاي؟ قلت: نعم، فقال: هذا عتقي من النار إن كنت صادقاً، وأخذ بيدي وأدخلني منزله، وأجلسني مجلسه، وقعد بين يدي وقال: يا سيدي، كيف خلّفت مولاي؟ فقلت بخير، فقال: الله الله قلت: الله حتى أعادها ثم ناولته الرقعة، فقرأها وقبّلها، ووضعها على عينيه، ثم قال: يا أخي، مرْ بأمرك،

---

(١) الكليني: الكافي ٥/ ١٠٩.

(٢) ظ: الأمين الحسيني العاملي: أعيان الشيعة ٤/ ق٢، ٢٠٣.

فقلت: في جريدتك كذا وكذا علي، وفيه عطبي، فدعا بالجريدة، فمحا عني كلّ ما كان فيها، وأعطاني براءة منها.

ثم أكرمني إكراماً جزيلاً.. وصنع لي خيراً(١).

وهذا النموذج قليـل، ولكن اختيار الإمام له، يعنـي تأكّده من وفائه بالتزامه الديني، ولمعرفته بأنه من أوليائه الذين لا يردّون له أمراً، ولعله كان مضطراً إلى قبول الولاية.

وفي هذا السـياق نجد حديثـاً آخر مواكبـاً لما تقدم؛ فقد سـخط عليُّ بن هبيرة على رفيد، فعاذ رفيـد بأبي عبد الله عليه السلام، فقال له الإمام: انصرف إليـه، وأقرئه مني السـلام، وقل لـه: إني أجـرت عليك مولاك رفيداً. فلا تهجه بسـوء.. قـال: فجئت، فلمـا دخلت عليه أمـر بقتلي، فقلت: أيها الأمير، لم تظفر بي عنوة، وإنما جئتك من ذات نفسي..

وقلت: مولاك جعفر بن محمد يقرئك السلام ويقول لك: قد أجرت عليك مولاك رفيداً فلا تهجه بسوء.

فقـال: الله، لقـد قال لـك جعفر هـذه المقالـة؟ وأقرأني السـلام؟ فحلفت، فردّدها علي ثلاثاً... فناولني خاتمه، وقال: أمري في يدك فدبر فيها ما شئت»(٢).

وطالما استنجد به أصحابه، وتوجه به أولياؤه لقسم من الولاة، فمن أنس به منهم خيراً ومعرفته بالأمر، فاتحه لقضاء حوائج المؤمنين.

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧ / ١٧٩.

فقــد التمس محمد بن ســعيد من الإمــام رقعة إلى محمــد بن أبي الثمــال، فــي تأخيــر خراجــه، فقــال عليه السلام: قل لــه: ســمعت جعفر بن محمد يقول:

**«من أكرم لنا موالياً فبكرامة الله بدأ، ومن أهانه فلسخط الله تعرض، ومن أحسن إلى شيعتنا فقد أحسن إلى أمير المؤمنين، ومن أحســن إلى أمير المؤمنين فقد أحسن إلى رسول الله، ومن أحسن إلى رسول الله فقد أحسن إلى الله، ومن أحسن إلى الله كان والله معنا في الرفيق الأعلى».**

قال: فأتيته وذكرته، فقال: بالله ســمعت هــذا الحديث من الصادق؟ فقلت نعــم: فقال: اجلــس، ثم قال: يا غــلام ما على محمد بن ســعيد من الخراج؟

قال: ستون ألف درهم، قال: امح اسمه من الديوان.

وأعطاني بدرةً، وجارية، وبغلة بسرجها ولجامها.

قال: فأتيت أبا عبد الله عليه السلام، فلمّا نظر إليّ تبسم فقال: يا أبا محمد تحدِّثني أو أحدثك؟ فقلت: يا بن رسول الله، منك أحسن.

فحدثني ـ والله ـ الحديث كأنه حضر معي[1].

هــذه الشــذرات المتناثرة هنــا وهنــاك ذات دلالة إيحائيــة في كثير من الملاحظ:

أ) نلحظ الإمام عليه السلام لا يكتــب كتاباً لعمّال الســلطان، وإنما يحمّل أولياءه رسالة شفوية لهم، حفاظاً منه على سرّية الموضوع، لئلا يكتشف من قبل النظام، فيعرّض الولاة للضرر والحرج.

---

(١) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٦٢.

ب) تشتمل رسائله الشفوية هذه على وصايا ونصائح ووعد حسن، يحبذ فيه للعامل جدوى صنيعه ونتائج إحسانه.

ج) نجـد الإمام غير بخيل بجاهـه على أوليائه، تنفيسـاً لهمومهم، وقضاءً لحوائجهم، وفيه توعية لنا نحو استباق البِرّ والإحسان.

د) ينظر الإمـام بجدّية موضوعية إلى طرح مشـكلات الأفراد، ودفع الأضرار والأخطار عنهم قدر المسـتطاع، فيواجه الولاة بأسـلوبه الهادئ الرصين ترغيباً وتحذيراً، وعادةً ما تكون النتائج إيجابية.

هـ) اقتناع الإمام بشرعية هذه الوساطة لهدف أسمى، وعائدية أفضل، وهي لا تعـارض نضاله السـلبي، لمعرفته بوجـوه المصلحـة الإيمانية العليا، وقد يبتلى بعض أوليائه مكرهاً في قبـول ولاية الأنظمة الجائرة، نظراً لكفايته ومقدرته في إدارة الشؤون العامة، فيهرع إلى الإمام مناشداً إياه التوجيه والتسـديد وإنـارة الطريق بين يديه، ليكـون على يقين من الخلاص، كما حصل هذا لعبد الله النجاشـي إذ كتب للإمام يستنصحه: «أطـال الله بقاء سـيدي، وجعلني من كلِّ سـوء فداه، ولا أرانـي الله فيه مكروهاً، فإنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

اعلم سـيدي ومولاي أنـي بليتُ بولايـة الأهواز، فإن رأى سـيدي ومولاي أن يحدّ لـي حداً، ويمثل لي جدّاً، أسـتدلُّ به علـى ما يقربني إلى الله ﷻ، وإلى رسـوله، ويلخص لي في كتابه ما يرى لي العمل به، وفيما أبذله، وأين أضع زكاتي؟ وفيمن أصرفهـا؟ وبمن آنس به؟ وإلى من أستريح؟ وبمن أثق وآمن وألجأ إليه في سري؟ فعسى أن يخلصني

الله تعالـى بهدايتك وولايتـك، فإنك حُجَّـة الله على خلقـه، وأمينه في بلاده، لا زالت نعمته عليك»[١].

هذه الرسالة تشير إلى تعظيم النجاشي منزلة إمامه، وأنه بإزاء امتثال توجيهاته، ليتخلص من محنة ابتلائه بولايتـه، وقد أجابه الإمام بأن هذا النبأ سره وساءه قائلاً:

«فأما سروري بولايتك، فقلت: عسى الله أن يغيث بك ملهوفاً خائفاً من أوليـاء آل محمد ﷺ، ويعـزّ بك ذليلهم، ويكسـو بـك عاريهم، ويقوّي بك ضعيفهم، ويطفي بك نار المخالفين عنهم.

وأما الذي ســاءني من ذلك، فإن أدنى ما أخاف عليك أن تغتر بولي لنا فلا تشـمَّ حظيرة القدس، فإني ملخّصٌ جميع ما سألت عنه، إن أنت عملت به، ولم تجاوزه، رجوت أن تسلم إن شاء الله.

أخبرني ـ يا عبد الله ـ أبي عن آبائه عن رسول الله ﷺ، بأنه قال: «من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبّه عنه»».

وبعد هـذه المقدمة التـي أبان فيهـا الإمـام منزلة النجاشـي لديه، وحرصـه عليـه، زوّده بالنصائح الإنسـانية، وبصـره بالطريق السـويِّ، ولخص لـه معالـم الإدارة السياسـية، وأطلعه علـى النظـر الديني في شـؤون الرعية، ورجا له أن يسـلم من الآثام والمخالفـة، ما عمل بذلك ولـم يتجاوزه.

ولا أعلم وثيقة في حقوق الرعيـة، وإدارة الحكم، وتوخي الحقيقة، ومجانبة الهـوى والغرور، وتقيد الحاكم بالمسـؤولية، وإيثـار طاعة الله

(١) ظ: نص الرسالة والإجابة في وسائل الشيعة: ١٢/ ١٥١ ـ ١٥٦.

ورسوله على طاعة السلطان، والاعتصام بحبل الله دون سواه، والنظر بكتاب الله، والاستضاءة بسنة رسول الله، والسير بمنهج الأئمة الطاهرين، كهذه الوثيقة في جزالتها واختزالها، ودلالتها وتحديدها، مع الإيجاز في القول، والضغط في المعاني، والبلاغة في الأداء.

إلا ما كان من أمر أمير المؤمنين في كتابه الذي زوّد به مالك الأشتر، لدى توليته إياه على مصر، فقد اشتمل على ما أناف على هذه الرسالة.

وقد لخّص معطياتها الضخمة بدقة ممتازة الأستاذ محمد حسن آل ياسين[١].

كما فصّل القول في نقاطها المهمة الأستاذ باقر شريف القرشي، وتعقّب أبرز إفاداتها في شؤون الحكم، وحياة السياسة، ومراصد العدل[٢].

وأحاول الإشارة إلى أهم ما جاء في هذه الوثيقة الدستورية:

١ ـ تأكيد الإمام على حقن الدماء، وكفّ الأذى عن المسلمين، والرفق بالرعية، والتأني بالقرار وحسن المعاشرة. ولين الجانب، ومداراة السلطان.

٢ ـ النأي عن السعاة وأهل النمائم، ورفض ما يقدمونه من معلومة مزيفة، فلا يقبل الله منهم توبة ولا فدية، فيحق سخط الله عليهم.

---

(١) ظ: محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

٣ـ الحذر واليقظة من دعاة السوء، والاعتضاد بالمستبصر في الدين، والأمين على شؤون المسلمين، ووضع مال الله في مواضعه، وإنفاقه في سبيله.

٤ـ ابتكر الإمام في هذه الوثيقة جوائز التشجيع وعطاء المكافأة، لكلٍّ من القوّاد والرسل، وأصحاب الرسائل، والشرطة، ومقدمة الجيش.

٥ـ نهى الإمام عن كنز الذهب والفضة، وحرّم احتجان الأموال، وأمره بالسخاء من فضل قوته على الجياع، فهو ممّا يسكِّن غضب الرب، وإنفاق فضل ماله على ذوي الحاجة، وأن يكون ما ينفقه في وجوه البر من خالص كسبه.

٦ـ وضرب الإمام مثلاً للحياة الدنيا وهوانها على الله، بما استقرأه من أنباء السابقين، مستشهداً بتضحية سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام، وما كان من وكده وجهده في فراق الدنيا، ومنظّراً بأمير المؤمنين عليه السلام في عزوفه عن الدنيا وطلاقه لها، وبما اختط من منهج اقتدى به الأئمة الطاهرون.

٧ـ حذّر الإمام أيّما تحذير من إخافة المؤمن؛ لأنه بمنزلةٍ عند الله تعالى وأمره بإغاثة الملهوفين ليأمن من يوم الفزع الأكبر، وألزمه قضاء حوائج المؤمنين ليقضي الله حاجته، ويكسوه من لباس الجنة، وشجعه على إطعام الجياع ليطعمه الله من طيبات الجنة، وعدد مكارم السخاء فيما يخدم به المؤمن ويحمله عليه، وحبب له تزويجه، ولفت نظره إلى إعانته من السلطان ليجوز الصراط.

٨ـ بين الإمام عليه السلام حقيقة الإيمان بما رواه عن آبائه، وأنه إقرار باللسان، واعتقاد في الجنان.

٩ـ حقق الإمام القول بالتغافل عن عثرات المؤمنين، وألا يصدق في مؤمن قولاً. وألا ينتصف الوالي من عدوه، ولا يشفي من غيظه.

١٠ـ صور الإمام ابتلاء المؤمن بين اثنتين: مؤمن يعيبه ويحسده، والشيطان يغويه ويمقته، والسلطان يقفو أثره، وكافر بالذي هو مؤمن به، يرى سفك دمه ديناً، وإباحة حريمه غنماً. وأبان عليه السلام أن من استهان بمؤمن فقد استقبل الله بالحرب.

١١ـ نهى الإمام عن المراء والجدل والمناظرة، إلا أن ينظر في سريرة من يناظره؛ فإن كانت حسنة فالله لا يخذل وليه، وإن كانت رديئة، فقد تكفيه مساوئه.

١٢ـ زجر الإمام الوالي أن يسمع عن أخيه الكلمة يريد أن يفضحه بها، ونهاه عن استغابته فيما رأت عيناه، وسمعت أذناه، وأن يتجنب روايةً ما، يريد بها هدم مروءته وثلبه، وأمره بإدخال السرور على أخيه المؤمن ليدخل بذلك السرور على أهل البيت، وسرورهم سرور رسول الله، وسرور رسول الله سرور الله، ومن سرَّ الله دخل جنته.

وفي ختامها أوصاه بتقوى الله وإيثار طاعته.

وحينما وصلت هذه الوثيقة إلى النجاشي، قال: صدق ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ مولاي، فما عمل أحد بما في هذا الكتاب إلا نجا».

وبملاحظة هذه الوثيقة نجد إيجابية محددة في الانتماء إلى المسلك الوظيفي في دولة الظالمين، فهو مشروط بقيود ثقيلة، لا ينهض بها إلا القلّة من الرساليين.

وليس هذا التجاوب الجزئي تراجعاً عن الخط العام الذي سلكه الإمام، بل هو سبيل وسط في حالات استثنائية، نظر فيها الإمام إلى الصالح العام، وهي تبعة فادحة حملها الإمام خلص أوليائه.

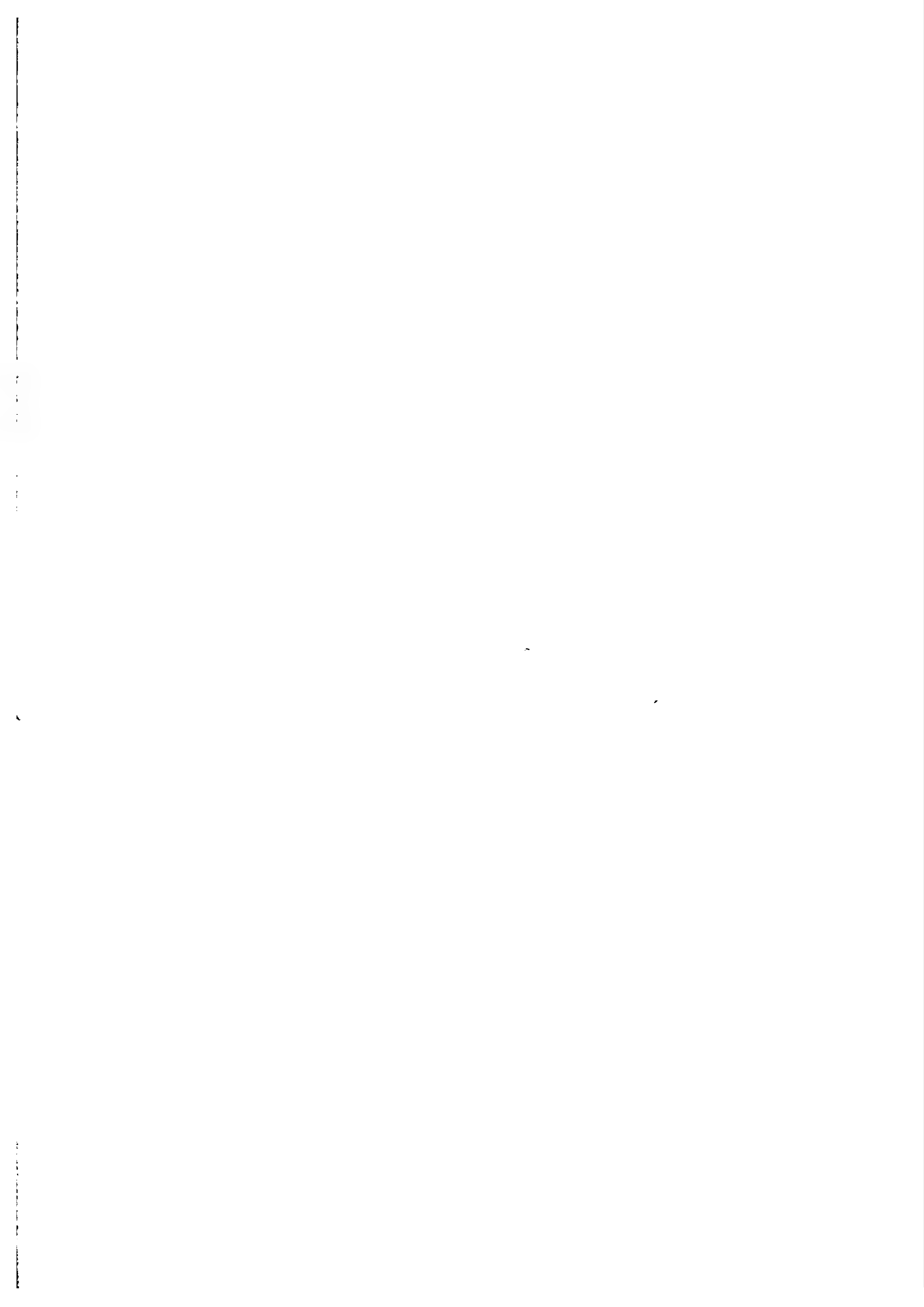
ويبقى النضال السلبي هو الذي يفرض حتميته في الحالات الأخرى؛ لأن الإمام لم يغيّر إستراتيجيته، ولكنه فصّل في التكتيك، فالمقاطعة التامة للظالمين هي الأصل المشروع؛ لأنها تؤتي ثمارها في تلكؤ مسيرتهم، وتبطل فاعلية استمرارهم، وذلك ممّا يساعد على سقوطهم المرتقب، إذا لم يجدوا نصيراً ولا معيناً على احتضان تجاوزاتهم في السطوة والقهر والإكراه، أما أن المتمثلين لتعليمات أهل البيت قلة نادرة، فهذا هو شأن البشر في كل زمان ومكان.



# الفصل الثالث

# الحياة العقلية وظواهرها الاجتماعية

* أضواء كاشفة.
* الثورة المضادّة في المناخ العقلي.
* ظاهرة الغلاة.
* حركات الزندقة والإلحاد.
* المذاهب الكلامية في عصر الإمام الصادق.





# أضواء كاشفة

ومُني الإمام بفراعنة عصره، وهم يديرون دفة الحكم، ويمسكون زمام السلطان بيد من حديد، وكان أبرز ملامحهم في السلطة: سفك الدماء، وإذلال العباد، واغتصاب الحقوق، ومصادرة الممتلكات.

إثرة ما بعدها من إثرة، وجور لا يدانيه جور، يضاف إليهما: الاستطالة والتعالي والاستبداد، والمسلمون بين سيف قاطع، وحق مضيّع، وحرّية مصادرة، فلا الأرواح في مأمن، ولا الحياة باستقرار، ولا الأمان في ذاكرة الناس، وعاد كبت الحريات شعاراً ملازماً يتناوب عليه خليفة بعد خليفة، والأمراء في بلهنيةٍ من العيش، يجبى لهم الخراج، وتستصفى لهم الأموال، ويحتكر الذهب والفضة، وينتهب المدّخر والمقتنى، لتزان به نحور الجواري والقيان والمغنيات، وينعم به أولياء السلطان، وقادة الجيش، وأصحاب الشرطة، وأجهزة المخابرات.

وعاد الناس في عسر وحرج وهم بين ساهم وواجم، وثائر وناقم..

الشباب في ضياع قاتل، والشيوخ في امتهان وإذلال، والمعارضة في السجون الرهيبة يعرضون على القتل صبراً، والصلب على جذوع النخل جهاراً، وولاة السوء بيدهم الأمر والنهي، والأحكام العرفية

تبيح لهم المحظورات، فهم يسملون العيون، ويقطعون الأيدي، ويفصلون الأطراف.

والإمام في هذه البيئة الموبوءة يتفجر حسراتٍ وآهاتٍ لهذا المصير المشترك بينه وبين الشعب المسلم المحاصر.

وتتطور العقوبات مع تطور فترات الحكم الهمجي، فتهدم السجون على من فيها، وتفرغ الأسطوانات في الدور والقلاع والصياصي ليدفن بها العلويون بخاصة وهم أحياء، ويشمل الإرهاب أقاصي البلاد.

وانتشر الفزع والخوف بين أتباع أهل البيت، فقد منعت الأرزاق، وقطعت الأعطيات، ووهب لهم الموت والقتل والتغريب، فهم يدفعون ضريبة الدم في البعوث، ويحتلبون ضيماً وخساراً ودماراً.

وكانت الآلام تنتاب الإمام لهذه الظواهر الأليمة، وتذوب نفسه حسراتٍ للشعب الذي تُستباح حرمه، وتُسفك دماؤه، وتُسلب حقوقه، هذا في جانب، وفي جانب آخر، يرى الإمام كتاب الله مهجوراً، والسنة الشريفة معطّلة، ورسالة الرسول الأعظم تُستغَلُّ في غير سبيلها، والشريعة تنبذ أحكامها إلا في مظاهر إعلامية تفيد منها السلطة في تثبيت أركانها.

وظاهرةٌ عانى منها الإمام كثيراً؛ هي تلك الفتن بين القبائل، والعصبيات الجاهلية التي رفضها الإسلام، وقد استدرجها السلطان لتسلم تلك العروش، فترى المسلم يقتل أخاه المسلم في ظل مظالم جديدة لا أول لها ولا آخر.

وظاهرة أخرى تثير التساؤل لدى الإمام؛ هي واردات الدولة الإسلامية التي يغدق بها على المؤامرات، ويسرف بمصرفها على

المغنين والمخنثين والمجّان والغلمـان والقيان، ويدفع بها لفقهاء البلاط وقضاة السـوء، وطبقات المرتزقة، والشـعب يعاني الفقـر والحرمان بل تؤخذ منه الضرائب الباهضـة على المزارع والمواشـي والأراضي عامرةً وغامرةً. والرشاوى في المعاملات والدعاوى.

وثمة ظاهرةٌ أخرى تعنى بتقريب الانتهازيين وأهل النفاق، واستبعاد الأبرار وأهل الدين، واستشـارة النسـاء والصبيان، وإدارة شـؤون الدولة بالغطرسة والاستكبار والانتفاخ، فشـبّ قرن من الناس على المتناقضات العريضة، ونشأ جيل على النزعات المارقة.

وأفاق الشـعب المسـلم على فقدان المقاييس، وانطماس الحقائق، وتلاشي القيم وفوق هذا كلِّه: الجهل المطبق والضياع وسياسة التضليل والإغراء، وما يجرّ ذلك من التخلُّف في المسـار، والتخبُّط الجماعي في الشعور والتفكير.

هذا غيض من فيـض ممّا ابتلي بـه الإمام، وهو يتجـرع الغصص، ويتنفس الصعداء، ويعاني الأسى حيث يتهاوى الصرح الإنساني.

وظاهرة طارئة أقضت مضجع الإمام، وشـغلت فكره، وهي حركات هؤلاء الغلاة التـي نهد بها جمعٌ مـن المتطرفين، وأغلبهـم من الموالي والأعاجم، فقالوا في الأئمة ما يبرأ منه الأئمة، ونسـبوا إليهم من المنزلة ما لم يدَّعها الأئمة لأنفسهم، وارتفعوا بهم إلى درجة الآلهة.

ورفض الإمام هذا الانحـراف والكفر والضلال بـكل أبعاده ورجاله، وكفّر أصحاب هـذه المقالة، وتبرأ من رجالها، ودعا شـيعته إلى الحذر منها، وعمد إلى من تولى كبر ذلـك، ففند الأكاذيب والأباطيل، ودحض

المزاعم والدعاوى، ودعا إلى صيانة الشريعة من الإضافات الباطلة وأبان بأن الأئمة عليهم السلام عباد مخلوقون اجتباهم الله لا أكثر ولا أقل.

وظاهرة أخرى دهمت عصر الصادق عليه السلام، وهي ظاهرة الزندقة، وقد شمّر لها الإمام عن ساعديه، وجنّد لها خيرة أصحابه المتخصصين، وقابلها بالنقض والحجاج والمجادلة والرّد والتفنيد، وأبطل شبهاتهم، وألزمهم الحجة البالغة، فانسحب أربابها من الميدان أو كادوا.

وهناك ظاهرة أخرى أناخت بكلكلها، وهي تداعي الفرق الإسلامية، كلٌّ يعزز رأيه، وينتصر لمقالاته، ويقف عند نظرياته، وقد يكفر بعضهم بعضاً.

وأبرز هذه الفرق هي المعتزلة والخوارج، ووقف الإمام منها ومن سواها، موقف الحزم واليقظة، وكانت المحاورة والمناظرة سبيله إلى احتواء الشُّبه، لم يخدش العواطف، ولم يوغر الضمائر، بل استطال بالحق.

ومضافاً إلى ما ابتلي به الإمام من المشاكل المعقّدة في هذه الظواهر، كانت المشكلة الكبرى في عصره؛ تجدّد الثورات، وقيام الكفاح المسلّح في وجه كلٍّ من الأمويين والعباسيين، وكلُّها تلتمس أرج الطفّ ونفح كربلاء من قبل الثائرين، وهم أبناء عمومته، ونبع أرومته، مما أدى إلى بلائه المزدوج.

هذه الظواهر سيتحدث عنها هذا الفصل والفصل الذي سيليه بإذن الله تعالى.



# الثورة المضادّة في المناخ العقلي

ولم يكن العباسيون ولاة حكم شرعي، ولم تكن لهم ممارسات دينية واضحة المعالم، باستثناء تلك الطقوس التي يتعاملون بها مع العامة، ذريعة للإبقاء على مقاليد السلطة، فهم يتجاوزون تعليمات الإسلام بمعاني هذه الكلمة كلها، وكانت تجاوزاتهم هذه أساسية لا عرضية، فهي من صميم أفكارهم في الانسلاخ من القيم التي تمثل طابعاً إسلامياً، وهذا التمحور مما يهدد الكيان الحضاري للأمة، ويبدد تلك الهالة القدسية للرسالة ولا سيما وأن هؤلاء من دعاتها ظاهراً، وهنا يكمن الخطر إذ لم يكن بأقل من حركات التضليل الجماعي في الإلحاد والزندقة والخروج عن الدين.

وكانت المهمّة المركزية لدى العباسيين هي حفظ مواقع الحكم، والقبض على زمام الملك، أما الاهتزاز الداخلي للإنسان فغير منظور إليه على الإطلاق، وكذلك الانهيار الاجتماعي في المثل والقيم فلا يعنيهم أمره، بما في ذلك من إضاعة الموازين، وتمييع الإنسان المسلم، وتشويه رسالة السماء.

إذاً لا تمثّل مسألة الإسلام عند القوم أكثر من ورقةٍ رابحةٍ تطرح للمضاربة، فإذا تم من خلالها احتواء الأمّة، والسيطرة على مراكز القوى،

والانفراد بالسلطة، فذلك هو المبدأ المحوريُّ الذي يدور عليه تحرك المسؤولين؛ أما البناء الواقعي لقواعد هذا الدين في مسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، فهو في نظر خلفاء السوء من الأفكار الوافدة التي تعرقل سياسة التسلّط الفئوي لبني العباس، لذلك دأبوا في إبعاد شبح الإمامة عن المنظور القيادي، وضيّعوا الفرص المتكافئة على الشعب الذي يطمح إلى حياة أفضل في ظل العدل الإسلامي الذي يقدمه أهل البيت عليهم السلام، لما عرفوا به من الأصالة والموضوعية، وفيما ظهر عياناً من رصانة السلوك، وتسامي الشخصية التي لا يطغى عليها أي تسرب من النزوات التي ترافق سيرة المتحكمين زوراً وبهتاناً.

إن هذه الرؤية المميزة للمناخ المتقابل بين أهل البيت وبني العباس، هي التي حوّلت الأنظار إلى الإمام الصادق عليه السلام بغية تغيير الواقعَ الفاسد.

والإمام في ضوء هذه الإفرازات المضنية بين اتجاهين أساسيين من التفكير الموضوعي، فإمّا أن يضحّي بالبقية الصالحة من أوليائه في تغيير مسلّح قد لا يكتب له النجاح، وإمّا أن يتجه بكلِّ قواه نحو الثورة الفكرية التي تنقذ الناس من هوّة التخلف والانحطاط، وترتفع بهم إلى مستوى المسؤولية.

هذا الافتراض في محوريه قد يمثل ما يدور في خلد الناس بعامة، والإمام بعبقريته قد سبر أغوار مجتمعه المتقلّب الذي لا يثبت على قرار، وخبر أساليب السياسة في خرق كلِّ القيم من أجل سلامة العروش، فكان الاتجاه الثاني هو الخيار الوحيد الذي تمليه عليه المرحلة الصعبة التي عايشها في ظلِّ الإرهاب والضراوة والاستشراء بما

لا عهد للمسلمين به من ذي قبل، وكانت مشاهد مواكب الشهداء من الحسنيين شاهد العصر على هذا المنظار.

ذكر المسعودي: «**أن المنصور قال يوماً لجلسائه، بعد قتل محمد وإبراهيم: تالله ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني مروان!! فقام المسيّب بن زهير الضبي فقال: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض خلقاً أعزّ علينا من نبينا (ص)، وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك، وفعلنا ذلك، أنصحنا لك أم لا؟ فقال المنصور: اجلس لا جلست**»[1].

هذا النموذج من الامتثال العشوائي لأوامر بني العباس، يفسر لنا حقيقة الوضع السياسي بين الولاة والأتباع، يضاف إليه البطش والغدر حتى بأقرب الناس للحاكمين: أمثال أبي سلمة وأبي مسلم وعبد الله بن علي، وما جرى غير بعيد عن ذاكرة الإمام، وهو يشاهدها أولاً بأول.

ولم تكن مهمة الإمام الصادق عليه السلام مهمّة سياسية فحسب، بقدر ما هي مهمّة فكرية، والإمام يتجاوز ما لا يستطاع إلى ما يستطاع.

وهذه المهمة في الريادة قد تفوق حدّ التصور في العطاء والإثراء، فهي تسعى في هدف مزدوج إلى الإبقاء على جوهر الدين خالصاً من التزييف، وتضطلع بمسؤولية إعداد الجيل الذي يحمل تراث الإسلام فكراً وروحاً وعقيدة.

وفي ضوء هذا الفهم المتوازن شيّد الإمام مؤسسته العلمية على أساس متين من الوعي والهدف الرائد، وكان هذا هو المنطلق الشرعي الوحيد الذي يسعى إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٩٨.

وكان التيقُّظ من التداعي والخور أمام التيارات الوافدة، والثبات والصبر على مواصلة الكفاح العلمي من أهم أسباب نجاح أهداف مؤسسة الإمام العلمية، يضاف إلى ذلك بناء الفكر العقائدي، وصيانة الأرواح من الإزهاق، والحفاظ على ما بين يديه من الرجال الأفذاذ.

يقول باحث أوربي معاصر:

«أما الصادق عليه السلام فقد كان يعرف أن الشيعة تحتاج إلى مدرسة علمية تكفل لها الصمود أمام التيارات المنحرفة، وتجعلها في منأىً عن التأثر بوفاة هذا ومجيء ذاك. ومنذ اليوم الأول لقيام الصادق عليه السلام بالتدريس، وضع لنفسه أهدافاً معيّنة يتوخاها، أهمها تأسيس مدرسة علمية، وإقامة ثقافة شيعية رصينة تتمثّل في (**المعارف الجعفرية**) لثقته أن بقاء الشيعة رهنٌ بما يتوافر لها من علم وثقافة.

وهذا يدلّ على أن الإمام الصادق عليه السلام لم يكن عبقرياً في العلم وحده، بل كان أيضاً عبقرياً في السياسة، وكان يدرك أن إيجاد مدرسة علمية شيعية من شأنه الحفاظ على الكيان الشيعي أكثر من أيّ قوة عسكرية، فالقوة العسكرية ـ وإن عزّت ـ عرضةٌ لأن تدمرها قوة أكبر منها؛ أمّا المدرسة العلمية التي تنشر الثقافة المتعمقة فتبقى ما بقي الدهر. وكان يرى أن من تمام الصواب الإسراع بإنشاء هذه المدرسة لمواجهة الانحرافات المذهبية والتيارات الفكرية غير الإسلامية التي بدأت منذ عصر الإمام تهدد العالم الإسلامي وتهزّه هزّاً.

ولئن كانت الشيعة فقدت المنهل الرئيسي لاغتراف المعارف بعد الإمام الثاني عشر، فقد بقيت تواصل حياتها الثقافية دون أن تكون لها مراكز دينية يشرف عليها عالم ديني، كما هو الشأن في كنائس الغرب.

وإنمـا الفضل في هـذا راجع إلـى مدرسـة الإمام جعفـر الصادق عليه السلام العلمية، والإشعاع الفكري الذي تركته لدى الشيعة.

واليـوم وقد انقضـى (أكثر من) ثلاثة عشـر قرناً علـى عصر الإمام الصـادق عليه السلام ولـم تعـد للشـيعة أجهـزة نظاميـة دينيـة تشـرف على التعليم والأنشـطة الدينية شـأن الكنيسـة الكاثوليكية مثـلاً، ولكنها مع ذلك اسـتطاعت بفضـل الإمام جعفـر الصـادق عليه السلام أن تطـاول الدهر، وتنهض بنشـاط علمي ملمـوس، ولها من الآثـار العلمية مـا يكفل لها البقاء طويلاً[1].

صحيح أن العلمـاء الذين جاؤوا بعد الإمـام الصادق عليه السلام اضطلعوا بدور كبير في توسيع المعارف الجعفرية ونشرها، بما صنفوه من أبحاث ودراسـات ومؤلَّفات نفيسـة، ولكن الفضل في تأسـيس هذه المدرسـة وإرسـاء قواعدها ومعالمها يرجع دائمـاً إلى الإمام الصـادق عليه السلام الذي حثّ الشـيعة على الاغتراف من المعارف والثقافة الشيعية، وأمرهم بنشر هذه الثقافة وإذاعتها قائلاً لهم: إن لـم تكونوا حملة العلم وناشـريه بين الناس، فكونوا حفظة له»[2].

وهذا يوحـي بأن الإمام الصـادق عليه السلام كان قد خطط مسـبقاً لإعداد هذه المؤسسة، كما يوحي بأنه كان مستهدفاً لسـهام الحكم ومضايقته، يسـتهدفه بالامتحان العلمي غير البريء، عسـى أن يجد ثغرة يلج منها إلى القول بمشـاركة غيـره له فـي الشـخصية العلمية، فـي حين كان الاعتراف بالكيان المعرفي الشـامخ للإمام شـائعاً بين النـاس في عفوية

(١) المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف، لها الإشراف الروحي على النشاط العلمي للحوزات العلمية في العالم، وهي ليست مؤسسة رسمية، بل هي كيان مستقل بذاته (المؤلف).

(٢) جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٨٢ / ١٨٣.

فطريـة، أثبتتهـا وقائع الأسـئلة المتدافعـة الأمواج للإمام مـن مختلف المستويات، ولدى الطبقات الجدلية، إسلاميةً كانت أم إلحادية، حتى إن ابن المقفع ـ وهو من علمت ـ أومأ بيده إلى موضع الطواف، وأشـار إلى الناس وقال: «**ما منهم من أوجب له اسم الإنسـانية، إلا ذلك الشيخ الجالس ـ يعني الإمام الصادق عليه السلام ـ فأما الباقون فرعاع وبهائم**»[1].

وواضح أن المـراد بإنسـانية الإمـام الصـادق بالإضافة إلـى اعتبار الناس رعاعاً وبهائـم لدى ابن المقفع؛ هو العلم الـذي كان فيه الصادق الشاخص المتميز.

وكان على الإمام الصادق أن يفجـر ثورته العلمية المضادّة لإفرازات العصر، وكان الأمر كذلـك، وأعدّ له العدة الفائقة، فبنـى مفرداتها على أسس من العقيدة الخالصة، وأجرى في روافدها موارد الحضارة العقلية، رغم كل العقبـات التي اعترضـت تطلعاتهـا الحرّة سـواءً أكانت تلك العقبات سياسـية أم فكرية، فللظروف أحكامها، ولكنه استطاع أن يقطع بها أشواطاً بعيدة، وكان ذلك انتصاراً للفكر الإنساني الرائد.

في عصر الإمـام تلاقحـت الحضـارات العالمية، فنشـأت عن هذا التلاقح موجات صاخبة من الأفكار، وكان لدخول الفلسفة ميدان الحوار والمناظرة أثره في تشـعب الآراء وتباين الاتجاهات، فنشـأ نتيجة لذلك مناخ جديد من النظريات المتضاربة في تطلعاتها وإرهاصاتها.

وكان العصر العباسـي يشجع هذا الانقسـام الفكري ويغذي جذوره بالتأييد تـارةً، والتحيّز لهذه الفئـة أو تلك تارةً أخـرى، ولم يكن ذلك بدوافع بريئة، ولكن ليلهو الشعب المسلم عن مآسي السلطان، فالهدف

---

(١) ظ: الكليني: الكافي ١/ ٧٤.

ـ والحالة هـذه ـ لم يكن علمياً، بل هو هدف سياسـي يشـغل الناس فيما بينهم عن قضيتهم المركزية، ويحشـرهم حشـراً في صراع عاطفي أو مذهبي أو عصبي، وهذا ـ في المنظور السياسي ـ أولى من التفكير بقضايا الأمة وحياة الشعوب، لهذا فقد تعمدوا تعميق الانشطار الفكري، وشـجعوا الخلاف بين الاتجاهـات العقلية، فكانت المؤسسـة الكلامية في جدل وحجاج ونقاش في شـتى فروعهـا، وقامت مدرسـة الاعتزال بأنشـطتها المتشـعبة، ودعت الأشـاعرة إلى أفكارها الحسـية ظاهرياً، واحتدم الجدل بين المرجئة والقدرية.

وكلّل هذا الاصطفـاف العقائدي المتخاصم بتيـار جارف ضليل من الزندقة والزنادقة، وموجة عارمة من الغلوِّ والغُلاة، فاحتدمت المبارزة في ميدان الرّد والنقض، وأشرعت السـهام تصويباً وتصعيداً، وملئت أروقة المسـاجد برجال الإثارة والمنطق الصاخب، واسـتحدثت مناهج جديدة في البحث والمدارسـة، وبدأت المصطلحات الكلامية، تغزو الآفاق في كثير من التطـور والتطرُّف، والى جانبها التراكم الفلسـفي في أجزاء من المباحث والنظريات، فنتج جـراء هذا الزخم الفكري أن تشـعب النظر في الأجسام والأعراض، والتشبيه والتجسـيم، وصفات الأفعال وصفات الذات، والزمـان والمكان، والوعـد والوعيـد، والمنزلة بيـن المنزلتين، والنفي والإثبـات، والوجـود والعدم، وخلـق القرآن وحـدوث القرآن، والقـدم والحـدوث، والكمـون والظهور، والكميـة والكيفيـة، والمؤمن والفاسـق، والزنديق والغالي، والرفـض والجماعة، والجبـر والتفويض، والقدر والإرجاء، والأمر بين الأمرين..الخ.

هذا المناخ السـاخن بتفسـير هذه المفردات، والخـوض في دلالتها أوجد حالـة مفزعة من الجدل الذي قـد يمتد إلى النزاع المسـلح، كما

حدث بين المعتزلة والأشاعرة في القول بقدم القرآن أو حدوثه مما لا يمت إلى الإسلام بصلة.

يضاف إلى هذا كله قيام مدرسة النظر والاجتهاد في قبال مدرسة الرأي والقياس، وتعدد المذاهب الفقهية، مما أغنى الفكر الإسلامي من جهة، وجرّ عليه العناء والبلاء من جهة أخرى، فكلٌّ ينتصر لمذهبه، وكلٌّ يتعصب لمدرسته، وكان أن انقسم المسلمون إلى مذاهب ومدارس، تتجاذبهم تيارات متنوعة في الأداء والأفكار.

هذه الحياة العقلية في عصر الإمام الصادق عليه السلام قد وازن الإمام بين أبعادها في ثورة مضادة من التحرك العلمي والعقائدي الرصين، فبدد الشبهات الوافدة، وطوّح بالآراء الغريبة، وعرى العناصر المشبوهة، مما يعني التغيير الجذري في حياة الفكر الإنساني، وهو يحاول تخليصه من الشوائب والجمود كما ستراه في مباحث هذا الفصل.



## ظاهرة الغلاة



وانطلقت ظاهرة الغلو في الأئمة عليهم السلام من قبل فصائل الردّة، ودعاة الضلال والتخريب. وكان الدافع لها ثلاثة عوامل فيما يبدو:

**الأول:** ما ظهر على يد الإمام الصادق عليه السلام من خوارق الإنباء بالغيب، وارتفاع مستوى الحديث عن التحمّل وتجاوزه حدّ المألوف، وما صاحب ذلك من مزايا الإمام النفسية، ومواهبه في العلم اللّدني، وموسوعيته في المعارف العليا، فلم تطق العقول الساذجة مصادر هذا الفيض العلمي، فذهبت به إلى مستوى الغلوّ، واعتقدت فيه ما لا يصحُّ.

**الثاني:** عامل الدسّ وتضليل الناس من قبل العناصر المشبوهة التي حشرت نفسها حشراً في زمرة أصحاب الإمام، فاختلقت الادّعاءات اللامعقولة، وروّجت للكذب الرخيص، وعمدت إلى المبالغة الفجّة، فوضعت الأحاديث المزوّرة جنباً إلى جنب من الأحاديث الصحيحة، فاختلط الحابل بالنابل، مستغلين الفهم العفوي لدى السواد الأعظم، ومستحلين فراغ الأفق العقلي من النقد الموضوعي.

**الثالث:** العامل السياسي بحشد طائفة معيّنة من الموالي والوافدين على الإسلام لتشويه العقيدة، تنفيذاً لرغبات السلاطين وولاة السوء، فأنعموا عليهم بالمناصب والوظائف، وشجعوهم على الافتراء

والانتحـال، فقامت لهم سوق عامـرة بالمخاريق، يطلبـون بها العرض الفاني من الدنيا.

وقد أشـار الإمام عليه السلام إلى هـذه الطبقـة، وأوضح ما هـم عليه من الأطماع وحبّ الرئاسة بقوله:

**«إن الناس قد أولعـوا بالكذب علينا، وإني أحدث أحدهـم بالحديث، فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه، وذلك أنهم كانـوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله، وإنما يطلبون الدنيا، وكلٌّ يحب أن يكون رأساً»**[1].

وقال أيضاً: **«إنّا أهل بيت لا يزال الشيطان يدخل فينا مـن ليس منا، ولا من أهل ديننا، فإذا رفعه نظر الناس إليه، أمره الشيطان فيكذب علينا»**[2].

هذه العوامل الثلاثة بأبعادها المتقاربة في الهدف والتسـخير ذهبت إلى القول جزافاً بإلهية بعض الأئمة عليهم السلام.

وكان أبـو الخطّـاب الأسـدي يزعـم أن الله تجلّـى فـي جعفـر الصادق عليه السلام، وأن الألوهية تسـير مطـردة؛ ففي مقام النبوة نور مشـرق في النبي، والنبوة نور مشـرق في الإمام، وقال ـ فيما ذكره الشهرستاني ـ بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه، وهـم أبناء الله وأحباؤه، والإلهية نور في النبوة، والنبوة نـور في الإمامة، ولا يخلو العالـم من هذه الآثار والأنوار، ورغـم أن الإمام الصـادق عليه السلام هو الإله في زمانـه، وليس هو المحسوس الذي يرونه، ولكنه لما نزل إلى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها[3].

---

(١) هاشم معروف الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٥٩.

(٢) هاشم معروف الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٥٩.

(٣) ظ: موسى السبيتي: حياة الصادق ٣٩ وانظر مصدره.

وأنت ترى عقم هذه الفلسفة في الطرح والاستنتاج، لأنها تقوم أساساً على مقدمات خاطئة فتصل إلى نتائج خاطئة، وقد حبّذ لهم الوهم والضلال ارتكاب هذا الهراء المستطير، وهو لا يسمن ولا يغني من جوع.

وكانت هذه الأفكار، تذاع سراً في الكوفة، واتخذ الغلاة مقراً لإجراء طقوس عبادتهم، فنصبوا خيمة بكناسة الكوفة يجتمعون فيها، وكان الداعي إلى ذلك عمير بن بنان العجلي[1].

وهناك من الغلاة من زعم أن الإمام الصادق من الأنبياء الذين يوحى إليهم، بينما ذهبت الناووسية إلى أن الإمام الصادق هو المهدي المنتظر الذي سوف يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

هذا ملخص ادعاءات الغالية في عصر الإمام الصادق عليه السلام.

وقد اتخذ الإمام الصادق ثلاث خطوات جريئة لملاحقة هذه الأفكار الضالة، وللبراءة من هذه المزاعم الباطلة:

الخطوة الأولى: تتجلى في ذلك الموقف الصلب في إيضاح الحق على طبيعته، فأكد الإمام أن أهل البيت عليهم السلام: عبادٌ مكرمون، وعبيد مخلوقون، امتازوا بالعلم والحلم والورع والتقى، وأن دعوات الغلو المزيّف والتأليه الباطل، لا تمت إليهم لا من قريب ولا من بعيد، ولا تمثل حقيقة الفكر الإمامي بمنظور صادق.

والأئمة يشجبون ذلك بكل حول وطول. قال الإمام الصادق:

(١) ظ: الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٢٠.

«والله ما نحن إلا عبيد.. ما نقدر على ضرّ ولا نفع، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله ما لنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنّا لميتون، ومقبورون، ومنشورون، ومبعوثون، ومسؤولون...

أشهدكم أني أمرؤٌ ولدني رسول الله، وما معي براءة من الله، إن أطعت رحمني، وإن عصيت عذبني عذاباً شديداً»[1].

وهذا العرض من الإمام معيار دقيق يؤكِّد فيه الطبيعة البشرية في الخلق والتكوين له وللأئمة، وأنهم عبيد مخلوقون ليس غير، رداً على المبتدعين والمضللين، وهو لاينافي عصمتهم عليهم السلام، لأنها ملكة متأصِّلة في تكوينهم وتركيبهم النفسي، تمنعهم بإرادتهم وبتوفيق من الله تعالى من اقتراف المعاصي وترك الطاعة، فلو عصى الإمام ـ من باب الفرض ـ عُذّب، واستحقَّ ما يستحقُّه غيره من العقاب جزاءً وفاقاً، وهذا من قبيل ما سبق لجده الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد عوتب على كثرة إنابته وبكائه وتقشفه وخشوعه، وذكر أنه ابن رسول الله وعلي وفاطمة، فردّ على هذا الاتجاه قائلاً: **«خلق الله الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، والنار لمن عصاه، ولو كان سيداً قرشياً»**[2].

بل هو امتداد لما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين، حينما انبهروا بكثرة عبادته وديمومة إنابته، فقالوا: أليس الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فأجاب (ص) بما نصه أو مؤداه: أفلا أكون عبداً شكوراً.؟!

(١) الكليني: روضة الكافي ١/ ٢١٢.

(٢) ظ: المؤلف: الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية ١٢٠ ـ ١٢١.

وعن خالد الجوان، قال دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، وعنده خلق، فقنعت رأسي، وجلست في ناحية وقلت في نفسي، ويحكم ما أغفلكم! عند من تتكلمون.. عند رب العالمين؟!!!

قال: فناداني الإمام: ويحك يا خالد، إني والله عبد مخلوق، لي ربٌ أعبده، إن لم أعبده عذّبني بالنار، فقلت: «**لا والله لا أقول فيك أبداً إلا قولك في نفسك**»[1].

ويبدو أن خالداً هذا كان مضلَّلاً أو مغفَّلاً فأنصت للإمام الصادق مستمعاً، وحكّم عقله مستبصراً، فرجع عن الغلوِّ، وصرّح تصريحه المتقدم.

وروى المجلسي عن كتاب زيد النرسي قال:

«لما ظهر أبو الخطّاب بالكوفة، وادّعى في أبي عبد الله عليه السلام ما ادّعاه، دخلت على أبي عبد الله مع عبيدة بن زرارة، فقلت له: جعلت فداك، لقد ادّعى أبو الخطاب وأصحابه فيك أمراً عظيماً، إنه لبّى بـ(**لبيك جعفر لبيك معراج**). وزعم أصحابه أن أبا الخطاب أُسري به إليك، فلمّا هبط إلى الأرض دعا إليك، ولذا لبّى بك.

قال: فرأيت أبا عبد الله عليه السلام قد أرسل دمعته من حماليق عينيه، وهو يقول: «**يا رب، برئت إليك مما ادّعى فيّ الأجدع عبد بني أسد، خشع لك شعري وبشري، عبد لك ابن عبد لك، خاضع ذليل**» ثم أطرق ساعة في الأرض كأنه يناجي شيئاً، ثم رفع رأسه، وهو يقول:

---

(١) الصفار: بصائر الدرجات ٥/ ٦٥.

**«أجل أجل عبد خاضع خاشع ذليل لربّه، صاغر راغم من ربّه، خائف وجل. لي والله ربٌّ أعبده لا أشرك به شيئاً، ماله أخزاه الله وأرعبه، ولا آمن روعته يوم القيامة، وما كانت تلبية الأنبياء هكذا، ولا تلبيتي ولا تلبية الرسل، إنما لبيتُ بلبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك..»**[(١)].

فالإمام من خلال تقريره عن نفسه: عبد خاضع خاشع ذليل صاغر راغم لربه تعالى، يرجو ثواب الله ويخشى عقاب الله، وهو يتابع هذا القول، فعن صالح بن سهل قال: كنت أقول في الصادق عليه السلام، ما تقول الغلاة، فنظر إلي فقال:

**«يا صالح، إنا والله عبيد مخلوقون، لنا ربّ نعبده، وإن لم نعبده عذبنا»**[(٢)].

وعن المفضل بن عمر، وقد تكلّم هو وجماعة، فيما يتكلّم به أهل الغلو، يقول: فخرج علينا الصادق عليه السلام بلا حذاء ولا رداء، وهو ينتفض ويقول:

يا خالد، يا مفضل، يا سليمان، يا نجم، لا ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[(٣) ٤].

وعن خالد الجوان: قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام، وأنا أقول في نفسي: ليس يدرون هؤلاء بين يدي من هم؟ قال: فأدناني حتى جلست بين يديه، ثم قال: يا هذا، إن لي رباً أعبده. ثلاث مرات[(٥)].

---

(١) المجلسي: البحار ٤٧/ ٣٧٨.

(٢) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٤٧.

(٣) سورة الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٤٧.

(٥) الصفار: بصائر الدرجات ٥/ ٦٥.

وربما ادّعى بعضهم أن الصادق من الأنبياء، فتبرّأ ممن قال ذلك:

«أبرأ ممن قال: إنّا أنبياء»[١].

إن حملة الإمام الصادق عليه السلام على الغلاة كانت مكثفة في مجالات شتى، لئلا يتذرع الجهلة والعوام بأوهامهم، وليضع الناس على الجادة، وليجعل نفسه والأئمة بمستوى البشر دون المغالاة القائلة بتجريدهم عن الحقيقة البشرية.

الخطوة الثانية: وتتبلور بالبراءة من الغالين على لسان الإمام والأئمة من بعده، يضاف إلى ذلك لعنهم على رؤوس الأشهاد والدعاء عليهم بالبوار والدمار.

قال عيسى بن منصور: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «اللهم العن أبا الخطّاب، فإنه خوّفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي، اللهم أذقه حرّ الحديد» فقتله عيسى بن موسى وصلبه هو وأتباعه[٢].

وقال عليه السلام لسدير الصيرفي متبرّئاً من الغلاة:

يا سدير، سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، برئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وإياهم يوم إلا هو عليهم ساخط[٣].

---

(١) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٥٤.

(٢) ظ: هاشم معروف الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٣) ظ: هاشم معروف الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١.

وروي عنه عليه السلام لعن جملةٍ منهم في طليعتهم: بزيع بن موسى، قال: لعن الله بزيعاً والسري وبشار الأشعري، وحمزة الزيدي، وحائد النهدي[١].

وقال عليه السلام: إن بناناً والسري وبزيعاً لعنهم الله، لقد تراءى لهم الشيطان، إنّا لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، أو عاجز رأي، كفانا مؤونة كلٍّ كذاب وأذاقهم حر الحديد[٢].

وكان بشار الأشعري قد استغل الكوفة باعتبارها علوية الرأي، وفيها أساطين أتباع أهل البيت عليهم السلام فنشر شيئاً من دعاواه الغالية، فلعنه الإمام الصادق عليه السلام، وأرسل إليه من يقول له:

**يقول لك جعفر بن محمد: «يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا بريء منك»**[٣].

وقال إسحاق بن عمّار: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لبشار الشعيري: «**أخرج عني لعنك الله، لا والله، لا يظلني وإياك سقف أبداً**»[٤].

وقد لعن الإمام أبا منصور العجلي والمغيرة بن سعيد وتبرأ منهما، كما لعن دعاة الزندقة والإلحاد كحائد النهدي وحمزة الزيدي وأضرابهم.

الخطوة الثالثة: وهي تقوم بدور التحذير من هؤلاء الغالية في كلِّ مقام. فعن عبد العزيز، قال: كنت أقول بالربوبية فيهم، فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقال: يا عبد العزيز، ضع ماءً أتوضأ، ففعلت، فلما

(١) ظ : هاشم معروف الحسني : سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٦٠ ـ٢٦١.

(٢) هاشم معروف الحسني : سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢ وانظر مصادره.

(٣) هاشم معروف الحسني : سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢ وانظر مصادره.

(٤) هاشم معروف الحسني : سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢ وانظر مصادره.

دخل يتوضأ، قلت في نفسي: هذا الذي قلت فيه ما قلت يتوضأ؟! فلما خرج، قال: يا عبد العزيز، لا تحمل على البناء فوق ما يطيق فيهدم.. إنّا عبيدٌ مخلوقون[١].

واستغرب سليمان بن خالد أن كتب الإمام لبعض مواليه في حاجته، وأسرّ ذلك في نفسه، فاستدعاه الإمام الصادق عليه السلام، فقال له: «**كتبت إليهم لأخبرهم أني عبد ولي إليهم حاجة**»[٢].

وهذا نوع من التذكير والتحذير لئلا يشذَّ بعض الناس وتذهب بهم المذاهب. قال المفضل بن يزيد: قال لي أبو عبد الله الصادق وقد ذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة: يا مفضل، لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم[٣].

وكان الإمام عليه السلام يؤكد هذا التحذير مراراً، ويتابعه إنكاراً، دحظاً للأباطيل، وإقامة للحجة، واستباقاً للأحداث بهدف هدي الناس، فعن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قيل له: إن أبا الخطاب يذكر عنك أنك قلت له: إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت، فقال: لعن الله أبا الخطاب، والله ما قلت له هكذا[٤].

وحذّر الإمام أصحابه من هؤلاء بطريقة أخرى تصبّ في هذا الرافد، وأنه مسؤول غداً عما يدعيه هذا الكذّاب أو ذاك؛ فقد عرض بذم الشعيري قائلاً «إنه شيطان وابن شيطان خرج من البحر ليغوي أصحابي، وليبلغ الشاهد الغائب، فإني عبد الله وابن عبد الله، ضمتني

(١) ابن الراوندي: الخرائج والجرائح ٢٣٤.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ١٠٧.
(٣) ظ: هاشم معروف الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٦١.
(٤) ظ: المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٣٣٨.

الأصلاب والأرحام، وإني لميّت ومبعوث ثم مسؤول، والله لأُسألنّ عما قال فيّ هذا الكذاب وادّعاه، ماله؟ غمّه الله، فلقد أفزعني، وأفلقني عن رقادي[1].

ويضاف إلى براءة الإمام الصادق من هؤلاء، وتحذيره من أضاليلهم، أنه قد توالت تصريحات الأئمة عليهم السلام بذمهم ولعنهم والبراءة منهم.

فقد صرح الإمام موسى بن جعفر الصادق عليهما السلام بالقول:

**«إن أبا الخطّاب ممن أعير الإيمان ثم سلبه الله»**[2].

نستجير بالله من سوء العاقبة.

بل وأكثر من هذا، فقد خرج التوقيع من الناحية المقدسة على يد السفير محمد بن عثمان العمري:

**«وأما أبو الخطاب محمد بن أبي زينبة الأجدع، ملعون، وأصحابه ملعونون، فلا تجالس أهل مقالتهم، فإني منهم بريء، وآبائي منهم برآء»**[3].

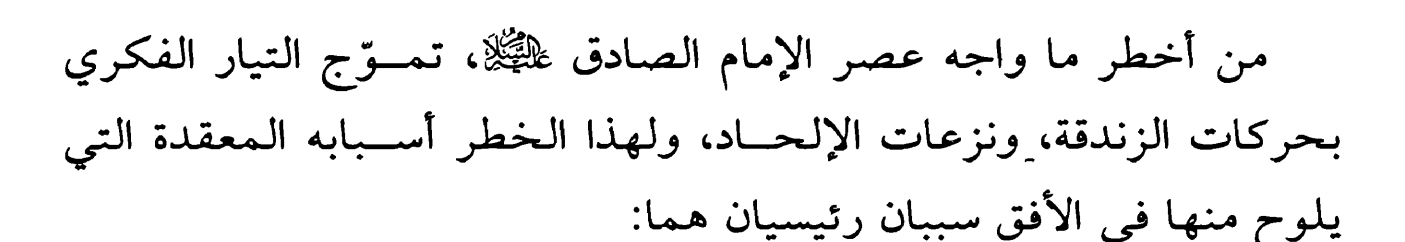
لقد تصدى الإمام الصادق بحزم وإصرار لمجابهة هذه المقالات المنحرفة، وطوح بآرائها وأفكارها، حتى عادت نسياً منسياً.

---

(١) موسى السبيتي: حياة الصادق ٤١.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٣٣٦.
(٣) الطبرسي: الاحتجاج ٢٦٣.



# حركات الزندقة والإلحاد



من أخطر ما واجه عصر الإمام الصادق عليه السلام، تمـوّج التيار الفكري بحركات الزندقة، ونزعات الإلحــاد، ولهذا الخطر أســبابه المعقدة التي يلوح منها في الأفق سببان رئيسيان هما:

١ـ استشـراء البحث الكلامي في الحياة العقلية، وتشـعب مناهجه، وتعالي صيحاته حقاً وباطلاً، مما أحدث إشـكالية مستديمة في التفكير بما وراء الغيب، والتوسع بمسائل الاعتقاد في الله والمعاد، وخلق الإنسان وفنائه، ونشأة الدنيا وحياة الآخرة.

وكان الغزو الثقافي للمســلمين من خلال الفلســفة الإغريقية حيناً، والديانة الزرادشــتية حيناً آخر، معمقاً لنظريات وفرضيــات يغلب على طابعها الغموض والإبهام، وهي تبتعد بإنســان ذلــك العصر عن الصفاء الفطــري في نظرتــه لحقائق الأشــياء، فأخــذ في خوض حــرب جدلية محمومة يتزعمها متمرِّسون في الردّ والنقض والإبرام.

٢ـ انحراف الركب السياسي عن حظيرة الإســلام في حياته العامة، وارتكاســه في ملذاته وشــهواته في حياته الخاصة، وابتعاده عن رســالة الإســلام، جوهراً وتكويناً، لا يهمه ســوى الاعتداد بالســلطة، والحرص على ســلامة النظام، متخذاً لذلك الوسائل المشــروعة وغير المشروعة،

فهو يشهر الإسلام سلاحاً في وجه أعداء النظام لا الإسلام، وهو ينكّل بالمعارضين والرافضين، ويعرضهم لأقسى صنوف التعذيب، فنشأ جيل متمرد كافر بالقيم العليا، ونبع جيل آخر التجأ إلى التشكيك بكل الثوابت والأفكار السليمة، وقام جيل ثالث بإثارة البدع والمغتريات، والتقى الجميع على قارعة الطريق، يقرّبون البعيد، ويبعّدون القريب، فتجهمت الرؤية النافذة، وتحكمت الشبه الطارئة، وبدأ الانحراف عن الخط المستقيم في أجواء غائمة، وتصاعد هذا المدّ في ضبابية خطرة، كان نتاجها قضية الإلحاد، ومن تشكيلاتها كتل الزندقة، ومن ويلاتها إلصاق التهمة فيهما بكل معارض لسلاطين الجور، ومن تبعاتها اعتبار كل رافض للسياسة العامة من دعاة التخريب الاجتماعي.

هذان العاملان وما رافقهما من التفاف أصحاب المقالات المضللة للإطاحة بأصالة الدين الإسلامي، هما الأصل في خلفية الزندقة، واستبداد مذاهبها وبواعثها الانحرافية.

وكان أن تبنى هذا الاتجاه المناقض لعقيدة الإيمان، متكلمون من العرب، ومتكلمون من الفرس، يجمع بينهم الحقد الكامن على الإسلام من وجه، والسخط العام على السياسة القائمة من وجه آخر.

ولا علاقة للمذاهب الإسلامية في نشوء حركة الزندقة في العصر العباسي؛ فقد وقفت كل المذاهب ضد هذا التضليل الوافد، واجتمعت كلمتها في منازلة الحركات الهدّامة، وربما قيل: إن الزنادقة قد مالوا إلى الدخول في الإسلام لنشر البدع والضلالة، وهذا ممكن عقلاً وعادة، إذ قد يتوخى الحاقدون على الإسلام، أن يوصفوا بأنهم مسلمون، ولكن هذا الزعم يجب ألا يلصق بمذهب معين، اتباعاً للهوى، وإشباعاً لرغبات التفريق بين المسلمين، كما شاء هذا الدكتور أحمد أمين فقال:

**«والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد أن يدخل تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية وهندية، ومن كان يريد استغلال بلاده والخروج على مملكته؛ كلُّ هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم»**[1].

والذي يقرأ هذا النصّ المتهافت قد يدور في خلده أن موجات بشرية من اليهود والنصارى، وطوائف من الهنود والزرداشتية، قد دخلوا في التشيّع وانخرطوا في سلكه، والتجؤوا باسم حبّ أهل البيت للإعلان عن الإلحاد والزندقة تحت غطاء من التشيع، لترسيخ تعاليم آبائهم في الأذهان نتيجة حقد دفين على الإسلام.

وهذا الزعم الرخيص يكذبه الاستقراء التاريخي، إذ لم ينضو آنذاك تحت لواء التشيع إلا القبائل العربية الأصيلة، ولم يسجل لنا التاريخ أيَّ أفراد من هؤلاء ـ فضلاً عن الجماعات ـ قد انتحلوا التشيع ستاراً لهم في حركاتهم، بل حدثنا التاريخ أن العرب الأقحاح من أولياء أهل البيت بقيادة الإمام الصادق عليه السلام هم الذين رصدوا تحرك الزنادقة، وسدّوا عليهم المنافذ التي يتسربون من خلالها إلى المجتمع المسلم بشتى الطرق والأساليب.

وكان الإمام الصادق يقف بالمرصاد لأولئك المنحرفين، ويدفع بتلامذته المقربين أمثال: هشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم وسواهم، للتصدي والإيقاع بشبهات أهل البدع كما سترى ذلك.

ومن المتسالم عليه علمياً أن الدكتور أحمد أمين يصدر في آرائه عن تعصُّب أعمى يغلب عليه في كل تصريحاته الفجة، وليس التعصب

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ٢٧٦.

معياراً للبحث الموضوعي في شيء، ولقد سخر منه الإمام محمد الحسيني آل كاشف الغطاء لدى مناقشة آرائه الغريبة ضدّ التشيع وأهل البيت، وأفحمه بالحجة والبرهان، وكان ذلك في النجف الأشرف عند زيارته لها، فوعده بتصحيح آرائه، ولكنه عاد إلى مصر ولم يفعل ذلك.

وهذا منهج جرى عليه أعداء الإمامية في إلصاق التهم بهم جزافاً، فبدلاً من أن يعودوا باللائمة على الفكر الفلسفي الوافد على العرب، تراهم ينحون بذلك على التشيع بغية تفريق كلمة المسلمين، وما علموا أن أعرف الناس خيانةً للإسلام هو من يفرق كلمتهم على أساس طائفي أو مذهبي أو عنصري، فالإسلام دين الأخوة والوحدة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

ومهما يكن من أمر، فقد اتخذت السياسة العباسية من شعار الزندقة ذريعةً كبرى للإطاحة بأعدائها والقضاء على خصوم النظام، ولم يكونوا صادقين فيما اتخذوه من إجراءات، بل أرادوا إشغال الأمة ـ على عادتهم ـ في حديث جديد وعرض جديد، وقد تكون كثير من التُّهم التي ألصقوها بالآخرين كاذبة، وكان الدافع وراءها سياسياً مبرمجاً.

وقد ذكر المؤرخون أن المهدي العباسي قد أنشأ ديواناً خاصاً للبحث عن الزنادقة والتفتيش عنهم، وعهد به إلى رجل أطلق عليه اسم: صاحب الزنادقة[2].

ولم يحفل الزنادقة بتهديد الحكم لهم؛ لأن سفك الدماء قد يزيد من التمسك بالآراء، ولكن الخطر الذي جابه الزنادقة وجهاً لوجه جاء

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٢.

(٢) ظ: اليعقوبي: التاريخ ٣/ ١٣٣، المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٣٦.

من قبل الإمام الصادق عليه السلام، إذ اصطدموا معه بقوة عصماء، فتحطمت على صخرته قوتهم، وتلاشى لجاجهم وحجاجهم، كسراب بقيعة، وقد قابلهم بأسلوبه العظيم حينما خاصمهم بذاته الكريمة.

يقول الأستاذ محمد جواد فضل (رحمه الله):

«أما الأسلوب الذي اعتمده الإمام الصادق عليه السلام في حربه معهم، فهو المناظرة الهادئة والحوار الموضوعي الذي يعتمد البساطة في تقريب الفكرة والعمق في مضمونها، مع مراعاة بعض التأثيرات النفسية في بعض الحالات التي تبتعد بالخصم عفوياً عن أجواء الشك الطارئ، وتضعه في الجو الفطري البريء المجرد عن كل ما هو غريب عن إنسانيته وفطرته.

**«وقد وجد الزنادقة في الإمام الصادق أخطر خصم يواجهونه في حربهم مع الإسلام، فكانوا يحاولون إثارته بجدلهم المتعنت وتحدياتهم المثيرة، ولكنه كان يواجه كل ذلك بهدوء المطمئن لموقفه، الواثق بحجته، وبروح المسؤولية الرسالية التي تعتمد الكلمة الهادفة، والبيان المؤمن الوديع، دون أن يفسح المجال للإثارة أن تملك موقفه، لتحقق للخصم انتصاراً نفسياً... وقد أعطى هذا الأسلوب الرسالي للإمام ضمانة التقدير والاحترام حتى في نفوس الزنادقة أنفسهم»**[1].

وكان عبد الكريم بن أبي العوجاء رأس ظاهرة الزندقة، وكان من تلامذة الحسن البصري فترك مذهبه، ومال عن التوحيد، وكانت العلماء تكره مجالسته ومجادلته، لسلاطة لسانه وسوء أدبه، وفساد عقيدته، وكان انفتاح الإمام الصادق على حرية التعبير والفكر، ورد الشبهات

(١) محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق ٢٤٧.

والافتراضات، وقد أوحى هذا الانفتاح لابـن أبي العوجاء أن يجلس إلى الإمام ـ والناس في الطواف ـ متسائلاً:

قال: **«إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع، بالطوب والمدر، وتهرولون حوله كهرولة البعير إذا نفر، إنّ من فكّر في هذا وقدّر، علم أن هذا فعلُ أسسه غير حكيم ولا ذو نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسّهُ ونظامه»**.

فقال الإمام الصادق: إن من أضلّه الله وأعمى قلبه، واستوخم العواقب ولم يستعذ به، صار الشيطان وليه، يورده موارد الهلكة ثم لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محلّ أنبيائه، وقبلة المصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه.

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت الله فأحلت على الغائب..

فقال الإمام: كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويرى أشخاصهم، ويعلم أسرارهم؟!

قال ابن أبي العوجاء: فهو في كل مكان! أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض؟ وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟

فقال الإمام: إنما وصفت المخلوق، الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه، ما حدث في المكان الذي كان فيه.

فأمّا الله العظيم الشأن الملك الديّان، فلا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان[1].

ولدى التدقيق في هذا الحوار يجد الإنسان فيه عنصر الإثارة بارزاً، فلم يكن من قبل ابن أبي العوجاء استئناساً بالنظر العلمي، ولا محاولة لكشف المجهول، وإنما كان خصاماً من أجل الخصام، وكان الإمام أرفع من أن يقع في براثن هذا الإسفاف، وكان جوابه على كل فقرة متسماً بالمنهجية دون التدني من الانفعال، أو الانتقال إلى الجدل العقيم، وبذلك قضى على تنطع السائل بما حققه من الحجة، وأوقفه عن الاسترسال والتعنت، إذ لم يكن حوار الخصم حوار مستفيد ولا متعلم، بل هو من اللجاج المتعمد الذي لا طائل معه.

وجلس ابن أبي العوجاء للإمام، والناس في الطواف أيضاً، يقول:

فلمّا لم يبق عنده غيري ابتدأني، فقال عليه السلام:

«إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ـ مشيراً إلى من في المطاف ـ وهو كما يقولون، فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر على ما تقولون، وليس كما تقولون، فقد استويتم وهم..

فقلت له: يرحمك الله، وأيَّ شيء نقول، وأيَّ شيء يقولون، ما قولي وقولهم إلّا واحداً.

فقال الإمام: وكيف يكون قولك وقولهم واحداً، وهم يقولون إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأن في السماء إلهاً وأنها عمران، وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد، قال: فاغتنمتها منه، فقلت له:

(١) ظ: الكليني: الكافي ١/ ١٢٥ وما بعدها.

ما منعه ـ إن كان الأمر كما يقولون ـ أن يظهر لخلقه، ويدعوهم إلى عبادته، حتى لا يختلف عليه منهم اثنان، ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به.

فقال لي: ويلك، كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك، ونشوئك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزمك بعد أناتك، وأناتك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجائك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وغروب ما أنت معتقده بذهنك.

قال: وما زال يعدد عليّ قدرته التي هي في نفسي حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه»[1].

وكان استدلال الإمام واحتجاجه، قد أخذ على ابن أبي العوجاء مشاعره وأحاسيسه، حتى ظن أن الله تعالى سيظهر فيما بينهما.

وكان الإمام قد انطلق بالتأكيد على الرؤية القلبيّة لله ﷻ من خلال ذات الإنسان، فأراه عياناً قدرة الله في تقلُّب النفس من العدم إلى الوجود، ومن النشوء إلى الترقِّي، وأكد على الحالات النفسية وأدوار الإنسان وأطواره سلباً وإيجاباً، وتناولها انعكاساً واطّراداً، في الصغر والكبر، والضعف والقوة، والصحة والمرض، والرضا والغضب، والحزن

(١) الكليني: الكافي ١/ ٧٤ ـ ٧٥.

والفرح، والحب والبغض، والعزم والأناة، والشهوة والكراهية، والرغبة والرهبة، والرجاء واليأس، وما يعرض على الذهن من خواطر، وما يغيب عنه من أوهام، وكلُّ هذه العوارض أثارٌ ناطقة على قدرة الله وعظمته، فضلاً عن وجوده.

برز الإمام في هذه العدة العقلية، فغزا الضمير الداخلي للخصم، وسيطر على مكنوناته الفكرية، وكان قد استظهر الأولاع المتقابلة في نفس الإنسان، وأكد على الطوارئ في الجسد، والآراء المتناثرة في الفكر، ونظر إلى القوة الفاعلة في هذه الآثار، مما يستحيل معه التشكيك بالمؤثر القائم عليها أجمع، وهو الله، الخالق، المبدع، البارئ، المصور. وبذلك يكون الإمام الصادق من أوائل من استدلَّ على وجود الله باستلهام أعماق الإنسان، دون الخوض في البعد الفلسفي أو الاستدلال الجدلي، وهذا وحده مما يسجل الانتصار على انهزامية التنطع بالإشكاليات المصطنعة.

ويبدو أن ابن أبي العوجاء من الطراز الذي لا يرضخ للأمر الواقع بسهولة، بل كان يكابر ويغالي بالإصرار على الجدل، والاستئثار باللجاج.

وكان الانفتاح العلمي للإمام يطمع هذا وذاك بتحيّن الفرص لإثارة الشبهات وعرضها على الإمام، والإمام يقابل هذا العنت بالسخاء، ويستمع إليه بهدوء العالم البصير رغم وقته الثمين، ومشاغله العلمية الأخرى؛ فهو يريد استثمار هذا التنطع لإنارة الطريق بين يدي المسلمين، ويرى ذلك من صلب دوره الرسالي، ليقذف بالأباطيل عبر مزبلة التاريخ.

قال ابن أبي العوجاء للإمام: ما الدليل على حدوث الأجسام؟

قال الإمام: إني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضمَّ إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال وما حال، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدم دخوله في الحدث. وفي كونه في الأزل دخوله في العدم، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم والحدوث والقدم في شيء واحد.

فقال ابن أبي العوجاء: هبك علمت في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت، واستدللت بذلك على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها، من أين كان لك أن تستدل على حدوثها؟

فقال الإمام: إنما نتكلم على هذا العالم الموضوع، فلو رفضناه ووضعنا عالماً آخر، كان لا شيء أدلّ على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره، ولكن أجيبك من حيث قدّرت أن تلزمنا، فنقول:

إن الأشياء لو دامت على صغرها، لكان في الوهم أنه متى ضمّ شيء إلى مثله كان أكبر، وجواز التغيّر عليه خروجه من القدم، كما أن في تغييره دخوله في الحدث، ليس وراءه شيء يا عبد الكريم. فانقطع ولم يحر جواباً[1].

وكان اتساع صدر الإمام لمثل هذا التساؤل دليل الأصالة العلمية؛ وكانت إجابة الإمام عليه السلام جامعة مانعة، أحاطت بجوانب الموضوع بأبلغ أداء، فأوضح أن ما هو قديم غير قابل للتأثر في التغيير، فهو ثابت غير متحوّل، وأن الحادث هو ما طرأ عليه التغيير، والأجسام متغيرة فهي

---

(١) ظ: الكليني: الكافي ١/ ٧٧.

حادثة، وانتقالها من حال الصغر إلى حال الكبر، أو انضمام الصغير إلى صغير آخر يحقق ما هو أكبر، فالانتقال من حال إلى حال دليل التغيير والزوال، فوجودها إذاً مسبوق بالعدم، وليس بالمستطاع أن يجتمع الأزل والعدم والحدوث والقدم.

إلا أن ابن أبي العوجاء، مع دمغه بالحجة، افترض امتناعاً أن لو بقيت الأشياء على صغرها، فما الدليل على حدوثها؟

فردّه الإمام بديهياً أنه إنما يتكلم عن هذا العالم القائم، ولو رفض هذا الواقع ووضعنا غيره مكانه، كان الدليل على حدوثه رفعنا إياه ووضعنا غيره.

وأوضح الإمام أن الأشياء لو دامت على صغرها لتجدد الدور أنها تكبر بانضمام شيء لها، فتكون أكبر لا محالة، وهذا هو الحدوث الذي طرأ عليها، وبذلك خرجت من القدم ودخلت في الحدوث، والقديم لا يجوز أن يتغير، ولا شيء في البين سوى هذين.

ولم يمنع ابن أبي العوجاء إفحامه في كلِّ اعتراضاته وافتراضاته من الانقطاع عن الإمام، والمفترض أن المهزوم لا يعود إلى حلبة السباق، ولكنه عاد إلى الإمام في عام آخر، والتقى به في الحرم؛ فقيل للإمام: بأنه قد أسلم فقال الإمام: هو أعمى من ذلك، لا يسلم.

والتفت الإمام إليه متسائلاً: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟

فقال ابن أبي العوجاء: عادة الجسد، وسنة البلد، ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة!!

فقال له الإمام: أنت بعد على عتوّك وضلالك؟ فذهب يتكلم، فقال له الإمام: لا جدال في الحج، ونفض رداءه وقال:

**«إن يكن الأمر كما تقول - وليس كما تقول - فقد نجوت ونجونا.. وإن يكن الأمر كما نقول - وهو كما نقول - فقد نجونا وهلكت»**[١].

وفي هذه الإجابة الصارمة أغلق الإمام الحوار مع ابن أبي العوجاء، إذ يفقد الحوار قيمته العقلية إذا لجّ المحاور في العتوِّ والتمرد، على أننا لم نورد كل محاوراته مع الإمام، واكتفينا بالنماذج السالفة لتنوّع دلالتها.

وقد حفلت حركة الزندقة بآخر من أقطابها؛ هو أبو شاكر الديصاني، واسمه عبد الله، وقد فتح الحوار أولاً مع هشام بن الحكم فطلب إليه النظرة، حتى يتيح له الإمام فرصة الإجابة، ومن ثم يجري حواره مع الإمام الصادق عليه السلام.

فقد التقى الديصاني بهشام فسأله: ألك ربٌّ؟

قال هشام: بلى.

قال الديصاني: أقادر هو؟

قال هشام: نعم قادر قاهر.

قال الديصاني: يقدر أن يدخل الدنيا كلها في البيضة، لا تكبر البيضة ولا تصغر الدنيا؟

قال هشام: النظرة!!

قال الديصاني: قد أنظرتك حولاً.

---

(١) الكليني: الكافي ١/ ٧٨.

فاتجه هشــام صوب الإمام الصادق، وعرض عليه الســؤال، فكانت إجابة الإمام تتوخى ســدّ باب الانحــراف، بالواقع المشــاهد الملموس، وبأسلوبه الهادئ الرقيق.

قال الإمام: يا هشام، كم حواسُّكَ؟

قال هشام: خمس.

قال الإمام: أيّها أصغر؟

قال هشام: الناظر.

قال الإمام: وكم قدر الناظر؟

قال هشام: مثل العدسة أو أقلّ منها.

قال الإمام: يا هشام انظر أمامك وفوقك، وأخبرني بما ترى.

قــال هشــام: أرى ســماء وأرضــاً، ودوراً وقصــوراً، وبــراري وجبالاً وأنهاراً.

قال الإمام: إن الــذي قدر أن يدخل الــذي تراه في العدســة أو أقلّ منها، قــادر أن يدخــل الدنيــا كلها فــي البيضــة، لا تصغــر الدنيا، ولا تكبر البيضة[1].

وكان الإمام يدلي بهذه الحجة بما يناســب المقــام، وبلاغة الكلام، مطابقته لمقتضى الحال، وقد وجم الديصاني لهذه المفاجأة في الإجابة.

وحينما يبيح المجتمع لأمثال هؤلاء التنطُّع والتعنت بالأسئلة، وربما انخدعوا بهم، والتفوا حولهــم، فعلى الإمام أن يجيــب وفق ما يقتضيه

---

(١) الكليني: الكافي ١/ ٨٠.

الوعي العلمي، وإن كان السؤال مغالطة علمية تتعلق بالاستحالة وعدم الإمكان.

وتارة أخرى يدخل الديصاني على الإمام، ويقول له:

يا جعفر بن محمد، دلني على معبودي!!

فيتناول الإمام بيضة من يد غلام له في المجلس..

وقال: يا ديصاني؛ هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط مع الفضة الذائبة ولا الفضة الذائبة تختلط مع الذهبة المائعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارجٌ مصلحٌ فيخبر عن صلاحها، ولا دخل إليها داخلٌ مفسدٌ فيخبر عن فسادها، لا يدرى للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى لها مدبِّراً؟

فأطرق الديصاني مليّاً، وقيل أسلم(١).

وقد قامت الحجة على الديصاني في هذا النموذج من المثل الذي ضربه الإمام، وانتزع منه الاعتراف بالمدبّر، والتسليم للخالق.

ومرة أخرى يسأل أبو شاكر الديصاني الإمام: ما الدليل على أن لك صانعاً؟ فقال الإمام عليه السلام: وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين:

إمّا أن أكون صنعتها أنا، أو صنعها غيري، فإن كنت صنعتها فلا أخلو من أحد معنيين، إمّا أن أكون صنعتها وكانت موجودة فقد

(١) الكليني: الكافي ١/ ٨٠.

استغنت عن صنعها، وإن كانت معدومة وإنك لتعلم أن المعدوم لا يحدث شيئاً، فقد ثبت القول الثالث أن لي صانعاً، وهو ربّ العالمين.

فسكت الديصاني، ولم يدر ما يجيب[1].

وهنا أثبت الإمام بالدليل المنطقي مبدأ الصانع المبدع حصراً لا يمكن إلا التسليم به.

وقد أورد الطبرسي في الاحتجاج وفود أحد كبار الزنادقة على الإمام. فسأله عن خمس وتسعين مسألة تصلح أن تكون مادة لرسالة علمية في علم الاحتجاج عند الإمام.

وهذه الأسئلة من الدقة والشمول بحيث تعدَّدت جهاتها، وتطاولت تساؤلاتها، وقد أجاب عنها الإمام جميعاً برحابة صدر وفي دقة علمية.

وهي تشتمل على مفردات هائلة تركِّز على الخالق والأنبياء والرسل، والخلق والمادة، والقدم والحدوث، والدنيا والآخرة، والسجود والخضوع، والكهانة والسحر، والإطاعة والمعصية، والأفعال والأعمال، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والسباع والحيوان والزواحف، والحشرات والبعوض، والسماء والملائكة، والموتى وتناسخ الأرواح، والنور والظلمة، والمجوس والوثنيين، وعلل الشرائع والأحكام، والنجوم والكواكب، والتفاضل بين الرسل والملائكة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاء، والتلاشي والبقاء، والروح و البدن، والحشر والميزان، والثواب والعقاب، والكرسي والعرش، وسوى ذلك[2].

---

(١) ظ : هاشم معروف الحسني : سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٢٨٩ .

(٢) الطبرسي : الاحتجاج ٢/ ٧٧ ـ ١٤٤ .

وقد تعقبها بالبحث والتمحيص الأستاذ باقر شريف القرشي، معلقاً على إجابات الإمام، ومشيداً بطبيعة الإفادة التي سيرها الإمام للعالم، بما أبقى بها من ثروة علمية هائلة، وثقافة موضوعية بنّاءة[1].

وربما حاول الزنادقة بوحي من الغرور معارضة القرآن العظيم، وربما اجتمعوا لذلك فكرّوا خائبين، وربما استشعر الإمام الصادق ائتمارهم هذا فكبتهم، وبهت الذين كفروا.

فقد روي أن أبي العوجاء ومعه أبو شاكر الديصاني وابن المقفّع وعبد الملك البصري، اتفقوا على أن يعارض كلٌّ منهم ربع القرآن، وكانوا بمكة قد تعاهدوا أن يجيئوا بمعارضته، في العام القابل. فلمّا حال الحول، اجتمعوا بمقام إبراهيم، قال أحدهم: إني لما رأيت قوله: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾[2]. كففت عن المعارضة.

وقال الآخر: وكذا أنا لمّا وجدت قوله: ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ ﴾[3]. أيستُ من المعارضة.

وكانوا يسرون بذلك، وهم بعد لم يكملوا مسوّغات عجزهم عن مجاراة القرآن، إذ مرّ بهم الإمام الصادق عليه السلام، فالتفت إليهم، وقرأ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾[4]. فبهتوا[5].

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ١/ ١٧١ ـ ٢٠٦.

(٢) سورة هود: ٤٤.

(٣) سورة يوسف: ٨٠.

(٤) سورة الإسراء: ٨٨.

(٥) ظ: المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ١١٧ عن الخرائج والجرائح، وفي الاحتجاج أسماء الزنادقة.

وقد يتساءل الزنادقة عن علل الأحكام، فينظّر لهم الإمام بما يتناسب مع عقولهم، ويمثل ويعلل، فيستجيب لذلك بعض، ويتعالى بعض، ولكن الإمام يكشف اللثام عن العلّة بما لا ريب فيه؛ فقد سأله زنديق: ما علة غسل الجنابة؟ وإنما أتى حلالاً، وليس في الحلال تدنيسٌ. فقال الإمام الصادق معللاً:

لأن الجنابة بمنزلة الحيض، وذلك أن النطفة دمٌ لم يستحكم، ولا يكون الجماع إلا بحركة غالبة، فإذا فرغ تنفسّ البدن، ووجد الرجل من نفسه رائحة كريهة، فوجب الغسل لذلك.

غسل الجنابة أمانة، ائتمن الله عليها عبيدة ليختبرهم بها»[1].

وسأل ابن أبي العوجاء الإمام:

لِمَ اختلفت منيات الناس؟ فمات بعضهم بالبطن، وبعضهم بالسلّ.

فقال الإمام: لو كانت العلة واحدة لأمن الناس حتى تجيء تلك العلة بعينها، فأحب الله ألا يُؤمن على حال[2].

وقد يستوقف الزنادقة أصحاب الأئمة فيحرجونهم بالأسئلة، ويواجهون الاعتراض والتعنت، فيتقبلون ذلك، ثم يعرضونه على الإمام الصادق عليه السلام، فيطبّق الجواب المفصل.

سأل ابن أبي العوجاء هشام بن الحكم، فقال له: أليس الله حكيماً؟

قال: بلى، هو أحكم الحاكمين، قال: فأخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ:

---

(١) ابن شهر آشوب: المناقب ٣/ ٣٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٣٨٠.

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[١].

أليس هذا فرضاً؟ قال: بلى. قال: فأخبرني عن قوله عز وجل:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾[٢] أيُّ حكيم يتكلم بهذا؟

فرحل هشام إلى المدينة، وقابل الإمام الصادق عليه السلام، وأخبره بالقصة فقال الإمام عليه السلام: أما قوله عز وجل: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ففي النفقة.

وأما قوله ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني في المودّة.

فلمّا قدم عليه هشام بهذا الجواب وأخبره

قال ابن أبي العوجاء: والله ما هذا من عندك[٣].!!

وقد تعرض مؤمن الطاق أبو جعفر الأحول لمثل هذا الحوار؛ فقد سأله أحد الزنادقة عن علة تحديد الزكاة قائلاً: كيف صارت الزكاة من كل ألف خمسة وعشرين درهماً؟

فقال أبو جعفر الأحول: إنّما ذلك مثل الصلاة: ثلاث وثنتان وأربع.

قال: فقبل مني، ثم لقيت أبا عبد الله عليه السلام فسألته عن ذلك فقال: إن الله عز وجل حسب الأموال والمساكين، فوجد ما يكفيهم من كلِّ ألف خمسة وعشرين، ولو لم يكفهم لزادهم.

---

(١) سورة النساء: ٣.

(٢) سورة النساء: ١٢٩.

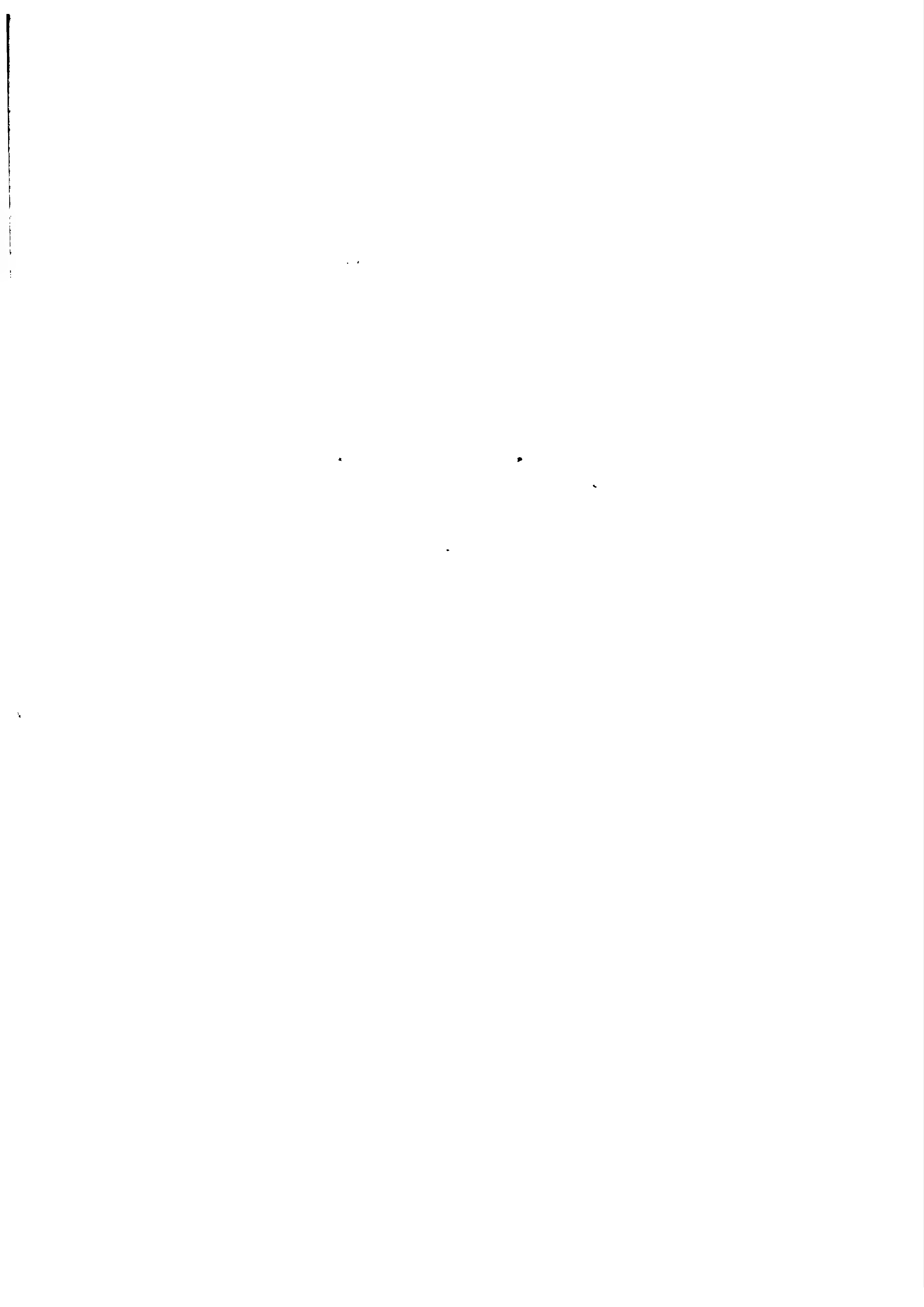
(٣) ظ: الكليني: الكافي ٥/ ٣٦٢.

قال: فرجعت فأخبرته.

فقال الزنديق: جاءت هذه المسألة على الإبل من الحجاز، ثم قال: لو أني أعطيت أحداً طاعة، لأعطيت صاحب هذا الكلام[٤].

والحديث عن مناظرات الإمام الصادق ومحاوراته مع الزنادقة مما يتسع لأكبر من هذا الاختزال، وقد اختصرت الموضوع على إطالته، لأستدلَّ بما ذكرت على ما لم أذكر. والله وليُّ التوفيق.

(٤) ظ: المصدر نفسه ٣/ ٣٠٥.





# المذاهب الكلامية في عصر الإمام الصادق



كان الانفجار الثقافي في عصر الإمام الصادق عليه السلام، قد جدد من حضارة الحياة العقلية، فاتسعت مدرسة علم الكلام، وتطورت مذاهبها ومناهجها، ونهضت الطوائف الإسلامية بمهمات الاحتجاج والمناظرة.

كلٌّ ينتصر لمذهبه الكلامي، فنجم عن ذلك ظهور المقالات وتعدد الفرق.

وكان هذا الظهور والتعدد مجالاً لصراع عقلي عملت السياسة على إذكاء جذوته لصالح الأنظمة الحاكمة، ولم تدخل السياسة الجائرة في شيء إلا أفسدته، ولم يكن هذا الملحظ بعيد التصور لدى المتكلمين، فكان الأكياس منهم لا يتجاوزون حدّ المعقول في المناظرات، ويحاولون الوفاق دون إثارة أو اصطدام.

وذكر المسعودي (ت ٣٤٦هـ) نموذجاً لهذه الظاهرة، نذكر بعلّاتها، وإن كنا نشكك في محتوياتها، ولا نتفق مع مصطلحاتها، يقول المسعودي:

«كان اليمان بن رباب من عليّة علماء الخوارج، وأخوه علي بن رباب من عليّة علماء الرافضة، هذا مقدّم في أصحابه، وهذا مقدّم في أصحابه، يجتمعان في كلّ سنة ثلاثة أيام يتناظران ثم يفترقان، ولا

يسلم أحدهما على الآخر ولا يخاطبه، وكذلك كان جعفر بن المبشر من علماء المعتزلة وحُذّاقها وزُهّادها، وأخوه حنش بن المبشر من علماء أصحاب الحديث ورؤساء الحشوية بالضد من أخيه جعفر، وطالت بينهما المناظرة والمباغضة والتباين..

وكان عبد الله بن يزيد الإباضي بالكوفة تختلف إليه أصحابه ويأخذون منه، وكان خرّازاً شريكاً لهشام بن الحكم، وكان هشام مقدماً في القول بالحسم (مناقشة) والقول بالإمامة على مذهب القطعية (وهم **الذين قطعوا بموت الإمام الصادق وانتقلوا بعده للإمام الكاظم**) يختلف إليه أصحابه من الرافضة يأخذون عنه، وكلاهما في حانوت واحد، على ما ذكرنا من التضاد في المذهب من التشري والرفض، ولم يجر بينهما مسابّة، ولا خروج عمّا يوجبه العلم وقضية العقل، وموجب الشرع، وأحكام النظر والسير.

وذكر أن عبد الله بن يزيد الإباضي قال لهشام بن الحكم في بعض الأيام:

تعلم ما بيننا من المودّة ودوام الشركة، وقد أحببت أن تنكحني ابنتك فاطمة، فقال هشام: إنها مؤمنة.

فأمسك عبد الله، ولم يعاوده في شيء من ذلك، إلى أن فرّق الموت بينهما»[1].

النص الأخير يريد أن يؤكد على التصافي بين المتكلمين، ولكنه بالوقت نفسه يشير إلى التنابذ والتقاطع، إلا أنه يوحي بحسن الأدب، والالتزام بموجب الشرع.

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ١٩٤.

ومهما يكن من أمر، فقد رحّب السلاطين بهذا الانشقاق الكلامي، وشجعوا على استشرائه في هيكل الأمة التقليدي.

وفي بحوث سابقة عرضت لأهم مدارس علم الكلام ومذاهبه، ولا حاجة بنا إلى إعادة الحديث، وإنما نشير إلى كل منها إشارة عابرة في ضوء ما أفاده الإمام الصادق من منهج رفيع في محاورة هؤلاء وأولئك.

وتحدثنا عن مبدأ الإمامية في النص على الإمام، والقول بالوصية، والتأكيد على العدل، والإمامة لدى المسلمين في عدة أعمال[1].

وكان المذهب الكلامي للإمامية يتلخص في مبدأ الإمامة نصاً، والعصمة، والعدل الإلهي، والتقية مضافاً إلى الأصول في التوحيد والنبوة والمعاد.

وقام مذهب الإرجاء تثبيتاً لنظام الحاكمين؛ فالحاكم أنى كان، هو ولي أمر المسلمين ما دام يشهد الشهادتين، لا يغيره فسقٌ، ولا يعزله إسراف أو ظلم، وأمره إلى الله، وعلى المسلمين الطاعة براً كان أو فاجراً، وهم يرجئون حسابه وأمره إلى الله، وعندهم أن المسلمين جميعاً مؤمنون: الإمامية والخوارج والمعتزلة وسواهم.

وفي قبال الجبر والإرجاء كانت عقيدة القدرية القائلة بحرية الإرادة والاختيار، وأبرز مسائلهم مسألة العدل، ومرتكب الكبيرة، فالله لا يظلم أحداً وكل يُجزى بعمله، وهذا ما يميل إليه المعتزلة من أن مرتكب

---

(١) ظ: المؤلف: محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٧٧ ـ ٨٨، الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية ١١ـ ١٨ـ ٢٩ـ ٤٣ـ ٥٧ـ ٨٤ـ ٨٦ـ ٩٥.

الكبيرة في منزلة بين منزلتين، منزلتي الكفر والإيمان، فهو يتوسطهما، فلا هو بالمؤمن المحض، ولا هو بالكافر المحض[١].

وهم يوافقون الإمامية بالقول في العدل، ويعتبرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأصول.

ونشأت فكرة الخوارج من القول بالخروج على الإمام بعد مهزلة الحكمين عقب صفّين.

وهم يبطلون إمامة أهل البيت وخلافة الأمويين على سواء، وقالوا بجواز أن يكون الإمام عبداً أو حراً، عربياً أو مولى، أعجمياً أو قبطياً، وقد لا يجب نصب الإمام، وعندهم أن لا نصّ ولا وصية ولا تعيين في الإمامة على المستوى النظري، أما على المستوى التطبيقي فقد نصّ بعضهم على بعض، وأوصى بعضهم لبعض[٢].

وقامت الأشاعرة على الأصول الثلاثة التي أجمع عليها المسلمون: التوحيد، النبوة، المعاد يوم القيامة. أمّا العدل فلا يراه الأشاعرة أصلاً خلافاً للمعتزلة والامامية، وأمّا الإمامة عندهم فأمرٌ مستحبٌ وليس أصلاً واجباً، بينما اعتبره الإمامية أصلاً واجباً منصوصاً عليه من قبل الرسول الأعظم (ص)[٣].

ولسنا هنا بصدد بيان البعد الاحتجاجي لهذه المذاهب؛ فقد ألمحنا إليها من ذي قبل في عمل متقدم تحدث عن قيادة الإمام محمد الباقر عليه السلام.

---

(١) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٩٨.

(٢) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٨٩ وما بعدها.

(٣) ظ: المؤلف: الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية ١٣.

والأطروحة التي تناسب هذا العرض هي تلك المحاورات والمناظرات التي أجراها الإمام الصادق وتلامذته في الميدان الكلامي، ورأى فيها البحث تسديداً يهدي إلى القول الصائب، وتأصيلاً يمثل حضارة الإسلام.

واعتبار الإمام الصادق عليه السلام الأستاذ الأكبر لمعالم الحوار العقائدي مما لا يختلف فيه اثنان، فما أفاد من أحد قط، وأفاد منه كلُّ أحد، وهو، وإن حرم من موقعه السياسي، لكنه لم يحرم من موقعه القيادي للأمة، وكان لابد للانقسام الداخلي في الأفكار أن يجد من يجمع الأمة تحت راية القرآن، وكانت الأطراف ـ سياسية وكلامية واجتماعية ـ تدرك هذه الريادة والأصالة لسدّ تلك الثغرات المستجدة، وكان الإمام الصادق بطل هذا الالتفاف.

وكان الخط العام في المنحى لدى الإمام التجرد الفكري؛ فهو لا يرد سائلاً، ولا يتعصب لشيء سوى الحق لكونه حقاً، وهو يعالج بوعي متكامل شتى مسائل التوحيد والإيمان والعقائد ورؤى التشريع بأسلوب متميز يحقق وضوح الرؤية، وسلامة البيان، ومرونة العرض.

هذا المنهج هو الذي جعل أفئدةً من الناس تهوي إليه، ورعيلاً من العلماء يفد عليه، وكوكبة من المتكلمين تستند إلى أطروحته في دلائل التوحيد وفلسفة الأحكام، وعلل الشرائع، ومسائل الاعتقاد.

وكان الإمام بهدوئه المعهود لا يجرح شعور أحد إلا مع التعدي الصارخ، ولا يدفع بسائل إلا إذا كان التعنت هدفه، وطالما اعتمد على الحسّ والعيان في كشف العقليات والمتصورات، فيزيل الشبه فطرة،

ويجسّد الحلول ماثلة، مما يدعو إلى اليقين بعد الريب. والقطع بعد الشك.

يقول الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي:

**«مضى الإمام جعفر الصادق، وقد ورث الإمامة عن أبيه.. يخوض غمرات الحياة المضطربة.. هداه عكوفه على دراسة القرآن والحديث إلى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبّر وتفكّر في ظواهر الحياة والكون، وهداه هذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء. والفلك والطب والنبات والأدوية.. وآمن بالتجربة والنظر العقلي والجدل طريقاً إلى الإيمان، وسلحته معرفته الواسعة العميقة بالعلوم في الاستدلال والإقناع، وجذب أصحاب العقول المنكرة إلى الدين»**[1].

وشاهدنا في هذا النصّ ـ وكله شواهد ـ أن الإمام عليه السلام قد وظّف نظره العقلي في الاستدلال والإقناع، وجذب المعاندين إلى حضيرة الإسلام.

ولا نعتقد أن المناظرات التي تجرد لها الإمام كانت برمتها للعناد وطبيعة الجدل؛ إذ الكثير منها يجري مجرى الإفادة من علم الإمام والأخذ على يديه، فالأقلّ من هذه المناظرات أجراها أصحابها تعنتاً وتزمتاً، والأكثر كان للهداية والاستضاءة بهدي الإمام، إذ لا بد لهذا الأفق الرحب من ماثلٍ تشخص نحوه الأبصار شخوصاً علمياً يغنيها بنظراته الثاقبة وعلمه الجمّ عن التردد في متاهات الحيرة والضياع، وكان الإمام هو ذلك الماثل.

سأل أبو عمرو الزبيري الإمام الصادق، قال: قلت له:

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي: شخصيات إسلامية ٤٠ ـ ٤١.

أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّ وجلّ قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه:

فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين؛ والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النعم.

فأمّا كفر الجحود، فهو الجحود بالربوبية، وهو قول من يقول: لا ربّ، ولا جنة، ولا نار، وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم: الدهرية، وهم الذين يقولون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ..﴾[1].

وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبتٍ منهم، ولا تحقيق لشيء مما يقولون، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2] أن ذلك كما يقولون، وقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

يعني بتوحيد الله تعالى، فهذا أحد وجوه الكفر.

وأمّا الوجه الآخر من الجحود (فهو الجحود) على معرفة، وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حقّ، وقد استقر عنده، وقد قال الله عز وجل:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[4].

(١) سورة الجاثية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة: ٧٨.
(٣) سورة البقرة: ٦.
(٤) سورة النمل: ١٤.

وقال الله عز وجل: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر: كفر النعم، وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[2].

وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[3].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[4].

والوجه الرابع من الكفر: ترك ما أمر الله عز وجل به؛ وهو قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾[5].

(١) سورة البقرة: ٨٩.
(٢) سورة النمل: ٤٠.
(٣) سورة إبراهيم: ٧.
(٤) سورة البقرة: ٢٥٢.
(٥) سورة البقرة: الآيتان ٨٤ ـ ٨٥.

فكفّرهم بترك ما أمر الله ﷻ به، ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم، ولم ينفعهم عنده، فقال: ﴿مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

والوجه الخامس من الكفر: كفر البراءة، وذلك قوله ﷻ يحكي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[2]. يعني تبرأ منكم، وقال يذكر إبليس وتبريه من أوليائه من الإنس يوم القيامة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[3].

وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[4]. يعني يتبرأ بعضكم من بعض[5].

هذا النوع من الاستدلال على تعدد المعاني والوجوه في القرآن الكريم، فنٌ قائم بذاته اصطلح على تسميته بالأشباه والنظائر وقد سبق إليه الإمام منذ عهد مبكر في ضوء هذا الاستنباط الدقيق، وهذا ما يرضي المتكلمين الإسلاميين شاهداً في مواطن الاحتجاج في الكتاب المبين.

وقد يضيف بعضهم السنة إلى جنب الكتاب، ليكون الحجاج أقوى وأقوم؛ فقد دخل عمرو بن عبيد ـ وهو من رؤساء المعتزلة ـ على الإمام الصادق عليه السلام دخول إفادة لا تعنت، وسأل سؤال تفقّه لا تزمت،

---

(١) سورة البقرة: ٨٥.

(٢) سورة الممتحنة: ٤.

(٣) سورة إبراهيم: ٢٢.

(٤) سورة العنكبوت: ٢٥.

(٥) الكليني: أصول الكافي ٢/ ٣٨٩ ـ ٣٩١.

وطلب الإجابة من كتاب الله، فكان له ما أراد، وأضاف الإمام إلى بعض الأجوبة الاستدلال بالسنة.

قرأ عمرو بن عبيد حينما دخل على الإمام قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وقال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله.

فقال الإمام: نعم يا عمرو، ثم فصل الإمام القول فيها، وأنا أرقمها للإفادة بلغرافيا:

١ـ الشرك بالله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[1].

٢ـ اليأس من روح الله: ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2].

٣ـ عقوق الوالدين؛ لأن العاق جبار شقي ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[3].

٤ـ وقتل النفس: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[4].

٥ـ وقذف المحصنات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[5].

٦ـ وأكل مال اليتيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[6].

---

(١) سورة النساء: ٤٨.
(٢) سورة يوسف: ٨٧.
(٣) سورة مريم: ٣٢.
(٤) سورة النساء: ٩٣.
(٥) سورة النور: ٢٣.
(٦) سورة النساء: ١٠.

٧ـ والفرار من الزحف: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

٨ـ وأكل الربا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[2].

٩ـ والسحر: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[3].

١٠ـ والزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[4] ـ ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[5].

١١ـ واليمين الغموس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6].

١٢ـ والغلول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾[7].

١٣ـ ومنع الزكاة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ

(١) سورة الأنفال: ١٦.
(٢) سورة البقرة: ٢٧٥.
(٣) سورة البقرة: ١٠٢.
(٤) سورة الإسراء: ٣٢.
(٥) سورة الفرقان: ٦٨.
(٦) سورة آل عمران: ٧٧.
(٧) سورة آل عمران: ١٦١.

فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[1].

١٤ـ وشهادة الزور: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾[2].

١٥ـ وكتمان الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾[3].

١٦ـ وشرب الخمر: لقوله ﷺ: شارب الخمر كعابد وثن.

١٧ـ وترك الصلاة: لقوله (ع): «من ترك الصلاة متعمداً فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله».

١٨ ـ ١٩ـ ونقض العهد وقطيعة الرحم: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[4].

٢٠ـ وقول الزور: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[5].

٢١ـ والجرأة على الله.. ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[6].

٢٢ـ وكفران النعمة: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[7].

٢٣ـ وبخس الكيل والوزن: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾[8].

---

(١) سورة التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) سورة الفرقان: ٧٢.
(٣) سورة البقرة: ٢٨٣.
(٤) سورة البقرة: ٢٧.
(٥) سورة الحج: ٣٠.
(٦) سورة الأعراف: ٩٩.
(٧) سورة إبراهيم: ٧.
(٨) سورة المطففين: ١.

٢٤ـ واللواط: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾[١].

٢٥ـ والبدعة: لقوله ﷺ: «**من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه**».

قال: فخرج عمرو بن عبيد وله صراخ من بكائه، وهو يقول: هلك من سلب تراثكم، ونازعكم في الفضل والعلم[٢].

وتعداد الإمام للكبائر، مضافاً إلى تلبية حاجة السائل له بالتحديد، فإنه دون ريب تذكير لأنفسنا وأهلينا وشبابنا بكبائر الإثم التي أوعد الله عليها دخول النار.

وما زلنا مع عمرو بن عبيد، وهو شخصية طريفة، وكان يقيّم كيان الإمام الصادق، ويعلم موقعه من أهل البيت عليهم السلام، ويشير إلى تفرده من بين أئمة عصره، وله مع الإمام عدة محاورات كان يجلس فيها جلسة المستفيد، وإن لم يتخل عن أفكاره في الاعتزال، فهو من أعمدته وركائزه.

وقد ذكر الطبرسي مناظرة له مع الإمام بعيدة المرامي، حينما قتل الوليد بن يزيد، وكان رأي المعتزلة مبايعة محمد بن عبد الله المحض، وقد رشح زعماء المعتزلة عمرو بن عبيد لاستطلاع رأي الإمام الصادق. وكان من رأي عمرو لو قيل له: ولِّ الخلافة من شئت، لقال أجعلها شورى بين المسلمين، فدحض الإمام نظرية الشورى بالدليل الاستقرائي والبرهان العقلي فقال:

---

(١) سورة الشورى: ٣٧.

(٢) ظ: ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٧٥.

**«عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه، ولم يشاور أحداً، ثم ردّها أبو بكر عليه ولم يشاور أحداً، ثم جعلها عمر شورى بين ستة، فأخرج منها الأنصار.. وأمر صهيباً أن يصلي بالناس.. وأوصى من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت ثلاثة أيام ولم يفرغوا ولم يبايعوا، أن تضرب أعناق الستة جميعاً، وإن اجتمعوا قبل أن يمضي ثلاثة أيام، وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنين»**. ثم التفت الإمام إلى أئمة المعتزلة قائلاً: أفترضون بذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟ ثم افترض الإمام مبايعة من رأوه من المسلمين، وأقضوا إلى المشركين فما كانوا يصنعون؟

وتعثر عمرو في الإجابة، وكأن على رأسه الطير!!

ثم تحدث الإمام عن الجزية وأخذها، والغنائم وإخراجها، فكانت إجابات عمرو مخالفة للسنّة، وما عليه الرسول الأعظم (ص).

ثم حاوره الإمام بالصدقات وأصناف المستحقين، فأخفق عمرو بإعطاء كلٍّ ذي حقٍّ حقَّه، ثم ختم الإمام المناظرة بقوله ـ وهو المهم في المقام ـ:

**«اتقِ الله يا عمرو، وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله، فإن أبي حدثني، وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله، أن رسول الله قال: «من ضرب الناس بسيفه، ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف»**[1].

وقد لخصت لك مضمون المناظرة، وقد نبه في ختامها على عصمة أبيه كونه خير أهل الأرض، وإلى إمامته كونه أعلم بالكتاب والسنة، وأشار إلى إمامة نفسه بما روى من حديث رسول الله ﷺ باعتباره

(١) ظ: الطبرسي: الاحتجاج ٢/ ١١٨ ـ ١٢٢.

أعلم أهل الأرض، فلا يدعون أحد بالسيف إلى نفسه، مع وجود من هو أعلم منه.

وذاع صيت عمرو بن عبيد في الآفاق، فانتدب له هشام بن الحكم تلميذ الإمام الصادق، للمناظرة، ورغب الإمام بمعرفة ما جرى فيها، فعن يونس بن يعقوب، قال: كان عند أبي عبد الله جماعة من أصحابه، فيهم حمران بن أعين، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم، والطيار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم، وهو شاب، فقال أبو عبد الله عليه السلام يا هشام، قال: لبيك يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد، وكيف سألته؟

فقال هشام: إني أجلك وأستحي منك.. فلا يعمل لساني بين يديك.

قال الإمام: إذا أمرتك بشيء فافعله.

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة يوم الجمعة، فأتيت المسجد، فإذا أنا بحلقة كبيرة، وإذا أنا بعمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء من صوف متزر بها، وشملة مرتدٍ بها، والناس يسألونه، فاستفرجت الناس ففرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي، ثم قلت:

أيها العالم أنا رجل غريب، فائذن لي أسألك عن مسألة.

قال: نعم، فقلت: ألك عين؟

فقال: يا بني، أي شيء هذا من السؤال، أرأيتك شيئاً كيف تسأل؟ فقلت: هكذا مسألتي، فقال: يا بني، سلْ وإن كانت مسألتك حمقاء!!

فسأله هشـــام عن العين مسترســـلاً في الســـؤال عن جوارح الإنسان ووظائفها، وعمرو بـــن عبيد يجيبه تباعاً، حتى اســـتنفذ الحواس وبعض الأعضاء، وكان هذا كله مقدمةً للســـؤال الأصل، فسأله هشام عن القلب ووظيفته قائلاً: ألك قلبٌ؟

قال عمرو: نعم.

فقلت له: فما تصنع به؟

قال: أميّز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح.

فقلت: أليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟

فقال: لا.

فقلت: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة؟

قال: يا بني.. الجوارح إذا شكت في شيء شـــمته، أو رأته، أو ذاقته، ردته إلى القلب، فتيقن اليقين، ويبطل الشك.

قلت: وإنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟

قال: نعم.

قلت: يا أبا مروان.. إن الله لم يتـــرك جوارحك حتى جعل لها إماماً، يصحح لها الصحيح، وييقن لها ما شـــكت فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشـــكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً، يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكك؟

فسكت عمرو، ولم يقل شيئاً.

ثم التفت إلي، فقال: أنت هشام؟

قلت: لا.

فقال: أجالسته؟

قلت: لا.

قال: فمن أين أنت؟

قلت: من الكوفة.

فقال: إذاً أنت هو، ثم ضمني إليه، وأقعدني في مجلسه، وما نطق حتى قمت.

وبعد رواية هذه المناظرة، يبدو أن الإمام عليه السلام قد اغتبط بها، وأنس لمفرداتها، ودخل عليه السرور بمداخلاتها؛ فقال له:

يا هشام.. من علمك هذا؟

فقال هشام: يا بن رسول الله جرى على لساني.

فقال الإمام: يا هشام.. والله هذا مكتوب في صحف إبراهيم وموسى[1].

وكانت مدارك هشام العقلية متفتحة منذ عهد مبكر، وقد كان الإمام عليه السلام يحيل إليه في جملة من المناظرات، وقد يكون ذلك بحضوره.

فقد استدعاه الإمام للشامي الذي جاء لمناظرة أصحابه، بعد أن وجه له الإمام السؤال الآتي: كلامك هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو من نفسك؟ قال الشامي: من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعضه، ومن عندي بعضه.

---

(١) ظ: الكشي: الرجال ٢٣٢ ـ ٢٣٣، الطبرسي: الاحتجاج ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٨.

فقال الإمام: فأنت إذاً شريك رسول الله ﷺ؟

قال الشامي: لا.

قال الإمام: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ؟

قال الشامي: لا.

فالتفت الإمام إلى يونس قائلاً: يا يونس.. هذا خصم نفسه قبل أن يتكلم، وأمره باستدعاء المتكلمين، فكان منهم هشام.

قال له الشامي: أناظرك في إمامة هذا، وأشار إلى الإمام الصادق.

فغضب هشام وقال: أخبرني يا هذا، أربك أنظر لخلقه، أم خلقه لأنفسهم؟

فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه.

قال هشام: ففعل بنظره لهم في دينه ماذا؟

قال الشامي: كلّفهم وأقام لهم الحجة ودليلاً على ما كلفهم به، وأزاح بذلك عللهم.

قال هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟

قال الشامي: هو رسول الله ﷺ.

قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ من؟

قال الشامي: الكتاب والسنة.

قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه، حتى رفع عنّا الاختلاف، ومكننا من الإتّفاق؟

قال الشامي: نعم.

قال هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت، جئتنا من الشام تخاصمنا، وتزعم أن الرأي طريق الدين، وأنت مقرٌّ بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين.

وسكت الشامي فلم يحر جواباً.

فقال الإمام عليه السلام: ما لك لا تتكلم؟

فقال: إن قلت: إنّا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت إن الكتاب والسنة يرفعان عنّا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك. فقال الإمام عليه السلام: سله تجده مليّاً.

قال الشامي: من أنظر للخلق ربهم أم أنفسهم؟

قال هشام: بل ربهم أنظر لهم.

قال الشامي: أفهل أقام من يجمع كلمتهم، ويرفع اختلافهم، ويبين لهم حقهم من باطلهم؟

قال هشام: نعم.

قال الشامي: من هو؟

قال هشام: أمّا في ابتداء الشريعة فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعترته.

قال الشامي: من هو من عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم القائم مقامه في حجته؟

قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟

قال الشامي: بل في وقتنا هذا.

قال هشـام: هذا الجالس ـ وأشـار بيده إلى الإمام الصادق ـ الذي تشدّ إليه الرحال.

قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟

قال هشام: سله عمّا بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري فعليّ السؤال.

والتفت إليه الإمام عليه السلام، فأخبره عن سـفره، وعن مشـاهداته، وعما وقع له من الأحداث، وعن الجزئيات في ذلك، والشـامي يقول فيه كلِّه: صدقت والله، وأعلن إيمانه قائلاً: أسلمت لله الساعة.

فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: بل قل: آمنت بالله السـاعة، إن الإسـلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون.

قال الشـامي: صدقـت.. فأنا السـاعة أشـهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنك وصيّ الأنبياء.

ورجع الشامي إلى حضيرة الإيمان بعد تحكيمه النظر العقلي.

وأقبل الإمام على هشام قائلاً: يا هشام، لا تكاد تقع تلوي رجليك، إذا هممت بـالأرض طرت، مثلك فليكلـم الناس، اتق الزلّة، والشـفاعة من وراءك[1].

وكان الإمـام يوصي تلامذتـه، وهو يؤهلهـم لفن المناظـرة، باتبّاع الحق لدى الحوار، واعتماد الأسس الموضوعية، وأن يقف كلٌّ منهم عند تخصصه فلا يتعداه، وقد حصل هذا المعنى حينما أحال شـامياً ـ أراد

(١) ظ: الطبرسي: الاحتجاج ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٥.

المناظرة ـ على من حضر مجلسه من تلامذته، وكانت مناظرة الشامي في عدة محاور:

فأمر حمران بن أعين بمناظرته في القرآن وعلومه.

وعيّن أبان بن تغلب لمناظرته في العربية وآدابها.

وخصص لزرارة بن أعين علم الفقه.

وترك علم الكلام لمؤمن الطاق.

وأحال بالتوحيد على هشام بن سالم الجواليقي.

وأنحى بالإمامة إلى هشام بن الحكم[1].

وكان هذا الفرز العلمي دعوة جديدة على العصر، إذ أحال كل فنٍّ من الفنون إلى صاحبه المتمرس فيه، وفي ذلك سبق إلى مبدأ التخصص الأكاديمي فيما عليه الدراسات المعاصرة اليوم.

وجرت المناظرة بعد هذا التقسيم بحضرة الإمام عليه السلام، ولدى انتهائها التفت الإمام إلى الشامي، وقال: يا أخا أهل الشام.. أمّا حمران فحرفك فحرت له، فغلبك بلسانه، وسألك عن حرف من الحق فلم تعرفه.

وأمّا زرارة.. فقاسك؛ فغلب قياسه قياسك.

وأما الطيّار.. فكان كالطير يقع ولا يقوم، وأنت كالطير المقصوص لا تقوم له.

وأما هشام بن سالم.. فأحسن أن يقع ويطير.

(١) ظ: الكشي: الرجال ٢٣٥.

وأما هشام بن الحكم.. فتكلم بالحق فما سوغك ريقك[1].

والحق أن مناظرات الإمام وتلامذته كانت مدرسة سيّارة تجري قصبات السبق في حلباتها، فيكتب لها النصر في شتى الموضوعات.

وكانت للإمام لقاءات فقهية مع أبي حنيفة إمام المذهب الحنفي، كان يتشعب فيها الكلام حول القياس، وكانت مجالاتها فقهية، وكان الإمام عليه السلام لا يرى القياس، ويرغب إلى أبي حنيفة بتركه، وقد يعده بذلك ولكن الإمام يفجأه بالقول: «**كلا، إن حب الرئاسة غير تاركك كما لم يترك من كان قبلك**» ومناظراتهما متوافرة النصوص في الكتب المطولة.

وقد يسبق الإمام إلى المناظرة ابتداءً، لغرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي أول اجتماع لابن أبي ليلى بالإمام عليه السلام، سأله الإمام: أنت ابن أبي ليلى قاضي المسلمين؟

قال: نعم

قال الإمام: تأخذ مال هذا فتعطيه هذا، وتقتل، وتفرق بين المرء وزوجه لا تخاف في ذلك أحداً؟

قال: نعم.

قال الإمام: فبأي شيء تقضي؟

قال: بما بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن علي عليه السلام وعن أبي بكر وعمر.

قال الإمام: فبلغك عن رسول الله أنه قال: إن علياً أقضاكم؟

---

(١) ظ: المصدر نفسه: ٢٣٦.

قال: نعم.

قال الإمام: فكيف تقضي بغير علي وقد بلغك هذا؟ فما تقول إذا جيء بأرض من فضة وسماء من فضة، ثم أخذ رسول الله ﷺ بيدك فأوقفك بين يدي ربك فقال: يا رب، إن هذا قضى بغير ما قضيت!! فاصفر وجه ابن أبي ليلى حتى عاد مثل الزعفران[١].

ويبدو أن هذه المساءلة من قبل الإمام قد غيرت من اتجاهه القضائي، وانعطفت بمسيرته للأخذ بقضاء أمير المؤمنين عليه السلام؛ فقد روي أنه حكم بقضية بحكم ما، فقال له محمد بن مسلم: إن علياً قضى بخلاف ذلك. رواه عن الإمام الباقر. فقال ابن أبي ليلى: هذا عندك؟ قال محمد بن مسلم: نعم.

قال ابن أبي ليلى: فائتني به.

فقال محمد بن مسلم: على ألا تنظر في الكتاب إلّا في ذلك الحديث.. ثم أراه الحديث عن الإمام الباقر، فنقض حكمه الأول، وحكم بما ثبت عنده من قضاء أمير المؤمنين[٢].

ويبدو أن ابن أبي ليلى كان موضوعياً هادئاً، وحكي عنه أنه لا يردّ حكماً في قضاء إلّا إذ كان القول للإمام الصادق عليه السلام.

فقد قال له نوح بن دراج: أكنت تاركاً قولاً قلته، أو قضاء قضيته لقول أحد؟

قال: لا، إلا رجل واحد. قلت: من هو؟ قال: جعفر بن محمد[٣].

---

(١) ظ: الكليني: الكافي ٧/ ٤٠٨.

(٢) ظ: عباس القمي: سفينة البحار ٥٢٠/٢.

(٣) ظ: ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٧٣.

فإن صحّ هذا عنه، فقد أصاب الحق المبين، وخالف هوى النفس.

والطريف أن مناظرات الإمام عليه السلام، لم تقتصر على المسلمين فحسب، بل تجاوزتهم إلى النصارى؛ فقد قابله وفد من النصارى، وقالوا:

إن موسى وعيسى ومحمد سواء، لأنهم جميعاً أصحاب شرائع وكتب.

فنفى الإمام ذلك، وقال محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل منهما، وقد أعطاه الله تعالى من العلم ما لم يعط غيره.

قالوا: هل آية من كتاب الله نزلت في هذا؟

قال الإمام: نعم، قوله تعالى:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾[2].

وقوله تعالى للنبي المصطفى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٥.

(٢) سورة الزخرف: ٦٣.

(٣) سورة النحل: ٨٩.

(٤) سورة الجن: ٢٨.

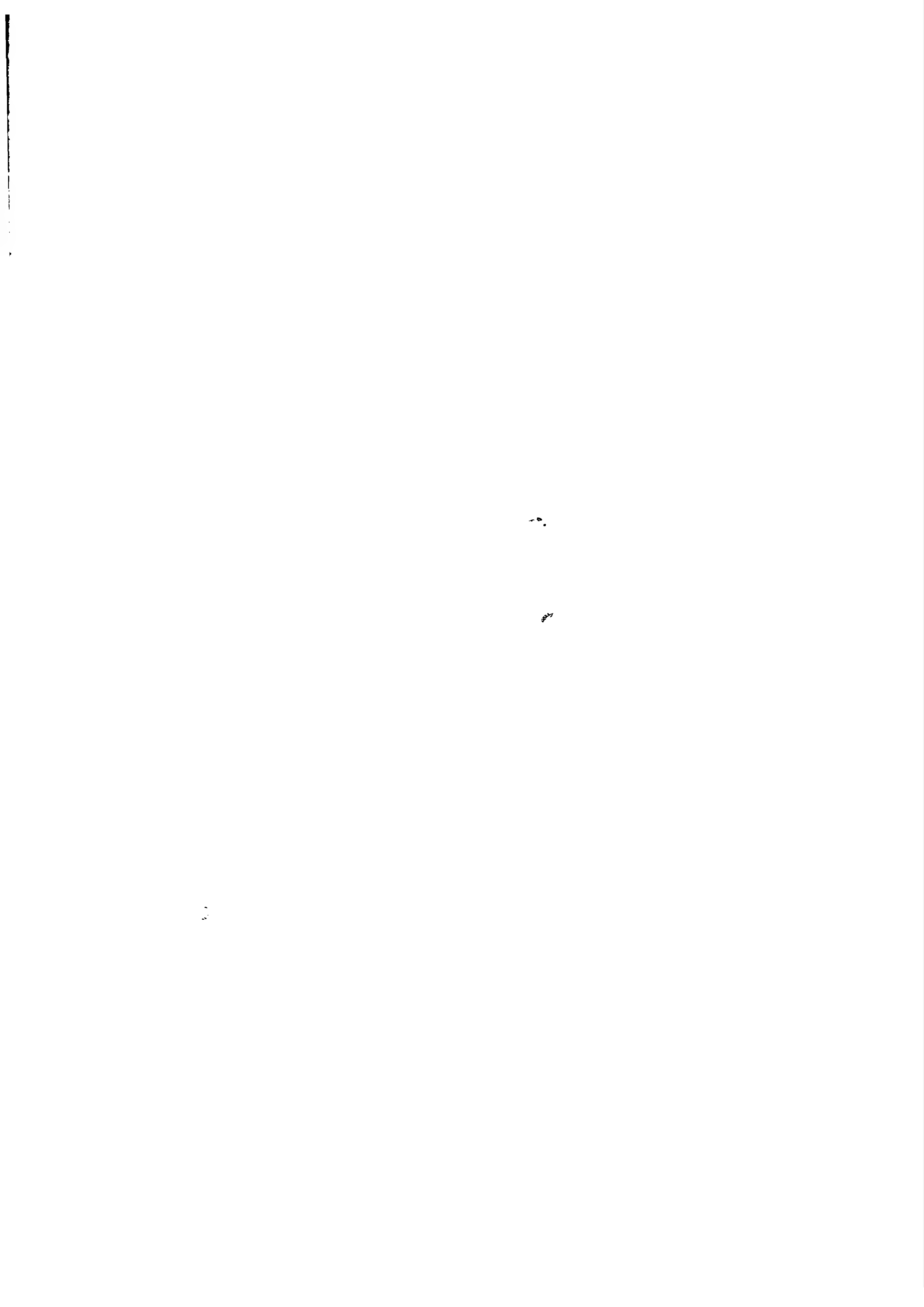
فهو والله أعلم منهما، ولو حضر موسى وعيسى محضري، وسألاني لأجبتهما، ولو سألتهما ما أجابا[1].

ووجه الاحتجاج بهذه الآيات، أنه استدل على عدم سواسية محمد ﷺ وموسى وعيسى عليهما السلام فهما وإن كانا من أصحاب الرسالات العالمية لكنهما أعطيا جزءاً وأعطي النبي كلاً، فقد كتب الله لموسى في الألواح من كل شيء، ومن هنا للتبعيض، وقد حكي ما قاله عيسى من بيان بعض الذي يختلفون فيه، والبعض جزء، والنبي محمد٢ جعل شهيداً على هؤلاء، ونزل عليه الكتاب وفيه تبيان كل شيء.

ثم صرح الإمام بمنزلته من النبي، فهو وريثه الشرعي بحيث لو سأله موسى وعيسى لأجاب، ولو سألهما لما أجابا.

---

(١) ظ : باقر شريف القرشي : حياة الإمام الصادق ١/ ٢١٧ وانظر مصدره.



# الفصل الرابع

# الكفاح الثوري في عهد الإمام الصادق

* رؤية المناخ الثوري في منظور الإمام.
* ثورة الشهيد زيد بن علي عليهما السلام.
* ثورة محمد ذي النفس الزكية.
* ثورة إبراهيم أحمر العينين.
* إكتواء الإمام باللهيب الثوري.





## رؤية المناخ الثوري في منظور الإمام الصادق



لم يكن الإمام الصادق عليه السلام، مطلق الأسار من الرقابة السياسية، ولم يكن كأحد الناس، فالدولة تحسب له ألف حساب، والمسلمون في إجماع على إمامته، والأمة تنظر إليه بهالة من الإجلال والإكبار.

وكان الإمام شأنه شأن الأئمة الطاهرين زاهداً في الحكم، راغباً عن السلطان، في منأى عن الاصطفاف بأي منعطف سياسي، وفي راحة من الاشتراك بأي تنظيم سرّي يحاول الاستيلاء على الحكم.

والدولة التي عايشها أموية أو عباسية وهما وجهان لعملة واحدة، وهما معاً علمانيون يفصلون الدين عن الدولة بأدق معاني هذه الكلمة، فالسياسة عندهم شيء، والدين شيء آخر، نعم هم يستثمرون الدين لمصالح الحكم، ويحكمون باسمه دجلاً.

أما الشريعة الإسلامية فقد تبنى بها الإفتاء علماء الحديث والسنة، وأئمة أهل البيت نادراً، فالفقهاء الرسميون في ضوء أخضر من السلطان، إذ لم نجد خليفة واحداً من الأمويين والعباسيين مؤهلاً للإفتاء أو متابعاً للأحكام، أو عارفاً بفروع الحدود والديات والمواريث والأحوال الشخصية، وإنما يحال أمر ذلك إلى القضاة، وكل يحكم بما يمليه عليه الاتجاه المذهبي.

والإمام الصادق وأسلافه من الأئمة المعصومين بعيدون كل البعد عن هذا المنحنى الأشب والمرعى الوبيل، لأنهم أمناء الله على دينه، وعيبة علم رسوله، وخزّان أسرار وحيه.

وقد حدد مسار الإمام الصادق الرسالي عاملان: التقوى والتقية، أمّا التقوى، فالإمام قد احتاط لنفسه ودينه وأمته كأشدّ ما يكون الاحتياط وليس من سياسته الرشيدة أن يتورط بمتاهات لا أول لها ولا آخر، ولا أن ينخدع بالعواطف الجياشة الآنية، ولا أن يتأثر بالمشاعر والأحاسيس الملتهبة دون معيار ديني واضح، لأنه في الموقع القيادي الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا بين يديه، وهذا الموقع يرتبط بعصمته العلمية والعملية في ميزان مزودج يشدّ بعضه بعضاً، فهو يعلم مزالق الخطأ فيتجنبها، وهو يدرك حقيقة الأشياء فيضع الأمور في نصابها.

وهو يلمس مواطن الرشد والهدى فيتبّعها، لأنه الهادي إليها، والعامل بها، والحريص عليها، ولأنه أمام مسئوليته التي تصدر عن تكليفه الشرعي ليس غير.

وليس لأحد أن يتدخل في هذا الشأن، فالمسلم مأمور بأخذ الحكم منه، لا فرض الحكم عليه، ولأهل الرأي أن يشيروا وعليه أن يرى.

والإمام يحتاط لأمنه، لأنه أحرص الناس على الأمة، وفي تقديره أن النفس الإنسانية أثمن هبة في الحياة، فلا يفرط فيها جزافاً، ولا يبدد طاقاتها فيما لا عائدية به على الإسلام.

لقد أدرك الإمام بعمق وموضوعية ما عليه سلاطين عصره من الجور والظلم، وعرف أساليبهم في التنكيل والتعذيب. فالبيوت تهدم، والرؤوس تندر، والأطراف تقطع، والعيون تقتلع لأتفه سبب وأدنى

تحرك، فكيف بالكفاح المسلّح الذي يهزّ عروش الطغاة ولا جدوى معهم إلا إضافة ضحايا جدد إلى الضحايا القدامى، وإرفاد قوافل الشهداء بقوافل أخرى، وزيادة عدد القتلى والمنكوبين والمشردين، وتسوية القوائم في مصادرة الأملاك وقطع الأرزاق، والحكم سادر في غيّه، قابض على الزمام بيد من حديد.

ولم يجد الإمام في رؤيته الاستراتيجية للمناخ الثوري مسوغاً عقلياً أو مشرعياً لدعم هذا المناخ أو الاقتراب منه لأنه تضحية بلا قضية، لأن القضية إذا صودرت وابتلعت فهي لا شيء، إلا أنه لم يقدح برجال الكفاح المسلّح ولا وقف ضدهم، وإن نصح بعضهم - الحسنيين - بالإقلاع عن هذا التفكير.

وفي الوقت نفسه نجد الإمام لم يبايع حاكماً جائراً بسلطانه، ولا أعطاه صفة الشرعية فيما تقمص من أبراد الخلافة، وهذا كله تعبير عن تقواه وتحرجه.

وأمّا التقية التي نادى بها الامام، واعتبرها دينه ودين آبائه، ولا دين لمن لا تقية له، فمصدرها القرآن العظيم، قال تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾(١).

فما كان الإمام ليجاهر برأيه صراحةً، والسياط تلهب ظهور أصحابه، والقتل ينتظره وينتظر اتباعه، والسجون تلتهم عشرات الآلاف من أولياء أهل البيت، ألم يكن الإمام الصادق على أحقية من العمل بالتقية وهي نص قرآنيٌّ.

---

(١) سورة آل عمران: ٢٨.

ليدرأ الخطر على نفسه وعن المسلمين، وليدفع الظلم والأذى عن شيعة أهل البيت، وهم غرباء في مجتمع السلاطين، أليس كذلك من التخطيط الرسالي ريثما تتاح الفرصة للمجاهرة بالحق آمناً مطمئناً، ولدفع الباطل وأشياعه، ولمقاومة الاستبداد العريض؟؟ يقول الأستاذ محمد أبو زهرة الشيخ الأزهري المعروف:

«إن التقية التي يدعو إليها الإمام الصادق قد دفع لها أمران:

أولهما: دفع الأذى ومنع المخاطر التي يتعرض لها المؤمن من غير قوة دافعة مانعة، فيكون الأذى حيث لا جدوى، وبذلك تتلاقى التقية مع الجهاد، فالجهاد مع أعداء الإسلام حيث يكون واجباً، وحيث يكون الاستعداد قد تمّ، والأهبة قد أخذت كما فعل النبي ﷺ بعد الهجرة عندما صار للإسلام شوكة قوة، والتقية حيث يكون اليقين أن الانتقاض لا يجدي.. لأن الخروج عندئذٍ ضرره أكبر من نفعه، إذ يلقى من خرج إلى التهلكة وتكون الفتنة والفساد، ويكون الظلم والشر المستطير، إذ يقوى الظالم ويستمكن.

وبهذا التقرير يكون للجهاد موضع وللتقية مثله، وكلاهما يكون لحماية الحق.

الأمر الثاني الذي دفع إلى التقية: هو ما رآه من استعلاء الباطل إذا أعلن الحق، وقد ظهر ذلك في مقتل الحسين عليه السلام وفي مقتل زيد عليه السلام وفي مقتل الأخوين الطاهرين: محمد النفس الزكية وإبراهيم ولدي عبد الله بن الحسن بن الحسن.

ولا شك أن التقية كان لها موضعها في عصر الصادق وما جاء بعده، وهي كانت مصلحة للشيعة، وفيها مصلحة للإسلام، لأنها كانت مانعة من الفتن»[١].

والشيخ أبو زهرة من كبار علماء الأزهر وأساتذة جامعة القاهرة، ولايتهم بحديثه عن التقية، فللجهاد موقع وللتقية موقع.

وهل كان بإمكان الإمام أن يجهر برأيه أو يتخذ قراراً في ظل الإرهاب الدموي، وتحت خيمة البطش السياسي، سواء أكان ذلك في العصر الأموي أو العصر العباسي، وقد كمت بهما الأفواه، وخنقت الأنفاس.

ومع هذا التحرز كله، فقد رأيت ما قاسى الإمام من المنصور في مشاهدات سابقة مع ابتعاده عن الأفق السياسي، ولعل من أطرف ما يروى في هذا الشأن:

«أن دعاة خراسان صاروا إلى الإمام الصادق عليه السلام فقالوا له: أردنا ولد محمد بن علي، فقال: أولئك بالسراة، ولست بصاحبكم، فقالوا: لو أراد الله بنا خيراً كنت صاحبنا.

وقد واجهه المنصور بعد هذه الحادثة بالقول: أردت الخروج علينا. فقال الإمام: نحن ندل عليكم في دولة غيركم، فكيف نخرج عليكم في دولتكم»[٢].

ومهما يكن من أمر فإن الإمام قد اتخذ من التقية حصناً يصدّ به كيد الحاكمين، وربما لم يرق هذا المنهج لكثير من الناس، وفيهم

(١) محمد أبو زهرة: الإمام الصادق ٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٢) ظ: الأمين الحسيني العاملي: أعيان الشيعة ٤/ ق٢/ ١٤٧ عن أمالي السيد المرتضى.

أصحابه وكبار الفقهاء والمحدثين، ولكن الإمام يدافع عن وجهة نظره بما هو أوسع أفقاً، وأشمل جواباً، لأن الناس مطالبون بولايتهم والأخذ عنهم.

ذكر الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: أن سفيان بن عيينة، لقي الإمام الصادق، فقال له: يا أبا عبد الله إلى متى هذه التقية وقد بلغت هذا السن؟

فقال الإمام: والذي بعث محمداً بالحق، لو أن رجلاً صلى ما بين الركن والمقام عمره، ثم لقي الله بغير ولايتنا أهل البيت، لقي الله بميتة جاهلية»[1].

ونظرة فاحصة في عصر الإمام نجده عليه السلام في مهمة رسالية أكبر من الظنون، فقد وجد الدين اسماً بلا مسمى، تلتهمه الأهواء والبدع، فاتجه لإقامة جامعة علمية تحتفظ بجوهر الإسلام من الضياع والاغتراب، وتصون حمى الدين من التدهور والانحلال، فأكد على الدين الخالص، وحمل على حياة الأساطير والأوهام، ودعا إلى الاعتصام بالعروة الوثقى.

ولا تحسبنه في هذا بعيداً عن المعترك السياسي، فهو يعيش في أعماقه، ولا يدنس نفسه بأوضاره، فهو داخل فيه خارج عنه في وقت واحد، يصمد أمام التيارات الوافدة، ويرصد الاتجاهات المعاكسة، ويواصل بنضاله العلمي مسيرة الحماية الفكرية للإسلام.

وظاهرة أخرى يجب أن تكون موضع عناية الدارسين؛ أن الإمام لم ينشر لواء التقية كسلاً ولا ضجراً ولا مللاً، إلا من خلال مسؤوليته العامة، لأن أي عمل ثوري يحتاج إلى المال والرجال والسلاح والعدة،

---

(١) ظ: الكشي: الرجال ٢٤٨.

وهـذا مـا لا يمتلكه الإمـام، وهو بيـد الظالميـن، ولم يخلـص له من أصحابه من يستطيع التغيير به كما حصل ذلك للإمام الحسين عليه السلام، فإنـه وإن لم ينتصـر في معركـة الطف موقتـاً، لكنه انتصر مستقبلياً، فخلد في ضمير الأمة والتاريخ، وكانت ثورته المسـمار الأول في نعش العرش الأموي.

دخل سهل بن حسـن الخراسـاني على الإمام الصادق، فسلم عليه، وقال:

«يا ابن رسـول الله لكم الرأفة والرحمة وأنتم بيـت الامامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق فتقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مائة الف، يضربون بين يديك بالسيف.

فقال لـه الصـادق عليه السلام أجلس يـا خراسـاني رعى الله حقـك؟. ثم قال الإمـام: يا حنفية؛ اسـجري التنور، فسـجرته حتى صـار كالجمرة، وأبيض علوه، ثم قال الإمام: يا خراسـاني قم فاجلس فـي التنور، فقال الخراسـاني: يا سـيدي يا ابن رسـول الله لا تعذبني بالنار، أقلني أقالك الله. قال: قد أقلتـك. فبينما هم كذلك إذ أقبل هـارون المكي ونعله في سبابته.. فقال: السلام عليك يا بن رسـول الله، فقال الصادق: ألقي النعل من يدك واجلس في التنور (ففعل ذلك) وأقبل الإمام يحدث الخراسـاني حديث خراسان حتى كأنه شـاهد لها. ثم قال: قم يا خراساني وانظر ما في التنور، قال: فقمت إليه فرأيته متربعاً، فخرج إلينا وسلّم علينا؛ فقال له الإمام: كم تجد في خراسان مثل هذا؟

فقلت: والله ولا واحداً. فقال عليه السلام: لا والله ولا واحداً، أما إنّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين، نحن أعلم بالوقت»[1].

هذا النموذج من التحمس ساق له الإمام هذا النموذج من الاختبار، وهو امتحان عسير لا يجتازه كل أحد، لهذا كان الأئمة يحذرون أولياءهم من الاندفاع وراء التحرك العسكري، حفاظاً عليهم من الانزلاق في تيار الفتن، فقد قال الإمام الباقر لأبي الجارود، وقد قال له أوصني: **«أوصيك بتقوى الله، وأن تلزم بيتك، ولا تقعد في دهماء هؤلاء الناس، وإياك والخوارج منا، فإنهم ليسوا على شيء ولا إلى شيء»**[2].

وقال الإمام الصادق لسدير: **«يا سدير الزم بيتك، وكن حلساً من أحلاسه، واسكن ما سكن الليل والنهار»**[3].

وهناك في الروايات، ما هو أكثر من هذا تصريحاً.. وأبلغ بياناً.. وأشد تحذيراً.. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام.

**«ما خرج منا أهل البيت، إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلماً، أو ينعش حقاً، إلا اصطلمته المنية، وكان قيامه زيادة في مكر وهنا وشيعتنا»**[4].

إلا أن تحمس بعض أصحابه قد يدعوه إلى مفاتحة الإمام في تحرك مسلح، فهذا سدير الصيرفي الذي أوصاه الإمام فيما سبق بالسكون، يقول:

---

(١) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٦٣.

(٢) النعماني: الغيبة ١٠٣.

(٣) الكليني: روضة الكافي ٢٢٠.

(٤) النعماني: الغيبة ١٠٤.

«دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقلت له: والله ما يسعك القعود، قال: ولِمَ يا سدير؟ قلت: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك، والله لو كان لأمير المؤمنين مالك من الشيعة والأنصار والموالي، ما طمع فيه تيم ولا عدي.

فقال: يا سدير وكم عسى أن تكونوا؟ قلت: مائة ألف، قال: مائة ألف؟ قلت نعم، ومائتي ألف، فقال: ومائتي ألف؟ قلت: نعم ونصف الدنيا، قال: فسكت عني، ثم قال: يخف عليك أن تبلغ معنا إلى ينبع؟ قلت: نعم.. فسرنا حتى صرنا إلى أرض حمراء، ونظر إلى غلام يرعى جداءً.. فقال: والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء، ما وسعني القعود، ونزلنا وصلّينا، فلما فرغنا من الصلاة.. عطفت على الجداء فإذا هي سبعة عشر»[٥].

ومع هذا التحفظ فإن الإمام لم يكن في غياب عن الدعوة إلى نفسه والى منهجية أهل البيت وافتراض طاعتهم، فهو يجاهر بهذا حيناً، ويلوّح به حيناً، وقد تفرض الضرورة الشرعية التصريح به جهاراً، فقد قال معلناً:

**«نحن الذين فرض الله طاعتنا، لا يسع الناس إلاّ معرفتنا، ولا يعذر الناس بجهالتنا، من عرفنا كان مؤمناً، ومن أنكرنا كان كافراً، ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضالاً حتى يرجع إلى الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة، فإن يمت على ضلالته يفعل الله به ما يشاء»**[٦].

---

(٥) الكليني: الكافي ٢/ ٢٤٢، المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٣٧٢.
(٦) الكليني: الكافي ١/ ١٨٧.

وهذا يوحي بوضوح أن الأئمة طلاب هدى، لا طلاب سلطان، يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

**«إن أئمة أهل البيت لم يكونوا هواة حكم وطالبي سلطان، بالمفهوم الدنيوي للحكم والسلطان، وهم بعيدون بما فيهم الإمام الصادق عن حركات الثورة والتمرد على عروش الحاكمين، فلم يأمروا بشيء من ذلك ولم يأذنوا به، ولم يشتركوا فيه، من دون أن يكون في هذه السلبية تجاه تلك الثورات أي إشعاراً أو إقرار بأحقية أولئك الحكّام بالملك والسلطان، أو شهادة ضمنية بسلامة مواقفهم في المنظور الشرعي للخلافة الإسلامية»**[1].

ومهما يكن من أمر، فإذا كان هدف الثورة هو إحداث عمليتي الإصلاح والتغيير الاجتماعي، فسوف ترى أن الإمام الصادق قد بلغ هذا الهدف دون حرب، وأمّا إذا كان الهدف تسلّم الحكم فلم تتح له الفرصة بذلك شأن الأئمة عليهم السلام.

ولنا أن نقول: أن الإمام قد حقق بالسلم حالة كبرى من التغيير في المفاهيم والعقول والآثار، وإذا صح التعبير فإن الثورة العلمية التي تزعمها الإمام، تعتبر أهم ما توصل إليه دعاة الإصلاح الاجتماعي لدى الشعوب المتحضرة، فقد تمكن من إعداد جيل ناهض بعبء الرسالة الإسلامية، وهو يؤديها إلى الأجيال القادمة بأمانة وإخلاص.

(١) ظ: محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ٥٤ ـ ٥٥ بتصرف بسيط.



# ثورة الشهيد زيد بن علي

وزيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليهم السلام، من أشد الناس تورعاً، وأعظمهم تحرجاً، صلب العقيدة، ثبت الجنان، ميمون النقيبة.

كابد زيد الجور والاعتساف، وعايش المظالم والمآسي، ورأى الشعب المسلم في معزل عن الحرية والعيش الكريم، تتحسر رغيف القوت، والأموال لا تتعدى حوزة الحاكمين، يسرف فيها الولاة والظلمة والأسباط والأصهار، ولمس الكتاب مضيّعاً، والسنة في تعطيل شامل، وابصر أولياء جده أمير المؤمنين يسرع إليهم القتل، وهم في عزلة عن مفردات الحكم في مقاليده ووظائفه، فأنكر في قلبه ولسانه أولاً، وصارع الطغيان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى بلغ السيل الزبى، فانطلق في التخطيط للإنقضاض على الحكم الأموي وهو في قمة ضراوته بعهد الطاغية هشام بن عبد الملك.

وكان هشام من أعتى سلاطين الجور، وكان يستهدف زيداً في لواذع الكلم وقوارص القول، فيكيل له زيد الصاع صاعين أحياناً، وقد يلوذ بالصمت سواها، وكان هشام أحول، فقال له زيد يوماً:

**«السلام عليك يا أحول، فإنك ترى نفسك أهلاً لهذا الاسم»**[١].

والحق أن زيداً كان متأثراً دينياً لما شاهد من فساد الحكم وانحلال إدارة الدولة، قال يوماً لأحد مرافقيه، وقد خرجا ليلاً، وقد استوت الثريا في كبد السماء:

أما ترى هذه الثريا؟ أترى أحداً ينالها؟

قال: لا، قال زيد: والله لوددت أن يدي ملصقة بها، فأقع إلى الأرض، أو حيث أقع، فانقطع قطعة قطعة، وأن الله يصلح بين أمة محمد ﷺ[٢].

وقال لجابر بن يزيد الجعفي: «يا جابر لا يسعني أن أسكت، وقد خولف كتاب الله تعالى، وتحوكم بالجبت والطاغوت، وذلك أني شاهدت هشاماً، ورجل عنده يسبّ رسول الله، فقلت للسابّ، ويلك يا كافر، أما أني لو تمكنت منك لاختطف روحك، وعجلتك إلى النار، فقال لي هشام مه، جليسنا يا زيد. فو الله لو لم يكن إلا أنا ويحيى ابني لخرجت عليه، وجاهدته حتى أفنى[٣].

ولقد سأم زيد رضوان الله عليه حياة الذل في ظل الحكم الأموي، فعبرّ عن تصميمه الثوري، وهو يريد الخروج بقوله:

شـرّده الـخـوفُ.. وأزرى بـه
كـذاك مـن يـكـرهُ حـرّ الـجـلاد

---

(١) ابن عساكر: التهذيب ٦/ ٢٢.

(٢) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٦٢٩.

(٣) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٧/ ٥٧ وانظر مصدره.

مــنــحــرق الــكــفــيــن يــشــكــو الــجــوى
تــنــكــثــه أطـــــراف مـــــروٍ حـــــداذْ
قـــد كـــان فـــي الـــمـــوت لـــه راحـــةٌ
والـــمـــوتُ حـــتـــمٌ فـــي رقـــاب الـــعـــبـــاذْ
إنْ يـــحـــدث اللهُ لـــه دولـــةً
يـــتـــرك آثـــار الـــعـــدى كـــالـــرمـــاذْ[1]

وتوجه زيد بثقله وأصحابه نحو الكوفة ملمحاً للثورة القادمة بقوله: «**لو علمت أن رضى الله عزّ وجلّ عني في أن أقدح ناراً بيدي حتى إذا اضطرمت رميت نفسي فيها لفعلت، ولكن ما أعلم شيئاً لله عزّ وجلّ (أفضل) من جهاد بني أمية**»[2].

وكانت الكوفة منطلق الثورة ضد الحكم الأموي، ولكنها منيت بحركات الخوارج المدمّرة، فكثر فيها القتل والفناء الشامل، حتى ظن هدوء الثورة في ربوعها، واستكانة أهلها عن الكفاح المسلّح، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة، فما أن أعلن الشهيد زيد الثورة فيها عام ١٢٢ من الهجرة، حتى أنهال عليه المسلمون بالبيعة في كل من الكوفة والبصرة وسواهما.

والكوفة عاصمة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، وهو بطل الاستقلال السياسي للعراق في نظر أهلها، وعسى أن يكون زيد هو الذي يخرجهم من الجور الطاغي إلى العدل المشرق، وهي تحن إلى سياسة علي عليه السلام في تحقيق العدالة الاجتماعية، وهذا زيد في ثوريته قد يكون الوريث الشرعي لنضال الإمام الحسين عليه السلام، وقد يكون المنقذ الوحيد الذي يترسم خطى أمير المؤمنين في التقوى والمواساة

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٠٦.
(٢) ظ: تيسير المطالب ١٠٩.

والإحسان. فكان الالتفاف حول قيادته كبيراً، وكان شعاره: «يا أهل الكوفة؟ أخرجوا من الذل إلى العز وإلى الدين والدنيا»[1].

وانطلق زيد يأمر أصحابه بالاستعداد للخروج، وأخذ من يريد الوفاء له بالبيعة يتجهز، ودعا زيد إلى كتاب الله وسنة نبيه ٢ والى السنن أن تحيا، والى البدع أن تطفأ[2].

وكان زيد قد إتعد مع أصحابه أول ليلة من صفر، وبلغ ذلك والي الكوفة يوسف بن عمر، فعجلّ بالخروج عليه، واندلعت الثورة قبيل أوانها، وعبّأ لها الأمويون جيشاً جراراً، ووقف كل من الفريقين على قارعة الحرب. إلاّ أن الذي حدث اختلال التوقيت على أصحاب زيد «وأصبح زيد فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتي رجل وثمانية عشر رجلاً، فقال زيد: سبحان الله؛ أين الناس؟

فقيل: إنهم في المسجد الأعظم محصورون.

فقال: والله ما هذا بعذر لمن بايعنا».

وكان يوسف بن عمر قد أمر أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم يحصرهم فيه[3].

ومهما يكن من أمر، فقد دارت رحى حرب طاحنة، ولم تكن القوى متكافئة، وقد اندفع أهل الكوفة وراء زيد اندفاعاً جيّداً، ثم تفرقوا عنه بصورة مذهلة، فبيناهم نار الثورة وإذا بهم يخمدونها، وهذا لا يؤول بالغدر وحده، وإنما كان نتيجة للعقد النفسية والضغط السياسي

---

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ١٣٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٢٤٦.

(٣) ظ: المصدر نفسه ٣/ ٢٤٦.

المدمّر، حتــى أصيب المجتمــع بكابوس من الخــوف والذعر، واهتزت شــخصية الفرد المســلم فلم يكن لها قرار ثابــت. وقد أجمل أســتاذنا الدكتور يوســف خليف صورة الموقف. وقــال: «**ووقف أهــل الكوفة - من ثورة زيد وسواها - موقفهم التقليدي: حماساً واندفاعاً أول الأمر، ثم تخاذلاً وتراجعاً في النهاية**»[١].

وقد يفســر بالانعطــاف الذاتي نحو البقاء لشــدة إفــرازات الإرهاب الدموي، وقد يعلل بتلاشي سَورة الفداء، وتهافت روح التضحية.

وباشر زيد القتال بنفســه، فكان قتال الأبطال، وكاد يلوح له النصر، لولا أن أتاه سهم طائش أودى بحياته، فكانت النهاية.

يقول ابن الأثير: «وثبت زيد بن علي ومن معه إلى الليل، فرمي زيد بســهم فأصاب جانب جبهته اليســرى فثبت في دماغه، ورجع أصحابه، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا للمساء والليل، وسكرّ أصحابه الماء في نهر يعقوب ودفنوه وأجروا الماء عليه، ودلت عيون يوســف بن عمر على قبره (فنبشــه واســتخرج جثته) وقطع رأســه، وبعث به إلى هشام، فصلب على باب دمشق[٢].

ولئن قتل زيد، وفشــلت ثورته آنياً، ونبش قبره واســتخرج جسده، وصلب علــى جذع نخلــة، وأنزلت جثته بعد ســنين فأحرقــت وذرّيت في الهــواء، فقد أبقــت ثــورة زيد جــذوة متقدة فــي المنــاخ النضالي

(١) يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة ٩٣.

(٢) ظ: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٢٤٨.

«وكانت فاتحة سلسلة طويلة من الثورات الشيعية التي أدت آخر الأمر إلى سقوط الأمويين»(١).

وقد اعتبر الأستاذ فلها وزن ثورة زيد، وإن انتهت نهاية مفجعة، ذات أهمية كبرى في انهيار دولة الأمويين، قال: «ذلك أن ثورات الشعب التي حدثت بعده، والتي أدّت إلى انهيار دولة دمشق انهياراً نهائياً، كانت ذات علاقة بها، وسرعان ما ظهر أبو مسلم بعد وفاة يحيى أخذاً بثأره، قاتلاً قتلته»(٢).

ومهما يكن من أمر فإن ثورة الشهيد زيد، قد حركت العواطف والأحاسيس ضد الظلم والطغيان، وكان هدفها إصلاحياً ومبعثها إسلامياً، وفيها شذى من عطر كربلاء، وهدى من ألق الطف.

بقي القول أن هناك ظاهرة مهمّة في ثورة زيد: أنه لم يدعُ إلى نفسه، ولم يسع إلى طلب الخلافة، وإنما كان يتحدث عن دفع المظالم، وإغاثة المستضعفين، وإنكار المنكر، ولم يصرح أو يلمح ولا مرة واحدة إلى استحقاقه منصب الإمامة أو ادعّاءه له، وإنما دعا إلى الرضا من آل محمد، فقد روى العيص بن القاسم، قال:

«سمعت أبا عبد الله يقول: عليكم بتقوى الله.. أن أتاكم أتٍ منّا، فانظروا على أي شيء تخرجون، ولا تقولوا: خرج زيد، فإنّ زيداً كان عالماً وكان صدوقاً، ولم يدعكم إلى نفسه، وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، وإنما خرج إلى سلطان مجتمع ليفضه (ليقضه)»(٣).

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ١٩٠.
(٢) فلهاوزن: الدولة العربية ٢٧١.
(٣) الكليني: روضة الكافي ٢٦٤.

والذي يؤكد هذا المعنى دون ريب صيغة البيعة التي أخذها على المسلمين فيما رواه الطبري:

**«وكانت بيعته التي يبايع عليها الناس... إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه؟ وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، وردّ الظالمين، وإقفال المحجر، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا»**[١].

ولم يكن الإمام الصادق عليه السلام ليردّ أحداً عن الدعوة لأهل البيت، ولم يكن ليمنع من يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، وهو يتوسل إلى ذلك بقوة السلاح، فله حكم، وللإمام حكم آخر، وهذا ما يفسّر لنا موقف الإمام الصادق من ثورة زيد تبعاً لموقف أبيه الإمام الباقر عليه السلام.

فقد يبدو أن زيداً كان يخطط لثورته مع رجال من أهل الكوفة، فأشار عليه أخوه الإمام محمد الباقر أن لا يركن لأهل الكوفة، إذ كانوا أهل غدر ومكر، وقال له: بها قتل جدك علي، وبها طعن عمك الحسن، وبها قتل أبوك الحسين، وفيها وفي أعمالها شتمنا أهل البيت..

وقال له: إني أخاف عليك يا أخي أن تكون غداً المصلوب بكناسة الكوفة[٢].

وكان هذا التحذير قبل وفاة الإمام الباقر عام ١١٤هـ، ويستنتج من هذا أن زيداً كان يفكر في التغيير منذ عهد مبكر، إذ ثورته سنة ١٢٢هـ.

وقد تشاور زيد مع الإمام الصادق عليه السلام قبيل الثورة لدى زيارته للإمام فقام له الإمام: «فاعتنقا وجلسا طويلاً يتشاوران، ثم علا

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ١٧٢.

(٢) ظ: المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٠٦.

الكلام بينهما. فقال زيد.. فوالله لأن لم تمد يدك حتى أبايعك، أو هذه يدي فبايعني لأتبعنك، ولأكلفنك ما لا تطيق.. فقال الصادق عليه السلام: يرحمك الله يا عم، يغفر الله لك يا عم. وزيد يسمعه ويقول: موعدنا الصبح أليس الصبح بقريب؟ ومضى، فتكلم الناس في ذلك، فقال الإمام الصادق:

مه، لا تقولوا لعمي زيداً إلا خيراً، رحم الله عمي، فلو ظفر لوفى...»[١].

وتقول الرواية: أن زيداً قصد الصادق سحراً، واعتذر عما بدر منه، فرضي عنه الصادق، وقال له: أوصني فإنك مقتول مصلوب، محرّق بالنار، فوصّى زيد بعياله وأولاده، وقضاء دينه عنه[٢].

وكان الإمام الصادق يحترم زيداً في حياته حتى قال عبد الله بن جرير: «**رأيت جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب، ويسوي ثيابه على السرج**»[٣].

وكان الامام، يتعقب زيداً بعد خروجه، ويتطلع إلى أخباره، فعن أبي برده، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، قال: ما فعل زيد؟ قلت: صلب في كناسة بني أسد، فبكى الإمام حتى بكت النساء من خلف الستور، ثم قال: أما والله لقد بقي لهم عنده طلبة ما أخذوها منه، فكنت أتفكر من قوله حتى رأيت جماعة قد أنزلوه يريدون أن يحرقوه، فقلت: هذه الطلبة التي قال لي»[٤].

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ١٢٨.

(٢) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٥٢.

(٣) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ١٢٩.

(٤) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٦٢، المجلسي: البحار ٤٧/ ١٣٧.

ولو كان زيد على غير حق ـ معاذ الله ـ لما كان للإمام أن يبكي عليه وأن يحزن، ولا يؤنبه كما ذكر ابن أعثم، قال:

«إن الإمام الصادق لما بلغه نبأ مقتل عمه زيد استعبر باكياً، وقرأ قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

**«ذهب والله عمي زيد وأصحابه على ما ذهب عليه جدّه علي والحسن والحسين عليهما السلام شهداء، من أهل الجنة، فويل لقاتلهم من جبار الأرض والسماء»**[2].

وقد ترحم عليه الإمام بعد استشهاده وابنه، وقال: **«انه كان مؤمناً، وكان عازماً، وكان عالماً، وكان صدوقاً، أمّا أنه لو ظفر لوفى، أما أنه لو ملك لعرف كيف يضعها»**[3].

ولم يترك الإمام الصادق تعظيمه لزيد في حال من الأحوال؛ ونبّه أصحابه إلى منزلته، واختار لك نموذجين من هذا التعظيم المصحوب بالثناء العاطر:

١ـ قال لأصحابه: لا تقولوا خرج زيد، فإن زيداً كان عالماً، وكان صدوقاً، ولم يدعكم إلى نفسه، إنما دعاكم الرضا من آل محمد عليهم السلام، ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، إنما خرج لسلطان مجتمع ليقضه.

٢ـ قال الصادق عليه السلام لمحمد بن سالم:

هل شهدت عمي زيداً؟

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٢.

(٢) ابن اعثم الكوفي: الفتوح ٨/ ١٢٥.

(٣) الكشي: الرجال ٢٤٢.

قال: نعم.

قال الصادق: هل رأيت فينا مثله؟ قال: لا.

قال الصادق: ولا أظنك والله ترى فينا مثله»[1].

هذان النموذجان من التعظيم والتأبين، يقيّمان شخصية زيد العلمية والقيادية، ويسبغان صفة الشرعية على ثورته.

وقد رعى الإمام الصادق عليه السلام حرمة زيد حيّاً وميتاً من خلال تربيته لولده الحسين، فقد ذكر أبو الفرج أن الحسين بن زيد الملقّب بذي الدمعة:

**«كان مقيماً في منزل جعفر بن محمد، وكان جعفر ربّاه، ونشأ في حجره، منذ قُتِلَ أبوه، وأخذ عنه علماً كثيراً»**[2].

يضاف إلى هذا أن الإمام عليه السلام عرف برعايته لأسر الشهداء الذين استشهدوا مع زيد، فيروى انه أعطى إلى عبد الرحمن ألف دينار، وأمر أن يقسمّها في عيال من أصيب مع زيد[3].

وكان الإمام أيضاً يتعقب أخبار أبناء الشهيد زيد، فحينما هرب يحيى إلى الجبل من الكوفة، وذهب إلى خراسان، وقام له شأن من الشأن، لم يستبشر الإمام بذلك، بل أخبر: **«انه يقتل كما قتل ابوه، ويصلب كما صلب أبوه، فقتل.. وصلب»**[4].

وبلغ الإمام الصادق عليه السلام قول حكيم بن العباس الكلبي:

---

(١) ظ: في النصّين أعلاه: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٧/ ٦٢.

(٢) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٣٨٧.

(٣) المجلسي: الأمالي ٥٤.

(٤) القندوزي: ينابيع المودة ٣٨١.

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلةٍ
ولم أرَ مهدياً على الجذع يصلبُ
وقستم بعثمان علياً سفاهةً
وعثمان خير من عليّ وأطيبُ

فرفع الإمام الصادق عليه السلام يديه إلى السماء، وهما يرعشان، فقال:«اللهم إن كان عبدك كاذباً فسلّط عليه كلبك. فبعثه بنو أمية إلى الكوفة، فبينما هو يدور في سككها إذا افترسه الأسد.. واتصل خبره بالإمام عليه السلام، فخرّ لله ساجداً، ثم قال: الحمد لله الذي أنجز ما وعدنا»[1].

وفي المقابل كان زيدٌ الشهيد يعتبر الإمام الصادق هو الحجة على الخلق.

فقد روى الصدوق في مجالسه: أن زيداً قال: في كل زمان رجل من أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر بن محمد عليه السلام، لا يضل من تبعه، ولا يهتدي من خالفه[2].

وفي ضوء ما تقدّم يتجلى لنا المنظور الحقيقي لرؤية الإمام الصادق عليه السلام لعمه زيد تبجيلاً واحتراماً في حياته، وتألماً وفجيعة عند استشهاده، وعناية بذريته وأصحابه بعد وفاته، وكونه مرضيّاً لديه مما لا شك فيه، فقد اعتبره فما صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وممن نهض بتكليفه الشرعي، وإن اعتبر ثورته غير متكاملة الأعداد، ولا يسمح الظرف السياسي بها، ولكنها كانت بدافع من الغيرة على الإسلام، والحمية على الأمة.

---

(١) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٦٠، البحار ٤٧/ ١٣٦.

(٢) ظ: عبد الرزاق الموسوي المقرم: زيد الشهيد ٦٣.



## ثورة محمد ذي النفس الزكية



ويرى العلويون أنهم أصحاب الحق الشرعي بالخلافة، رغم تشبث بني العباس بأطرافها، والعمل بأجلها، والعباسيون يعتقدون ذلك قطعاً.

وحينما طلب المنصور من محمد هذا بن عبد الله المحض، الملقّب بذي النفس الزكية، أو النفس الزكيـة، الدخول في طاعته، أجابه محمد: «**إن الحق حقنا، وإنما ادعيّتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضله**»(١).

وكان السفاح والمنصور قد بايعا لمحمد هذا في مؤتمر الأبواء كما سبق(٢).

وفي مثل تصريح النفس الزكية لا يمكن للمنصور أن يتغاضى عن أمر التحرك الحسني فقام برقابة الأبناء والأنباء، وبث المراصد والعيون، وتأكد من عزمهم على الثورة المسلّحة بقيادة الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبد الله المحض، واكتشف المنصور أمرهم من خلال التجسس على أبيهم، فدسّ عقبة بن مسلم الأزدي، معبراً عن نفسه بأنه من شيعة أهل البيت، في خراسان، وحمله كتباً مزوّرة وأموالاً وهدايا، فقبلها،

---

(١) ظ : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥/ ٥.

(٢) ظ : ابن الطقطقى : الفخري ١٤٧.

وأباح له بمكنـون أمره، ممـا قوى عـزم المنصور على اسـتباق الأمر، والتنكيل بالحسنيين بقسوة بالغة[(١)].

ولـم تكن الحنكة السياسـية قد توافرت في عبد الله بن الحسـن بن الحسـن بن علي ابن أبي طالب، والد الثائرين، فكان ينخدع ويستغفل، إذ اسـتجاب لدعوة أبي سـلمة الخلال من ذي قبل، وانخـدع بعقبة بن مسـلم، وربما انخدع بأبي مسـلم الخراسـاني، وليس أهل خراسان له بشيعة، وهكذا تنطلي الإغراءات على عبد الله المحض، فيسير برؤية غير واضحة في الأحداث[(٢)].

وأزيح شـعار المجاملـة بين العلوييـن والعباسـيين، فحمل عليهم المنصور حملة شعواء لم تبق ولم تذر، حتى قال السيوطي:

**«وكان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسـيين والعلوييـن، وكانوا من قبل شيئاً واحداً»**[(٣)].

واختفى محمـد ذو النفـس الزكية وأخـوه إبراهيـم، فألقي القبض على جماعة من آل الحسـن عليه السلام وأودعو السـجن عام ١٤٠هـ في يثرب، ثم بدا للمنصور أن يسـيرهم من السـجن الذي قضوا فيه ثلاث سنين، إلى حيث أراد، وفي طليعتهم عبد الله بن الحسـن المحض، فسـار بهم الركب سـيراً حثيثاً عن طريـق الربذة، وفـي الربذة أوقفوهـم للعذاب، والشـمس تصهرهم، وهم مكبلون بالحديد والأصفـاد، وأمر الجلادين بضربهم السـياط وهم عراة، وضرب المحض ثلاثين سوطاً على وجهه،

(١) ظ: ابن الأثير: ٤/ ٣٧١، اليعقوبي: التاريخ ٢/ ٤٥٠، المسعودي: المروج ٢/ ٢٤٠.
(٢) ظ: ابن الأثير ٤/ ٣٢٣.
(٣) ظ: السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٦١.

وشدّ عنقه بساجور، وكبّلت يداه وأخرج ملبباً قد غيرت السياط سحنته، وأسالت إحدى عينيه، وأخذه نزف الدم[1].

وكان ممن أخذ مع عبد الله أخواه إبراهيم وأبو بكر، وعلي الخير وأخوه العباس، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، والحسن بن جعفر بن الحسن، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان.

وقد جرد المنصور بالربذة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فضربه ألف سوط، وسأله عن محمد وإبراهيم، فأنكر أن يكون يعرف مكانهما.

وارتحل المنصور عن الربذة، والأسرى موثقون بالحديد على المحامل المكشوفة، فصاح به عبد الله بن الحسن: يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر. فصيرهم إلى الكوفة، وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل، وكانوا يتوضئون في مواضعهم، فاشتدت الرائحة عليهم، فأدخلوا عليهم طيباً يشمونه لدفع الروائح النتنة.

وأشكلت عليهم أوقات الصلاة فجزأوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه، وقد ورمت أقدامهم نتيجة السجن والتسمم، فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد، فيموت صاحبه وهدم عليهم هذا السجن ـ فيما بعد ـ فماتوا جميعاً[2].

وكان هذا الإجراء الفظيع، مما اهتز له الإمام الصادق فشيعهم لدى إخراجهم بالدموع، وقد أوقفوا عند باب جبرائيل من المسجد النبوي،

---

(١) ظ: تفصيل ذلك في: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٧٩.

(٢) ظ: تفصيل ذلك في: المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٩٩.

فخرج الإمام وعامة ردائه مطروح على الأرض، فلعن الأنصار ثلاثاً، وقال: ما على هذا عاهدتم رسول الله، ولا بايعتموه، أما والله إن كنت حريصاً، ولكني غُلبت، وليس للقضاء مدفع، ثم قام وأخذ إحدى نعليه، فأدخلها رجله، والأخرى في يده، وعامة روائه يجرّ في الأرض، ثم دخل بيته فحمَّ عشرين ليلة لم يزل يبكي فيها الليل والنهار[١].

وكان الإمام الصادق قد أشار بهذا القول إلى ناحيتين مهمتين:

الأولى: تصريحه بأن الأنصار لم يفوا بما بايعوا عليه رسول الله ﷺ في العقبة، فقد أخذ عليهم أن يمنعوا وذريته مما يمنعون به أنفسهم وذراريهم، لذلك عمد الإمام أن يقول: «**اللهم؛ فاشدد وطأتك على الأنصار**»[٢].

الثانية: أن الإمام نصح أبناء عمومته فلم ينتصحوا، وكان يخبر عبد الله بن الحسن بان ولديه مقتولان لا محالة، وقال له صريحاً:

«إيهاً والله ما هي إليك ولا إلى ابنك، وإنما هي لهذا، وأشار إلى السفاح، ثم لهذا وأشار إلى المنصور، يقتله على أحجار الزيت ثم يقتل أخاه بالطفوف، وقوائم فرسه في الماء. فتبعه المنصور، فقال: ما قلت يا أبا عبد الله، فقال: ما سمعته، وإنه لكائن[٣].

---

(١) ظ: المجلسي: البحار ٤٧/ ٢٨٣.

(٢) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٢١٩.

(٣) ظ: ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٥٥.

وكان محمد بن عبد الله (**النفس الزكية**) قد بويع وأنه مهدي هذه الأمّة، فجاء أبوه إلى الصادق عليه السلام فنهاه، فزعم عبد الله أن الإمام يحسد ولديه[1].

وكان موقف الإمام الصادق متسماً بالأناة والحكمة، لما علم من سياسة المنصور في البطش والإرهاب، وأن تحرك الحسنيين لا يجدي نفعاً، ولا يغير أمراً، وإنما يزيد المظالم عنفاً في حياة الناس، فتتجدد المأساة إثر المأساة، والتضحية جنب التضحية، والحكم في عنفوانه يضرب من يعكر أمنه بيد من حديد، والتحرك بوضعه الهش لم يكن قادراً على الإصلاح، وقيادته عاجزة عن تصحيح مسار النظام فضلاً عن القضاء عليه.

ولم يستطع الإمام أن يكفّ الثائرين عن قرارهم، فأبدى الإمام لمحات من الغيب المرتقب، وكشف عن المصير الذي ينتظر كل الثائرين وعوائلهم، ونفى أن يكون النفس الزكية مهدي هذه الأمة، ونفى أيضاً أن يكون أحد أبناء الحسن عليه السلام مذكوراً في خلفاء هذه الأمة.

وقد أورد هذه الحقائق كل من أبي الفرج في المقاتل، والشيخ المفيد في الارشاد، وابن حجر في الصواعق، وابن الطقطقى في الفخري، والشيخ المجلسي في البحار، بصور وروايات وأحاديث متقاربة.

وكان نتيجة هذا التفكير الثوري أن اعتقل ـ كما رأيت ـ زعيم الحسنيين، هو وأخوته وابناء أخوته وابيدوا ابادة شاملة قبل تنفيذ الثورة.

---

(١) أبو الفرج : مقاتل الطالبيين ٢٢٢.

وتفجع الإمام الصادق لما حلّ بهم، وتساءل عنهم، فعن خلاد بن عمير الكندي قال: دخلت على أبي عبد الله، قال: هل لكم علم بآل الحسن الذين خُرج بهم مما قِبَلِنا؟

وكان قد اتصل بنا عنهم خبر، فلم نحب أن نبدأه به، فقلنا نرجو أن يعافيهم الله، فقال: وأين هم من العافية؟

ثم بكى حتى علا صوته وبكينا.

ثم قال: حدثني أبي عن فاطمة بنت الحسين قالت: سمعت أبي صلوات الله عليه يقول: يقتل منك، اويصاب منك نفر بشط الفرات ما سبقهم الاولون، ولا يدركهم الآخرون، وأنه لم يبق من ولدها غيرهم[1].

وقد دافع المجلسي عن أبناء الحسن من المعتقلين والثائرين، وأنهم مضوا إلى الله ﷻ بشرف المقام، والظفر بالسعادة والإكرام، ونزههم عن ادعاء المهدي في ولد عبد الله المحض، وإنهم عارفون بالمهدي وبالحق المبين.

وقال: «**وقد يوجد في الكتب انهم كانوا للصادقين عليهما السلام مفارقين، وذلك محتمل للتقية، لئلا ينسب إظهارهم لإنكار المنكر إلى الأئمة الطاهرين**»[2].

أما أن الإمام الصادق لم يرَ الثورة، فلأن الضغط السياسي كان على أشده في التنكيل والجبروت، ولأن الأعداد لمتطلبات الثورة لم يكن دقيقاً ولا منظماً، فما هو إلا شرارة تقتدح ثم تخبو، وعاصفة تهب ثم تخمد، والوعي الديني غير متكامل في إرادة اقتلاع الطغيان من جذوره.

---

(١) ظ: المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧/ ٣٠١ ـ ٣٠٣.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين معللاً موقف الإمام الصادق قائلاً: «**ولئن الثورة في رأي الإمام الصادق ليست غايةً في حدّ ذاتها، ولن يتحقق أثرها المؤمل بمجرد إعلان الخروج على النظام الفاسد، وإنما هي وسيلة اضطرارية من وسائل الإصلاح والتغيير، وملجأ أخير لا يصح اللجوء إليه إلاّ عندما يتأكد الضمان الكامل بتوفر جميع المتطلبات الأساسية المؤدية في المدى المباشر وغير المباشر إلى هدم ذلك النظام**»[1].

هذا هو المنطق الموضوعي لفلسفة موقف الإمام بالنسبة لتحرك الثائرين من أبناء عمومته، ولكنه ظلّ معتزاً بهم في اللحظات الحاسمة، ومتألماً لما نزل بهم من الصروف والأرزاء، تنتابه الهواجس المحزنة، وهم بين معتقل ينتظر الموت، وبين قتيل تسفي عليهم الرياح، وبين شريد لا تستقر به أرض، وقد عبّر عن ذلك برسائل وكتب وتصريحات[2].

فحينما وقعت النكبة بالاعتقال الجماعي لأبناء الحسن عليه السلام، أرسل الإمام برسالة مطولة إلى عبد الله بن الحسن تعدّ في قمة البلاغة والبيان، جاء في جزء منها:

«اعلم أي عم وابن عم، أن الله جل وعزّ لم يبالِ بضرّ لوليّه ساعة قط، ولا شيء أحبّ إليه من الضرّ والجهد والبلاء مع الصبر، وأنه لم يبال بنعيم الدنيا لعدوه ساعة قطّ، ولولا ذلك ما كان أعداؤه يقتلون أولياءه ويخوفونهم ويمنعونهم، وأعداؤه آمنون مطمئنون، عالون ظاهرون، ولولا ذلك لما قتل زكريا ويحيى بن زكريا ظلماً وعدواناً في

---

(١) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ٥٧.

(٢) ظ: على سبيل المثال: مقاتل الطالبيين ٢١٩ ـ ٢٢٠، البحار ٤٧، ٢٨٣ ـ ٣٩٩، ابن طاووس: الإقبال ٤٩ ـ ٥١، المناقب لابن شهرآشوب.

بغي من البغايا، ولولا ذلك لما قتل علي بن أبي طالب عليه السلام لما قام بأمر الله عز وجل - ظلماً، وعمك الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اضطهاداً وعدواناً.

فعليكم يا عم، وابن عم، وبني عمومتي، وأخوتي بالصبر والرضا والتسليم، والتفويض إلى الله عز وجل، والرضا بالصبر على قضائه، والتمسك بطاعته، والنزول عند أمره.. أفرغ الله علينا وعليكم بالصبر، وختم لنا ولكم بالأجر والسعادة، وأنقذنا وإياكم من كل هلكة بحوله وقوته»[1].

وقد حفلت هذه الرسالة البليغة بالوصايا المعبّرة عن الصبر والرضا والتسليم لله تعالى، وقد تحدثت عن مدى فاجعة الإمام بمأساة بني عمومته، وكان أسلوبها رقيقاً رفيقاً، وعرضها يتفجر عن ذائقة بلاغية مفعمة.

وكانت النهاية المفجعة للحسنيين مصدر آلام عظيمة للإمام.

وكان الإمام يتلقى أخبارهم بصبر واسى وهم يتلقون أقسى ألوان العذاب حتى أن عبد الله المحض طلب ماءً فلم يسقوه، واستأذنوا المنصور فأذن بسقياه، وقرّب الإناء إلى فمه ليشرب فركل أبو الأزهر الأناء برجله وهو مغضب، فألقى عبد الله ثناياه في الإناء[2].

وعهد المنصور إلى عامله بالمدينة بمصادرة أموال الحسنيين، وبيع رقيقهم، وأضاف لذلك مصادرة أموال الصادق عليه السلام[3].

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٣٩٩ وما بعدها.

(٢) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٢٤٣.

(٣) ظ: ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٨١.

ولما هلك المنصور أرجعها المهدي إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام[(١)].

واستشهد الحسنيون المعتقلون في سجن الكوفة، وربما كان ذلك في سجن الهاشمية على الأرجح، وبلغ محمداً النفس الزكية نبأهم بعد حين، فأتعد مع أخيه إبراهيم على إعلان الثورة سنة ١٤٥هـ في المدينة المنورة أولاً.

وكان ذلك بعد إعداد ودعاية ودعوة في الأقطار والقصبات من قبل الأبناء والأخوة، فوجه محمد ابنه علياً إلى مصر فقتل بها، وسار ابنه عبد الله إلى خراسان، فطُلِبَ وهرب إلى السند فقتل هناك. وسار ابنه الحسن إلى اليمن، فحبس ومات في السجن، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة داعياً، ومضى أخوه يحيى إلى طبرستان، فكان من خبره ما كان أيام الرشيد، ومضى أخوه إدريس إلى المغرب، فأجابه خلق كثير، فبعث المنصور من اغتاله بالسم فيما احتوى عليه من بلاد المغرب، وقام ولده إدريس بن إدريس مقامه، فعرف البلد بهم، فقيل بلد إدريس بن إدريس، ومضى أخوه إبراهيم أحمر العينين إلى البصرة، وظهر بها، فأجابه أهلها وأهل فارس، والأهواز وغيرهما من الأمصار، كما سترى هذا في موقعه[(٢)].

هذا التحرك في تخطيطه الأولي يمكن اعتباره برنامجاً سياسياً وعسكرياً بوقت واحد، فهو تحرك سياسي للقول بإمامة محمد النفس الزكية صح ذلك أم لم يصح.

(١) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ١٣٩٩.
(٢) ظ: المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٩٦.

وهو تحرك عسكري بتوجيه الدعاة، والاستعداد للمعركة الفاصلة، أمّا أن هذا التحرك قد مني بالفشل فلأنه يفتقر إلى عقلية تزن الأمور، فهو بإزاء دولة قوية تمتلك كل مقومات الانقضاض على أعدائها، وبدليل من الحدث نفسه فقد تتبعت مبعوثي محمد النفس الزكية في الأقطار، ونكلت بهم قتلاً وسماً وسجناً وتشريداً.

وكان الجدّ العاثر والاستعجال قبل الإكمال سبباً في الإحباط الذي منيت به الثورة الحسنية. وقد كان لها مبرراتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية:

١ـ عند قيام الدولة العباسية في عهد السفاح، وفد العلويون عليه للتهنئة، وكان عبد الله المحض فيهم، وأبى ولده محمد وإبراهيم الذهاب، ومحمد يرى أنه مرشح الخلافة من قبل الحسنيين والعباسيين معاً في مؤتمر الأبواء، فأنف من تهنئتهم وهو يرى نفسه أحق بالخلافة، فاستوحش السفاح من ذلك وقال لأبيهما:

«ما منعهما أن يفدا عليّ مع من وفد عليّ من أهل بيتهما؟».

فقال عبد الله المحض: ما كان تخلفها لشيء يكرهه أمير المؤمنين.

وتظاهر السفاح بقبول العذر، ولكنه بقي مرتاباً لمعرفته بنفسية محمد وإبراهيم، وتشاء الأقدار أن يدخل السفّاح والمنصور وعبد الله المحض، وقد اتخذ السفاح الأنبار عاصمة له بعد بنائها، فتمثل عبد الله المحض بهذين البيتين:

ألم ترَ حوشباً قد صار يبني

قصوراً نفعُها لبني نفيلهْ

يــؤمــل أن يُــعــمِّــر عــمــرَ نــوح
وأمـــرُ اللهِ يــحــدث كــل لــيــلــة

فتغير وجه السفّاح، والتفت المنصور إلى عبد الله قائلاً:

**«أتراهما ابنيك والأمر صائر إليهما لا محالة؟ فاعتذر عبد الله بقوله لا والله، ما ذهبت إلى هذا، ولا أردته ولا كانت إلا كلمة جرت على لساني لم ألق لها بالاً»[1].**

وهنا تحسس كل من السفاح والمنصور، فبثوا العيون والأرصاد في صفوف الحسنيين، فتناهت الأخبار لهم بالتخطيط للأنقاض باعتبارهم الأولى.

وهذا يعني أن الحسنيين قد شرعوا بالعمل السرّي للإطاحة ببني العباس.

٢ـ وأكرم السفّاح عبد الله بن الحسن وأعطاه مالاً كثيراً، فلما عاد إلى المدينة اجتمع إليه الفاطميون، فجعل يفرّق فيهم الأموال التي أعطيت له، فعظم سرورهم فقال لهم: أفرحتم؟ قالوا: وما لنا لا نفرح بما كان محجوباً عنّا بأيدي بني مروان، حتى أتى الله بقرابتنا وبني عمنا فأصاروه إلينا.

فقال لهم: أرضيتم أن تنالوا هذا من تحت أيدي قوم آخرين[2].

ووصل نبأ هذا المحضر أبا العباس والمنصور، فعلما من أمر بني الحسن ما يراد.

---

(١) أبو الفرج: الأغاني ١٨/ ١٠٦، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٧٤.
(٢) ظ: العقد الفريد ٥/ ٧٥.

٣ـ وكانت رسل عبد الله وابنيه تخرج إلى خراسان بالدعوة، وأتي المنصور بالكتب، فدسّ من يحملها إلى الخراسانيين، ويأتي بأجوبتها فكان ذلك، فكتب بشأنها إلى عبد الله بن الحسن:

أريد حياته ويريد قتلي
عذيرُك من خليلك من مرادِ

أمّا بعد، فقد قرأت كتبك وكتب ابنيك وأنفذتها إلى خراسان، وجاءتني جواباتها بتصديقهما، وقد استقر عندي أنك مُغيِّبٌ لابنيك، نعرف مكانهما، فأظهرهما لي، فإن لك عليّ أن أعظم صلتهما وجوائزهما، واضعهما بحيث وضعتهما قرابتهما، فتدارك الأمور قبل تفاقمها.

فكتب إليه عبد الله بن الحسن:

وكيف أريدُ ذاك وأنت منّي
وزندُك حين تقدح من زنادي
وكيف أريد ذاك وأنت منّي
بمنزلة النياط من الفؤادِ

وكتب إليه: إنه لا يدري أين توجها من بلاد الله، ولا يدري أين صارا، وانه لا يعرف الكتب، ولا يشك أنها مفتعلة[1].

٤ـ وكان عبد الله المحض يرى ولديه أهلًا للخلافة وبخاصة ولده محمداً، والصادق ينهاه عن ذلك، ويخبره بما هو كائن، فلا يتقبله.

وقد أكد الشعراء هذه الحقيقة، قال أحدهم:

(١) ظ: أبو الفرج: الأغاني ١٨/ ٢٠٦، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٧٦.

وإنّا لنرجو أن يكون محمدٌ إماماً به يحيا الكتاب المنزّلُ
به يِصلحُ الإسلام بعد فسادِهِ ويحيا يتيمٌ بائسٌ ومعوّلُ
ويملأ عدلاً أرضنا بعد ملئها ضلالاً ويأتينا الذي كنتُ أملُ[١]

وهذا نوع من الأعلام مقصود إليه بذاته، فيما يعني اختمار الفكرة بأن النفس الزكية هو المهدي من آل محمد، وإن كان الأمر باطلاً في التشخيص.

٥ـ كان عبد الله المحض، يدفع بولديه نحو الثورة، وهو يصلهما، ويبعث لها بالدعاة والأموال، ويأبى البيعة إلاّ لهما، ولا يتردد لحظة أنهما الإمامان المفترضة طاعتهما، أو هكذا يتصوّر ويخيل إليه، وشواهده كثيرة[٢].

٦ـ دفع عبد الله بولديه إلى الثورة بكل تأكيد وإصرار حتى قال: **«إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين، فلا يمنعكما أن تموتا كريمين»**[٣].

وهكذا يتضح أن المحضّ وولديه لم يرتضوا لأنفسهم التبعية لبني العباس، مع قناعة انهم أولى بالأمر، وهكذا كانت نظرة اتباعهم أيضاً، يضاف إليه العامل الاقتصادي في هذا التوجه، فهم صفر الكف إلا من شظف العيش، والأموال تحتجن لشهوات بني العباس، تتمتع به

---

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٢٤٣.
(٢) ظ: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٧٧.
(٣) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٢٤٣.

شبيبة العباسيين، والبذخ والإسراف لا يحدهما حدٌ معقول، والأعطيات الضخمة للفقهاء، الرسميين والقضاة وولاة الجور.

وهناك العامل الديني، وهو المهمّ في الموضوع، فقد خرج العباسيون عن سنن الشريعة، وابتعدوا عن شعائر الإسلام جملة وتفصيلاً، و ابتدعوا أحكاماً ما أنزل الله بها سلطاناً في القتل والإرهاب دون حريجة في الدين، وسفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام، بالبلد الحرام، وانتزعوا من طبقة الزهّاد المرائين طائفة تؤيدهم حقا وباطلاً، وأشياع أهل البيت في معزل من القيادة والحقوق والعدالة، قد قتلت الرجال صبراً، وذهبت الدماء هدراً، حتى التفت إلى هذه الظاهرة الحاقدة المأمون العباسي فقال: **«إن بني أمية إنما قتلوا منهم - العلويين - من سلّ سيفاً وإنّا معشر بني العباس قتلناهم حُمَلاً، فلنسألن أَعْظُمَ الهاشمية بأي ذنب قتلت، ولنسألن عن نفوس ألقيت في دجلة والفرات، ونفوس دفنت ببغداد والكوفة»**[1].

ومهما يكن من أمر، فقد استطالت مدة اختفاء محمد النفس الزكية، حتى خرج في المدينة، وبايعه أهل الحرمين، وأبناء المهاجرين والأنصار.

وكان محمدٌ رجلاً جزلاً، وشجاعاً ماهراً، فاستولى على المدينة، وتنادى أهل اليمن ببيعته، وتعالى صوت الحسنيين تأييداً، وجموع المسلمين اغتباطاً.

وتناهت الأنباء إلى المنصور، فندب عيسى بن موسى ولي عهده فيما يزعم، وكان هدفه مزدوجاً في تأميره على الجيش، فإذا انتصر فقد

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤٩/ ٢١٠.

أراح من محمد، وإذا قتل فقد أراح نفسه منه، وحقق خطته في الغدر بتعيين ولده المهدي خليفة، وهكذا كان.

وزوّد المنصور عيسى بآلات الحرب وعدتها، وضم إليه أربعة آلاف من الجند، وقال: لا أبالي أيهما يقتل صاحبه، وبعث معه محمداً بن السفّاح[1].

وجدّ عيسى بالمسير فوصل الأعوص، فارتقى محمد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«إن عدو الله وعدوكم عيسى بن موسى قد نزل الأعوص، وإن أحقّ الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين»**[2].

وكان قد اجتمع معه مائة ألف أو يزيدون، ولكنه ارتبك ارتباكاً شديداً بدخول جيش المنصور أزقة المدينة وشوارعها، فخطب أصحابه قائلاً:

**«إن هذا الرجل - يعني عيسى - قد قرب في عدد وعدة، وقد حللتكم من بيعتي فمن أحب المقام فليقم، ومن أحب الانصراف فلينصرف»**[3].

وكان هذا خطاب مخذول لا مبرر له، وقد خذّل أصحابه عن نصرته.

فتسللوا حتى بقي في شرذمة قليلين، وكان محمد قد جمع الناس وأخذ عليهم المناقب، فلا يخرج أحد، فلما سمع بعيسى وحميد بن قحطبة، صعد المنبر وقال:

---

(١) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢١٦.

(٢) ظ: المصدر نفسه: ٩/ ٢١٩.

(٣) ظ: المصدر نفسه: ٩/ ٢١٩.

**«أيها الناس قد جمعناكم للقتال، وأخذنا عليكم المناقب، وإنّ هذا العدو منكم قريب، وهو في عدد كثير، والنصر من الله، والأمر بيده، وإنه قد بدا لي أن أذن لكم، وافرج عنكم المناقب، فمن أحبّ منكم أن يقيم أقام، ومن أحب أن يظعن ظعن»**[١].

فتفرّق عنه الناس يميناً وشمالاً، وقامت الحرب وهو في مجموعة من أسرته وخلّص أصحابه، فتهاوت الرؤوس، وطاحت الأيدي، وطأطأت الأعناق، وناداه عيسى بن موسى في المعركة: أيا محمد إن المنصور أمرني أن لا أقاتلك حتى أعرض عليك الأمان، فلك على نفسك وأهلك وولدك وأصحابك، وتعطى من المال كذا وكذا، ويقضى عنك دينك، ويفعل بك ويفعل، فصاح محمد به: اله عن هذا، فو الله لو علمت أنه لا يثنيني عنكم فزع، ولا يقربني منكم طمع ما كان هذا ولجّ القتال، وترجل محمد، وقتل بيده سبعين رجلاً[٢].

وأخذت الجراحات من محمد مأخذها وسط الميدان، فخر إلى الأرض، صريعاً، فابتدره -بعد خطب طويل - حميد بن قحطبة الطوسي، فاحتز رأسه وأبرد به إلى المنصور فوراً[٣].

فلما قدم رأس محمد على المنصور، وهو مقيم بالكوفة، أمر به فطيف به في طبق أبيض.. فلما أمسى من يومه، بعث به إلى الآفاق[٤].

وهكذا اقتدى المنصور بيزيد بن معاوية حينما طيف برأس الحسين عليه السلام في الآفاق.

---

(١) ظ: المصدر نفسه: ٩/ ٢١٩.

(٢) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٢١.

(٣) المصدر نفسه: ٩/ ٢٢٦.

(٤) المصدر نفسه: ٩/ ٢٣٠.

وكان مصرع محمد النفس الزكية في النصف من شـهر رمضان عام ١٤٥هـ وقد مكث أميراً على المدينة من ظهوره حتى قتل: شهرين وسبعة عشـر يوماً، وتعقب المنصور وولاته جميع من خرج مـع محمد، فقتل بعضهم شـر قتلة، وضرب آخرين، وسجن قسماً منهم. وضرب الحصار على المدينـة المنوّرة، حتى جـاع أهلها، وحرموا مـن الطيبات وأرزاق البلاد المجـاورة، فقد روى الطبري أنـه: لما قتل محمـد أمر المنصور بالبحر فأقفل على أهل المدينة، فلم يحمل إليهم من ناحية الجار شيء، حتى كان المهدي، فأمر بالبحر ففتح لهم وأذن بالحمل[1].

وأعلنت الأحـكام العرفية فـي المدينـة، وأمعن الـولاة بأهلها قتلاً وتشريداً واعتقالاً، فلم يتركوا مكروهاً إلاّ عملوه، ولا منكراً إلاّ ارتكبوه.

(١) المصدر نفسه: ٩/ ٢٣٢.



# ثورة إبراهيم أحمر العينين



أمعن المنصور ببني الحسن أسراً وقتلاً، وأنزلهم المعتقلات الرهيبة، وأثقلهم بالأصفاد، وغيّب أثرهم، فأشفق محمد وإبراهيم من ذلك، وخرجا إلى السند، فسُعيَ بهم إلى عمر بن حفص، فغادرا السند وقدما الكوفة، وبها المنصور، وغادر محمد إلى أطراف المدينة سراً وأعلن ثورته كما رأيت، ونزل إبراهيم في الحي من بني ضبيعة في دار الحارث بن عيسى، وكان لا يُرى في النهار، وما استقر به قرار في الأرض، فبدأ يتنقل بين القصبات، مرة بفارس، ومرة بكرمان، ومرة بالجبل، ومرة في اليمن، ومرة في الحجاز، ومرة في الموصل، وأخرى في الجزيرة، ولكنه عاد إلى البصرة متنكراً، ودخلها في أول سنة ١٤٣هـ، ونزل في دار يحيى بن زياد متنكراً، ومن قنسرين كتب الفصل بن صالح العباسي، رقعة إلى المنصور يخبره أن إبراهيم إنحدر إلى البصرة، فأمر بإذكاء العيون عليه، ووضع المراصد والمسالح، وغمّت أخباره على المنصور.

ولعلّ من أطرف ما مرّ على إبراهيم، هو دليل شجاعته وقوة قلبه، أن المنصور قد جدّ في طلبه بالموصل، وأولم للناس غداءً، قال إبراهيم: فدخلت فيمن دخل، وأكلت فيمن أكل[١].

وأورد الطبري عدة طرائف في تخفي إبراهيم بين المدائن وبغداد والبصرة وقنسرين والجزيرة، وهو ثبت الجنان رابط الجأش[٢].

وقد حلّ إبراهيم في البصرة، ودعا إلى نفسه سراً أو إلى أخيه، والتف حوله الكثيرون، وبايعه الناس لشجاعته وورعه، وقد لمسوا عنده إنكار المنكر، وشجب الطغيان. وكانت الناس تميل إلى أهل بيت النبي ﷺ، وكان إبراهيم مؤهلاً قيادياً، وبطلا جريئاً لا يهاب الموت، ومن البصرة راسل أنصاره في البصرة والجزيرة والموصل، فانحدر من انحدر إليه، وقبض على جميع كثيف من اتباعه في المسالح والمقالع فقتلوا، وكان المنصور قد أشير عليه بنزول الكوفة، لأن أهل الكوفة شيعة لإبراهيم، فتجهز بألف وخمسمائة فارس، عليها المسيّب بن زهير، فجزأ الجند ثلاثة أجزاء؛ خمسمائة خمسمائة، فكان يطوف الكوفة كلها بحثاً عن إبراهيم وأنصاره، يقتل من يشاء، ويحبس من يشاء.

وكان ابن ماعز الأسدي يبايع لإبراهيم سراً في الكوفة، وقد استحر القتل في مؤيدي إبراهيم من الوافدين عليه من القصبات، ولم ينفعهم أي عذر كان[٣].

---

(١) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٤٣.

(٢) ظ: المصدر نفسه: ٩/ ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٤٨ وما بعدها.

وكانـت جملة من قـوات المنصـور مرابطة فـي الموصـل، فأمرها بالتوجه نحوه لقتال إبراهيم، وكانوا في ألفين من الفوارس، فشـخصت القوات نحو المنصور، فلمّا كان بباحمشا عرض أهلها للجيش، وقالوا: لا ندعك تجـوز أرضنا لتنصر أبا جعفر على إبراهيـم، فقاتلهم الجيش وأبارهم، وحمل قائدهم منهم خمسمائة رأس، فقدم بها على المنصور، وقصّ عليه خبرهم، فقال المنصور: هذا أول الفتح[١].

وكان والي البصرة سـفيان بـن معاوية قـد انضم إلـى إبراهيم في دعوته، فكان في عدة حسنة، وبدأ المنصور يرسل بجيوشه إلى البصرة، ويوجه بالقوّاد العسـكريين نحوها، فجعلوا يدخلون البصرة، فصيلاً إثر فصيل، فأشـفق إبراهيم أن يكثروا بها، فنهض ليلة الاثنين غرة رمضان سنة ١٤٥هـ.

واستولى في عملية التفاف عسكرية على عدة دواب وأسلحة لألفين من مقاتلي المنصور، فكان هذا أول ظفره، ووجد في بيت المال ستمائة ألف، فأمر بالاحتفاظ بها؛ وقيل: وجد فيه ألفي ألف درهم فقوي بذلك، وفرض لكل رجل خمسين خمسين، وسيطر على البصرة، وانتشر دعاته في الأهواز، وواسط، والمدائن، وفارس، والجزيرة[٢].

ووافاه على هذا الحال نبأ استشـهاد أخيه محمد ذي النفس الزكية، وهو يخطب على المنبر، فتمثل بهذه الأبيات:

**أبـا الـمـنـازل يـا خـيـر الـفـوارس من**

**يفجع بمثلك فـي الـدنـيـا فـقـد فجعا**

---

(١) ظ: المصدر نفسه: ٩/ ٢٥٠ بتصرف.

(٢) ظ: المصدر نفسه: ٩/ ٢٥١ بتصرف.

الله يعلم لو أني خشيتهم
وأوجس القلب من خوف لهم فزعا
لم يقتلوه ولم اسلم أخي لهم
حتى نموت جميعاً أو نعيش معاً

وانحدرت دموع عينيه، وأبّن أخاه بقوله:

**«اللهم: إنك تعلم أن محمداً إنما خرج غضباً لك، ونفياً لهذه المسوّدة، وإيثاراً لحقك، فارحمه واغفر له، واجعل الآخرة خير مردّ له»**[1].

وجدّ إبراهيم في الأمر، وأرسل بعوثه إلى الجهات، فلما تكاملت العدة لديه، أراد الشخوص لقتال المنصور، فأشار عليه القادة المجربون وأركان حربه أن يقيم في البصرة، ويرسل الجيش إلى قتال المنصور، وقالوا: أصلحك الله إنك لو قد ظهرت على البصرة والأهواز وفارس وواسط، فأقم بمكانك ووجه الأجناد، فإن هزم لك جند أمددهم بجند، وإن هزم لك قائد أمددته بقائد، فخيف مكانك واتقاك عدوك، وجبيت الأموال وثبّت وطأتك ثم رأيك بعد، فقال الكوفيون، أصلحك الله إن بالكوفة رجالاً لو قد رأوك ماتوا دونك، وإلا يروك تقعد بهم أسباب شتى، فلا يأتوك، فلم يزالوا به حتى شخص إلى باخمرى[2].

وكان الرأي الأول حكيماً وسديداً، إلا أن إبراهيم كان مجموراً لقتل أخيه، وأراد أن ينتقم عاجلاً، وكانت الكوفة قد اضطرب أمرها وهي تتوق إليه، فاستجاب دون مسوّغ عسكري أو اجتماعي لا سيما وأن ديوانه بالبصرة قد أحصى مائة ألف مقاتل. وخلص له في باخمرى

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٣٤٢.
(٢) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٥٦.

ـ حينما تفقد جيشه ـ اقل من عشرة آلاف مقاتل، وضاعت الفرصة الذهبية التي يمكن أن يسجل بها النصر المبين.

أمّا المنصور فقد وجه عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً، وجعل مقدمته حميد بن قحطبة الطوسي في ثلاثة آلاف، وسار إبراهيم من معسكره بالماخور من خريبة البصرة نحو الكوفة، وهو يتمثل بقول القطامي:

**أمور لو يدبّرها حليمٌ**
**أذن لنهن وهيّب ما استطاعا**
**ومعصية الشفيق عليك مما**
**يزيدك مرةً منه استماعا**
**وخير الأمر ما إستقبلت منه**
**وليس بأن تتبعه إتباعا**
**ولكن الأديم إذا تفرّى**
**بليً وتعيبّاً غلب الصناعا**

فقال: أوس بن مهلهل القطعي: أني لأسمع كلام رجل نادم على مسيره[1].

وكان على إبراهيم أن لا يتعجل المسير والمنصور في الكوفة، بل عليه أن يستولي على الكوفة بوساطة أنصاره بغتةً، لأن الكوفيين لو سمعوا داعياً إليه لأجابوه.

ولكانت هزيمة المنصور محققة؛ وقد أشير عليه بهذا الرأي فتخوّف على الكوفة من المنصور، لئلا يرسل عليها خيلاً فيطأ البريء

(١) ظ: الطبري: المصدر والصفحة، ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٨.

والضعيف والصغير والكبير، وإبراهيم يتأثم من هذا ويستنكر، لئلا تستباح حرمة الكوفة.

وحينما نزل إبراهيم باخمرى، قال المضّاء: أتيت إبراهيم فقلت له: إن هؤلاء القوم مصبّحوك بما يسدّ عليك مغرب الشمس من السلاح والكراع، وإنما معك رجال عراة من أهل البصرة، فدعني أبيّته، فو الله لأشتتن جموعه، فقال: إني لأكره القتل، فقلت: تريد الملك وتكره القتل[1].

إن التحرج الديني، لدى إبراهيم يأبى له الفتك والبيات والقتل، إلا أن المنطق العسكري يقتضي ذلك، وما يدرينا أن إبراهيم يعلم ذلك كله، ولكنه صاحب دين، فترك الأولى عسكرياً وتمسك بالقيم والمبادئ.

ومهما يكن من أمر، فإن إبراهيم حينما نزل باخمرى، وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة، لاحت إمارات الحرب، باستعداد جيوش المنصور وتواثب جيش إبراهيم، ووقعت الحرب بين الفريقين، وقامت على قدم وساق، وجيش إبراهيم وإفناء الناس معه اكثر من جند المنصور، وحينما أحتدم القتال انهزم حميد بن قحطبة وانهزم معه جيش المنصور، وعيسى بن موسى يناشدهم الطاعة فلا يلوون عليه ومرّوا منهزمين.

وحينما أقبل حميد بن قحطبة منهزماً، قال له عيسى بن موسى: يا حميد الله الله والطاعة، فقال له: لا طاعة في الهزيمة. ولم يبق أحد بين يدي عيسى، وعسكر إبراهيم ثابت مطمئن يتعقب المنهزمين.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

---

(١) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٥٧.

«وانتهت طلائع الهزيمة إلى الكوفة، ووجـم المنصور، ورام الجبان الهزيمـة، وجعل يقـول للربيع: أيـن قول صادقهـم؟ وكيف لـم ينلها أبناؤنا؟ فأين إمارة الصبيان؟

وحوصـر، وأمر بجعل الإبـل والدواب علـى جميع أبـواب الكوفة ليهرب عليها، ومن المصادفات الغريبة أن جيوش المنصور كرت راجعة بعد هزيمتها بسـبب نهـر لقيها، فلم تقـدر على اجتيـازه، وكان جيش إبراهيم قد مخر في الماء ليكون القتال من وجه واحد[1].

واسـتمات عيسـى بن موسـى، وأبى الانهزام في ثلاثة أو أربعة من جنـده، وهو يوصي المنهزمين بالسـلام علـى أهله، يقول: فـوا لله إني لعلى ذلك والناس منهزمون ما يلوي أحد على أحد، وصمد ابنا سليمان جعفر ومحمد لإبراهيم، فخرجا عليه من ورائه، ولا يشـعر من بأعقابنا من أصحاب إبراهيم، فكرّوا راجعيـن، وبينما هم على ذلك وإذا بحميد بن قحطبة يكرّ بعد الفرار.

وكانت الوقعـة الفاصلـة، إذ ثبت إبراهيـم في نفر قليـل، فقاتلهم حميد بن قحطبة قتالاً شديداً، وجعل يرسل بالرؤوس إلى عيسى.

وكان السـبب في هذا الانتكاس العسـكري ليس النهر وحده، وإنما تمثل إبراهيم بالسـابقين من أهل البيت عليهم السلام، فنهى عن تتبع المدبرين، فكرّت الرايات راجعة، فظنها المعسكر العباسـي منهزمة فكرّوا عليهم، فكانت هزيمة أصحاب إبراهيم.

وقد تحدث أبو صلابة عن مقتل إبراهيم في المعركة قال:

---

(١) ظ : باقر شريف القرشي : حياة الإمام الصادق ٧/ ١٣٩.

إني لأنظر إليه واقفاً على دابة ينظر إلى أصحاب عيسى قد ولّوا ومنحوه أكتافهم، ونكص عيسى بدابته القهقرى، وأصحاب إبراهيم يقتلون أصحاب عيسى، وعلى إبراهيم قباء زرد، فآذاه الحرّ، فحلّ أزرار قبائه، فشال الزرد، حتى سال عن ثدييه، وحسر عن لبته، فأتته نشابة عائرة، فأصابته في لبته، فرأيته اعتنق فرسه، وكرّ راجعاً، واجتمع حوله أصحابه.. فأنكر حميد بن قحطبة هذا الاجتماع، فأمر بقتالهم، فقاتلوهم أشد القتل حتى أفرجوا عن إبراهيم قتيلاً، فحزوا رأسه، وبعث به عيسى إلى المنصور.

وكان قتل إبراهيم يوم الاثنين لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة عام ١٤٥هـ.

وكان يوم قتل ابن ثمان وأربعين سنة، ومكث منذ خرج إلى أن قتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام[1].

وتمثل المنصور عند قتل إبراهيم ببيت معقر بن أوس البارقي:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافرُ

ولا تتحدث عما جرى للعلويين بعد استشهاد محمد وإبراهيم، فقد انتقم المنصور منهم انتقام الموتور، فزجّ بشبابهم وكهولهم بالسجون والمعتقلات الرهيبة، وبني عليهم الأسطوانات وهم أحياء، وتعقب الذين فلتوا من القتل فقتلهم، واعتدى على الحرمات فانتهكها، وعلى الأملاك فصادرها، حتى عين أبي زياد التي كانت في ملك الإمام الصادق عليه السلام، فطالب المنصور بردّها قائلاً: **«واردد عليّ قطيعتي عين أبي زياد آكل من سعفها»**.

---

(١) ظ: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٥٩.

فقال المنصور: إياي تكلم بهذا الكلام، والله لأزهقن نفسك.

قال الإمام: لا تعجل علي، قد بلغت ثلاثاً وستين، وفيها مات أبي وجدي علي بن أبي طالب[١].

واستهان المنصور بذرية رسول الله ﷺ واستدعاهم إلى الكوفة بما فيهم الإمام الصادق عليه السلام استخفافاً بهم، وتنفيساً عن حقده المتجدد، واستهتاراً بكل القيم، وهو يريد هدم رباعهم، وتغوير مياههم وأنهارهم وعقر نخلهم، ونفيهم عن أرض الحجاز[٢].

أما أولئك الذين ثاروا مع إبراهيم وأيدوه من البصرة، فقد انتقم منهم، وأمر بقتل كثير من أشرافهم، وهدم بيوتهم، وخرّب بساتينهم، هذا إضافة لمصادرة أملاك أبناء الحسن والحسين في المدينة وضواحيها، كما ألغى الامتيازات التي كان أهل المدينة يتمتعون بها[٣].

وكانت مرونة الإمام الصادق عليه السلام، وعبقريته في الحوار، ودبلوماسيته الفريدة، قد دفعت سيلاً جديداً من المظالم كان مقرراً أن يضاف إلى قاموس المنصور الانتقامي.

(١) ظ: الطبري: التاريخ ٩/ ٢٣٢، أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٢٧٣.
(٢) ظ: أبو الفرج: مقاتل الطالبيين ٤٥٠، المجلسي: البحار ٤٧/ ٢١١.
(٣) ظ: السيد مير علي الهندي: تاريخ العرب ١٩٢.



## اكتواء الإمام باللهيب الثوري



واكتوى الإمام بلهيب ثورات الحسنيين، وقارب القتل العلني، ولوّح به إليه، وامتدت نحوه أصابع الاتهام في التخطيط لما حصل من حركات، ولم يكن ذلك من رأيه، ولا دعا إليه، بل نصح بالتريث والانتظار، وما أطيع له رأي، ومع هذا فقد اشرأبت أبصار العباسيين تلاحقه بالنظرات المريبة، وتتابعه بالاتهام الرخيص.

وطالما تحدى المنصور الإمام الصادق عليه السلام، وطالما استدعاه واقفاً بين يديه، وطالما هدده وأراد الإيقاع به، وربما استخف به وتجاوز قدره، إلا أن الحنكة السياسة لدى الإمام حالت دون تنفيذ كثير من الخطط الرهيبة التي اعتمدها المنصور ضد الإمام.

لقد حدث الحافظ الجنابذي عن الإمام الصادق أنه قال: **«لما دفعتُ إلى أبي جعفر المنصور، انتهرني وكلمني بكلام غليظ، ثم قال لي: يا جعفر قد علمت بفعل محمد بن عبد الله الذي تسمونه: النفس الزكية، وما نزل به، وإنما انتظر الآن أن يتحرك منهم أحد فألحق الكبير بالصغير»**[1].

(١) الأربلي: كشف الغمة ٢/ ٣٧٨.

وهذا يحكي عن صرامة الإجراء الذي سيتخذ ضد العلويين لأدنى تحرك ثوري، وهو تهديد بالإبادة الجماعية لهم، وهو استدعاء لكبير أهل البيت وزعيمهم، كما يكشف عن الاضطراب السياسي في التقدير.

ولم يكن هذا أمراً ارتجالياً بالنسبة للسلطان العباسي، وإنما هو اعتقاد له أساس من الصحة، فإن أي فرد له مكانته بين الناس يرعب العباسيين، ويثير مخاوفهم وهواجسهم، فكيف إذا كان ذلك الشخص مرتبطاً بالقاعدة الصلبة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، أو هو في الأقل من المحسوبين عليهم سبباً أو نسباً.

وقد أحسن الأستاذ محمد جواد فضل الله رحمه الله تعليل هذه الظاهرة حينما قال: «**ويمكننا ببساطة أن نفسر هذا القلق الذي يساور الحكم من الوجود العلوي، بأن الوجود العلوي لم يكن في نظر الحكم وجوداً فردياً ينحصر في الوجودات الشخصية التي ترتفع في نسبها للإمام علي عليه السلام، وإلا فمن السخرية أن يخافها الحكم مادامت لا تتعدى حدود الأفراد.. بل الوجود العلوي في نظر الحكم، يمتد في عمقه إلى الوسط الاجتماعي العام، بجذور بعيدة المدى، تستمد قوتها من أصالة الإيمان والتمسك بالحق، وعدم شرعية الحكم ما دامت قواعده فارغة من وجود لآل علي**»[1].

فإذا كان الشاخص الماثل لهذا الوجود بوزن الإمام الصادق وشخصيته الفذة، تدرك بيسر تخوف الحكم من اتجاه الأنظار نحوه، لا سيما انه الوريث الشرعي لمنصب أبيه وجده في الإمامة، وفي هذا الضوء فهو الوريث لخصائص أمير المؤمنين عليه السلام وخصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبله.

---

(١) محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق ١٧٨ ـ ١٧٩.

لهذا فقد كانت لواذع القول وقوارص الكلم يكيلها المنصور للإمام الصادق دون حساب، فقد أدخل الصادق على المنصور فقال له:

**«أي عدو الله!! اتخذك أهل العراق إماماً؟ يجبون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطاني، وتبغية الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك»**(١).

هذا هو المنطق البذيء الذي قوبل به الإمام، وهو لم يحرك ساكناً، ولم يدفع ثائراً، وكان القضاء عليه يدور في أفكارهم، ويملك عليهم خلواتهم، وهذا ما يفسر رواية محمد الاسقنطوري، قال:

«دخلت يوماً على الدوانيقي فوجدته في فكر عميق، فقلت له: ما هذا الفكر؟ قال: قتلت من ذرية فاطمة بنت محمد ألفاً أو يزيدون، وتركت سيدهم ومولاهم!! فقلت: ومن ذاك؟

قال: قد عرفت أنك تقول بإمامته، وإنه إمامي وإمامك وإمام جميع الخلق، ولكن الآن أفرغ منه»(٢).

وكانت هذه الأفكار والإجراءات سلوكية صارمة للحاكمين ضد الإمام، وكذلك الحال فيمن تسول له نفسه التفكير فضلاً عن العمل في أي سبيل يتنافى وغطرسة الحكم وأنانية إفراده خليفة وولاة وعمالاً وأجهزة وكان المخطط العباسي يقضي بتصفية كل العناصر التي يشك بولائها للنظام، ومع أن الإمام لم يذهب بأي اتجاه تنظيمي للحصول على السلطة الزمنية، ولم يحاول السعي مطلقاً وراء العروض المتوفرة على تقبل الدعوة باسمه من قبل المعارضين في أي تحرك ثوري أو عسكري، إلا أن الحكم كان في فزع هائل من الرصيد الضخم الذي

---

(١) سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص ٣٥٣.

(٢) محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق ١٨١ وانظر مصدره.

حصل عليه الإمام في أرجاء الدولة الإسلامية، وكان يعزّ عليه أن ينظر الشعب المسلم للإمام نظرة تقديس ترتبط بالكيان العام للأصول الموروثة عن آبائه الطاهرين.

وقد يقال جزافاً: إن الإمام كان في غربة عن الأحداث، وغياب عن الحياة الاجتماعية، وليس لهذا القول ما يبرره على الإطلاق، لأن الفحص الناقد لمسيرة الإمام القيادية تنافي هذا الزعم الساذج، فالإمام يعيش آمال الأمة وآلامها، وهو في الصميم من قضاياها المصيرية، وهو يعرك الحياة في خبراته وتجاربه، لكنه يلحظ الانقسام السياسي في اضطرابه، وينظر الأفق الغائم نظرة تحليل ودراسة، فلا يظفر بأدنى بارقة أمل في جدوى العمل السياسي، فالزعماء ملئت غرائزهم بالأعطيات الضخمة، والعلماء الرسميون أسندت لهم مناصب القضاء والإفتاء، والسواد الأعظم تدفعه موجة وتمنعه أخرى، وبقيت ثلة من الناس قليلة لا يمكن التفريط بهم. فهم حضنة الملّة ورجال الإسلام، وعليهم الاعتماد في إدارة الحياة الروحية الخالصة للشعب الضائع.

يضاف إلى هذا أن واجبات الإمام متنوعة العطاء في قيادته، فالأمة تراه الممثل الحقيقي للإسلام، ومهماته اكثر من أن تحصى، فهو يناضل في اتجاهات عديدة، وكل هذه الاتجاهات صعبة الإدارة: التخطيط الرسالي، المناخ العقلي، الحياة العلمية، تهيأة المتخصصين، رعاية شؤون المسلمين، إعالة الفقراء، الإفتاء بين الناس، تخليص الشريعة من الشوائب، حفظ الأفكار من الانحراف، مقاومة الاتجاهات الوافدة، مراقبة الواقع الفاسد، ملء الفراغ العقائدي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا عدا حياته الخاصة، وتهيأة أموره الاقتصادية، والنظر في شؤون بيته وأسرته، والإشراف على تربية أبنائه ومن يعول به.

وهذه مفردات ضخمة تحتاج في إدارتها إلى الفكر الصائب والسعي المتواصل والتنظيم الدقيق.

فإذا أضفت إلى هذا كله؛ تداعي البنية الاجتماعية التي لا تسمح ظروفها بأي تحرك إيجابي، والرصد الدائم لكل حركات الإمام، علمت أن الفكر الموضوعي يحتم ما سلكه الإمام حرفاً بحرف، فقد قال الإمام لبعض أصحابه: «**إن الله عز ذكره لا يعجل لعجلة العباد، ولإزالة جبل عن موضعه، أيسر من زوال ملك لم ينقضِ أجله**»[1].

وهذا ما يفسر لنا مدى ما كان يشعر به الإمام من محاولة المخلصين له، بالانقضاض على الحكم دون التفكير في الاتجاه والاتجاه الآخر، وقد يصل ذلك إلى حدّ الإحراج، ولكن الإمام يقابله بصريح القول، فعن عبيد بن زرارة، «قال: لقيت أبا عبد الله عليه السلام في السنة التي خرج فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، فقلت له: جعلت فداك إن هذا قد ألّف الكلام، وسارع الناس إليه، فما الذي تأمر به؟

قال: فقال: اتقوا الله، وأسكنوا ما سكنت السماء والأرض»[2].

وكان الإمام يظهر هذا الملحظ ليدركه الحاكمون، فقد قال الإمام لجماعة من أوليائه في الطائف، وهو يشعر بالمضايقات المرعبة من الحكم، قال:

«**يا ليتني وإياكم بالطائف، أحدثكم وتؤنسوني، واضمن لهم أن لا نخرج عليهم أبداً**»[3].

---

(١) الكليني: الكافي ٨/ ٢٧٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٢٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ٤٧/ ١٨٥.

وقد كان الحصار السياسي قد فرض على الإمام وضرب بجرانه، من قبل ولاة الحكّام والأهالي المتطوعين لمراقبة الإمام، فعن عنبسة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أشكو إلى الله وحدتي وتقلقلي من أهل المدينة، حتى تقدموا وأراكم وأسرّ بكم، فليت هذا الطاغية إذن لي فاتخذت قصراً فسكنته، وأسكنتكم معي، وأضمن له أن لا يجيء من ناحيتنا مكروه أبداً»[1].

ليس الحكم مراداً بحد ذاته عند الإمام، بل هو وسيلة لإقامة دين الله في الأرض، وإشاعة العدل الاجتماعي، وبناء الأمة على أسس سليمة، من الوعي والإدراك، فهو رؤية محورية تدور حول قطب مركزي لا يتعداه، وهو وسيلة لأهداف مشروعة لا غاية لتحقيق شهوات السلطان، والإمام في هذا يصدر عن مضمون رسالي قد لا ينسجم مع أغلبية الآراء، مع العلم أن مسيرة الإمام القيادة شاهدة على هذا المنحى ليس غير، وهي حاشدة بالمرايا الصادقة التي تعكس أشعتها هذه الأفكار، فيما كابد الإمام شتى الضغوط في سبيل تثبيت الرأي الصريح في هذا الاضطراب غير المحدود، وكان هذا الضغط لا يقتصر على سلاطين عصره، بل حتى من قبل أبناء عمه الحسنيين، فترى الإمام يرمى بالحسد تارة، وبالتخاذل تارة أخرى، وبالاعتزال سواهما، حتى اضطر إلى اللمح الغيبي بأخبار عبد الله المحض أن الأمر لا يعدو بني العباس.

وكان الإمام حريصاً على تجنب كل المبادرات التي تريد زجّ الإمام في حركات محكوم عليها بالفشل مسبقاً، فقد غادر المدينة المنورة لدى إعلان ثورة محمد النفس الزكية، وعاد إليها بعد هدوء العاصفة[2].

---

(١) الكشي: الرجال ٢٣٣.

(٢) ظ: ابن الجوزي: تذكرة الخواص ٣٥٧.

ولم يكن الحكم ببعيد عن تصور واقع الإمام، فقد أدرك جيداً سياسته الفاصلة في هذا الشأن، ولكنه يحذره لمنزلته الكبرى في النفوس، فطمع المنصور باستمالة الإمام، ولكن الإمام لم يكن لينخدع بأساليب الطغاة، كتب له المنصور: «لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابه الإمام:

«ليس لدينا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا تراها نقمةً فنعزيك، فما نصنع عندك؟ فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا!!

فأجابه الإمام: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك.

فقال المنصور: والله لقد ميّز عندي منازل من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة، وانه ممن يريد الآخرة»[1].

وكانت هذه الإجابة الحافلة بالصلابة والصدق تمثل الخط الفاصل بين الإمام والحاكمين، إذ عندما يراد استغلاله واجهةً من واجهات الحكم أو السائرين بركابه، فلا يسعه إلا التشدد في الموقف لئلا تختلط النظرة فيتصورها من لا دراية له بالأمر ممالأة للحكم أو متابعة للسلطان.

وما دام الإمام يمتلك زمام المبادرة في مجابهة الرموز العليا للأنظمة الفاسدة، فإنه يطلق الكلمة الصادقة لينأى بنفسه عن الاختراق.

---

(١) الأربلي: كشف الغمة ٢/ ٤٢٧ نقلاً عن تذكرة ابن حمدون.

ولقد أخفق الحكم حقاً في استدراج الإمام، مع كل ما يمتلكه من وسائل، وأقلقه أن يجد الإمام متمتعاً بالاستقلال التام، وحوله من الأولياء والاتباع من يعتبره الخليفة الشرعي دون أدنى شك.

والإمام في هذه الرؤية المميزة من الرفض والسلبية الهادئة، جعله في نظر الحكم في الاصطفاف الأمامي الذي لا يخضع لنفوذ السلطان.

وكانت هذه العقدة هي مشكلة الحكم المستعصية مع الإمام الصادق، فلا هو بالمعارض الذي يقضي عليه فوراً، ولا هو بالمسالم الذي يؤمن كيانه ومركزه الاجتماعي، ولا هو السائر بالركاب.

ولهذا فقد ضاق المنصور ذرعاً بالإمام حتى نفذ صبره. وقد عقد المجلسي (ت ١١١١هـ) باباً مستقلاً في البحار بما جرى بين الإمام والمنصور من المداخلات، يعبّر بأحداثه المتسارعة عن مدى نقمة المنصور على الإمام، كما يعبّر عن الحيرة في قتله والقضاء، عليه، وفيه من الأحداث طائفة كبيرة أوقعت المنصور بالمأزق الضيق حتى اغتياله للإمام عليه السلام[1].

---

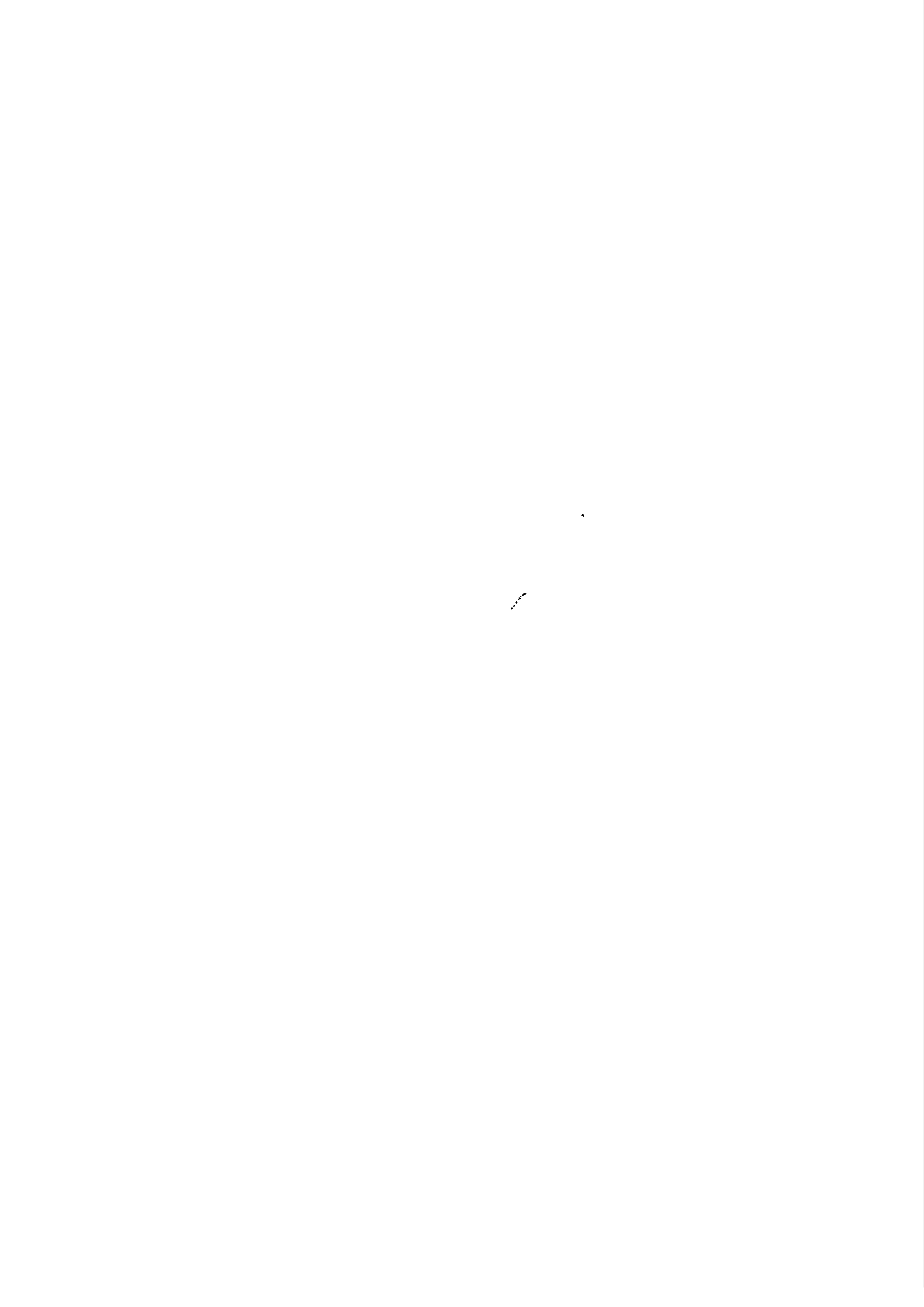
(١) ظ : المجلسي : بحار الأنوار ٤٧/ ١٦٢ ـ ٢١٢ .



# الباب الثاني

# معالم مدرسة أهل البيت
# عند الإمام الصادق

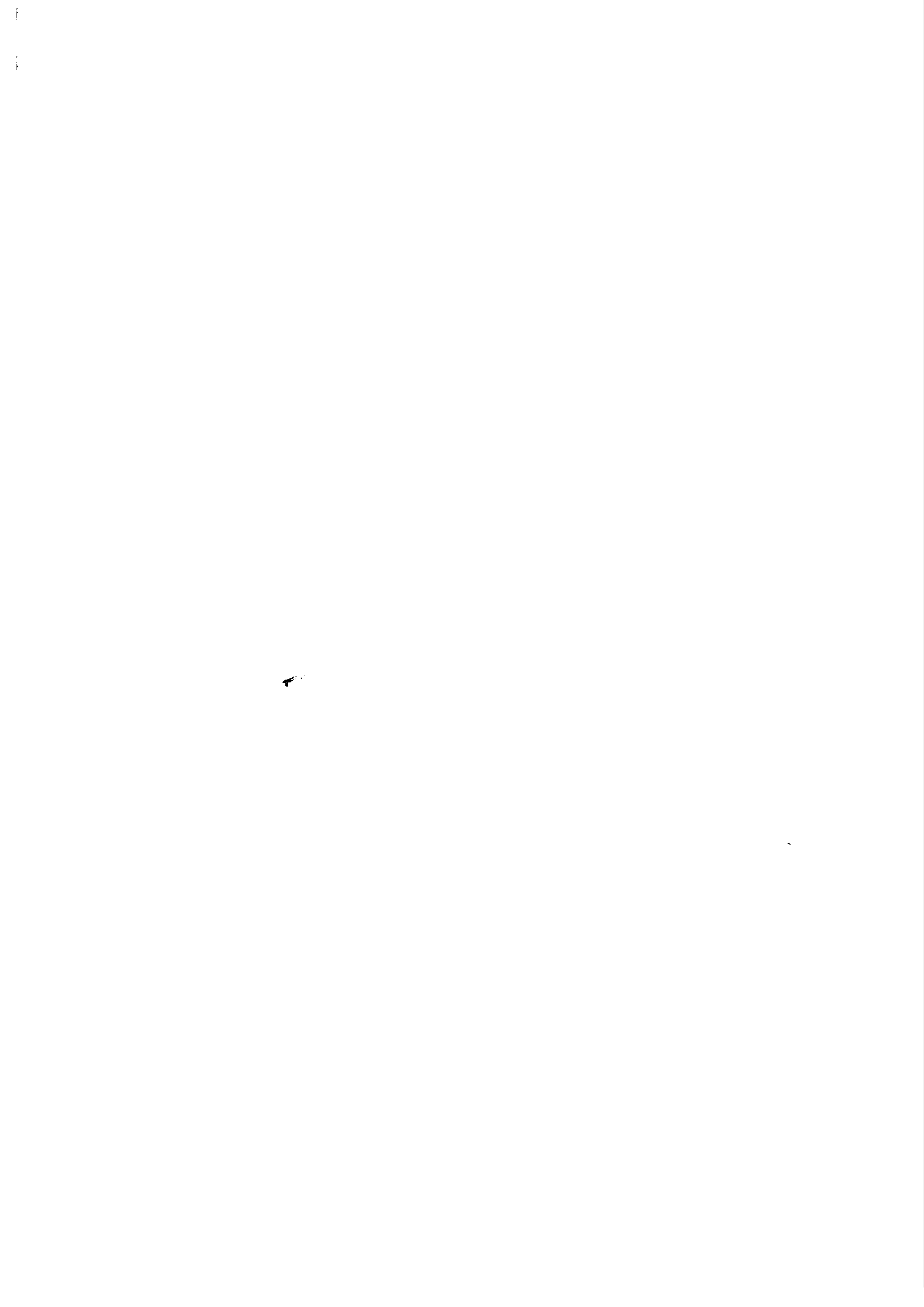
* الفصل الأول: الأبعاد العلمية لدى الإمام الصادق.
* الفصل الثاني: علوم الشريعة الغرّاء.
* الفصل الثالث: العلوم التجريبية.
* الفصل الرابع: الإنسانيات.



# الفصل الأول

## الأبعاد العلمية لدى الإمام الصادق

* موارد علم الإمام الصادق عليه السلام.
* ظواهر علم الإمام الصادق عليه السلام.
* أثر تلامذة الإمام في انتشار علم الإمام.





# موارد علم الإمام الصادق



يبدو أن علم الإمام الصادق ذو شقين أساسيين:

١ـ علم كسبي توارثه من مصادر آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ـ علم لدنيّ، هبةً من الله تعالى مُنح به هو والأئمة الطاهرون تبعاً لإكمال متطلبات رسالة السماء، باعتبار الإمامة امتداداً للنبوّة.

والعلم الوراثي الكسبي تصرح به الروايات المعتبرة عن الأئمة عليهم السلام، وقد يكون هذا العلم مخزوناً، يصل إلى الإمام لدى قيادته للأمة؛ أي عندما ينصّ عليه بالإمامة، فيتعين إماماً للناس.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: **«إن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإن الناس ليحتاجون إلينا، وإن عندنا كتاباً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخطّ علي عليه السلام، صحيفة فيها كل حلال وحرام، وأنكم لتأتون بالأمر، فنعرف إذا أخذتم بهن ونعرف إذا تركتموه»**[1].

وهذه حقيقة يؤكدها الإمام الصادق منذ عهد أمير المؤمنين عليه السلام، حتى نهاية عصر الأئمة المعصومين، يقول الإمام:

(١) الكليني: الكافي ١/ ٢٤٢.

**«إن علياً كان عالماً، والعلم يتوارث، ولن يهلك عالم إلا بقي من بعده من يعلم علمه، أو ما شاء الله»**(١).

وأما ما ذهب إليه الأستاذ محمد جواد فضل بأنه: قد لا يتجاوز المعقول بالقول بأن الإلهام والكشف أحد مصادر علم الإمام التي يستمد منها، بعناية من الله ولطف»(٢).

فقد لا ينطبق على الأئمة وحدهم، وإنما هو عام في رحاب الفلاسفة والنوابغ وذوي الأشراف في النفس والروح، وقد يتواجد عند العرفانيين، في الأحساس والإدراك، وهذا وحده لا ينبغي أن ينضمّ إلى موارد علم الإمام عليه السلام، لأنه ينبع من مصادر قد تخطئ وقد تصيب، فهي من المتحوّل الذي ليس له قاعدة، وعلم الإمام من الثابت الذي لا يتحوّل، ومن النوع الذي يتسم بالشفافية الصادقة التي لا تتكدر، وما سوى هذا فهو تابع للحالات المتقلبة في ذاتية الإنسان.

وأمّا العلم اللدنيّ، وهو علم الموهبة، فهو لطف إلهي بعيد عن تلك الملاحظ الأولية في التكسب والتعليم والمباحثة والمدراسة، وهي خصوصية يهبها الله لمن شاء من عباده الصديقين، وكان الأئمة عليهم السلام أولهم.

وليس ما نقوله من الغلو والمبالغة في شيء، فليس هذا منهجنا على الإطلاق، وإنما هو الواقع المشاهد دون القول الجزاف.

وليس هو من علم الغيب اختصاصاً، ولكنه من علم الغيب إفاضةً، وشتان بين الاختصاص والإفاضة، فعلم الغيب بحدّ ذاته، مما يختص به

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٢١.

(٢) محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق ٩٣.

الله وحده، فهو كصفة ذاتية لله ﷻ، وغيـره كحالة ممكنه يخص بها الله من يشاء من رسله وأصفيائه.

وعلم الغيب بالملحظ الأول عبارة عن رصد حقائق الأشياء تلقائياً، والحديث عن الأحـداث بلغة قاطعة فـوق المنظور الاعتيـادي للأمور، باعتبارها واقعة حقيقة دون شك، وهذا ما يختص به الله سبحانه وحده.

ولكن الله ﷻ قـد أخبـر نبيه بجـزء من علـم الغيب فيمـا مضى ومسـتقبلياً، كمـا ورد ذلك فـي القرآن العظيـم، كالحديـث عن خلق آدم، وقتل قابيـل هابيل، وقصة نوح والطوفان، وحديـث إبراهيم وقومه والأصنام والكواكب والهجـرة وبناء البيت، وضيـف إبراهيم المكرمين، ونبأ عاد وثمود، وقصص موسى وفرعون، وحياة عيسى ويحيى والأنبياء الآخرين ممن سلفوا.

وتحدث القرآن غيبياً عن غلبة الـروم وغلبها، وعن فتح مكة، وعن انهزام الجمع، وعن انتصار المسلمين في زمن مستقبلي.

وكما كان هـذا أمراً واقعـاً كان غيـره ممكناً أيضاً، فـالله تعالى قد اختص الأنبياء والنبي محمداً بالذات، بإيحاء كثيـر من علم الغيب، ولا اسـتحالة عقلية من أن يكـون النبي ﷺ قـد أفاض بذلـك على أمير المؤمنين علي عليه السلام، والإمام علي أفاضهـا على المعصوم من ولده، وإذا أمكن هذا عقلاً، فلا مانع من تحققه استقراءً.

وكان الإمام علي أمير المؤمنين دقيقاً في الردّ على من نسب له علم الغيب، فقال: «ليس هو بعلم غيـب، وإنما هو تعلمٌ من ذي علم.. وإنما علم الغيب علم الساعة، وما عدّده الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾.

وما سوى ذلك، فعلم علّمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتضطم عليه جوانحي»[١].

وقد سئل الأئمة عن هذه الظاهرة لديهم، فكانت الإجابات متقاربة، يتمم بعضها بعضاً، فعن عمّار الساباطي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ قال: لا، لكن إذا أراد أن يعلم الشيء، اعلمه الله ذلك»[٢].

وهنا نكتة دقيقة، أن الإمام نفى عنهم علم الغيب ذاتياً، ولم ينفه عنهم عرضياً، وأثبته للإمام إذا اقتضت الضرورة الدينية ذلك.

وعن معمّر بن خلاد، قال: سأل أبا الحسن عليه السلام، رجل من أهل فارس، فقال له: أتعلمون الغيب؟ فقال: قال: أبو جعفر عليه السلام: «**يبسط لنا العلم فنعلم، ويقبض عنا فلا نعلم**». وقال: سر الله عز وجل، أسره إلى جبرئيل، وأسره جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسره محمد إلى من شاء»[٣].

وربما استنكر الإمام الصادق عليه السلام إضافة علم الغيب ذاتياً إلى الأئمة عليهم السلام، حتى لا يكون هناك غلو أو إفراط في التقدير.

فعن الإمام الصادق: أنه خرج إلى مجلسه يوماً وهو مغضب، فلّما أخذ مجلسه قال: «**يا عجباً لأقوام يزعمون إنّا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلا الله عز وجل، لقد هممت أن أضرب جاريتي فلانة، فهربت مني، فما علمت في أي بيوت الدار هي**»[٤].

---

(١) محمد عبده: شرح نهج البلاغة ٢٣٩، طبقة دار الأندلس.
(٢) الكليني: الكافي ١/ ٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٢٥٦.
(٤) المصدر نفسه والصفحة.

هذا الطرح من الأئمــة يوحي صراحة، أن علم الغيــب خاصة الهية، ولكن الله قد يفيض من هذا الرافد على رســوله، ورســوله يفيضه على أهل بيته، وأهل بيته قد يتحدثون بجزء منــه بضرس قاطع، فينبئون عن الأحداث المستقبلية بلغة الحتم، لأنهم استمدوا ذلك من النبي ﷺ أباً عن جدّ، وقد تقتضي المصلحة نشره، وعدم التكتم عليه، وذلك لإظهار الحق، أو صدّ الباطل، أو التحذير من الفتنة، أو حقن الدماء.

وقد يقتضي مقام الإمامة فرض ذلك لكشــف الشــبه، ودفع الظنون، ودرء الإشــكاليات، وقد يكون لتطمين اتباع أهل البيت، وســلامتهم من الضلال والانحراف، والحرص عليهم من الجري وراء المظاهر الخادعة، والإبقاء عليهم من التداعي والاستجابة للحركات الدامية.

لقد سئل الإمام عن محمد ذي النفس الزكية، فقال:

**«إن عندي لكتابين فيهما اسم كل نبي وكل ملك يملك لا والله، ما محمد بن عبد الله في أحدهما»**[1].

وهنا ينســب الإمام إخباره بهذا الشــأن إلى كتاب فيه أسماء الأنبياء والحاكمين، بل إلى كتابين ليس في أحدهما اسم محمد النفس الزكية، ولا مانــع من هذا شــرعاً وعرفاً وعقلاً، فهــو يزن بهــذا الميراث ملامح وأســماء القوى الفاعلة في عصره وســواه، لانتقاء الســلوك الأمثل على بصيرة من الأمر.

(١) محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات ٤/ ٤٥.

والإمام الصادق يؤكد حقيقة علمه المتوارث بالشكل الآتي: فقد قال لسدير الصيرفي: «**اعلم أن علم الأنبياء محفوظ في علمنا، مجتمع عندنا، وعلمنا من علم الأنبياء. فأين يذهب بك؟ قلت: صدقت، جعلت فداك**»[1].

وليس علم الصادق من قبيل الفراسة أو الحدس والتخمين كما ذهب إلى ذلك الأستاذ محمد أبو زهرة في كثير من تعليقاته، فهو يعبّر عن إخبارات الإمام الغيبية بكونها من قبيل الفراسة الصادقة[2].

أو أن الإمام في إبدائها من أشد الناس فراسة وألمعية، وأقواهم يقظة حسٍ، وقوة إدراك[3].

وقد يميل إلى أنها نوع من الحدس والتخمين[4].

أو أنها أقوال تجري على لسانه من غير ادعائه عم الغيب والتحدي به، إذ هو ليس علماً ولكنه أشبه ما يكون بالمصادفة المكررة، وفي الأحيان الكثيرة لا يكون قاصداً لمعناها، بل تجري على لسانه من غير إرادة[5].

هذه الافتراضات الضبابية لا تمثل عنصراً موضوعياً في حديث الأستاذ أبو زهرة، وهو العالم الجليل، ولكنها صادرة عن عدم إيمانه بخصائص الأئمة ومميزاتهم. وإلا فبماذا يفسر الأخبار الغيبي إذا كان الإمام غير قاصد له، وكيف تجري على لسانه دون إرادة وهو يريدها بالذات.

---

(١) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٥٤.

(٢) محمد أبو زهرة: الإمام الصادق ٥١.

(٣) المرجع نفسه: ٨٤.

(٤) المرجع نفسه: ٥١.

(٥) ظ: محمد أبو زهرة، الإمام الصادق ٥٢.

يقول الأستاذ محمد جواد فضل الله: «**وأين هذا من النظرة العلمية المتجردة، والبحث الموضوعي الأمين، وأي استحالةٍ في أن يكون الإمام الصادق وغيره من الأئمة قد اختصهم النبي ﷺ بعلم تلقاه من ربه، يتوارثونه من أجل أن يكون لهم: ما يؤكد حقهم في تولي زمام القيادة العامة للامة دون غيرهم**»[1].

ويرى الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«إن الحق الثابت الصحيح الذي ليس غيره من حق ولا من صحيح سواه، أن ما ذكره الإمام الصادق: هو إخبار بالغيب قطعاً وبلا مواربة أو تردد، وليس في ذلك ما يثير الغرابة والعجب، أو ينطوي على المبالغة والمغالاة، لأنه الغيب المأثور عن أصدق الواقفين عليه والمخبرين به، وهو نبي الله الأعظم ورسوله الأكرم ٢ وقد دونه كما سمعه منه أخوه الصادق المصدق علي بن أبي طالب، ثم تداول ذلك المدون أولاده الثقات الصادقون سلام الله عليهم أجمعين.

أما الحدس والفراسة والمصادفة والتخمين ـ وقد تكرر ورودها في كلام الشيخ أبي زهرة ـ فلا علاقة لها بما نحن فيه من علم الغيب النبوي، بل لا دخل لها في الموضوع في قليل أو كثير، لأنها مفردات لفظية قد تصلح للاستعمال أثناء الحديث عن الأذكياء والعباقرة من البشر، ولكنها لا تنسجم مع ما يعرضه جوهر الدين واصل الشرع من الإيمان المطلق بعلم الأنبياء والمرسلين الذي يشاء الله تعالى اطلاعهم عليه، كما نص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[2].

---

(١) محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ٦٣ ـ ٦٤.

وأصل هذه الحقيقة التي لا يعترضها ريب قول أمير المؤمنين الإمام علي: «**ألا وإنّا أهل البيت؛ من علم الله علمنا، وبحكم الله حكمنا، ومن قول صادق سمعنا، فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، معنا راية الحق، من تبعها لحق، ومن تأخر عنها غرق**»[1].

وقد ربط الإمام علي عليه السلام بين العلم الذي يحملونه وبين الهداية، إذ هما متلازمان، فمن عنده العلم الناصع بأدلته وبراهينه وخطوطه كافة، فاتباعه يوجب المعرفة بحقائق الأشياء، سيما وأن مصدره الله تعالى، تلقائياً بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وآله، أما من لا علم لديه فلا هداية معه.

والإمام الصادق عليه السلام في الذروة من أعلام الهدى في قدرته العلمية التي فاقت حدود الإحصاء في الاستيعاب والموضوعية والمنهجية، دون الاتكاء في ذلك كله على الأساتيذ والشيوخ، لأنه ليس بحاجة إلى ذلك، ومن كان علمه من علم رسول رب العالمين فهو في غنى عن الآخرين.

والإمامية لا تستكثر أي إمداد تصاعدي في العلم الموهبي، وكذلك ذوو النظر العقلي من أهل الإسلام، فهم يرون ذلك أمراً طبيعياً لا عسر معه، وقد تحدث عنه الأئمة عليهم السلام، وهم يقرون مواردهم العلمية.

روى عبد الله النجاشي قال: كنت في حلقة عبد الله بن الحسن، فقال: يا ابن النجاشي؛ اتقوا الله، ما عندنا إلا ما عند الناس.

قال: فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فأخبرته بقوله، فقال: «**والله إن فينا من يُنكت في قلبه، ويُنقر في أذنه، وتصافحه الملائكة**» قلت: اليوم أو كان قبل اليوم؟

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٦٧.

فقال عليه السلام: اليوم والله يا ابن النجاشي[1].

ولا أدلّ على ذلك من هلع الطغـاة، وملاحقة الجبابرة، وهم يجدون في الإمام ظاهرة فريدة، عسـى أن يجدوا عائقاً يحـول دون هذا الظهور العلمي، ولكن أنى لهم ذلك، والإمام يصـدر في علمه عن ذلك المعين الذي لا ينضب.

كان المنصـور يتعقب الإمـام الصادق علميـاً، كما تعقبه سياسـياً، عسى أن يحقق شـيئاً يدل على العجز العلمي فيما يخطط، ولكن الأمر يخرج بغيـر النتائج المترقبة بنـاءً على المقدمات المعقـدّة التي أبرمت التآمر الفاضح، إذ يبـرز الإمام ألـق الجبين في تحقيق السـبق والنصر مما يتلاشـى معه الغرور المطبق، وينجم عن ذلك الشجى المرير الذي يعتـرض حلاقيم الطغاة، وهم في تخبط عشـوائي يناقـض ما يعتقدونه داخلياً في الإمام.

فعن أبي حنيفة رضي الله عنه قـال: ما رأيت أفقه من جعفـر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إلي فقال: يا أبا حنيفة: إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد، فهيء له من المسـائل الشـداد. فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلـي أبو جعفر وهـو بالحيرة فأتيتـه، فدخلت عليـه، وجعفر بن محمد جالس عـن يمينه، فلمـا بصرت بـه دخلتني من الهيبـة لجعفر بن محمد الصـادق ما لـم يدخلني لأبي جعفر، فسـلمت عليـه وأومأ إليّ فجلسـت، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هـذا أبو حنيفة، فقال جعفر: نعم، ثم اتبعها: قـد أتانا، كأنه كره أن يقول بـه قوم انه إذا رأى الرجل عرفه.

---

(١) الأربلي: كشف الغمّة ٢/ ٤١٦.

ثم التفت المنصورُ إلي، فقال:

يا أبا حنيفة ألقِ على أبي عبد الله مسائلك، فجعلت القي عليه، فيجيبني، فيقول: انتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا. فربما تابعهم، وربما خالفهم جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة.

ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا: أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس[1].

وليت أبا حنيفة قد أثبت في حديثه هذه المسائل الأربعين: ودوّن أجوبتها، لأوقفنا على نموذج قديم من الفقه المقارن منذ عهد مبكر.

وثمة حقيقة أخرى، أن طبقة من العارفين اتجهوا صوب الإمام الصادق بغية الوصول لمآخذ العلم الإلهي، عسى أن يفاض عليهم رشح من هذا العلم النقي الخالص دون وعثاء التكلّف والعنت في الطلب، وكان عنوان البصري ـ وهو من السالكين ـ قد اندمج كلّياً في هذا الاتجاه، وسأل الله أن يعطف عليه قلب الإمام ويرزقه من علمه المستفيض.

قال له الإمام الصادق: «ليس العلم بالتعلم؛ إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم، فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك. قلت: يا أبا عبد الله، ما حقيقة العبودية؟

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٧.

قال الإمام عليه السلام: ثلاثة أشياء، أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله، يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله تعالى ملكاً، هان عليه الأنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره، هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة؛ هان عليه الدنيا وإبليس والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزّاً وعلوّاً، ولا يدع أيامه باطلاً، فهذا أول درجة التقى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

قال الإمام عليه السلام: أوصيك بتسعة أشياء، فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى. والله أسأل أن يوفقك لاستعماله.

ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها، وإياك والتهاون بها.

قال عنوان البصري: ففرغت قلبي له، فقال عليه السلام:

**«أما اللواتي في الرياضة، فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه، فإنه يورث الحماقة والبَلَه. ولا تأكل إلاّ عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً، وسم الله، واذكر حديث الرسول ؟: «ما ملأ أدمي وعاءً شراً من بطنه، فإن كان ولا بد، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».**

(١) سورة القصص: ٨٣.

وأما اللواتي في الحلم، فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فاسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول، فالله اسأل أن يغفر لك، ومن وعدك بالخفاء فعده بالنصيحة والرعاء.

وأما اللواتي في العلم؛ فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ الاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً»[1].

في هذا المنحى من التوجيه الهادف، نجد الإمام عليه السلام يؤكد: أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده الأولياء، ولا شك أن علم الإمام عليه السلام من هذا الجنس.

ونلحظ الإمام في هذه الشذرات الثمينة يراعي مقتضى الحال..

فيضيف لطالب العلم هذا وهو من السالكين وصايا نادرة واقعية في رياضة النفس، ومحاولة الحلم، ومتابعة العلم، وكلها تصب في رافد العلم الإلهي، فلا علم بلا تقوى، ولا علم بلا حلم.

(١) عباس القمي: الكنى والألقاب ٢/ ٧٨ وما بعدها، نقلاً عن بحار الأنوار.



# ظواهر علم الإمام الصادق (عليه السلام)



يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وعندنا أهل البيت أصول العلم وعراه وضياؤه وأواخيه»(١).

هذا التقرير باستيعاب أهل البيت عليهم السلام لأصول العلم وجذوره وإشعاعه ومواصلاته، يكشف أن لهذا العلم مصادر فوق حقيقة الأشياء، وهو ما يمتاز به علم الأئمة المعصومين دون سواهم، وبذلك نحكم عليه بداهةً بأنه غير خاضع لمقاييس التعليم التقليدية، فالإمام لم يحضر حلقة دروس العلماء، بل حضر العلماء حلقات دروسه، ولم نعهد له أساتذة أو شيوخاً كما هو الشائع لدى الدارسين، ولم يتدرج بمعلوماته من الأسهل إلى الأصعب، ومعلوماته في شبابه وكهولته وشيخوخته كلها حلقة واحدة مفرغة، لا تفاضل بين أزمنتها، كما هو شأن العلماء في الأخذ المسلكي النظامي، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أبعاد هذا العلم ليشمل الخوارق ويتحدى نواميس الكون، فعن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيّ شيء هو العلم عندكم؟ قال الإمام:

(١) الشيخ المفيد: الاختصاص ٣٠٩.

«ما يحدث بالليل والنهار، والأمر بعد الأمر، والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة»[١].

هذا الاستغراق الشمولي العريض يوحي بعدم إحاطة الفكر التقليدي بحيثيات هذا العلم، ويصرح بالبعد الغيبي الذي يمدّ روافده بهذه الموسوعية الشامخة، فلا يتلكأ في مسألة، ولا يغفل عن حادثة، ولا يقاس بنظير يشاكله أو يجانسه أو يدانيه؛ وليس في هذا المنحنى أية إشكالية عقلية بعد قول الإمام: «إن الإمام إذا شاء أن يعلم علم»[٢].

فأنى يعلم الإمام؟ وكيف يعلم الإمام؟ وما هي الطرق الموصلة لهذا العلم؟

إنه يشير إلى ما يفاض عليه من الغيب المجهول، ولا يتردد لحظة في التأكيد على هذه الظاهرة، فعن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الذي يسأل الإمام وليس عنده فيه شيء من أي يعلمه؟ قال عليه السلام: «ينكت في القلب نكتاً، أو ينقر في الأذن نقراً»[٣].

وهذا النوع من العلم لا يتوفر في النظر الفعلي إلاّ للإمام المعصوم، فهو ظاهرة لم تسبق، وبادرة لا يحيط بها أحد.

لهذا كان ما يدور من حديث أهل البيت في الدرجة القصوى من الصعوبة إدراكاً، لا من حيث مضمونه وطريقة عرضه، فهو مفهوم بيسر وسماح، بل من حيث روافده وموارده وتحمّله في شتى الظروف الدقيقة والنوازل الحادثة، لأن فيه اختراقاً هائلاً للحواجز المألوفة، وخروجاً

---

(١) محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات ٣٢٥.

(٢) الكليني: أصول الكافي ٢٥٨/١.

(٣) محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات ٣١٦.

عن الإدراك المتداول، لهذا قال الإمام الصادق نفسه: «**إن حديثنا صعبٌ، مستصعبٌ، شريف، كريم، ذكوان، ذكي، وعرٌ، لا يحتمله ملك مقرّب، ولا نبي مرسل، ولا مؤمن ممتحن. قيل فمن يحتمله؟ قال: من شئنا**»[١].

بينما نجد الإمام الباقر من ذي قبل يعالج هذا الحدث العلمي بمنظور آخر فيقول: «**إن حديث آل محمد صعبٌ مستصعبٌ، ثقيل، مقنع، أجرد، ذكوان.. لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، أو مدينة حصينة**»[٢].

وهذا التقدير لا يختلف بعائديته عما تحدث به الإمام الصادق فيما عرضت، لذلك نجده يوصي أولياءه بالاضطمام عليه، والحفاظ عليه إلاّ على أهله، فيقول: «**اقرأ موالينا السلام، وأعلمهم أن يجعلوا حديثنا في حصون منيعة، وصدور فقيهة، وأحلام رزينة، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما الشاتم لنا عرضاً، والناصب لنا حرباً، أشد مؤونة من المذيع علينا حديثاً عند من لا يحتمله..**»[٣].

وهذه الأحاديث في برمجتها علمياً ينبغي أن ترصد من خلال ثلاثة معايير، من أجل فهمها وأدراكها وتسييرها:

**الأول:** أن هذه الصعوبة تتمثل في انتظام علمهم عليهم السلام في قلوب واعية وعقول مدركة تحتفظ في هذا العلم مخزوناً إلاّ على أهله، فإشاعته في غير أهله من الجهلة والسطحيين يشكل خطورة مركزية عليه، إذ قد يتخذ ذريعة لإنزال المكاره والأضرار في الأئمة والأولياء، وقد يتفوه به غير حَمَلته ممن لا يطيقون حمله، ولا يفقهون موقعه

---

(١) محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات ٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢١.

(٣) الشيخ المفيد: الاختصاص ٢٥٢.

من الرمزية والتعريض، أو الحقيقة والمجاز، أو التصريح والكناية، أو أساليب البلاغة العربية، وقد يروى دون دراية، وقد يهذّ هذّاً ساذجاً.

الثاني: ومن الطبيعي أن التعقل لعلم الأئمة، ورعاية أصوله في التداول العلمي، أفضل من روايته دون إدراك في لحن القول، ومخارج الكلام، هذا المعيار هو الذي أشار إليه الإمام الصادق بقوله:

**«حديث تدريه خيرٌ من ألفٍ ترويه، ولا يكون الرجل فقيهاً حتى يعرف معاريض كلامنا، وإن الكلمة من كلامنا لتنصرف على سبعين وجهاً، لنا من جميعها المخرج»**[1].

والإمام يكرر هذا المعنى، ويدعو إلى الإدراك لوجوه كلامهم عليهم السلام، لأنه يحمل على وجوه متعددة، وهذا ما خاطب به مؤمن الطاق محمد بن النعمان بقوله: **«أنتم أفقه الناس ما عرفتم معاني كلامنا، إن كلامنا ينصرف على سبعين وجهاً»**[2].

الثالث: إن حديث الإمام في الأحكام والتشريع والعقائد، وخصائص الإمامة، وعالم الغيب، يخضع للمعيارين السابقين، وأمّا في نشره للعلوم الإنسانية والتجريبية فيمكن أن يقال:

«إن الإمام الصادق عليه السلام يشرح نظرياته شرحاً مبيناً واضحاً، ويعرضها عرضاً علمياً سهل الفهم والإدراك، بحيث تستطيع الأذهان تقبله واستيعابه، فالقوانين العلمية التي أتى بها، ساقها بأسلوب واضح، وصاغها بعبارات لا تحتمل اللبس، إدراكاً منه لحقيقتين هما:

---

(١) الصدوق: معاني الأخبار ٢/٣.

(٢) الشيخ المفيد: الاختصاص ٢٨٢.

إن انتشار العلم رهنٌ بالقدرة على فهمه، وإن قوانين العلوم تبقى مع الدهر، ولا تنتهي بوفاة واضعيها»[١].

أمّا حدود علم الإمام فبابٌ واسع المسلك في إحاطته ووجوهه، وقد تحدث عنه الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام حينما سئل عن مبلغ علمهم، فقال: «**مبلغ علمنا ثلاثة وجوه: ماضٍ وغابر وحادث. أمّا الماضي فمُفسّرٌ، وأمّا الغابر فمزبور، وأمّا الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الأسماع، وهو أفضل علمنا، ولا نبيّ بعد نبينا**»[٢].

وهذا الاحتراز أن لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لئلا يظن السائل وسواه فيهم النبوة، ولا يغالي بهم الآخرون، وهو احتراز ذكيّ دقيق.

وظاهرة أخرى؛ أن علم الإمام لم يكن بحاجة إلى سدّ الذرائع في الرأي والاستحسان والقياس، فقد وهبهم الله من العلم ما طبّق صداه المشرق والمغرب، وكأنه إجماع قائم بذاته لا يختلف فيه اثنان.

روى بكر بن بكر الصيرفي ما نسجل معه الشاهد، إذ تقدم ما يقاربه في المبحث الآنف، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الرأي والقياس، ولا إلى أحد من الناس.. وإنكم لتأتون بالأمر فنعرف إذا أخذتم به، ونعرف إذا تركتموه**»[٣].

وهذا النوع من العلم في نهاية الرواية يتحدث عن المناخ الغيبي في ظل علم الإمام، وهذا لا يمانع ـ كما تقدم ـ من اختصاص الله بالغيب وعلم الغيب، ولكن لا ضير أن يطلع بعض عباده بمشيئته على

---

(١) جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٧٩.

(٢) محمد بن الحسن الصفّار: بصائر الدرجات ٣١٩.

(٣) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٦٢/١ وانظر مصدره.

جزء من علم الغيب، فيكون ذلك علماً من ذي علم، وهو ما نطق به القرآن العظيم: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ..﴾[1].

والمعنى في الآية الأولى: أن الله وحده هو عالم كلّ غيب يختص به، فلا يطلع على الغيب ـ وهو مختصٌّ به ـ أحد من الناس.

والمفاد في هذا هو السلب الكليّ، أي لا يظهر على كلّ غيبه أحداً.

وفي الآية الثانية في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إستثناء من قوله (أحداً) في الآية الأولى، و(من رسول) بيان لقوله (من ارتضى) فيفيد أن الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختصّ به[2].

فهو يتعالى بعلم الغيب بذاته أصالة، ويعلم غيره ـ إذا شاء ـ تبعاً، وإذا سلمنا بهذا، فلا مانع أن يفيض الله من هذا الغيب على النبي، والنبي يفيض على الإمام، وذلك لإكمال الرسالة بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3]. وهذا العلم عند أئمتنا عليهم السلام، علمٌ من ذي علم، للغاية التي بعث بها الأنبياء باعتبار الإمامة امتداداً حتمياً للنبوة.

والظاهرة الإجماعية في حياة الأئمة عليهم السلام أنهم لم يهاجروا في طلب العلم، ولم يعركوا حياة الاغتراب بسبيله، كما هو شأن طلاب العلم في كل زمان ومكان، وما درسوا عند أحد، ولا أخذوا من أحد، وإنما أخذ عنهم الناس، وأفاد منهم العلماء، وإليهم تشدّ الرحال للاستزادة

---

(١) سورة الجنّ: ٢٦ـ٢٧.

(٢) ظ: الطباطبائي: تفسير الميزان ٥٣/٢٠ بتصرف.

(٣) سورة السجدة: ٢٤.

من الفضل والعلم، ونحوهم تتوجه الركبان لكسب المعارف وصقل المواهب وبلوغ الآمال. والإمام لا يطالب بدليل على ما يقول، فقوله هو الدليل لأنه السنّة، والسنّة يستدلّ بها باعتبارها أصلاً من أصول التشريع، ولا يستدلّ عليها بشيء؛ وليس رأي الإمام ناتجاً عن عملية استنباطية تقوم على أساس الاجتهاد أو النظر العقلي، وإنما هو العلم الموروث والعلم الموهبي غير المكتسب.

ولم تكن الترجمة شائعة الأبعاد إلاّ بعد عصر الإمام الصادق، فلا يمكن القول أنه أفاد شيئاً من الأثر اليوناني أو الإغريقي أو الفرعوني أو الزرادشتي، وذلك للفاصلة الزمنية بين شيوع بعض آثارهم وعهد الإمام عليه السلام، هذا في بعض العلوم التجريبية والفلسفية، فكيف إذن الحال بما لا عهد لهم به من أصول الدين، وعلوم الشريعة المقدسة، ومذاهب علم الكلام، وإذا ثبت هذا وهو ثابت دون ريب، كان ما تقدم من تقرير موضوعي هو الأصل.

ولا أدلّ عليه من التعددية العلمية عند كل إمام، حتى كأن كل فن من الفنون هو تخصصه وحده، ويشهد عليه منطق الاستقراء التاريخي.

أمّا الذكاء والعبقرية عند الإمام الصادق فهما ظلان ملازمان له منذ سنٍّ مبكّرة حينما كان تلميذاً في مدرسة أبيه الإمام الباقر عليه السلام. مضافاً إلى تمتعه بقدرة إدراكية خارقة، شأن الأئمة عليهم السلام، ولا أدلّ على هذه الظاهرة من مئات الشواهد التطبيقية التي اقترنت بمسيرة الإمام العلمية، ورافقت تمييزه بين شتى الأبحاث والوصول معها إلى نتائج صحيحة ترتكز على مقدمات صحيحة، وهذا شأن كل ما هو مبتكر وأصيل في الأفق المعرفي، وهناك عدة نماذج تطبيقية تؤكد هذا الزعم أختار أحدها:

حملت للإمام الصادق وهو صبي مميز كرة مصغرة عن الكرة الأرضية مصنوعة من الخشب، مركبة على قاعدة مستديرة في سمائها مجموعة من النجوم كما تصورها بطليموس.

«وكان بطليموس قد قسم النجوم التي ترى بالعين المجردة إلى ثماني وأربعين صورة، وكان هذا هو التقسيم الشائع لدى علماء الفلك قبل بطليموس، غير أنه أتمّه ووضحه.

أمّا المجموعات الفلكية الثابتة - حسب رأي بطليموس - فهي ثماني وأربعون، ولكل منها صورته الخاصة وشكلها المعيّن. وقد صوّر هذه المجموعات حول الكرة، ودوّن عليها أسماءها باللغة المصرية القديمة.

وصوّر على الكرة نفسها اثنتي عشرة مجموعة من النجوم، من برج الحَمَل حتى برج الحوت، على حزام يطوّق الكرة. وكانت صورة الشمس تقع خلف الكرة بحيث تكشف عن دورانها حول الأرض ومن على منطقة البروج مرةً كل سنة، وصوّر على الكرة أيضاً القمر والسيارات الأخرى وهي تدور حول الأرض.

كانت هذه الكرة أول نموذج مصغّر للكرة الأرضية والسيارات الأخرى يراه جعفر الصادق عليه السلام، ومع أنه كان آنذاك في الحادية عشرة من عمره، فقد انتبه بذكائه المفرط إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيه بطليموس.

وفي هذا قال: إذا كانت الشمس تدور حول الأرض وتنتقل من برج إلى آخر في ثلاثين يوماً لتتم دورتها مرة كل سنة.. فما هو السّر إذن في غياب الشمس كل ليلة لتظهر في صباح اليوم الثاني؟ وإذا كانت الشمس

تستقر في كل برج شهراً واحداً، فلابد إذن أن نراها بصورة مستمرة فلا تغيب عنا كل مساء!

وكان نقد جعفر الصادق عليه السلام نقداً علمياً دقيقاً، فقام بتخطئة بطليموس في رأيه القائل بوجود حركتين للشمس، حركة في البروج الاثني عشر حول الأرض مرة كل سنة، وحركة حول الأرض مرة في كل يوم وليلة، ومن هنا ترى الشمس - حسب رأي بطليموس - تغيب عنا كل ليلة في المغرب لتظهر صباحاً من المشرق، وهي حركة يومية نسبها إلى الشمس.

ورأي الصادق عليه السلام أن هناك استحالة في التقاء هاتين الحركتين في آن واحد، لأن الشمس إذ تسير في منطقة البروج لا يسعها أن تترك هذا المسار لتدور حول الأرض مرةً كل يوم.

وفي ذلك الوقت كان قد مرّ على وفاة بطليموس ٥٦٠ سنة، ولم يكن أحد قد تنبه في هذه الفترة الطويلة إلى هذا المشكل، ولا كان أحد ليجرؤ على انتقاد رأي بطليموس أو تخطئته.

ولم يكن رأي بطليموس رأياً يمتنع على النقد أو المناقشة، كما كان شأن الآراء الفلسفية والدينية إذ ذاك، ولكننا نعتقد أنه كان هناك سببان أساسيان وراء انتشار هذا الرأي وذيوعه دون نقد أو اعتراض:

**الأول**: ما كان يتمتع به الأستاذ في القديم من منزلة عليا واحترام كبير، مما كان يورث التلاميذ اعتقاداً بأن الأستاذ على حقٍّ دائماً في كل ما يذهب إليه ويقول به من آراء.

**والسبب الثاني**: هو قلّة حفاوة الطلبة بالمسائل العلمية المعقّدة التي تحتاج إلى إمعان الفكر، وإجراء التجارب العلمية.

ومن الغريب أن جامعات الغرب لم تطرح بدورها رأي بطليموس على بساط البحث والنقد، شأنها شأن الجامعات والمدارس العلمية في الشرق. وكان جعفر الصادق أول من التفت إلى الخطأ والفساد في هذه النظرية وهو في سن مبكرة»[1].

وكان إدراك الإمام لاستحالة اجتماع حركتي الشمس كما تصورها بطليموس قد سبقت عصره بعدة قرون، إذ لم يستطع المناخ العقلي ـ آنذاك ـ إدراك أهمية ما اكتشفه الإمام في منظور علمي، وذلك لقصور الرؤية لدى الجيل الذي عاصر الحسّيات فحسب، فهو لا يولي لغيرها اهتماماً، إذ يتعذر فهمها موضوعياً.

وظاهرة أخرى في علم الإمام الصادق عليه السلام أنه علم تسلسلي عن آبائه عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى، فهو ليس من قبيل التعليم الجامعي في شيء، وليس هو من علم الأساتيذ والمشايخ في المدارسة والبحث الأكاديمي، بل هو ذلك العلم المتصل بالمصدر التشريعي مباشرة، يقول الإمام الصادق:

**«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول الله عز وجل»**[2].

والإمام الصادق يحاجج في هذا الملحظ، ويبرزه على المستوى الحواري. فعن سلام بن سعيد المخزومي، قال: بينما أنا جالس عند

(١) جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٩٣ وما بعدها.
(٢) الكليني: أصول الكافي ١/٥٣.

أبي عبد الله عليه السلام، إذ دخل عليه عبّاد بن كثير عابد أهل البصرة، وابن شريح فقيه أهل مكة، وعند أبي عبد الله عليه السلام ميمون القداح مولى أبي جعفر عليه السلام.

فسأله عبّاد بن كثير، فقال: يا أبا عبد الله في كم ثوب كفّن رسول الله؟

فقال الإمام: في ثلاثة أثواب؛ ثوبين صحاريين، وثوب حبرة، وكان في البُرد قلة، فكأنما ازورّ عباد بن كثير من ذلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن نخلة مريم J إنما كانت عجوة، ونزلت من السماء، فما نبت من أصلها كان عجوة، وما كان من لقاط فهو لون.

فلمّا خرجوا من عنده، قال عباد بن كثير لابن شريح: والله ما أدري ما هذا المثل الذي ضربه لي أبو عبد الله عليه السلام، فقال ابن شريح: هذا الغلام يخبرك فإنه منهم، يعني ميموناً، فسأله، فقال ميمون: أما تعلم ما قال لك؟ قال: لا والله، قال: إنه ضرب لك مثل نفسه، فأخبرك أنه وَلَدٌ من وِلْد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندهم، فما جاء من عندهم فهو صواب، وما جاء من عند غيرهم فهو لقاط[1].

وربما اعترض من لا حريجة له في الدين، ولا إثارة من علم، فينبري له الإمام الصادق صادعاً بالحقيقة. فقد سأله رجل عن مسألة فأجابه عنها، فقال الرجل: أرأيت إن كان كذا أو كذا ما يكون القول فيها؟ فقال عليه السلام: **«مَهْ، ما أجبتك فيه عن شيء، فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لسنا من رأيت في شيء!!»**[2].

---

(١) ظ: الكليني: الكافي ٤٠٠/١، المجلسي: البحار ٣٦٨/٤٧، القمي: الكنى والألقاب ٥٠/٣.

(٢) الكليني: أصول الكافي ٥٨/١.

وظاهـرة أخرى تحكـي عـن المستقبل، وتمثل الغيـب المجهول ـ بحثناهـا من وجـه فيما سـبق ـ ونبحثها هنـا من وجه آخـر، هذه الظاهرة ليسـت من قبيل التنبؤ الذي يخطئ ويصيب، وهي ليسـت من **(الباراسـايكولوجي)** في شـيء، لأن **(الباراسـايكولوجي)** يكون تنبؤه في الأحداث مبنياً على الظن الراجح الذي قـد يتحقق وقد لا يتحقق؛ بينما تشـكل هذه الظاهرة عند الأئمة بعامة، ومنهم الإمام الصادق عليه السلام حدثاً كائناً لا محالة، وشواهدها كثيرة.

كان الإمـام إذا رأى محمد بن عبد الله بن الحسـن **(النفـس الزكية)** تغرغرت عيناه، ثم يقول: «**بنفسي هو، إن الناس ليقولون فيه، وإنه لمقتول، ليس هو في كتاب علي من خلفاء هذه الأمة**»[1].

وكان الإمـام ينصح عبـد الله المحـض بشـأن ولديـه، ويطلب أن يأمرهما بالكفّ عن شأن الخلافة قائلاً:

«**إيهاً والله؛ ما هي إليك ولا إلـى ابنيك، ولكنها لهم - بنـي العباس - وإن ابنيك لمقتولان**» قال الإمام هـذا ونهض في مؤتمر الأبـواء، وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري، وقال: أرأيت صاحب الرداء الأصفر؟ ـ يعني أبا جعفر المنصـور ـ فقال له: نعم، فقـال: إنّا والله نجـده يقتله. فقال له عبد العزيـز: أيقتل محمداً؟ ـ مسـتغرباً الحـدث لأن المنصور بايع محمداً بالخلافة ـ فقال الإمام عليه السلام: نعم. قال: فقلت في نفسي: حسده وربّ الكعبة. قال: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما»[2].

---

(١) الأربلي: كشف الغمّة ٢/٣٨٧.

(٢) الأربلي: كشف الغمّة ٢/٣٨٦.

وهناك ما هو أعجب وأغرب من هذا، وقد تحقق بالفعل في شواهد كثيرة منتشـرة في الكافي والمناقب وكشـف الغمة وبحـار الأنوار، فقد عقد كل منهم فصـلاً متلئباً يحتوي شـتى الإخبـارات الهائلة، وهي لا تقف عند حدود، قـد يقرأ فيها الإمام نفس الإنسـان ويخبـره بما يريد أن يقول، وقد يضمر السـائل سـؤالاً فيبدأ الإمـام بالإجابـة عليه، وقد يتحدث عن الآجال والأعمار وساعة الموت، وقد يتكلم عن نوايا الغلاة وأصحاب النحل، فيرد هذا ويخطئ ذاك، وقد يخبر القادم عليه بما جاء به، وقد ينعى نفسـه لثقات أصحابـه، وقد يخبر بالحق الشـرعي الذي أرسـله مغيبون عنه رقماً وأسـماءً وعلامات، وقد يهدد بالدعاء أحدهم فيتحداه، فيستجيب الله دعاءه ويهلك ذلك المتحدي.. وقد.. وقد.. الخ.

وإني لأسـتطرف نموذجاً من هذا الباب، وكلـه طرائف ونماذج، قال هشـام بن الحكم: كان رجلٌ من ملوك أهل الجبـل يأتي الإمام الصادق في حجة كل سنة، فينزله أبو عبد الله عليه السلام في دار من دوره في المدينة، وطال حجه ونزوله، فأعطى أبا عبد الله عشـرة آلاف درهم ليشـتري له داراً، وخرج إلى الحج، فلما انصرف قال للإمام: جعلت فداك، اشـتريت لي الدار؟

قال: نعم، وأتى بصكٍّ فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اشـترى جعفر بن محمد لفلان بن فلان الجبلي له داراً في الفردوس، حدّها الأول رسـول الله، والحد الثاني أمير المؤمنين، والحد الثالث الحسـن بن علي، والحد الرابع الحسـين بن علي.

فلمّا قرأ الرجل ذلك، قال: قد رضيت جعلني الله فداك.

قال: فقال أبو عبد الله: إني أخذت ذلك المال ففرقته في ولد الحسن والحسين، وأرجو أن يتقبل الله ذلك، ويثيبك به الجنة.

قال: فانصرف الرجل إلى منزله، وكان الصكّ معه، ثم اعتلّ علة الموت، فلمّا حضرته الوفاة، جمع أهله، وحلّفهم أن يجعلوا الصك معه، ففعلوا ذلك، فلمّا أصبحوا غدوا إلى قبره، فوجدوا الصك على ظهر القبر مكتوباً عليه: «**وفى لي والله جعفر بن محمد بما وعدني**»[1].

بماذا إذن نعلل هذه الظاهرة، إلى جنب الظواهر الأخرى في علم الإمام وكيف نفسر حوادثها؟ ونظائرها كثيرة وأمثالها متواترة، وهي ليست حدثاً واحداً حتى نعلله بالصدفة، أو الحدس، أو الذكاء المفرط، أو الفراسة.

إن لهذا العلم مصدراً ليس مما نكتسب ونتعلم ونستفيد، إنه العلم اللّدني الذي أودعه الله الصفوة المختارة من عباده الصديقين.

قال المفضل بن عمر: كنا جماعة على باب أبي عبد الله عليه السلام، فتكلمنا بالربوبية، فخرج إلينا أبو عبد الله بلا حذاء ولا رداء، وهو ينتفض ويقول:

لا يا خالد، لا يا مفضّل، لا يا سليمان، لا يا نجم، بل عبيد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

فقلت: لا والله، لا قلت فيك بعد اليوم إلا ما قلت في نفسك»[2].

---

(١) ظ: ابن شهر آشوب: المناقب ٣/٣٥٩، الأربلي: كشف الغمّة ٢/٤١٨.

(٢) الأربلي: كشف الغمّة ٢/٤١٣.

وحينما كثر اللمح الغيبي في أحاديث الإمام، عزا الإمام علمه بذلك إلى القرآن الكريم، ليسدّ نوافذ الادعاء اللامعقول بوجوه المتطرفين.

فعن عبد الأعلى وعبيد بن بشير قالا: قال أبو عبد الله ابتداءً منه:

**«والله إني لأعلم ما في السموات والأرض، وما في الجنة وما في النار، وما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، ثم سكت، ثم قال: أعلمه من كتاب الله، أنظر إليه هكذا وبسط كفه، وقال إن الله يقول: فيه تبيان كل شيء»**[١].

ولا يشك أحد من المسلمين أن الإمام هو الوريث الشرعي لعلم الكتاب.

قال عليه السلام: **«إن الله بعث محمداً نبياً فلا نبي بعده، أنزل عليه الكتاب فختم به الكتب، فلا كتاب بعده، أحلّ فيه حلاله وحرّم حرامه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وفصل ما بينكم، ثم أومئ بيده إلى صدره، وقال: نحن نعلمه»**[٢].

وكما أحاط الإمام بعلم الكتاب، فقد أضاف إليه علم آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان يروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، والإمام الحسن، والإمام الحسين، والإمام زين العابدين، والإمام محمد الباقر عليهم السلام أجمعين ورواية هؤلاء، متصلة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وناهيك في هذه السلسلة الذهبية في الإسناد، وهذه الأسماء المشرقة في حياة الإسلام.

---

(١) المصدر نفسه: ٢/٤١٤.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

يقول ابن شبرمة: ما ذكرت حديثاً سمعته من جعفر بن محمد عليه السلام، إلا كاد أن يتصدع له قلبي، قال: «**حدثني أبي عن جدي عن رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم»، وأقسم بالله ما كذب أبوه على جده، ولا جده على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ويضاف إلى هذا مـا أفاض به الإمـام من حكم الأنبيـاء ووصاياهم وآدابهم ومواعظهم ونصائحهم، فأمدّ المسلمين بما غبر عنهم، وأحيا ما تقادمت به الأجيال عليهم في أنماط شتى من القيم والمثل العليا.

ومهما يكن من أمر، فظواهر علم الإمـام الصادق في كنوزه الثمينة، لا يستوعبه هذا العرض الإجمالي، لأنها كالبحر الذي لا تدرك سواحله، ولكنه غيضٌ من فيض.

(١) الكليني: أصول الكافي ٤٣/١.



# أثر تلامذة الإمام في انتشار علم الإمام



وكان من بركات مدرسة أهل البيت العلمية أن نشأ في رحاب زعيم هذه المدرسة الإمام الصادق آلاف الرواة والمحدثين والعلماء والمتكلمين والشيوخ وأئمة المذاهب ورؤساء الدين، يضاف إليهم أرباب التخصصات التجريبية في الطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والنجوم والكون وسوى ذلك في الفلسفة والجغرافيا والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع.

هذا التعدد في التخصص، وذلك التنوع في المعارف، يصوّر لنا حقيقتين مهمتين:

الأولى: هذا الزخم الهائل من التلامذة والطلاب الذين حدبوا على استثمار حياة الإمام العلمية، فمثلوا بين يديه مستفيدين، جعل بعض المؤرخين يتجاوز بعددهم الالآف؛ بينما اقتصر بعضهم على حصرهم بأربعة آلاف تلميذ.

ومعنى هذا أن هذا العدد الضخم قد تجاوز حدود الإحصاء كثرة، إلا أن ما بين أيدينا من مصادر يؤكد الرقم الأخير.

فالحافظ أبو العباس بن عقدة (ت ٢٣٠هـ) ألف كتاباً في ترجمة تلامذة الإمام، فكانت عدتهم عنده أربعة آلاف تلميذ.

وذكر شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي **(ت ٤٦٠هـ)** أكثر من ثلاثة آلاف راوٍ من تلامذته في الرجال.

وذكر جملة منهم الذهبي في سير أعلام النبلاء وتذكرة الحفّاظ.

وأكد على أبرزهم من المشهورين: أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء.

وترجم سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي **(ت ١٤١٣هـ)** لأكثر من ثلاثة آلاف راوٍ منهم في موسوعته الخالدة **(معجم رجال الحديث)** في ثلاثة وعشرين مجلداً، مع ذكر رواياتهم، وطرق إسنادها، وأعدادها، ومواضعها من كتب الحديث، مع التوثيق الدقيق، وكشف حال الراوي.

وترجم الأستاذ باقر شريف القرشي لثلاثة آلاف وستمائة واثنين وخمسين تلميذاً في المجلد السادس من موسوعته **(حياة الإمام الصادق)**.

ولم أجد فيما بين يدي من مصادر قديمة وحديثة، إلا ظاهرة الإشارة إلى الأعداد الهائلة من تلامذة الإمام الصادق وأصحابه في كل الفنون.

وأمّا ما أغفله التاريخ من تلامذة الإمام خوفاً ورهباً، بغضاً وكراهية، فحدّث ولا حرج.

ولا أعلم كتاباً من كتب الرجال عند الإمامية قد تخطى هذه الظاهرة، وللاستزادة في هذا المجال يُرجع إلى المصادر المطولة[1].

---

(١) ظ: على سبيل المثال لا الحصر: رجال الكشي، رجال النجاشي، رجال الشيخ الطوسي، رجال القهبائي، رجال بحر العلوم، رجال المامقاني، معجم رجال الحديث، خلاصة العلامة، حلية الأولياء، فهرست ابن النديم، تذكرة الحفاظ، النجوم الزاهرة.. وسواها.

الحقيقة الثانية: حرية الرأي والتفكير في مدرسة الإمام الصادق، فقد كان التنظيم الثقافي الذي أبدعه الإمام الصادق عليه السلام يمثل أكاديمية حرّة للبحث العلمي، لا سيما في قضايا الفكر المجرد، مما لم يتوفر في أية مدرسة علمية في عصره، وكأنه يعايش العصور المتحضرة التي أتاحت للطلاب حرية البحث والاختيار والتفكير.

لقد أرسى الإمام الصادق عليه السلام أساساً رصيناً للثقافة العامة، وهيأ لها أسباب الذيوع والانتشار، بحيث أصبحت نموذجاً أرقى لحرية الرأي قبل نهاية القرن الثاني الهجري، وقد اقتدت الفرق العقلانية المتنورة بهذا المنهج لا سيما المعتزلة.

وكانت المدرسة الجعفرية جريئة كل الجرأة حينما أعلنت مدارسة المسائل الدينية الصرفة جنباً إلى جنب مع المسائل الإنسانية الدنيوية، وكان أثر ذلك أن أصبح علماء الجعفرية في مختلف القرون يناقشون المسائل في شؤون الدنيا والدين، ويثبتونها بقوانين العلم ومبادئه.

وانتقلت هذه الطريقة فيما بعد من المذهب الجعفري إلى المذاهب الإسلامية الأخرى التي اجتهدت في إثبات قضاياها في ضوء الدلائل العلمية، أو هكذا حاول أصحابها تبعاً لمنهجية الإمام الصادق.

وكان مجلس الإمام الصادق عليه السلام ومدرسته يمثلان منبراً حرّاً جريئاً لتلامذة الإمام ومريديه، فلهم أن يسألوا عن كل شيء، ولهم أن يعترضوا، ولهم أن يعبروا عن آرائهم وأحاسيسهم بحرية تامة، ولهم ـ أيضاً ـ حق المناقشة وطلب الإيضاح بالقدر المعقول.

ولم يكن الإمام ليفرض على تلامذته رأياً معيناً، ولا كان يطلب منهم الإذعان لرأيه، ومع ذلك فقد كان الأمر دائماً ينتهي بإذعانهم،

بالنظر إلى الأسلوب العلمي الذي كان الإمام يتوسل به للتدليل على رأيه بالحجة الناصعة، والمنطق السليم، والبيان الرائق.

وكان الإمام الصادق عليه السلام يؤمن بما يقول، ويأخذ بالواقع لا بالمثاليات، ومن هنا إنتفت من دروس الإمام الصادق عليه السلام أي دعوة إلى قيام حكومة مثالية لا تتفق مع واقع الحياة في المجتمع البشري.

وقد أباح الإمام الصادق عليه السلام في مدرسته حرية البحث في جميع الموضوعات، واغتذت الثقافة الشيعية من هذه الحرية التي هيأت لها الذيوع والانتشار، وأقبل عليها الراغبون في حرية البحث والاستدلال(١).

وهنا نشير إلى أن تلامذة الإمام ليسوا على وتيرة واحدة في الأمانة والاستقامة وضبط النقل، ففيهم العدول والثقات، وفيهم الضعفاء والمجهولون، وفيهم من طلب العلم للآخرة، وفيهم من طلبه للدنيا. وهذا أمر طبيعي تفرضه إفرازات المجتمع الإنساني في طبقاته المختلفة.

ومهما يكن من أمر، فقد أبقى هؤلاء التلامذة تراث الإمام العلمي حياً نابضاً يجري في ميادين الأصالة.

وينبغي الإشارة إلى أن من بين تلامذة الإمام جمهرة كبيرة من الأعلام والأساتيذ الذين طبقت شهرتهم الدنيا، فكانوا سراجها وضياءها وبهاءها؛ وفي طليعتهم ولده الإمام الكاظم موسى بن جعفر (ت ١٨٣هـ) وأبو حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ) ومالك بن أنس إمام المذهب المالكي (ت ١٧٩هـ) والسفيانان الثوري وابن عيينة، وأضرابهم ممن ذكرنا سابقاً، أو سنذكرهم ضمن البحوث الأخرى.

---

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، ١٨٨ بتصرف.

وكان الإمام الصادق منهجياً في وضع تلامذته في الموقع المناسب، وكان ينتقي ويختار لكل فن رجالـه وأبطاله، يراعي فـي ذلك القابلية، والأولاع الخاصـة، والتخصـص الدقيـق، فأصحـاب القـرآن لعلـوم القـرآن، وأصحـاب الحديث للحديـث الشـريف، والمتكلمـون لعلم الكلام، وطلاب الفلسـفة لميادين الفلسـفة، ورجال الفقه للفقه، وهكذا بقية الفنون.

إن هذا التخطيط في توزيع الواجبـات العلمية على أربابها من ذوي التخصص، إجراء علمي عظيم، يشـيد جبهـة فكرية متطـورة لا تؤمن بالفرض والحتمية بل تحافظ على التوازن العلمي، وهذا من أهم أسرار نجاح مدرسـة الإمام في رعاية المناخ النفسـي لتربيـة تلامذته، وإعداد جيل متقدم ينسـجم تخصصه مع رغبات الذات، وفي ضوء هذا التوجه المحدد ينطلق كل دارس وباحث ومتعلـم، وهنا يبدع التلميذ من حيث اقتصاره على موضوع واحد يحيط بأبعاده كافة.

وكان هذا المنحى من أهم الظواهر الميدانية التي اتسـعت لانتشـار مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ولـم تكن هذه العناية من قبل الإمام بتلامذته وليدة الصدفة أو نتيجة ظرف راهن معين، بل هي أمر مقصود إلى في ذاته، ومخطط له مسـبقاً لمهمة أكبـر، فقد أوصى الإمـام محمد الباقر عليه السلام ولـده الإمام الصادق بتلامذته، بما يرويه الإمام الصادق نفسه:

**«قال: لما حضرت أبي الوفاة، قال: يا جعفر أوصيك بأصحابي خيراً، قلت: جعلت فداك، والله لأدعنهم والرجل منهم في المصر لا يسأل أحداً»**[1].

---

(١) الكليني: الكافي، ٣٠٦/١، المفيد: الإرشاد ٢٨٩.

وكانت إجابة الإمام دقيقة في بعدين أساسيين: البعد العلمي، إذ لم يبخل على أحد بشيء من القلم والبعد الاقتصادي إذ لم يبخل على أحد منهم بشيء قط، وفي هذين تحقيق لقوله: «**والرجل منهم يكون في المصر فلا يسأل أحداً**» فضمن الإمام السؤال المعنوي والمادي فيما نفذه من وصية أبيه الباقر عليه السلام.

وقد أكّد الإمام ـ بادئ ذي بدء ـ على تلامذته بالاتجاه نحو العلم، وحثهم عليه، وأدّبهم به، في جملة من أحاديثه الشريفة:

١ـ اطلبوا العلم فإنه رأس الفضل[1].

٢ـ طلب العلم فريضة على كل مؤمن، فاطلبوه ولو في الصين، فإن قليلاً من العلم، أفضل من كثير من العبادة[2].

٣ـ العلم حياة القلوب، ومصابيح الأبصار، توصل به الأرحام ويعرف به الحلال والحرام، يعطيه الله السعداء ويحرمه الأشقياء[3].

٤ـ وددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط على أن يتفقهوا[4].

٥ـ العلماء أمناء، والأتقياء حصون، والأوصياء سادة[5].

٦ـ إن العلماء ورثة الأنبياء، وذاك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها، فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم عمن تأخذونه، فإن فينا أهل البيت

---

(١) الكليني: أصول الكافي ٣٠/١.
(٢) عارف تامر: الحكم الجعفرية ٦٣.
(٣) الأمير ورّام: مجموعة ورام ٢٤٥/٢.
(٤) الكليني: أصول الكافي ٣١/١.
(٥) المصدر نفسه: ٣٣/١.

في كل خلف عـدولاً ينفون عنه تحريـف الغالين، وانتحـال المبطلين، وتأويل الجاهلين[1].

٧ـ من علّم خيراً فله مثل أجر من عمل به..[2]

٨ـ من تعلم العلم وعمل به، وعلّم لله، دُعي في ملكوت السموات عظيماً، فقيل: تعلّم لله، وعمل لله، وعلّم لله[3].

٩ـ إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين[4].

١٠ـ طلبة العلم ثلاثة، فأعرفهم بأعينهم وصفاتهم وهم:

أ) صنف يطلبه للجهل والمراء.

ب) صنف يطلبه للاستطالة والختل.

ج) صنف يطلبه للفقه والعقل..[5]

١١ـ العلـم مقرون إلـى العمل، فمن علـم عمل، ومـن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل[6].

١٢ـ الناس ثلاثة: عالم ومتعلم وغثاء[7].

---

(١) المصدر نفسه: ٣٢/١.
(٢) المصدر نفسه: ٣٥/١.
(٣) المصدر نفسه: ٣٥/١.
(٤) المصدر نفسه: ٣٢/١.
(٥) المصدر نفسه: ٤٩/١.
(٦) المصدر نفسه: ٤٤/١.
(٧) المصدر نفسه: ٣٠/١.

١٣ـ فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر[١].

١٤ـ من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة[٢].

١٥ـ وجدت علم الناس كله في أربع:

أولها: أن تعرف ربك.

والثاني: أن تعرف ما صنع بك.

والثالث: أن تعرف ما أراد منك.

والرابع: أن تعرف ما يخرجك من دينك[٣].

فهذه خمسة عشر حديثاً جمع فيه الإمام، فضل العلم، وآداب طلبه، وعائديته في نفع العباد، ومنزلته عند الله رب العالمين.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

**«ولعلّ أدقّ ما أرشد إليه الإمام تنبيه المسلمين على ضرورة أن يكون طلب العلم (للفقه) سواءً أكان بمعناه الخاص لأنه شريعة الله في الأرض، أو بمعناه العام وهو الفهم - وأظنه الأرجح والألصق بالسياق - وللعقل لأنه أغلى ما منح الله الإنسان وأنفس ما أعطاه، ولذلك يجب أن تكون الغاية العليا من الجدّ في التعليم تنمية العقل الرافض للخرافات»**[٤].

(١) المصدر نفسه: ٣٤/١.

(٢) الكليني: الكافي ٣٤/١.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠/١.

(٤) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ١٠٩.

وبذلك جماع الدنيا والآخرة.

وكان المترددون على دروس الإمام الصادق عليه السلام يعرفون أن الإمام لن ينفعهم مادّياً، بل لعل غشيان مجلسه يعرضهم لتهديدات السلطة الأموية والعباسية، فإن عُرف عن أحد ولاؤه للإمام الصادق عليه السلام لم يأمن على حياته من أعوان الخليفة، ذلك بأن الخليفة كان يعتبر الإمام وأنصاره من خصوم الخلافة، وكان طلاب المدرسة يعلمون علم اليقين بأن الإمام لا يملك مالاً ومناصب فيوزعها عليهم، فلم يجذبهم إلى مدرسته ـ رغم هذه المخاطر ورغم انعدام المنفعة المادية ـ إلاّ إخلاص مستقرٌ في النفس، وإيمان عميق في القلوب، وانجذاب لشخصية الإمام عليه السلام وإعجاب بدروسه التي يلقيها ببيانه العذب، ويهدف بها إلى الحقائق وجوهر المعرفة.

ولذا فإن المترددين على مدرسة الإمام الصادق لم يداعبهم الأمل في الحصول على الوظائف، ولا على أي نفوذ سياسي، وإنما كانوا يغشون مجلسه للاغتراف من علمه فحسب.

ومع هذا الحرمان فقد أخذ التشيع ينتشر في ربوع الشرق بثقافته العلمية المنطقية المبسطة، بإصرار وثبات في مقاومة التيار الحكومي المعادي له، وإن لم ينجح في إنشاء مركز سياسي أو نظام حكومي يستند إليه، أي أنه نجح بالفكر لا بالسلطان، وبالروح لا بالقدرة المادية[1].

(١) ظ: جماعة من كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٩٤ بتصرف.

وهذا هو السرّ في اختراق مدرسة الإمام آفاق العالم، دون النظر إلى الجانب السياسي ولا العامل المادي في شيء، فهي في استقلالية عن الحكم، وهي تعتمد البعد الجماهيري في انتشار الأفكار والمبادئ.

ومن هنا يبرز الدور المشرّف لطلاب مدرسة الإمام في ابتعادهم عن صغائر الأمور، لذلك كانوا أقرب الناس إلى الأمام، واستحقوا تقديره واعتزازه، بل وبشّرهم بسعادتهم في الدارين، وخصّ بذلك الأقرب فالأقرب من منهج أهل البيت، وأشدهم التصاقاً بمعالمه الكبرى.

فعن الإمام الصادق أنه قال:

**«أربعة أحب الناس إليّ أحياءً وأمواتاً: بريد العجلي، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، والأحول (يعني مؤمن الطاق)، أحبّ الناس أحياءً وأمواتاً»**[(١)].

وكان اعتداده هذا مدعاةً أن يخبرهم بما هم عليه من الحق المستطيل، وأن يبشرهم بالفوز بالجنة، فقد دخل يحيى بن سابور عليه ليودعه، فقال الإمام: **«أما والله إنكم لعلى الحق، وإن من خالفكم لعلى غير الحق، والله ما أشك أنكم في الجنة، فإني لأرجو أن يقرّ الله أعينكم إلى قريب»**[(٢)].

وحدث هذا المعنى مع زيد الشحّام، إذ قال له الإمام:

**«أبشر فإنك من شيعتنا ومعنا في الجنة، إلينا الصراط وإلينا الميزان وحساب شيعتنا، والله أنا أرحم بكم منكم بأنفسكم وإني (أنظر) إليك وإلى رفيقك الحارث ابن المغيرة النضري في درجتك في الجنة»**[(٣)].

---

(١) ظ : الصدوق : كمال الدين ١٦٦/١، المجلسي : البحار ٣٤٠/٤٧ .

(٢) البرقي : المحاسن ١٤٦/١، المجلسي : البحار ٣٤٢/٤٧ .

(٣) الراوندي : الخرائج والجرائح ٢٦٤، البحار : ٣٤٣/٤٧ .

وعن هشام بن سالم، قال: سـألت أبا عبد الله عن يونس بن ظبيان، فقال رحمه الله: «**وبنى له بيتاً في الجنة، كان والله مأموناً على الحديث**»[١].

واجتمعت العصابة على تصديق ستة من تلامذته الفقهاء، وهم: جميل بن درّاج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحمّاد بن عيسى، وحمّاد بن عثمان، وأبان بن عثمان[٢].

ومن خواص أصحابه: معاوية بن عمار، وزيد الشحّام، وعبد الله بن أبي يعفور، ومحمد بن علي بن النعمان الأحول، وسدير بن حكيم، وعبد السلام بن عبد الرحمن، وجابر بن يزيد الجعفي، وأبو حمزة الثمالي، وثابت بن دينار، والمفضّل بن قيس، والمفضل بن عمر الجعفي، ونوفل بن الحارث، وميسرة بن عبد العزيز، وعبد الله بن عجلان، وجابر المكفوف، وأبو داود المسترق، وإبراهيم ابن مهزم الأسدي، وأبو خالد القمّاط، وثعلبة بن ميمون، وأبو بكر الحضرمي، والحسن بن زياد، وعبد الرحمن بن عبد العزيز الأنصاري، وسفيان بن عيينة، وعبد العزيز بن أبي حازم، وسلمة بن دينار المدني[٣].

والإمام حينما يتحدث عن مكانة أصحابه، ومنزلتهم في الدنيا أو الآخرة، فإنما يضع الأمر في موقعه، ولا رائد له في ذلك سوى بيان الحقيقة، لأن هؤلاء الأصحاب قد كرّسوا أوقاتهم لنشر أحاديث أهل البيت، طلباً لما عند الله من الأجر وعظيم الزلفى، فقد قال الإمام

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٣٤٦/٤٧، وانظر مصدره.
(٢) ابن شهرآشوب: المناقب ٤٠٠/٣.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.

في رواية يمتدح بها زرارة: «**رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة لاندرست أحاديث أبي**»[١].

وفي هذا السياق يذكر جماعة من أعيان تلامذته وتلامذة أبيه بالعرفان، فعن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن سليمان بن خالد، قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام، يقول: «**ما أحد أحيا ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبو بصير المرادي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية. ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هدى، هؤلاء حفّاظ الدين، وأمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والآخرة**»[٢].

هذا الثناء العاطر يصدر عن الإمام إعطاءً لكل ذي حقٍّ حقه.

وهناك ظاهرة جديرة بالتأمل والدراسة المستفيضة؛ أن من بين أبرز تلامذة الإمام وأصحابه الثقاة طائفة من ذوي الصناعات الحرّة والمهن الشعبية فتقرأ منهم: بيّاع السابري، بيّاع الهروي، بياع اللؤلؤ، بيّاع الزطي، بيّاع الأنماط، بيّاع الدقيق، بيّاع الحنطة، بيّاع الأكفان. كما تستمع إلى: البزّاز، والخزاز، والخراز، والطحّان، والدهّان، والزيّات، والسرّاد، والصفّار.. الخ.

إن هذا التعدد في ذوي الحرف من تلامذة الإمام يوحي بهدفين أساسيين:

**الأول**: أن هؤلاء المهنيين، أقرب تماساً، وأوثق صلات، وأشد قرباً من فصائل الناس وشرائح المجتمع، فهم يستطيعون الغوص في أعماق الشعب المسلم، وهم يتوصلون ـ أكثر من غيرهم ـ إلى معايشة

(١) الشيخ المفيد : الاختصاص ٦٦، الكشي : الرجال ٩٠، المجلسي : البحار ٣٦٠/٤٧ .
(٢) الشيخ المفيد : الاختصاص ٦٦، الكشي : الرجال ٩٠ .

الناس ومعاشـرة الأمة، وهم يلتقون بأكبر عدد ممكـن من أولياء الإمام، وقـد تخطتهم أعيـن الحاكمين، ولـم تمتد إليهـم أيـدي ولاة الجور، فباستطاعتهم ـ إذن ـ أن يتغلغلوا بين الطبقات كافة، وأن ينشروا علم أهل البيت بين السواد الأعظم دون رقيب أو حسـيب، وأن يتعرفوا عن قرب على مشكلات الآخرين جلّها أو كلّها، فيعالجون ذلك بما يتلقّونه من الإمام، كما يسـتطيعون إغاثة المتطلبـات الآنية وإسـعافها ماديةً أو معنويةً، والأهم مـن هذا وذاك أن هـؤلاء الحرفيين قـد يقومون بتعميم ثقافة الإمـام وإفاضاته عـن طريق الإفـادة العلمية بحجة البيع والشـراء والتجارة، كما بإمكانهم قطعاً فضّ الخصام والنزاع دون حاجة فيهما إلى الرجوع للأمام، وفي ذلك اختصار للطريق، وتطويع للإحراج السياسـي المحتمل من لقاء الإمام مباشرة.

**الثانـي:** إن أصحاب المصالح الحـرّة في التجارة والاقتصـاد عادةً ما يغادرون موطنهم الأصلـي بقصد الاتّجار والمقايضة والبيع والاسـتيراد، ومهمات التسـويق، ومناخهـم هذا تلقائـي لا يدعو إلى الشـك والريبة من قبل السـلطات، فهو طبيعي بالنسـبة لهـم، وهم فـي ترحالهم هذا يسـتطيعون القيام بمهام السـفارة العلمية بين الإمام وشـيعته في أنحاء الأرض، ويكونـون حلقة الوصـل التي لا تنقطـع بين الإمـام وأوليائه، فينشرون علمه، ويؤدون عنه.

وبهذا المنظور المزدوج لأرباب الأعمـال المختلفة من تلامذة الإمام يتم انتشـار مبادئ أهل البيت لدى أتباعهم في الداخل ميدانياً، كما يتم إيصال معارفهم إلى من هم في الخارج بشكل لا يثير الارتياب.

وأحسب أن هذا الأمر لم يكن اعتباطياً، وإنّما كان مقصوداً إليه في حد ذاته، وهو نوع من التخطيط الأيديولوجي في تنظيم الدعاية والأعلام لأهل البيت، وتواجد فعلي في جبهات النضال العلمي.

وهناك ظاهرة إيجابية أخرى، كان لها الأثر الفاعل في تركيز مبادئ الإمام، وسيرورة معارفه الرسالية في الآفاق؛ وتتمثل هذه الظاهرة بوكلاء الإمام عليه السلام، الذين يعيّنهم في القصبات والأقاليم والديار، فهم ينوبون عنه، ويمثلونه، ويرشدون إليه، وهو يشير إليهم، ويصرّح بمهامّهم الإفتائية والقضائية والحديثية، ويدعو أولياءه إلى الأخذ عنهم، والإفادة منهم، فهم الأمناء عنده.

وهؤلاء يتسلمون الفقاهة بفروعها من ينابيعها الأولى، ويعممونها في أقطار الأرض، وقد يستأمنون على الأموال والزكوات والحقوق، فيصرفونها بمظانّها، ويضعونها مواضعها، أو يرسلونها للإمام.

وإلى جنب هؤلاء يبرز دور أولئك الطلاب الذين يتمّون دراستهم في حلقة الإمام العلمية، فلا يلبثون بعدها في المدينة المنورة إلا ريثما يأذن الإمام بمغادرتهم بعد أن تزودوا باللباب الخالص من العلم؛ وإذا بهم يعودون إلى ديارهم مبلغين ودعاة ومرشدين، فيشاركون الوكلاء في الدعوة والتبليغ، ويحققون تلبية التكليف الشرعي في الإنذار والتحذير، وإقامة شعائر الدين.

وكان التنافس القبلي على طلب العلم قد تبلور، وتدافعت نحوه القبائل بإرسال النابهين من أفرادها، عسى أن يحظى أبناؤها برصيد من العلم، بعد أن أخفقوا من الرصيد السياسي والعدل الاجتماعي، ففروا بأنفسهم ودينهم نحو الإمام الصادق عليه السلام، متخذين طلب العلم

شعاراً، يقول الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل: «وأرسلت الكوفة والبصرة والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها من كل قبيلة: من بني أسد، ومن غنى، ومخارق، وطي، وسليم، وغطفان، وغفار، والأزد، وخزاعة، وخثعم، ومخزوم، وبني ضبة، ومن قريش ولا سيما بني الحارث بن عبد المطلب، وبني الحسن بن علي وسواهم.

ورحل جمهور من الأحرار، وأبناء الموالي من أعيان هذه من العرب وفارس»[1].

وكما رأيت فهؤلاء الموفدون من قبائل شتى، وديار متباعدة، جمعتهم وحدة الهدف، فكان الجميع ضمن الخط الاستراتيجي العام لمنهج الإمام العلمي.

وهكذا تلتقي الدنيا بأبنائها البررة لدى الإمام الصادق، ليتزودوا للدين والدنيا، فنهلوا من رافد الإمام ما شاؤوا، وعادوا إلى أوطانهم وقد ملء الوطاب علماً وثقافة ومعرفة، وأشربت النفوس تقوى وورعاً، فعاد العلم مواكباً لضبط النفس ومجانبة الهوى.

وقد رأيت فيما مضى من هذا البحث أثر تلامذة الإمام الصادق عليه السلام في سيرورة علم الإمام وانتشاره في الآفاق، وفيه درس لنا يجب أن نأخذ به، ونستضيء بنور هدايته، ونحن نتعايش في رحاب باب مدينة العلم الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في النجف الأشرف. فمن نفحاته العلم الإلهي، ومن قبساته ذلك الشعاع الهادي.

---

(١) عبد العزيز سيد الأهل: جعفر بن محمد ٥٩.

# الفصل الثاني

# علوم الشريعة الغرّاء

* تمهيد منهجي.
* من أشعة القرآن العظيم:
* في رحاب الحديث الشريف:
* الألفاظ الجارية مجرى الأمثال في أحاديث الإمام.
* الفقه وأصول الفقه:



# تمهيد منهجي

علوم الشريعة الإسلامية موضوع حافل متعدد العطاء، وقد سبق لنا الخوض في جملة يعتد بها من مفرداته في ضوء بناء الإمام العظيم محمد الباقر عليه السلام لحضارة التشريع الإسلامي في عمل مستقل، تناول الإمام ورسالة السماء، وتلامذة الإمام الباقر في رحاب حضارته التشريعية، وروافد علم الحديث الشريف، ومدرسة الفقه الإمامي، ومعالم القواعد الفقهية، وأصول الفقه الإسلامي[1].

وأكدنا فيه سبق الإمام محمد الباقر عليه السلام في التأصيل لمعارف الشريعة جمعاء، تفسيراً وحديثاً وفقهاً وأصولاً وقواعداً، وأفرزنا شرائح الفقهاء الرسميين الذين اعتمدهم كل من البلاط الأموي والبلاط العباسي، وإسباغ الطغاة هالة القداسة وأردية الهيولى واللاهوت على جملة من هؤلاء الفقهاء، فكانوا يفتون الناس بأدلال، ويخاطبون الجموع باستعلاء، وهم غارقون بصلات الدولة ومبرّات الحاكمين، مستغلين تلك الحرمة الكاذبة التي منحها لهم السلطان.

(١) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر.. مجدد الحضارة الإسلامية ١٨٥ـ٢٧١.

وتسـلّم الإمام الصادق عليه السلام قيادة الأمة فكان مشـاركاً لأبيه في كل مظاهر الأصالة والتجديد والوعي والمعرفة الإنسـانية، رغم كل النزعات المنحرفة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

اسـتطاعت قـدرات الإمـام الرسـالية أن تتجـاوز المناخ الرسـمي، وتسـتقل بمنهج علمي خاص، اتسـم بالاسـتقلالية والحريـة الفكرية، وتمرس بالنضال العلمي خطاً مستقيماً هادفاً، في حين تسخّر الإمكانات كافة لوعّـاظ السـلاطين والمتفقهين الرسـميين، وتفتح أبـواب الحكّام لجملة مـن الموالي ممـن دخل في الإسـلام مـن الشـعوب المجاورة للحجاز والعـراق، حتى عـادوا أئمة الملـل والنحل، وأصحـاب القول النافذ، في ضوء الدعم الحاكم بالقوة والقهر والجبروت.

لقد ورث الإمام الصادق جرّاء هـذه الإفرازات المضنيـة تَرِكةً ثقيلة من التناقضات والإفتاء الكيفـي وزعقات أهل الرياء والنفاق السياسـي، وكان عليـه أن يخـوض حرباً طويلـة المـدى، تقتلع جـذور المفاهيم الفاسدة، وتعود بالإسـلام إلى أصوله الثابتة، وهذا ما يحتاج إلى النضال المستميت في جبهات متعددة، ولم يكن هذا بالأمر الصعب على الإمام وهو يتمتع بالتأييـد الإلهي، ويتحصـن بعلم النبي وآلـه عليهم السلام، وكانت الشريعة الإسـلامية هدفه الأول في مسـيرته هذه، فاسـتوعبت مدرسته الأصول التشـريعية التي أسسـها والـده الإمام الباقـر عليه السلام، وهي تعتمد أصلين مهمين:

**الأول:** كتاب الله عز وجل.

**الثاني:** السنّة متمثلة في الحديث الشريف.

وهـذان المصـدران في مدرسـة أهـل البيـت عليهم السلام؛ همـا الأصلان الأساسيان في بناء التشـريع الإسـلامي المتحضّر، وبهما أمكن الرجوع إلى التفقه في الدين دون عسـر أو حرج، وفي منـأى عن مظلة عروش الطغاة، وفي إستقلال عن الرأي والاستحسان والقياس، وفي رفض لكل العروض التي لا تمت إلى التشريع بصلة.

هذان الأصـلان يتطلبـان الحديـث عنهما فـي ضوء زعامـة الإمام الصادق لمدرسة أهل البيت، ويتفرع عنهما التحدث عن الحركة الفقهية المنهجية التي أرست قواعدها هذه المدرسة المباركة.



## من أشعة القرآن العظيم



كانت أشـعة القرآن العظيم تضفي ببهائها وسنائها في عمق التفكير التأملـي لدى الإمـام الصادق عليه السلام في مجالات شـتى، تتوخـى الإيحاء البنّاء في حيـاة الكتاب الكريم، فضـلاً وكياناً وتفسـيراً ودلالة ومدركاً، حتى ليحار الباحث التماس شـذراته في هـذا المحيط الزاخـر بالعطاء اللامحدود، وذلك ينبئ بمدى اهتمام الإمام بكتاب الله الأكبر، ولا غرابة في ذلك فهو عدله في الميزان، وأحد الثقلين في اسـتخلاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم له وللعترة الطاهرة.

والإمام يرى «**إن هذا القرآن فيه منـار الهدى، ومصابيح الدجـى، فليجلْ جالُ بصره، ويفتح للضياء نظره، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشـي المسـتنير في الظلمات بالنور**»[1].

والتأمل فـي القرآن إنمـا يكون بمتابعـة قراءته، واسـتكناه معارفه، واكتشاف أسـراره، حتى يمتلئ الوفاض به، ويخالط لحم الإنسان ودمه، وهو ما يؤكـده الإمام بقوله: «**من قرأ القرآن وهو شـابُ مؤمـن، اختلط القرآن**

(١) الكليني: أصول الكافي ١/٦٠٠.

**بلحمه ودمه، وجعله الله ﷻ مع السفرة الكرام البررة، وكان القرآن حجيزاً عنه يوم القيامة»**[١].

أما إذا ارتفع مستوى القراءة إلى الحفظ والمتابعة، كانت الدرجة الرفيعة في أبعادها التي أشار إليها الإمام: «**الحافظ للقرآن، العامل به، مع السفرة الكرام البررة**»[٢]، وتلك منزلة الشهداء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ويحدد الإمام عليه السلام مهمة القرآن الأساسية بيسر وسماح فيقول: «**إن القرآن زاجر وآمر، يأمر بالجنة، ويزجر عن النار**»[٣].

وذلك من خلال تعليماته القيّمة في الأمر والنهي، وتطبيقها يدعو إلى الجنة ويعصم من النار، لذلك ينبغي للمؤمن أن يتابع قول الإمام: «**ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلم القرآن، أو يكون في تعليمه**»[٤].

ومنهج الإمام الصادق عليه السلام في الاعتداد بالقرآن العظيم ناجم عن منهج آبائه برعاية القرآن حق المراعاة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**من أعطاه الله القرآن، فرأى أن رجلاً أعطي أفضل مما أعطي، فقد صغّر عظيماً وعظّم صغيراً**»[٥].

(١) المصدر نفسه: ٦٠٣/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٦٠٣/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٦٠١/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٦٠٧/٢.

(٥) الكليني: أصول الكافي ٦٠٥/٢.

وأية نعمة أعظم من القرآن عطاء، وأكبر منه حباءً، ومن أعطي ذلك فقد أعطي الخير كله، وقد قال النبي ﷺ: **«حَمَلة القرآن عُرَفاء أهل الجنة»**[1].

وقال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام برواية الإمام الصادق: **«البيت الذي يُقرأ فيه القرآن، ويذكر الله ﷻ فيه، تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض»**[2].

وهذا التأشير الحاسم جماع لشتى البركات الإلهية بفضل القرآن الكريم، وكان تعظيم أمير المؤمنين للقرآن، وعمله بمحكم آياته، وإقامة حكمه العادل على أساسه غنياً عن البيان، وشهرته أوسع ممّا تنطق به الآثار، ويكفي تدليلاً على هذا جمعه لتنزيل القرآن وتأويله، كما قال:

**«هذا كتاب الله ﷻ كما أنزله على محمد ﷺ، وقد جمعته من اللوحين..»**[3].

ولمّا كان الإمام الصادق خريج مدرسة أبيه الإمام محمد الباقر في القرآن، التمسنا عشرات الأحاديث له، وهو يدعو إلى قراءة القرآن والعمل به، والاستنارة بهداه، وترتيله واستظهاره، قال الإمام الباقر فيما قال: **«من قرأ القرآن قائماً في صلاته كتب الله له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه في صلاته جالساً، كتب الله له بكل حرف خمسين حسنة، ومن قرأه في غير صلاته، كتب الله له بكل حرف عشر حسنات»**[4].

---

(١) المصدر نفسه: ٦٠٦/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٦١٠/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٦٣٣/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٦١١/٢.

وورد مثله عن سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام[١].

أمّا الإمام زين العابدين فحسبك ما أورده في فضله في الصحيفة السجادية، فلا بدع أن نجد توجه الإمام الصادق عليه السلام للقرآن بملاحظ جمّة، تهدي إلى الصواب، وتدعو إلى الحكمة والصراط المستقيم، وقد بحثنا منها:

- توحيد الله تعالى..
- ولاية أهل البيت..
- تهذيب النفس الإنسانية..
- آيات الأحكام.

## توحيد الله تعالى:

شاءت البيئة العقلية في عصر الإمام الصادق عليه السلام أن تخوض غمرات شتى الشؤون في النظر والاعتقاد، وقد أفرزت كما تقدم بيانه؛ حياة الاعتزال والجبر والتفويض والأرجاء، كما اختلط فيها الأفق العقائدي بموجات الزنادقة والمنحرفين، فكان الإمام يردّ هؤلاء ويصدّ أولئك، وينبري مستهدفاً النزعات المشبوهة، ويغتنم ما أتاحه القرآن في حياته التفسيرية، فيتأكد الحديث عن وحدانية الله، وعن صفات الذات والأفعال، وعن علم الله وقدرة الله، وعن تنزيه الله عن التمثيل والتجسيد والهياكل.

وللإمام في هذا الجانب نظرات صائبة، تعنى بالتركيز والإيجاز فحينما ذهب المعتزلة إلى نفي القدر بالقول بالتفويض المطلق!! قال

(١) المصدر نفسه: ٦١١/٢.

الإمام: «إن القدرية مجوس هــذه الأمة، وهم الذيــن أرادوا أن يصفوا الله بعدله، فأخرجوه عن سلطانه، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1]».

قال صاحب الميزان: المــراد بالقدرية النافون للقــدر، وهم المعتزلة القائلون بالتفويض، وقوله: «إنهم مجوس هذه الأمة» ذلك لقولهم: إن خالق الأفعال الاختيارية هو الإنســان، والله خالق لما وراء ذلــك، فأثبتوا إلهين اثنين، كما أثبت المجوس إلهين اثنين: خالق الخير وخالق الشر.

وقوله: «أرادوا أن يصفوا الله بعدله، فأخرجوه عن ســلطانه» ذلك أنهم قالوا بخلق الإنســان لأفعاله فراراً عن القول بالجبر المنافي للعدل، فأخرجوا الله من سلطانه على أعمال عباده بقطع نسبتها عنه تعالى.

وقوله «وفيهم نزلت هذه الآية» المراد به جري الآيات فيهم دون كونهم سبباً للنزول ومورداً له»[2].

وحينما يلتبس رضا الله وغضبه، وكيفية هــذا الرضا وذلك الغضب، يعالج الإمام الصادق الموضوع في ملحظين قرآنيين:

الأول: بالنظر في قولــه تعالــى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[3].

---

(١) سورة القمر: ٤٨ـ٤٩.

(٢) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ١٩/٨٩.

(٣) سورة محمد: ٢٨.

فقد روى محمد بن عمارة، قال: سـألت أبا عبد الله عليه السلام، فقلت له: يا بن رسـول الله، أخبرني عـن الله عز وجل، هل رضي وسـخط؟ قال: «**نعم، وليس ذلك على ما يوجد في المخلوقين، ولكن غضب الله عقابه، ورضاه ثوابه**»[1].

الثانـي: بتفسـيره لقولـه تعالـى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

قال عليه السلام: «**إن الله تعالى لا يأسف كأسـفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهـم مخلوقون مدبرون، فجعل رضاهم لنفسـه رضاء وسـخطهم لنفسـه سـخطاً، وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه، والأدلاّء عليه، فلذلك صاروا كذلك، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقـه، ولكن هذا معنى من قال ذلـك، وقد قال: «من أهان لي ولياً، فقد بارزني بالمحاربة، ودعاني إليها»**.

وقال أيضاً: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[4].

وكل هذا وشـبهه مما ذكرت لك، وهكذا الرضا والغبطة وغيرها من الأشـياء مما يشـاكل ذلك. ولو كان يصل إلى المكوِّن الأسف والضجر، وهو الذي أحدثهما وأنشـأهما، لجاز لقائل أن يقـول: إن المكوِّن يبيد يوماً لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخلـه التغيير، فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة، ولو كان ذلك كذلك، لم يُعرف المكوِّن من المكوَّن،

(١) ظ: الصدوق: التوحيد، تفسيره للآية.

(٢) سورة الزخرف: ٥٥.

(٣) سورة النساء: ٨٠.

(٤) سورة الفتح: ١٠.

ولا القادر من المقـدور، ولا الخالق مـن المخلوق، تعالـى الله عن هذا القول علواً كبيراً.

هو الخالق للأشـياء لا لحاجـة إليها، فـإذا كان لا لحاجة اسـتحال الحد والكيف»[٥].

وهذا الاسـتدلال عجيب في دقته وضبطه وإيراداته من الوجوه كافة. وهذا هو شأن الأئمة عليهم السلام في الإجابة الجامعة المانعة.

وقد نزّه الإمام الصادق البـاري عزّ وجلّ عن الجهة والتجسـيم فيما قال المجسـمة، فقد روى الحارث بن المغيرة النضري، قال: سـئل أبو عبد الله عليه السلام عن قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٦].

فقال: ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون: كل شيء يهلك إلا وجه الله!! فقال عليه السلام: **«سبحان الله لقد قالوا قولاً عظيماً، إنما عنى وجه الله الذي يؤتى منه»**[٧].

ونزّه الإمام الصادق الله عزّ وجلّ عن المثل والمثليـة فيما رواه طلحة بن زيد في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ..﴾[٨].

قال الإمام: **«المؤمن يتقلب في خمسـة من النور: مدخله نـور، ومخرجه نور، وعلمه نور، وكلامه نور، ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور»**.

قال: قلت لجعفر: إنهم يقولون مثل نور الرب!!

---

(٥) القمي: التفسير، تفسير الآية.

(٦) سورة القصص: ٨٨.

(٧) الصدوق: التوحيد، تفسيره للآية.

(٨) سورة النور: ٣٥.

قال الإمام: «سبحان الله، ليس لله مثل، قال الله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[١]»[٢].

وكما نزّه الباري تعالى عن المثل فقد نزهه عن الجهة، والمكان، والاحتواء، فقد سئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٣].

فقال سلام الله عليه: «بذلك وصف نفسه، وكذلك هو، مستولٍ على العرش، بائن عن خلقه، من غير أن يكون العرش حاملاً له، ولا أن يكون العرش حاوياً له، ولا أن يكون العرش محتازاً له، ولكننا نقول: هو حامل العرش، وممسك العرش، ونقول من ذلك ما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ..﴾[٤]».

وقال عليه السلام: «من زعم أن الله من شيء أو في شيء، أو على شيء، فقد جعله محدثاً، ومن زعم أنه في شيء فقد زعم أنه محصور، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً»[٥].

وروى هشام بن الحكم، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما الدليل على أن الله واحد؟

قال عليه السلام: «اتصال التدبير، وتمام الصنع، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٦]»[٧].

---

(١) سورة النحل: ٧٤.
(٢) ظ: الطباطبائي: الميزان ١٤٠/١٥ وانظر مصدره.
(٣) سورة طه: ٥.
(٤) سورة البقرة: ٢٥٥.
(٥) ظ: الطباطبائي: الميزان ١٢٨/١٤ وانظر مصدره.
(٦) سورة الأنبياء: ٢٢.
(٧) الصدوق: التوحيد، تفسيره للآية.

ونزّه الإمام الباري ﷻ عن الشبيه والمثيل في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١].

قال عليه السلام: **«هو الذي لا يشبهه شيء، ولا يوصف، ولا يُتوهم»**[٢].

والإمام يؤكد هذه الحقيقة تارة أخرى بالنظر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[٣].

قال عليه السلام: **«فليس له - أي لله تعالى - شبه ولا مثل ولا عدل، ولله الأسماء الحسنى التي لا يسمى بها غيره، وهي التي وصفها الله تعالى بالكتاب، فقال: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ جهلاً بغير علم، وهو لا يعلم، ويكفر ويظن أنه يحسن، فذلك قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٤]، فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها في غير مواضعها»**[٥].

وفي حديث الإمام عن العرش والكرسي يرى عليه السلام أن للعرش صفات كثيرة مختلفة، له في كل سبب وضِع في القرآن صفة على حدة، فقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٦] يقول: **«رب الملك العظيم»**.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٧] يقول: **«على الملك احتوى»**، وهذا علم الكيفوفية في الأشياء.

---

(١) سورة النحل: ٦٠.

(٢) ظ: الطباطبائي: الميزان، تفسيره للآية نقلاً عن معاني الصدوق.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٤) سورة يوسف: ١٠٦.

(٥) ظ: الطباطبائي: الميزان ٣٦٧/٨ وانظر مصدره.

(٦) سورة المؤمنون: ٨٦.

(٧) سورة طه: ٥.

ثم العرش في الوصل مفرد عن الكرسي، لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع المبدع، ومنها الأشياء كلها. والعرش هو الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحدّ والأين والمشيئة، وصفة الإرادة، وعلم الألفاظ والحركات، والترك، وعلم العود والبدء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي، من ذلك قال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[١] أي أعظم من صفة الكرسي..[٢]

ويتحدث الإمام عن استحالة رؤية الله تعالى بملحظين من خلال قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ..﴾[٣].

١ـ قال عليه السلام: **«ليس يعني من البصر بعينه، وإنما عنى إحاطة الوهم، كما يقال: فلان بصير بالشعر، وفلان بصير بالفقه، وفلان بصير بالدراهم، وفلان بصير بالثياب، الله أعظم من أن يرى بالعين»**.

٢ـ وسئل عليه السلام: هل يرى الله تعالى في المعاد؟

فقال عليه السلام: **«سبحان الله، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. إن الأبصار لا تدرك إلا ما له لون وكيفية، والله خالق الألوان والكيفيات»**[٤].

وروى هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكر الديصاني: إن في القرآن آية، قلت: وما هي؟ قال: قوله تعالى:

---

(١) سورة المؤمنون: ٨٦.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٨٥/٣ وانظر مصدره.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٤) ظ: الطباطبائي: الميزان ٣٠٩/٧، وانظر مصدره.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[1].

قال هشـــام: فلم أدرِ بماذا أجيبــه، فحججت، وأخبــرت أبا عبد الله بمقالته، فقال عليه السلام: «هذا كلام زنديق خبيث، إذا رجعت إليه فقل له:

ما اسمك بالكوفة؟ فإنه يقول: فلان.

فقل: ما اسمك بالبصرة؟ فإنه يقول: فلان.

فقل كذلـــك الله، ربنا في الســـماء إله، وفي الأرض إلـــه، وفي القفار إله، وفي كل مكان إله.

قال هشـــام: فقدمت إلى الكوفة،وأتيـــت إلى أبي شـــاكر، فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز[2].

قال صاحب الميزان: ومن بديع هذا الباب قوله عليه السلام: «إذ انتهى الكلام إلى الله فامسكوا»[3]، وتلا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[4].

---

(١) سورة الزخرف: ٨٤.

(٢) ظ: الطباطبائي: الميزان ١٨/١٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٩/٣.

(٤) سورة النجم: ٤٢.



# ولاية أهل البيت عليهم السلام



ولم يقف اهتزاز الفكر الكلامي عند شواطئ الاستقرار، ولا انتهى تشعّب الآراء لدى الجدليين إلى غاية، فشرّق الناس وغرّبوا وهم لا يلوون على شيء، والحق بين ظهرانيهم أبين من الشمس وأروع من وضح النهار، فنهد الإمام الصادق بمهمة التوعية والتصريح بالولاية المطلقة لأهل البيت عليهم السلام من الينابيع الأولى لموارد القرآن الكريم.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[1].

**ففي المعاني عن الصادق عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ علّم آدم أسماء حججه كلها، ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[2]، بأنكم أحقّ بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم. فـ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ..﴾[4]، وقفوا على عظيم**

(١) سورة البقرة: ٣١.

(٢) سورة البقرة: ٣١.

(٣) سورة البقرة: ٣٢.

(٤) سورة البقرة: ٣٣.

منزلتهم عنــد الله عزّ ذكره، فعلموا أنهــم أحق بأن يكونوا خلفــاء الله في أرضه وحججه علــى بريته، ثم غيبهم عــن أبصارهم، واســتعبدهم بولايتهم ومحبتهم، وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1]»[2].

وأكد الإمام الصــادق عليه السلام على مبدأ الإمامة من خــلال قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

قال الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل اتخذ إبراهيم عبداً قبــل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له الأشــياء. قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال عليه السلام: فمن عظمها - أي الإمامة - في عين إبراهيم، قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. قال: لا يكون السفيه إمام التقي»[4].

واعتبر الإمام الصادق الأئمة حجج الله علــى عباده، وهم أبوابه التي منها يؤتى، قال عليه السلام عنهم بأنهم: «أبواب الله التي منها يؤتى، ولولاهم ما عُرف الله عز وجل وبهم احتج الله تبارك وتعالى على خلقه»، واعتبر الإمام هذا الفهم الصائب من مصاديق قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ..﴾[5].

(١) سورة البقرة: ٣٣.
(٢) ظ: الطباطبائي: الميزان ١٢٠/١ وانظر مصدره.
(٣) سورة البقرة: ١٤٤.
(٤) الطباطبائي: الميزان ٢٧٦/١.
(٥) سورة البقرة: ١٨٩.

وخصص الأئمة بالشفاعة في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ..﴾[1]، فقال: «نحن أولئك الشفعاء»[2].

وفي منظور الإمام عليه السلام أن الأئمة المعصومين هم الراسخون في العلم الذين يعلمون تأويل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ ..﴾[3].

فقال عليه السلام: «نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله»[4].

واستدلّ الإمام عليه السلام بآية المباهلة على القول بالإمامة، باعتبار الإمام علي عليه السلام نفس رسول الله، وأبناءه ذريته، وهم الامتداد الطبيعي لنبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا عمه ولا أصحابه ولا أزواجه.

قال تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[5] فاتفقوا على المباهلة.

قال الإمام الصادق: «فلما رجعوا ـ يعني نصارى نجران ـ إلى منازلهم، قال رؤساؤهم السيد والعاقب والأهتم: إن باهلنا بقومه باهلناه فإنه ليس نبياً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله، فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلاّ وهو صادق، فلما أصبحوا جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) ظ: العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

(٣) سورة آل عمران: ٧.

(٤) ظ: الطباطبائي: الميزان ٣/٦٩، وانظر مصدره.

(٥) سورة آل عمران: ٦١.

فقالت النصارى: من هؤلاء؟

فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيه وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذان ابناه الحسن والحسين. ففرقوا، فقالوا لرسول الله ﷺ: نعطيك (أي الجزية) فقال لهم رسول الله ﷺ: **(على الجزية) فانصرفوا»**[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[(٢)].

سأل الحسنُ بن صالح الإمام الصادق عن أولي الأمر، فقال الإمام عليه السلام: **«هم الأئمة من أهل بيت رسول الله ﷺ»**[(٣)].

وروى ابن شهرآشوب عن تفسير العياشي بإسناده عن أبي الصباح الكناني، قال: قال أبو عبد الله: نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ..﴾[(٤)].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[(٥)].

أبان الإمام الصادق عليه السلام أهمية الولاية الإلهية لأمير المؤمنين علي عليه السلام، وأوضح فَرَق وجَزَع بعض المسلمين من هذا الأمر التبليغي،

---

(١) ظ: القمي: تفسير القمي، تفسيره للآية.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(٣) ظ: الطباطبائي: الميزان ٤/٣٤٩، وانظر مصدره.

(٤) ابن شهرآشوب: المناقب ٣/٣٤٤.

(٥) سورة المائدة: ٦٧.

فقال عليه السلام: «لمّا نصب رسول الله صلى الله عليه وآله علياً يوم غدير خم قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»، فطار ذلك في البلاد، فقدم على النبي صلى الله عليه وآله النعمان بن الحارث الفهري، فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك رسول الله، وأمرتنا بالحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثم لم ترضَ حتى نصبت هذا الغلام، فقلت: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهذا شيء منك أو أمر من الله تعالى؟ فقال ٢: «بلى والله الذي لا إله إلاّ هو إن هذا أمرٌ من الله» فولى النعمان بن الحارث، وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء.

فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[1]»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡ ..﴾[3].

بيّن عليه السلام تلك الصلاحية الكبرى، والخصوصية النادرة التي يتمتع بها رجال الأعراف يوم القيامة، وأشار إلى ولايتهم الإلهية وإلى ولايتهم التكوينية، وذكر ما يترتب عليه الأمر في المآل لمن عرفهم ولمن أنكرهم بقول موجز، بليغ، قاطع، رقيق: «نحن أصحاب الأعراف، من عرفنا فمآله إلى الجنة، ومن أنكرنا فمآله إلى النار»[4].

وفصّل الإمام القول في الأعراف، ونداء أهل الأعراف، وحقيقة الموقف المشترك بين أهل الجنة والنار، وأكد الدور البارز العظيم للنبي والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) سورة المعارج: ١.

(٢) ظ: الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره للآية.

(٣) سورة الأعراف: ٤٦.

(٤) الطباطبائي: الميزان ١٤٤/٨، وانظر مصدره.

فقال عليه السلام: «الأعراف كثبان بين الجنة والنار، يقف عليه كل نبي، وكل خليفة مع المذنبين من أهل زمانه، كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سيق المحسنون إلى الجنة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: أنظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا، فيسلم عليهم المذنبون، وذلك قوله: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] ثم أخبر سبحانه أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون ـ يعني هؤلاء المذنبين ـ أن يدخلهم الله بشفاعة النبي والإمام، وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

ثم ينادي أصحاب الأعراف، وهم الأنبياء والخلفاء رجالاً من أهل النار مقرعين: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ..﴾[3] يعني: أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم تستضعفونهم وتحتقرونهم، وتستطيلون بدنياكم عليهم، ثم يقول لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله بذلك: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[4]»[5].

ويعتبر الإمام الأئمة هم المعنيون بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾[6]»[7].

وفي رواية أخرى، قال عليه السلام: «**نحن هم**»[8].

---

(١) سورة الأعراف: ٤٦.

(٢) سورة الأعراف: ٤٧.

(٣) سورة الأعراف: ٤٨ـ٤٩.

(٤) سورة الأعراف: ٤٩.

(٥) الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره لآيات الأعراف.

(٦) سورة الأعراف: ١٨١.

(٧) ظ: الطباطبائي: الميزان ٣٦٧/٨.

(٨) ظ: العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

ويؤكد الإمام منزلة أمير المؤمنين علي عليه السلام، في موارد القرآن الخاصة به، وما يجري منه على الأئمة المعصومين بعده.

١- يرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1].

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«أنا المنذر وعليٌّ الهاد»**.

ثم التفت الإمام إلى أبي بصير قائلاً: يا أبا محمد هل من هادٍ اليوم؟

قال أبو بصير: جعلت فداك، ما زال منكم هادٍ من بعد هادٍ، حتى رفعت إليك.

فقال: **«رحمك الله يا أبا محمد، لو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية، مات الكتاب، ولكنه يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى»**[2].

وفي رواية أخرى قال: **«كل إمامٍ هاد لكل قوم في زمانهم»**[3].

٢- وفي السياق نفسه في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ..﴾[4].

قال عليه السلام: «إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره رأى.

قال الراوي: قلت: فداك وما يرى؟

---

(١) سورة الرعد: ٧.

(٢) ظ: الطباطبائي: الميزان ٣٢٨/١١ وانظر مصدره.

(٣) الطباطبائي: الميزان ٣٢٨/١١ وانظر مصدره.

(٤) سورة يونس: ٦٤.

قال: يرى رسول الله ﷺ، فيقول له: أنا رسول الله أبشر، ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام، فيقول له: أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحبني، أما لأنفعنّك اليوم.

قال عثمان بن عقبة قلت: أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا؟

قال عليه السلام: إذا رأى هذا مات، وأعظم ذلك ـ أي عدّه عظيماً ـ.

قال: وذلك في القرآن، واستشهد بالآية أعلاه»[1].

٣ ـ وفي قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

يقول الإمام الصادق: «فلمّا نزلت الآيات من سورة براءة، دفعها رسول الله إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة، ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر، فلمّا خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلاّ رجل منك.

فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام في طلب أبي بكر فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات، فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنزل الله فيّ شيئاً؟ فقال: لا، إن الله أمرني أن لا يؤدي عني إلاّ أنا أو رجل مني»[3].

٤ ـ وفي قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[4].

---

(١) ظ: الطباطبائي: الميزان ١٠/٩٩، وانظر مصدره.

(٢) سورة التوبة: ١.

(٣) ظ: القمي: التفسير، تفسيره للآية.

(٤) سورة الفاتحة: ٦.

قال الإمام الصادق: «الصراط المستقيم هو الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه، مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه في الآخرة فتردى في نار جهنم»[1].

٥ـ وفي قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ..﴾[2].

قال الإمام: «هي صبغ المؤمنين بالولاية - يعني الولاية لإمام الحق، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - في الميثاق».

أورد ذلك الطباطبائي في الميزان عن الكافي والمعاني، وقال: وهو من باطن الآية[3].

٦ـ وفي قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[4].

قال الإمام الصادق برواية أبي بصير: «إلاّ من دان بولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام من بعده، فهو العهد عند الله..»[5].

٧ـ وفي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ..﴾[6].

(١) ظ : الطباطبائي : الميزان ٤١/١، وانظر مصدره.

(٢) سورة البقرة : ١٣٨.

(٣) ظ : الطباطبائي : الميزان ٣١٥/١.

(٤) سورة مريم : ٨٧.

(٥) الطباطبائي : الميزان ١١٤/١٤، وانظر مصدره.

(٦) سورة النور : ٣٥.

أورد الإمام الصادق عليه السلام الحديث عنها في عدة وجوه منها: «**هو مثل ضربه الله لنا، فالنبي والأئمة صلوات الله عليهم دلالات الله وآياته التي يهتدى بها إلى التوحيد، ومصالح الدين وشرائع الإسلام، والسنن والفرائض، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»[١].

٨ـ روى المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى علي والحسن والحسين فبكى، وقال: «**إنهم المستضعفون بعدي**» قال المفضل، فقلت له: ما معنى ذلك؟

قال: معناه إنكم الأئمة بعدي، إن الله عز وجل يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٢]، فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة[٣].

٩ـ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[٤].

قال الصادق عليه السلام: «**كل أمة يحاسبها إمام زمانها، ويعرف الأئمة أولياءهم وأعداءهم بسيماهم، وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ﴾[٥]**»[٦].

١٠ـ وعن يعقوب بن شعيب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٧].

---

(١) الصدوق: التوحيد، تفسيره للآية.
(٢) سورة القصص: ٥.
(٣) ظ: الطباطبائي: الميزان ١٦/١٤.
(٤) سورة الغاشية: ٢٥ـ٢٦.
(٥) سورة الأعراف: ٤٦.
(٦) ظ: الطباطبائي: الميزان ٢٠/٢٧٧.
(٧) سورة التوبة: ١٠٥.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**هم الأئمة**»[1].

١١ـ ونختتم هذا الباب المتلئب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2].

تحدث الإمام من خلالها عن حالة الاحتضار للمؤمن، فقال: «**ويمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفقاؤك، فيفتح عينيه، فينظر، فينادي روحه منادٍ من قبل رب العزة، فيقول: يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته، ارجعي إلى ربك راضية بالولاية، مرضية بالثواب، فادخلي في عبادي يعني محمداً وأهل بيته، وادخلي جنتي، فما من شيء أحب إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي**»[3].

تهذيب النفس الإنسانية:

وحدب الإمام الصادق عليه السلام على تهذيب النفس الإنسانية وإصلاح الذات في ضوء القرآن الكريم، مستمداً من فيضه نبعاً لا ينضب، ومن إشعاعه ألقاً لا يخبو، وألقى بظلال ذلك على المسلمين، يتأنقون باختيار مكارم الأخلاق ومحاسن الشمائل، يقول الإمام:

«**الحكمة ضياء المعرفة، وميزان التقوى، وثمرة الصدق، ولو قلت: ما أنعم الله على عبده بنعمة أعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة، لقلت: قال الله عز وجل:**

---

(١) الكليني: الكافي ١/٢١٩.

(٢) سورة الفجر: ٢٧ـ٢٨.

(٣) ظ: الطباطبائي: الميزان ٢٠/٢٨٧.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[(١)]»[(٢)].

وأول مبادئ الحكمة تقوى الله ﷻ، وتحقيق التقوى يؤكد الإمام في ثلاثة مظاهر حينما يسأله أبو بصير عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[(٣)] فيقول الإمام عليه السلام: «يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»[(٤)].

واعتبر الإمام الصادق ما أمر الله به من الاستغفار والتوبة في كتابه الكريم: «نجاة من الردى، وبصيرة من العمى، وشفاء لما في الصدور» مستشهداً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٥)]»[(٦)].

وربط الإمام بين الصبر والمصابرة والمرابطة وبين التقوى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٧)].

فقال في تشخيصها وتفسيرها وتحقيق مفرداتها:

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٩.
(٢) ظ: الطباطبائي: الميزان ٢/٤٠٤، وانظر مصدره.
(٣) سورة آل عمران: ١٠٢.
(٤) العياشي: التفسير، تفسيره للآية.
(٥) سورة آل عمران: ١٣٥.
(٦) ظ: العياشي: التفسير، تفسيره للآية.
(٧) سورة آل عمران: ٢٠٠.

أ) اصبروا على المصائـب، وصابروا على الفتنـة، ورابطوا على من تقتدون به[١].

ب) اصبروا على دينكم، وصابروا عدوكم، ورابطوا إمامكم[٢].

ج) اصبـروا علـى الفرائض، وصابـروا علـى المصائـب، ورابطوا على الأئمة[٣].

وفي إشـاعة المحبة بين الناس، ومواكبة حسـن المعاشـرة، وتبادل التحيات، ينظر الإمام في قوله تعالـى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٤].

فيعدد الإمام مظاهر التحية وموارد السلام، وآداب ذلك:

أ) قـال عليه السلام: **«يسـلم الصغير علـى الكبيـر، والمـارّ علـى القاعـد، والقليل على الكثير»**[٥].

ب) قـال عليه السلام: **«القليل يبـدأون الكثيـر بالسـلام، والراكب يبدأ الماشـي، وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير، وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال»**[٦].

ج) قال عليه السلام: **«يسـلم الراكب على الماشـي، والماشـي على القاعد، وإذا لقيت جماعة سلّم الأقل على الأكثر، وإذا لقي واحدُ جماعة سلم الواحد على الجماعة»**[٧].

(١) الطباطبائي: الميزان ٤/١٣٣.

(٢) العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

(٣) ظ: الطباطبائي: الميزان ٤/١٣٣ عن أصول الكافي.

(٤) سورة النساء: ٨٦.

(٥) ظ: الطباطبائي: الميزان ٥/٣٣ـ٣٥.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

د) قال عليه السلام: «**إن من تمام التحية للمقيم المصافحة، وتمام التسليم على المسافر المعانقة**»[١].

وأشار عليه السلام إلى ما متّع به الله الإنسان من الجوارح، وكيف أفاض على كل جارحة فروضها، وما ينبغي لها، من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢].

قال الإمام: «إن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح بني آدم، وقسّمه عليها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت أختها، فمنها عيناه اللتان ينظر بهما، ورجلاه اللتان يمشي بهما.

ففرض على العين أن لا تنظر إلى ما حرم الله عليه، وأن تغمض عما نهاه الله عنه، مما لا يحل وهو من الإيمان.. وفرض على الرجلين أن لا يمشي إلى شيء من معاصي الله، والله فرض عليهما المشي فيما فرض الله..»[٣].

وقال عليه السلام: «**يسأل السمع عمّا يسمع، والبصر عمّا يطرق، والفؤاد عمّا يعقد عليه**»[٤].

وفي ملحظ تطهير النفس من الخطايا والذنوب، ودعوتها إلى التوبة قبل الموت، يقول الإمام: «**رحم الله عبداً تاب إلى الله قبل الموت، إن التوبة مطهرة من دنس الخطيئة، ومنقذة من شقاء الهلكة، فرض الله بها على نفسه لعباده الصالحين**، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ

---

(١) المصدر نفسه: ٣٥/٥.

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

(٣) ظ: العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

(٤) الطباطبائي: الميزان ١٣/١٠٢.

سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1]، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾»[2].

وفي الملحظ نفسه يوجه الإمام الإنسان المسلم إلى الاستغفار فيقول: «إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة، ويذكره الاستغفار، وإذا أرد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قوله ﷻ: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3] بالنعم عند المعاصي[4].

وروى سماعة بن مهران، قال: سألت أبا عبد الله عن هذه الآية، فقال:

**«هو العبد يذنب الذنب، فيجدد له النعم معه، تلهيه عن الاستغفار من ذلك الذنب»[5].**

وفي قبال ذلك تحدث الإمام عليه السلام عن الهداية وإرادة الخير للإنسان، فقال بالاستناد إلى القرآن العظيم: **«إن الله ﷻ إذا أراد بعبد خيراً، نكت في قلبه نكتة من نور، وفتح مسامع قلبه، ووكّل به ملكاً يسدده، وإذا أراد بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء، وسدّ مسامع قلبه، ووكل به شيطاناً يضله، وتلا**

(١) سورة الأنعام: ٥٤.
(٢) الطباطبائي: الميزان ١١١/٧.
(٣) سورة الأعراف: ١٨٢.
(٤) الطباطبائي: الميزان ٣٦٨/٨.
(٥) المصدر نفسه.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1]»[2].

وقال عليه السلام: «إن القلب يتلجلج في الخوف، يطلب الحق، فإذا جاء اطمأن» وقرأ الآية[3].

وفي استيحاء الإخلاص في العمل، وصدق النية، تمت للمؤمن مضاعفة الأجر، قال عليه السلام: «إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف الله عمله بكل حسنة سبعمائة ضعف، فذلك قول الله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾[4]. فأحسنوا أعمالكم التي تعملونها لثواب الله». قال الراوي وهو محمد بن مسلم:

قلت: وما الإحسان؟ قال: «إذا صليت فأحسن ركوعك وسجودك، وإذا صمت فتوق ما فيه فساد صومك، وإذا حججت فتوق كل ما يحرم عليك في حجتك وعمرتك»، قال: وكل عمل تعمله فليكن نقياً من الدنس»[5].

ويوجه الإنسان إلى العمل الصالح، وطرق الهدى في ضوء القرآن فيقول: «إن الله تعالى لا يقبل إلا العمل الصالح، ولا يقبل الله إلا الوفاء بالشروط والعهود، فمن وفى لله بشرطه، واستعمل ما وصف في عهده، نال ما عنده، واستكمل وعده، إن الله تبارك وتعالى أخبر العباد بطرق الهدى،

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) الطباطبائي: الميزان ٣٤٨/٧ ـ ٣٤٩، وانظر مصادره.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة البقرة: ٢٦١.

(٥) ظ: العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

وشرع لهم فيها المنار، وأخبرهم كيف يسلكون فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

فمن اتقى الله فيما أمره لقي الله مؤمناً بما جاء به محمد ﷺ »[3].

وفي سياق تهذيب النفس من الشح، وتطهيرها من الذنب، والإعراض عن اللغو، والدعوة إلى التواضع والقناعة وسواهما من المآثر، نضع أيدينا على اللمسات الآتية:

أ) في قوله تعالى: ﴿..وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4].

يقول الإمام: **«الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده، والشحيح يشح بما في أيدي الناس، وعلى ما في يده، حتى لا يرى ما في أيدي الناس شيئاً إلاّ تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه الله ﷻ»**[5].

ب) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ..﴾[6].

أوجز الإمام التعبير عنها ببلاغته المعهودة فقال: **«يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود له»**[7].

ج) وفي تفسير اللغو والإعراض عنه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[8].

---

(١) سورة طه: ٨٢.
(٢) سورة المائدة: ٢٧.
(٣) الطباطبائي: الميزان ١٤/١٩٩.
(٤) سورة الحشر: ٩.
(٥) ظ: الميزان: تفسيره للآية وانظر مصدره.
(٦) سورة التحريم: ٨.
(٧) الطباطبائي: الميزان ١٩/٣٢١.
(٨) سورة المؤمنون: ٩.

قال الإمام عليه السلام: **«أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك، فتعرض عنه لله»**[١].

د) وفي رصد سجية الإنسان، وتواضعه لدى قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٢].

قال الإمام: **«هو الرجل يمشي بسجيته التي جُبل عليها، لا يتكلّف، ولا يتبختر»**[٣].

ويقف الإمام بنفس الملحظ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[٤].

يقول الإمام: أي لا تمل وجهك عن الناس بكل، ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به[٥].

هـ) وفي الإنابة لله تعالى، وخوف مقامه الكريم، ونهي النفس عن الهوى في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[٦].

قال الإمام: **«من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعلمه من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذاك الذي خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى»**[٧].

ويؤكد الإمام على ثلاثة مراصد: العمل، والصبر، والتقوى:

---

(١) الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره للآية.
(٢) سورة الفرقان: ٦٣.
(٣) الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره للآية.
(٤) سورة لقمان: ١٨.
(٥) الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره للآية.
(٦) سورة النازعات: ٤٠.
(٧) الطباطبائي: الميزان ١٩٥/٢٠، وانظر مصدره.

أ) فالعمل بنوعيته وإصابته من خلال قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]، قال الإمام: «ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الإصابة خشية الله، والنية الصادقة والخشية».

وأضاف الإمام: «الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، ألا والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله، ألا وإن النية العمل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[2] يعني على نيته»[3].

ب) وفي تحبيب الصبر للإنسان، روى عبد الله بن سنان عن الصادق قوله: «قال رسول الله ﷺ: إذا نشرت الدواوين، ونصبت الموازين، لم ينصب لأهل البلاء ميزان، ولم ينشر لهم ديوان، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4]»[5].

ج) وجمع الإمام ملاك التقوى، والخشية، والحذر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ..﴾[6].

قال عليه السلام: «اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب، وما خلفكم من العقوبة»[7].

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول دون مغالاة: إن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يعتبر من الروّاد الأوائل الذين عنوا برعاية النفس

(١) سورة الملك: ٢.
(٢) سورة الإسراء: ٨٤.
(٣) باقر شريف القريشي: حياة الإمام الصادق ٣/١٦٧.
(٤) سورة الزمر: ١٠.
(٥) الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره للآية.
(٦) سورة يس: ٤٥.
(٧) الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره للآية.

الإنسانية، وحرص على تهذيبها وتوجيهها وإدارة حياتها الروحية ضمن المنطق الأمثل الذي تصبوا إليه البشرية جمعاء في تاريخها الحضاري.

كما يمكن القول بكل تأكيد إن هذا المنهج الذي دعا إليه الإمام فيما سبق من شذرات وإشارات، يعتبر جزءاً مهماً من فروع مدرسة أهل البيت في البناء والأصالة وإحياء القيم العليا.

كما يمكن القول بأن هذه الوصايا والنصائح هي خلاصة ما توصل إليه الدعاة إلى الله في تمهيد السبيل بين يدي السالكين إليه بكل يسر وتلقائية دون تطرّف أو إفراط.

## آيات الأحكام:

والقرآن الكريم هو الأصل الأول لاستنباط الأحكام الشرعية، وما ورد فيه من الأحكام يشكل مجموعة (فقه القرآن) على ما اصطلح عليه العلماء. وليس لكل أحد استخراج الحكم من القرآن مباشرة، ففي القرآن المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين..

وإنما يوكل أمر ذلك إلى الراسخين في العلم من أئمة أهل البيت، وفي ضوء فهمهم للقرآن يتفرغ الفقهاء والمجتهدون لاستنباط تلك الأحكام.

وكان الإمام الصادق معنياً بهذا الجانب، فيسئل عن الآية أو إبعاضها، مما فيه حكم شرعي، فيجيب بوضوح لا لبس فيه، وفي إجابته الدقة والتحديد.

فقد سئل عن السعي بين الصفا والمروة، هل هما سنة أو فريضة، فقال عليه السلام: «فريضة»، فقيل له: أوليس الله عز وجل قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[1].

قال عليه السلام: **«إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة، فتشاغل رجل من أصحابه حتى أعيدت الأصنام فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[2]»**[3].

وروى معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

**«بعدما طاف النبي بالبيت وصلى ركعتيه، قال ؟: إن الصفا والمروة من شعائر الله، فابدأ بما بدأ الله عز وجل، وإن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ..﴾[4]»**[5].

وحدد الإمام الباغي والعادي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6].

وقد تناول الإمام تحديد الباغي والعادي في عدة مفاهيم يلتقي بعضها ببعض:

---

(١) سورة البقرة: ١٥٨.

(٢) سورة البقرة: ١٥٨.

(٣) ظ: العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

(٤) سورة البقرة: ١٥٨.

(٥) ظ: الطباطبائي: الميزان، تفسيره للآية نقلاً عن الكافي.

(٦) سورة البقرة: ١٧٣.

أ) قال عليه السلام: «الباغي الخارج على الإمام، والعادي اللص»[١].

ب) قال عليه السلام: «الباغي الظالم، والعادي الغاصب»[٢].

ج) قال عليه السلام: «الباغي باغي الصيد، والعادي السارق، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرا إليها، هي حرام عليهما، ليس هي عليهما كما هي على المسلمين، وليس لهما أن يقصرا في الصلاة»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ..﴾[٥].

قال الإمام فيما يروى عنه: «إذا الرجل أوصى بوصيته فلا يجوز للوصي أن يغيّر وصية يوصيها، بل يمضيها على ما أوصى، إلاّ أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصية ويظلم، فالموصى إليه جائز له أن يردّه إلى الحق، مثل رجل له ورثة، فيجعل المال كلّه لبعض ورثته ويحرم بعضاً، فالوصي جائز له أن يرده إلى الحق، وهو قوله: «جنفاً أو إثماً» والجنف: الميل إلى بعض ورثته دون بعض، والإثم أن يأمر بعمارة بيوت النيران، واتخاذ المسكر، فيحلّ للوصي أن لا يعمل بشيء من ذلك»[٦].

وفي قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ﴾[٧].

---

(١) ظ: الطباطبائي: الميزان ٤٢٧/١ وانظر مصدره.

(٢) العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

(٣) ظ: الطباطبائي: الميزان ٤٢٧/١ وانظر مصدره.

(٤) سورة البقرة: ١٨٠.

(٥) سورة البقرة: ١٨٢.

(٦) ظ: القمي: التفسير، تفسيره للآية.

(٧) سورة البقرة: ١٨٧.

أورد الإمــام حكم الآية وســبب نزولها فيما روي عنــه أنه قال: كان الأكل والنكاح محرمين في شهر رمضان بالليل بعد النوم، يعني كل من صلى العشاء ونام ولم يفطر ثم انتبه حرم عليه الإفطار.

وكان النكاح حرامــاً بالليل والنهار في شــهر رمضــان، وكان رجل من أصحاب رســول الله ﷺ يقال له: خوات بن جبيــر الأنصاري، أخو عبد الله بــن جبير الــذي كان رســول الله ﷺ وكّله بنعم الشــعب يوم أحد في خمســين رجلاً من الرماة، ففارقه أصحابه، وبقي في اثني عشر رجلاً فقتل على باب الشــعب، وكان أخوه هذا خوات بن جبير شــيخاً كبيراً ضعيفــاً، وكان صائماً مع رســول الله في الخندق، فجــاء إلى أهله حين أمســى فقال: عندكم طعام؟ فقالوا: لا تنم حتــى نصنع لك طعاماً. فأبطأت عليه أهلــه بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلمــا انتبه قال لأهله قد حرم عليّ الأكل في هذه الليلة، فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمي عليه، فرآه رسول الله فرقّ له، وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان، فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[1].

فأحل الله تبارك وتعالى النكاح بالليل من شهر رمضان، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر، لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[2].

قال: «هو بياض النهار من سواد الليل»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ..﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة: ١٨٧.

(٣) القمي: التفسير، تفسيره للآية.

(٤) سورة البقرة: ١٩٦.

روى الإمام الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام قال: **«فإن تمام الحج أن لا يرفث، ولا يفسق، ولا يجادل»**(١).

وهذا من تفسير القرآن بالقرآن لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾(٢).

وقد صرّح الإمام بالمراد من إتمامهما بقوله: **«المراد بإتمامهما أداؤها، واتّقاء ما يتقي المحرم فيهما»**(٣).

وأعطى الإمام معاني مفردات الآية فقال: **«الرفث الجماع، والفسوق الكذب والسباب، والجدال قول الرجل: لا والله، وبلى والله»**(٤).

وتحدث الإمام عن تحريم الخمر وأحكامه، وما يترتب عليه من آثار عند الله من خلال قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(٥).

فروى الإمام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: **«إن الخمر رأس كل إثم»**(٦).

وروى قوله ٢: **«ملعون ملعون من جلس على مائدة يشرب عليها الخمر»**(٧).

---

(١) العياشي: التفسير، تفسيره للآية.
(٢) سورة البقرة: ١٩٧.
(٣) الطباطبائي: الميزان ٨٣/٢.
(٤) المصدر نفسه: ٨٥/٢ وانظر مصدره.
(٥) سورة البقرة: ٢١٩.
(٦) ظ: الطباطبائي: الميزان ١٩٩/٢ وانظر مصدره.
(٧) المصدر نفسه.

وروى عن جده أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أقسم ربي ﷻ لا يشرب عبد لي خمراً في الدنيا إلاّ سقيته يوم القيامة مثل ما شرب منها من الحميم، معذباً يعدّ أو مغفوراً له.

ثم قال: إن شارب الخمر يجيء يوم القيامة مسودّاً وجهه، مزرقة عيناه، مائلاً شدقه، سائلاً لعابه، والغاً لسانه من قفاه»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ..﴾[2].

أبان الإمام حكم المرأة الطالق قبل الدخول بها، فقال: **«إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلها نصف مهرها، وإن لم يكن سمّى لها مهراً فمتاع بالمعروف على الموسّع قدره، وعلى المقتر قدره، وليس لها عدّة، وتتزوج من شاءت من ساعتها»**[3].

وفي تحريم الربا من خلال قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[4].

قال الإمام: **«إنما شدّد في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف قرضاً أو رفداً»**[5].

وقد أبان الإمام عليه السلام في هذا الطرح الأثر الاجتماعي والعلة الإنسانية في تحريم الربا، وقد روى عن جده رسول الله ﷺ قوله: «لما أسري

---

(1) المصدر نفسه: ٢/٢٠٠ وانظر مصدره.
(2) سورة البقرة: ٢٣٦.
(3) العياشي: التفسير، تفسيره للآية.
(4) سورة البقرة: ٢٧٥.
(5) الطبرسي: مجمع البيان، تفسيره للآية.

بي إلى السماء؛ رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فما يقدر أن يقوم من عظم بطنه؛ فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا، ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ..﴾(١).

وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً، ويقولون: ربنا متى تقوم الساعة(٢).

وفي تعدد الزوجات من خلال قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ..﴾(٣).

قال الإمام عليه السلام: **«لا يحل لماء الرجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر»**(٤).

وقال عليه السلام: **«إذا جمع الرجل أربعاً فطلّق إحداهن، فلا يتزوج الخامسة حتى تنقضي عدة المرأة التي طلقها»**(٥).

وفي تحريم الميتة وتوابعها تحدث الإمام من خلال قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ..﴾(٦).

وقد سأله بعض أصحابه، فقال له: جعلت فداك لم حرم الله الميتة والدم ولحم الخنزير؟

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٥.

(٢) القمي: التفسير، تفسيره للآية.

(٣) سورة النساء: ٣.

(٤) العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

(٥) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ٣/٥٤ يرويه عن فروع الكافي.

(٦) سورة المائدة: ٣.

**فقال عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لم يحرم ذلك على عباده، وأحلّ لهم ما سواه من رغبة منه - تبارك وتعالى - فيما حرّم عليهم، ولا زهد فيما أحلّ لهم، ولكنه خلق الخلق، وعلم ما يقوم به أبدانهم وما يصلحهم، فأحله وأباحه تفضلاً منه عليهم لمصلحتهم، وعلم ما يضرهم فنهاهم عنه، وحرمه عليهم، ثم أباحه للمضطر، وأحله لهم في الوقت الذي لا يقوم بدنه إلا به، فأمره أن ينال منه بقدر البلغة لا غير».**

ثم قال عليه السلام: «أمّا الميتة فإنه لا يدنو منها أحد، ولا يأكلها إلا (من)[1] ضعف بدنه، ونحل جسمه، ووهنت قوته، وانقطع نسله، ولا يموت آكل الميتة إلا فجأة.

وأما الدم فيورث الكلب، وقسوة القلب، وقلة الرأفة، ولا يؤمن أن يقتل ولده ووالديه، ولا يؤمن على حميمه، ولا يؤمن على من صحبه.

وأمّا لحم الخنزير، فإن الله مسخ قوماً في صور شتى: الخنزير، والقرد، والدب. وما كان من الأمساخ، ثم نهى عن أكل مثله لكي لا ينفع بها، ولا يستخف بعقوبته»[2].

ويبدو أن الإمام عليه السلام قد وجد المناخ متسعاً وهو يتحدث عن علة تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، فتحدث عن علة تحريم الخمر في هذا السياق، فقال:

**«وأمّا الخمر فإنه حرمها لفعلها وفسادها، وقال: إن مدمن الخمر كعابد الوثن، ويورثه ارتعاشاً، ويذهب بنوره، وتهدم مروءته، ويحمله أن يكسب من المحارم من**

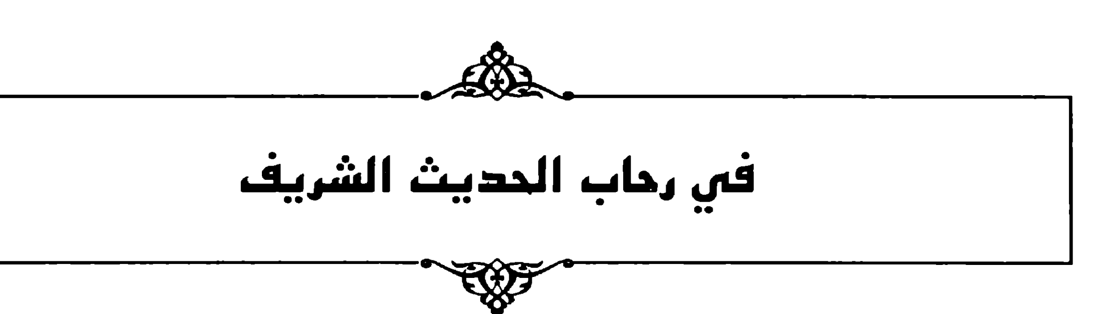
(١) يبدو لي أن (من) هنا زائدة، ولعلها من اشتباه الناسخ أو الراوي.
(٢) العياشي: التفسير، تفسيره للآية.

**سفك الدماء. وركوب الزنا، ولا يؤمن إذا سكر أن يثب على حرمه وهو لا يعقل ذلك، والخمر لم يؤد شاربها إلاّ إلى كل شر»**[1].

إن فقه القرآن فيما أثر عن الإمام الصادق باب كبير متسع الفروع، لا ينهض به هذا البحث، وهو يصلح أن تنهض به رسالة متكاملة متعددة الفصول، وما أوردناه كان على سبيل النموذج لا الإحصاء.

---

(١) المصدر نفسه.



# في رحاب الحديث الشريف

## الإمام يشرف على حركة التدوين:

مني العالم الإسلامي بخسارة كبرى حينما طغت ظاهرة الابتعاد عن الموروث الحضاري، نتيجة حملة مضادّة لتدوين الحديث الشريف، إذ كان الاتجاه العام لدى مرجعية الصحابة: المنع من تدوين الحديث، بل المنع من روايته أيضاً إلاّ في حدود لا تتعارض مع السياسة القائمة للصحابة، ولا نريد أن نبحث أسباب ذلك فهي معروفة لكل ذي عقل حصيف، كان أهمها السيل المتدافع من الأحاديث المؤكدة لمرجعية أهل البيت، وهذا ما يتقاطع مع الأسس التي وضعت لمرجعية الصحابة بدلاً من أئمة أهل البيت.

ومهما يكن من أمر، فقد كان المنع صادراً من أبي بكر رضي الله عنه أولاً، وذلك حينما قال للصحابة: **«لا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه»**[1].

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٣/١.

وأمّا عمر رضي الله عنه فأراد أن يكتب السنّة، ثم بدا له أن لا يكتبها، وكتب إلى الأمصار: «**من كان عنده شيء منها فليمحه**»(١).

وكانت درّة عمر رضي الله عنه تتبع أقواله عملياً، فيضرب أبا هريرة، وينهى ابن مسعود، وقد يجد في السجن تأديباً لجملة من الرواة فيما نقل الذهبي: «**أن عمر حبس ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا مسعود الأنصاري قائلاً: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله**»(٢).

وهو الذي أحرق الأحاديث المكتوبة قائلاً: «**مثناة كمثناة أهل الكتاب**»(٣).

وحصل التمرد على هذا الحظر في عهد عثمان رضي الله عنه بحدود معيّنة، فحضر في الميدان أبو هريرة الدوسي، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وأضرابهم من الوضّاعين. وأرسل عثمان إلى أبي هريرة الانتهاء عن الحديث، وإلا ألحقه بجبال دوس، وكتب إلى كعب الأحبار: «**لتنتهين أو لألقينك بجبال القردة**»(٤).

وكان عصر أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام عصر فتن وملاحم وحروب، وعهد صراع دائب بين قوى الحق وقوى الباطل، فقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

ومع هذا الانفجار استطاع جملة من أوليائه والمقربين تدوين بعض المرويات، على حذر شديد، كان أبرزها كتاب سليم بن قيس الهلالي.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢٦/١.

(٢) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٧/١.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١٨٨/١.

(٤) مرتضى العسكري: معالم المدرستين ١٠٠/٢.

أمّا الحكم الأمـوي؛ فلم يكن للعلـم فيه أي منـار، وكان الاهتمام منصبّاً على تدوين الشـعر والنقائـض، ورواية أخبـار الجاهلية وأمجاد القـوم، ودفع العصبيـة القبلية شـوطاً بعيداً فـي قلب موازيـن التفكير الاجتماعي، والحيلولة دون احتضان أية فضيلة ثقافية، أو الصيرورة إلى أي مناخ علمي، وإن حصل ذلك فمراغمة على الحكم وبجهد ذاتي من حَمَلة الدين.

نعم فتح الحكم باب الوضع والانتحال على مصراعيه، فكان الكذب المتعمد على رسول الله ﷺ تضج به المسـاجد والدواوين رغم تحذير النبي ﷺ من ذلك، وإخباره عنه بقوله: «**من تعمّد علـيّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

وقـد تولى كبر هـذا الكـذب الصريح علـى رسـول الله ﷺ وفي عهد معاوية بن أبي سـفيان ثلاثة مـن أعرق الناس خيانةً لله ولرسـوله، أشـرنا لهم قبل قليل وهم: أبو هريـرة، كعب الأحبار، وهـب بن منبه، فضجت المرويات بصخب من الحشـد الانتحالي الهائـل، وغرقت في بحر مائج من الأكاذيب والإسـرائيليات. وقد عمد طغـاة الحاكمين إلى إضفاء هالة من القداسـة على هذا الثلاثـي، وإعطاء صفـة الموضوعية لأحاديثهـم المنتحلة، حتى كثر ذلك بشـكل لا معقـول، فقد صحّ عن أبي هريرة وحده في الصحاح، وهو متسـولٌ في الصفة (٥٣٧٤) خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسـبعين حديثاً، وعن خادم رسـول الله أنس بن مالك (٢٢٨٦) ألفـان ومائتان وسـتة وثمانون حديثاً، وهـو يتولى مهمة البوّاب فحسب[2].

---

(١) مسلم: الجامع الصحيح ٧/١.

(٢) أسماء الصحابة والرواة: ٣٩.

وأمّا فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وابنة صاحب الرسالة محمد ﷺ فقد ذكر محقق مسندها للسيوطي الأستاذ أحمد زمرلي قائلاً: «**صحّ من حديثها اثنان فقط**»(١).

وأمّا أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي نشأ في ظل الوحي، وفي حجر رسول الله ﷺ، وهو أخوه وصنوه وصهره، وصاحب لوائه في مشاهده كلها، وملازمه ملازمة الظل للشاخص في حياته كلها؛ فلم يصح له إلا خمسون حديثاً عند محدثي الجمهور، وروى منها البخاري في صحيحه عشرين حديثاً فقط. فأين ذهب قول رسول الله ﷺ: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأتِ الباب**»، وهذا الحديث ـ فضلاً عن بقية الأحاديث في علم علي وعدله وقضائه وفضله ـ قد صححه اثنان وعشرون إماماً من علماء السنة، فضلاً عن إجماع الإمامية عليه، وهو مرويٌّ عن مائة وثلاثة وأربعين من مصادر الجمهور(٢).

أمّا الإمام الحسن عليه السلام فقد روي عنه في كل الصحاح ثلاثة عشر حديثاً(٣).

وأمّا الإمام الحسين سيد الشهداء فقد رويت عنه في كل الصحاح ثمانية أحاديث(٤).

---

(١) المصدر نفسه: ١٣٠.

(٢) ظ: الذهبي: ميزان الاعتدال ١/٤١٥، الترمذي: الصحيح ٥/٣٠١، الحمويني: فرائد السمطين ١/٩٨، أبو نعيم: حلية الأولياء ١/٦٣، الأميني: الغدير ١/٦١ـ٧٧.

(٣) أسماء الصحابة والرواة: ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٧.

وأمّا فـي الفقه، فقد ذكـر بعض المتتبعيـن أنه عثر علـى حديثين فقـط مرويين عـن الإمام الحسـين عليه السلام فـي كل الروايـات الفقهية في كتب الصحاح[1].

وأمّا سلسـلة الأحاديـث الذهبية عن الإمـام زين العابديـن والإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق عن آبائهـم عليهم السلام فلن تجد لها ذكراً إلا نـادراً؛ في حيـن نجد البخـاري في صحيحـه يروي عـن الخوارج ومـروان بن الحكـم، وزياد بـن أبيه وسـواهم مـن المنبوذيـن حديثاً عند المسـلمين، ولا يـروي حديثاً واحـداً للإمام الصـادق عليه السلام، حتى قال الشاعر:

قـضـيـةٌ أشـبـه بـالـمـرزأه
هـذا الـبـخـاريُّ إمـام الـفـئـةْ
بـالـصـادق الـصـدّيـق مـا احـتـج في
صـحـيـحـه.. واحـتـج بـالـمـرجـئـةْ
ومـثـل عـمـران بـن حـطّـان.. أو
مـروان.. وابـن الـمـرأة الـمـخـطـئـةْ
مـشـكـلـة ذات عـوار.. إلـى
حـيـرة أربـاب الـنـهـى مُـلـجـئـةْ
وحـقِّ بـيـتٍ يـمـمـتـه الـورى
مـغـذةً فـي الـسـيـر أو مـبـطـئـةْ
إن الإمـام الـصـادق الـمـجـتـبـى
بـفـضـلـه الآي أتـت سـنـبـئـةْ

(١) ظ: الطباطبائي: الميزان ٦/٢٧٥.

**أجـــلُّ مـــن فـــي عـــصـــره رتـــبـــةً**
**لـــم يـــقـــتـــرف فـــي عـــمـــره ســيـئـةْ**
**قـــلامـــةٌ مـــن ظُـــفـــرِ إبـــهـــامِـــهِ**
**تـــعـــدل مـــن مـــثـــل الـــبـــخـــاري مـــئـــةْ**[1]

وقد حاول الأستاذ الأزهري الشيخ محمد أبو زهرة الاعتذار عن البخاري في عدم روايته عن الإمام، فقال: **«إن البخاري لا يشك في صدقه - الضمير يعود للإمام الصادق - وهو صاحب المقام الجليل في الإسلام، ولكن موضع الشك هو السند المتصل به، أي الرواة الذين يوصلون السند إليه»**[2].

وقد عقّب الأستاذ الشيخ محمد حسن آل ياسين على هذا الاعتذار بقوله: **«ولكن هذا الشيخ المفضال لم يوفق في دفاعه عن البخاري، ولم يقدم لنا سبباً مقبولاً، أو وجيهاً مقنعاً لهذا الإعراض، لأننا نقول له على تعليله العليل: إذا كان موضع الشك هو شيعة الإمام الذين يروون عنه، فلماذا لم يرو عن طريق أبي حنيفة، ومالك، والسفيانين، ويحيى بن سعيد، وأضرابهم، ممن لم يكونوا من شيعته، وليسوا موضع الشك لديه»**[3].

وهكذا الأمر بالنسبة لأئمة أهل البيت أجمع.

بينما نجد في قبال هذا الإكثار من الرواية والحديث بأباطيل ملئت زيفاً وكذباً، لتنال من أبرز قادة أهل البيت، فكيف نتوقع من أمثال هؤلاء الرواة الاستقامة والقصد والاعتدال.

---

(١) الحضرمي: محمد بن عقيل، النصائح الكافية ٩٣.

(٢) محمد أبو زهرة: الإمام الصادق ٢٥٢.

(٣) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ١٠٥.

حدث أبو جعفر الإسكافي فقال: **«إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ عليه السلام، تقتضي الطعن فيه، والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، فيهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»**(١).

والأعجب من هذا أن يجعل معاوية بدلاً يبلغ أربعمائة ألف درهم لسمرة بن جندب، ليزوّر أسباب النزول لآيتين من القرآن العظيم، يعتبر في أحدهما فيما يروي علياً عليه السلام: **(ألدّ الخصام)**.

ويعتبر في الثانية قاتله عبد الرحمن بن ملجم ممن ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وسيّرت الأحاديث المزوّرة في فضائل الصحابة وبني أمية غمزاً في أئمة أهل البيت عليهم السلام في هدف مركزي، حتى قال ابن عرفة المعروف بنفطويه: **«إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة، افتعلت أيام بني أمية تقرباً إليهم، بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم»**(٣).

هذه الجناية التي اقترفت في تزوير الأحاديث، غيّرت البنية الواقعية للإسلام، واستبدلته بمفاهيم ناشزة تقترب من حملات التشهير السياسي.

وهدأت هذه العاصفة الهوجاء نسبياً في عهد عمر بن عبد العزيز، واستعيض عنها بعده بأحاديث الغناء والجواري والمخنثين حتى أجهز ذلك على الحكم الأموي حتى إذا جاء بنو العباس أعيدت القضايا جذعة بألسنة المحدثين الرسميين ووعاظ السلاطين، فانحرفوا

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٤/٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ٤/٧٣.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١١/٤٦.

بالحديث إلى ما يوافق رغبة الحاكمين، وكان الفراغ العلمي في البلاط العباسي يضطره إلى تقريب عناصر التزوير وخلق الأحاديث في بني العباس خاصة؛ في هدف مزدوج: الابتعاد عن أهل البيت عليهم السلام أولاً، والاستظهار لبني العباس بأمجاد لم تكن ثانياً.

لقي هذا الاتجاه الخطير قبولاً في أروقة النظام العباسي، والدولة معها المال والسلاح، وهما عنصران مهمّان في الترغيب والترهيب.

إلا أن الاتساع الثقافي جغرافياً، وامتزاج الحضارات فكرياً، فتح باباً من الحرية العلمية شاء الحاكمون أم أبوا، فغصت الساحة بالعلماء، والحكم في دور التأسيس منصرف لبناء كيانه، فاتجه قادة الفكر علمياً، واتجه العباسيون إدارياً، وما أن تمكن أبو جعفر المنصور من بناء بغداد حتى اتسعت الدائرة العلمية، ومن هنا كان الانفتاح الشامل لمدرسة الإمام الصادق قد أخذ شوطاً بعيداً في بناء قواعده، واستوعب آلاف الدارسين، ومئات الباحثين، وعشرات المصنفين، فأسقط في يد النظام.

وسارع الإمام الصادق عليه السلام بالأمر بتدوين المعارف الإلهية والإنسانية، فاستجاب له التلامذة المتميزون، فكانت رؤية مجهرية فتح بها مغاليق البحث العلمي، وهو يدوّن كتابة، ويحرّر تصنيفاً، ويقيّد في الصحف. فكان هذا التخطيط مما حفظ التراث الإسلامي من الضياع، وبقي شارةً لامعةً في خضم تيارات التاريخ تشمخ بشرف الأمة العلمي.

وكانت أسبقية الإمام الصادق عليه السلام لهذا المضمار تفصح بأنه الداعية الأول للتدوين فيما أفاض به من وصايا ونصائح تؤكد هذا الإصرار، منها:

١ـ اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا.

٢ـ اكتب وبثّ علمك في إخوانك، فإن متّ فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمانٌ هرجٍ لا يأنسون إلا بكتبهم.

٣ـ القلب يتّكل على الكتابة.

٤ـ احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها[1].

وكان هذا الحق المنظّم مدعاة لتدوين أحاديث أهل البيت، وسبيلاً إلى ادخارها في بطون الكتب بما يدرأ الضياع وطوارق الحدثان.

روى أبو بصير، عن الإمام الصادق قوله:

**«ما يمنعكم من الكتابة؟ إنكم لن تحفظوا حتى تكتبوا، إنه خرج من عندي رهط من أهل البصرة يسألون عن أشياء فكتبوها»**[2].

بل ذهب الإمام إلى أكثر من هذا، فطلب من تلميذه جابر بن حيّان الكوفي، أن يخترع قرطاساً لا تفنيه النار، لأن عنده مؤلفاً عزيزاً عليه، فاخترع جابر قرطاساً لا تبليه النار، فكتب الإمام الصادق كتابه بخط يده، وألقاه في التنور، وكان موقداً فلم يتأثر بشيء[3].

ونتج عن هذه الأوامر الهادفة، وهذا التحرز الشديد على التدوين، وهذا التوجيه لحفظ الكتب من العطب أن برزت ظاهرتان إيجابيتان هما:

الأولى: انتشار التأليف في حقول المعرفة بين تلامذة الإمام، لما لمسوه من الحضّ على ذلك، والتشجيع لبوادر التأليف، وهو ما حفلت

(١) ظ: الكليني: الكافي ٥٢/١، المجلسي: البحار ٢٦٥/٤٧.

(٢) ظ: الحر العاملي: وسائل الشيعة، كتاب الشهادات الباب الثامن.

(٣) ظ: باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق ١٣٧/١ وانظر مصادره.

بذكره المعاجم الببلغرافية، وكتب التراجم والأعلام والرجال، ومصنفات التفسير والحديث والعلم التجريبي والإنسانيات، وسوى ذلك من الآثار..

الثانية: الإفراز والتبويب والتصنيف لأحاديث النبي ﷺ وأحاديث أهل البيت عليهم السلام مسندة إليهم، فكان أن جمعت الأصول الأربعمائة التي سمعت منهم مباشرة في أحاديثهم عليهم السلام، وفي ضوئها ألفت الكتب الأربعة الحديثية عند الإمامية، وهي:

١ـ الكافي أصولاً وفروعاً لمحمد بن يعقوب الكليني **(ت ٣٢٩هـ)**.

٢ـ من لا يحضره الفقيه لعلي بن الحسين الصدوق **(ت ٣٨١هـ)**.

٣ـ الاستبصار للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي **(ت ٤٦٠هـ)**.

٤ـ تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي نفسه.

وروايات هذه الكتب متصلة سنداً بالأئمة عليهم السلام، ولا نقطع بصحة كل ما في هذه الكتب، لأن كل رواية خاضعة للتقويم سنداً ومتناً وفق متطلبات علم الدراية وقواعده بضوابط دقيقة، تفرز ما عليه الرواة من العدالة والوثوق والصحة وبالعكس، والإمام الصادق نفسه قد أوضح معالم الطريق تجاه قبول الرواية أو ردّها بمعيار منهجي، فقال:

**«كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»**[1].

وروى الإمام الصادق عن جده رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) الكليني: الكافي ١/٦٩.

**«ما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»**[1].

وكان هـذا النظـام كفيـلاً بغربلـة الأحاديـث، وداعيـة لامتيـاز الصحيح منها.

وكانت دعوة الإمـام للتقيد بالتدويـن فاتحة عهد جديـد بين يدي العلماء والباحثين، وخرقاً للحظر السابق على تدوين الحديث، فنشطت ظاهرة التصنيف والتأليف، فكتبت المدوّنـات الحديثية من وجه، وثلثها كتب المعارف الإنسانية من وجه آخر.

وقد حفل تاريخ تلامذة الإمام بالاسـتباق إلى هـذه المبادرة، فانبروا بجدّ ونشـاط لا مثيل له في كتابة النوادر والآثار في الفنون كافةً، ونظرة فاحصة في كتاب (**الفهرسـت**) لابن النديم، على سبيل المثال، تستخرج في ضوئها أسـماء آلاف المصنفات الموضوعية لأصحاب الإمام الصادق في علوم منها: علوم القرآن، التفسـير، الحديث، الفقـه، اللغة، النحو، الأدب، التاريـخ، الجغرافيـا، الفلـك، الرياضيـات، الأحيـاء، الكيمياء، الفيزياء.. الخ.

هـذا العطـاء الضخـم يشـكل حجـر الزاويـة فـي بنـاء صـرح الحضارة الإسلامية.

يقول الأستاذ محمد جواد فضل الله: «وقد أعطى الإمام الصادق عليه السلام بدعوته هذه قدرة البقاء، واسـتمرارية العطاء والبـذل، وإليه يعود الفضل الأكبر فيما وصلنا من تراث فكري وعلمي أصيل.

---

(١) المصدر نفسه.

أمّا السبب الذي يجعلنا نلتزم بأن نشاط حركة التأليف والكتابة كان بتأثير من دعوته، هو أن الإمام كان أول من دعا لذلك علناً، وندب إليه تلامذته بإصرار.. وباعتبار الإمام كان بمثابة الأستاذ الأول في عصره، ومربي جيل العلم والمعرفة، فإن ذلك يعطيه قوة التأثير في الوسط الذي يخضع لرعايته وعنايته، فكان لدعوته ذلك الأثر الذي حفظ للفكر الإسلامي الأصيل أسسه وقوانينه التي يستمدها من عطاء الرسالة ومضمونها الصحيح.

إذن؛ الإمام الصادق عليه السلام كان رائد الفكر الإسلامي عطاءً وبقاءاً»[1].

ولم تكن توجيهات الإمام في التدوين حكراً على الإمامية، بل تجاوزتها إلى المذاهب عامة، فقد أفاد مالك بن أنس، وهو من تلامذة الإمام المرموقين، من هذه الدعوة الكريمة، فألف كتابه (**الموطأ**).

يقول الأستاذ دونلدسن أحد كبار المستشرقين:

«إذا ما تذكرنا أن مالك بن أنس (٩٤-١٧٩هـ) مصنف كتاب (**الموطأ**) كان معاصراً للإمام جعفر (**الصادق**) وقد سبق البخاري ومسلم بنحو قرنٍ، ظهر أن الإمام جعفراً هو الذي يعزى إليه القول في محص الحديث:

إن ما كان موافقاً لما في كتاب الله فاقبلوه، وما كان مخالفاً له فاتركوه»[2].

وكانت مهمة الإمام الأولى سدّ ثغرات التدهور الاجتماعي الذي أفرزته سلطنة الحاكمين الطغاة، فوهب نفسه للبناء الفكري عسى

---

(١) محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق خصائصه ومميزاته ١٥٢.

(٢) ظ: محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ١١٠ عن عقيدة الشيعة.

أن ينهض بالأمة من الانحطاط الذي أصاب العالم الإسلامي، فوثب بتلامذته إلى ذروة العطاء، وأعدّ لكل مهمة رجالها الأكفاء، فكان الإسراع إلى كتابة الحديث وتدوين المعارف، كما خطط لذلك رسول الله ﷺ من ذي قبل.

فقد روي أن النبي ﷺ أملى كتباً في الشرائع والأحكام، جهّز بها رسله وعمّاله في الأقطار المفتوحة؛ بعضها في الصدقات والفرائض، وقيل: أنها بلغت عشر صحائف[1].

وقد ورد عن الإمام الصادق، وهو يتحدث عن المخزون المعرفي في **(الجامعة)**: **«إنها من إملاء رسول الله ﷺ من فلق فيه، وخط علي بيمينه، فيها كلّ حلال وحرام، وكل شيء يحتاج إليه الناس، حتى الأرش في الخدش»**[2].

إن الحدث المهم في هذا الأمر، أن الإمام الصادق عليه السلام قد سبق إلى الأمر بالتدوين، ولم يحدثنا التاريخ الإسلامي عن دعوة مماثلة قبل دعوة الإمام، فكان الباعث الحقيقي لهذا الاتجاه، وكان الرائد الأول لحفظ التراث في الإسلام، وفي ظل هذا المنحى الفريد سلمت لنا أحاديث النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام ووصلت إلينا كتابة في السطور، وتدويناً في الكتب، بينما كانت تختفي بموت الحفظة الذين وعوها في الصدور.

وكان هذا التوجيه مما كتب السيرورة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، فما نالت منها يد الأحداث، ولا امتدت لها يد الخمول والإهمال، بل العكس هو الصحيح فمازالت قائمة ناصعة مشرقة، لا سيما أن فتح باب الاجتهاد يذكي من شرارتها، ويمدّها بالحرارة والحيوية جيلاً بعد جيل.

---

(١) ظ: محمود أبو رية: أضواء على السنة المحمدية ٢٣ وانظر مصدره.

(٢) ظ: الكليني: الكافي ١/٢٣٩.

ويعود الفضل الأول في هذه الظاهرة للإمام جعفر الصادق عليه السلام.

## رواة الحديث بين الجرح والتعديل:

سبق منّا القول أن كتب الحديث الأربعة، ومستدركاتها، وما جرى مجراها، تعد المصدر الرئيس لأحاديث أهل البيت عامة، وأحاديث الإمام الصادق وأبيه الإمام الباقر عليهما السلام خاصة، وهما المعبّر عنهما بالصادقين عند الرواة. ولهما اليد الطولى في إثراء هذه المدوّنات الحديثية وفرة واستيعاباً، بحكم الفترة الانتقالية التي مرّت بعصريهما المتقاربين.

وهذا الكنز الثمين من الأحاديث في شتى أبواب الفقه وفروعه، وبمختلف المعارف الإسلامية والإنسانية، يصل إلى عشرات الآلاف من الأحاديث التي يعرض سندها لمحاكمة الجرح والتعديل، فيبرز الأثر الصادق، وتتلاشى الموضوعات والأحاديث الضعيفة والمرسلة والمقطوعة والموقوفة، ويتمخض هذا كله عن زبدة التراث ومحضه، فهو إذن خاضع لعملية كبرى من الانتقاء والتصفية والطرح والاختيار، وبذلك يتم الضبط ويبدو التنقيح المضني الذي حدب على إبرازه الأئمة والمجتهدون والفقهاء وعلماء الحديث منذ أن أرجع الإمام المنتظر (عجل الله فرجه) المسلمين إلى رواة الحديث بشرائطه، فقال:

**«وأما الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم»**[1].

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة ١٨/١٠١.

ولمّا كانت معالم الدين تؤخذ من القرآن العظيم، ومن أحاديثهم الشريفة، كانت العناية بهما موضع تدقيق الباحثين.

وقد سبق البحث إلى الأصل الأول وهو القرآن، والحديث مخصص هنا للحديث باعتباره جزءاً من السنة التي هي فعل المعصوم أو قوله أو تقريره.

ولا يسلم الحديث الشريف إلا بدراسة رجال سنده دراسة مستفيضة فيما ينبغي أن يحققوه من الدرجة العالية في العدالة والتوثيق والصدق والأمانة والضبط، وترك ما دون ذلك، إلا إذا دعم الأثر المروي بالشهرة حيناً، وبعمل الأصحاب حيناً آخر.

ولعلّ الشيخ الأقدم أبو عمرو محمد بن عبد العزيز الكشي ـ وهو من علماء القرن الرابع ـ من أولئك الرجال القلائل الذين مهّدوا لتأسيس ملامح الجرح والتعديل في كتابه المسمى في معالم العلماء **(معرفة الناقلين عن الأئمة الطاهرين)** والمعروف بـ**(رجال الكشّي)**.

وقد أثار هذا الكتاب القيّم انتباه الدارسين، ولمّا كان قد يروى عن بعض الضعفاء، فقد عمد الشيخ الأكبر أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) إلى تنقيته من الشوائب، وتهذيبه من الاشتباه واللبس، فاختصره منقحاً، وسماه **(اختيار الرجال)** وإن اشتهر باسم **(رجال الكشّي)**.

والمعروف بين أصحاب الحديث، أن أصل الكتاب مفقود ولم يقفوا عليه، وأن المتداول اليوم هو اختيار الشيخ ﵀.

قال المحقق الشيخ عباس القمي: **«وصرح جماعة من أئمة هذا الفن: أن الموجود المتداول من رجال الكشّي من عصر العلامة إلى وقتنا هذا هو اختيار الشيخ الطوسي، وأما الأصل فذكر جماعة من المتتبعين أنهم لم يقفوا عليه»**[١].

ومما لا شك فيه أن من جاء بعد الكشّي قد أفاد مما أسس، فالشيخ الثبت المحقق أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد النجاشي **(ت ٤٥٠هـ)** ممن أفاد من منهجية الكشّي، فألف كتاب الرجال الذي اعتمدته الإمامية مصدراً مهمّاً في الكشف عن أحوال الرجال، وقد عدّ المحققون الشيخ النجاشي: **«من أعظم أركان الجرح والتعديل، وأعلم علماء هذا السبيل، وهو الرجل كل الرجل، لا يقاس بسواه، ولا يعدل بمن عداه، أجمع علماؤنا على الاعتماد عليه، وأطبقوا على الاستناد في أحوال الرجال إليه»**[٢].

والنجاشي صاحب منهج أصيل في التوثيق والتضعيف، وله فضل السبق في تقويم هذا الفن، إلا أن ناقداً خبيراً بأحوال الرجال، قد لمع نجمه في سماء علم الدراية هو: أبو الحسين أحمد بن الحسين بن عبيد الله المعروف بـ(ابن الغضائري) وله ينسب كتاب الضعفاء، وهو **«من المشايخ الأجلّة، والثقات الذين لا يحتاجون إلى التنصيص بالوثاقة، ويذكر المشايخ قوله في الرجال، ويعدونه من جملة الأقوال، ويأتون به في مقابلة أقوال أعاظم الرجال، ويعبّرون عنه بالشيخ، ويذكرونه مترحماً عليه، وهو المراد بابن الغضائري على الإطلاق»**[٣].

---

(١) عباس محمد رضا القمي: الكنى والألقاب ٣/١٠٠.
(٢) المرجع نفسه: ٣/٢٠٧.
(٣) المرجع نفسه: ١/٣٦٥.

وفيما تناثر ذكره فيما روي عن هذا الكتاب ـ وهو مفقود ـ مسحٌ شامل لأحوال الرواة الضعفاء، كما في الخلاصة للعلامة، ورجال ابن داود، ومجمع الرجال للقهبائي، وسواهم من الأكابر.

ـ وفي هذا الكتاب يقدّم ابن الغضائري أطروحة فريدة في الترجمة الفعلية لما عليه رجال السند ضعفاً وتوثيقاً من خلال المقارنة بين آراء العلماء السابقين، وأحسب أن مهمته في ذلك مهمة الناقد البصير الذي لا تفوته شطحات المحدثين. بيد أن جملة من المحققين يشككون بنسبة هذا الكتاب إليه، جرياً على عادتهم في تنزيه أكابر العلماء من الطعن في الآخرين، ولمّا كان أصل الكتاب مفقوداً، فإن أجزاءً مهمة منه متناثرة في أغلب كتب الرجال وعلماء الدراية.

ونظرة فاحصة فيما قدمته هذه الأجزاء والشذرات في المصادر الرجالية، ترتفع بمستوى ابن الغضائري الثقة الثبت الأمين عن مدرك الطعن المتعارف عند القوم، لأنه ذو غاية شريفة لخدمة الشريعة الغراء بأسمى مما يتصورون من الاستبعاد، فهو بإزاء الكشف عن أحوال الرجال بما لهم وما عليهم، لتصل كما هي سليمة جاهزة بعد التدقيق المضني إلى جهابذة الفن.

إن مؤلف كتاب **(الضعفاء)** يؤدي مهمة ما نسميه في عصرنا الحاضر ـ مع الفارق طبعاً ـ بـ**(مدير الأمن العام)** على حد تعبير أحد أعاظم المعاصرين، وهذا الادّعاء في تقريب وجهة النظر قد جاء أميناً بأدق معاني هذه الكلمة[1].

---

(١) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٢٦٦ بتصرف.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن سيدنا الأستاذ الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت١٤١٣هـ) قد طعن في نسبة كتاب ابن الغضائري له، وحكى عدم ثبوت نسبة الكتاب إليه[١].

وقد يؤيد هذا أن لغة القدح الواردة فيه بالرواة لم تكن متعارفة عند معاصريه، وهي متأخرة عن زمنه، ولكن قد يعارضه: أن الكتاب ومنهج ابن الغضائري قد لقي شهرة عظيمة مستفيضة بين الأصحاب، والله ﷻ هو العالم والعاصم.

ولم تزل ظاهرة الكشف عن أحوال الرواة، ووضع الرواية موضعها من القبول أو الرفض موضع عناية علماء الإمامية حتى اليوم، لما يترتب على ذلك من إصدار الحكم الشرعي لدى المجتهدين الأعاظم، زاد الله في شرفهم.

## مشكلة السند:

وتبقى مشكلة الإسناد في الأحاديث أساسية فيما يحققه علماء الرجال، فليس كل الرواة ثقات، وليس كل الرواة ضعافاً، بل فيهم وفيهم، وهناك دعوى التوثيق، وهناك دعوى التضعيف، ولكل منهما دلائله في الحكم على الراوي أو له، وقد بحثنا هذا الموضوع في (صحة الإسناد) في بحث سابق[٢].

وهنا نعطي خلاصة إجمالية في محاولة تبدد مصاعب هذه المشكلة استدراجاً.

---

(١) ظ: الخوئي: معجم رجال الحديث ١/١٢٧.

(٢) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٢٢٧.

لقد ذهب الكشي (رضوان الله عليه) أن جماعة من أصحاب الصادقين، قد أجمع القوم على وثاقتهم، وصدق قولهم، وتصديق رواياتهم، حتى انقادوا لهم بالفقه، فما ورد عنهم مضبوطاً في سنده كان صحيحاً في متنه، يبدو هذا من قوله: **«أجمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأولين من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، وانقادوا لهم بالفقه، فقالوا: أفقه الأولين ستة: زرارة، ومعروف بن خربوذ، وبريد، وأبو بصير الأسدي، والفضل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي»**[1].

ودعوى الكشي الإجماع على قبول ما ورد عنهم، كونهم لا يروون عن الضعاف، هذا ما دفع بالشيخ الطوسي إلى القول ـ فيما بحثه من خبر الواحد في العدّة ـ: **«وإذا كان أحد الراويين مسنداً، والآخر مرسلاً، نظر في حال المرسل؛ فإن كان ممن يعلم أنه لا يرسل إلا عن ثقة موثوق به، فلا ترجيح لخبر غيره على خبره، ولأجل ذلك سوّت الطائفة بين ما يرويه محمد بن أبي عمير، وصفوان بن يحيى، وأحمد بن أبي نصر، وغيرهم من الثقات الذين عرفوا بأنهم لا يروون، ولا يرسلون، إلاّ عمن يوثق به، وبين ما أسنده غيرهم»**[2].

وقد ترد على هذا الزعم في التسوية بعض التحفظات أبرزها:

١ـ إنّ هذا الزعم غير ثابت في حق محمد بن أبي عمير، لضياع كتبه وهلاكها.

٢ـ إنّ منشأ هذا الزعم هو دعوى الكشي الإجماع على تصحيح ما يصح عن هؤلاء.

---

(١) الكشي: رجال الكشي ٢٠٦.

(٢) ظ: الخوئي: معجم رجال الحديث ٧٥/١.

٣ـ إنّ هؤلاء جميعاً قد رويت عنهم المراسيل ولم يأخذ بها العلماء الأعلام، وعلى رأسهم الشيخ الطوسي في التهذيب والاستبصار، وهو القائل بوثاقتهم لما يروونه عن الثقات.

٤ـ إنّ هؤلاء الذين صُحح ما يروى عنهم، هم أنفسهم لم يدّعوا لأنفسهم ذلك.

٥ـ إنّه من المحتمل أن هؤلاء إنما يروون عمن لم يظهر منه فسق؛ وهذا شيء، والوثاقة شيء آخر[١].

على أن صحة الإسناد فيما يرويه هؤلاء قد تصطدم بغير الثقات، ويبرز على سطحها جملة من المضعّفين، أو ممن وصف بالضلال والإضلال.

يقول سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي رضي الله عنه:

«إن غاية ما يمكن أن يتوهم أن يكون راوية ثقة عن رجل دليلاً على اعتماده عليه، وأين هذا من التوثيق أو الشهادة على حسنه ومدحه..»[٢].

وحتى لو كان الراوي مزوّداً بوكالة من الإمام عليه السلام، فإن وكالته لا تستلزم عدالته أحياناً، فكم من خائنٍ من وكلاء الأئمة قد احتجن مال الله والمسلمين لنفسه، فسقطت عدالته، ولم يؤخذ بروايته، وكم من كاذب على الإمام أو غالٍ فيه نزعت الثقة منه، وخرج التوقيع بذمّه أو كفره أو ضلاله، نعم هناك من الوكلاء من صدر توثيقهم مؤكداً، وأجمع على عدالتهم والأخذ منهم، والرجوع إليهم في أمر الدنيا والدين، كما في توثيق حاجز بن يزيد حينما شكك فيه الحسن ابن عبد الحميد

(١) ظ: الخوئي: معجم رجال الحديث ٧٧/١ بتصرف.

(٢) المرجع نفسه: ٨٥/١.

**بقوله: «شــككت في أمر حاجز، فجمعت شيئاً ثم صرت إلى العســكر، فخرج إلي: - يعني توقيع الإمام - ليس فينا شــك، ولا في من يقوم مقامنا بأمرنا، ردّ ما معك إلى حاجز بن يزيد».**

وقــد رواه الكليني فــي الكافــي، والمفيد فــي الإرشــاد، والخوئي في المعجم[1].

وفي ضوء ما تقدم يبدو أن مشكلة السند، ووثاقة الرواة وتضعيفهم، قد أكبّ علماء الجرح والتعديل على مدارســتها، وتمحضوا بمقرراتهم للانتهــاء مــن حلولها، ذلــك في مقــام الاحتيــاط لأحاديــث أئمة أهل البيت عليهم السلام، والاحتراز التام مــن الكذب والدس والاشــتباه، وتلك مهمة صعبة المراس لا ينهض بها إلا القلائل الأفذاذ من الرجال.

وقد وفق الله تعالى المتقدمين منهم في فرز مــا وثّقوه وضعّفوه من الرواة، ووفق المتأخرين منهم إلى إكمال المسيرة وإدراك الغاية.

فــكان مــا حققــه القدامــى أمثــال الكشــي، والنجاشــي، والمفيد، والطوســي، وابن الغضائري، والعلامة، وابن داود، والقهبائي وأضرابهم، هو الأصل لهذا الفن.

ولقد توّج أعمالهم وســار بركابهم من المتأخرين السيد بحر العلوم في **(الفوائد الرجالية)**، والخوانســاري فــي **(روضات الجنــات)**، والمحقق النوري في **(المستدرك)** وســواه، والمامقاني في **(إتقان المقال)**، وأمثالهم ممن لم نذكره اكتفاءً.

---

(١) ظ : الخوئي : معجم رجال الحديث ٨٨/١ .

إن عمل رجال الحديث وجهابذته يعدّ دون أدنى شك، خطوة حضارية، تتسم بالجدّية والمثابرة، عناية منها بتنقية أسانيد أحاديث الأئمة والعودة إلى أصولها[1].

ومع اتساع كتب الرجال بالشكل الذي ذكرناه، فإنها قد ختمت بالموسوعة الجليلة الرائدة **(معجم رجال الحديث)** في ثلاثة وعشرين مجلداً، بقلم سيدنا الأستاذ الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي النجفي (ت ١٤١٣هـ)، بما يمكن عدّه ـ دون تعصّب أو مغالاة ـ فتحاً جديداً في عالم الرواة وحياة التوثيق، وتوسعاً نموذجياً في معالم الجرح والتعديل، فقد اشتملت مجلداته الضخمة في طبعتها الأولى على تحرير ترجمة خمسة عشر ألفاً وستمائة وثماني وسبعين راوية ومحدثاً بمختلف درجاتهم وأصنافهم منذ عهد الرسول الأعظم٢ حتى عصر تدوين الحديث الشريف، وإلى ما بعد الكتب الأربعة للإمامية، وفيما حققه الرجاليون القدامى، بما يصح عنه القول بأنه أعظم موسوعة موضوعية في رجال هذا الفن في تاريخ الإسلام، وهو من أبرز أعمال رجال الحديث الخالدين.

وقد أحسن صنعاً الأستاذ العلامة الشيخ محمد نجل آية الله الشيخ محمد تقي الجواهري النجفي حينما اختصر هذا المعجم قبل ثلاث سنوات، فقدم لنا فهرساً منظماً في **(المفيد من معجم رجال الحديث)** اشتمل على ذكر أسماء جميع الرواة والمحدثين في المعجم بترتيب ألفبائي، ذكر فيه عدالة أو وثاقة أو ضعف أو مجهولية الراوي، في مجلد ضخم تيسيراً لمهمة البحث العلمي، وتعريفاً بكل راوٍ أو

---

(١) ظ: تفصيل ذلك لدى المؤلف، الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٢٢٨ـ٢٣٠.

محدّث فنّياً وصناعة، بشــكل موجز طريف بما لا يتجاوز السطر الواحد أو السطرين.



## الألفاظ الجارية مجرى الأمثال في أحاديث الإمام



خاض الإمام الصادق عليه السلام في أحاديثه الشريفة غمار أصناف المعارف، ومختلف أبواب العلوم، فكان فيها جميعاً بحراً لا تدرك سواحله.

فللإمام في كل مسألة علمية رأي، وفي كل شريحة معرفية أصل، وفي كل ملحظ فنيّ أو إنساني إضاءة، حتى عاد ذلك من الحقائق التي لا يحتاج إثباتها إلى دليل «**سبوحٌ لها منها عليها شواهد**» على حد تعبير المتنبي.

ولا يخالج البحث شك أن المناخ العلمي لدى الإمام من كنوز الإسلام وذخائره النفيسة، وإن التقاط شذرات هذه الكنوز إنما يتم باستقرائها، إلاّ أن استيعابها من الصعوبة بمكان، فهناك عشرات الآلاف من الأحاديث التي أدلى بها الإمام في حقول العلوم التشريعية والإنسانية والتجريبية مما يتعذر معه إلقاء الضوء عليها جميعاً، وفي الكتاب قبس من أنوارها، وألق من شعاعها، كما في الكتب القيمة التي ألفت في الإمام الصادق مما ذكرنا ومما لم نذكر وكما اشتملت عليه كتب الحديث عند الإمامية كافةً.

وقد ارتأى البحث تنوير الفكر البشـري بطائفة من أحاديثه وأقواله ووصاياه الجارية مجرى الأمثال على ألسنة الناس، وهي عبارة عن منهج تربوي وأخلاقي في الحياة والدين والاجتماع، وقد اعتمدتها من الكتب الأصول، دون التدقيق في أسانيدها بناءً على قاعدة التسامح بأدلة السنن.

وكان رافد هذه الأمثال: أصول الكافي للكليني، والخصال والتوحيد والمعاني للصدوق، والتهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي، وتحف العقول لابن شعبة الحلبي، وربيع الأبرار للزمخشري، والمحاسن للبرقي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، ووسائل الشيعة للحر العاملي، وبحار الأنوار للمجلسي، ومجموعة ورّام، وأعيان الشيعة للسيد الأمين، وحياة الإمام الصادق للقرشي، وأمثالها من المصادر والمراجع.

وكان دوري فيها الاختيار والإفراز، وترتيبها على طريقة الألفباء، تنظيماً للعمل، وتيسيراً للتداول والتناول، ومن الله تعالى استمد العون:

(أ)

١ـ أكبر الكبائر: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

٢ـ إن الله يعطي البر والفاجر الدنيا، ولا يعطي الدين إلاّ أهل صفوته من خلقه.

٣ـ إغاثة المؤمن الملهوف حرزٌ من القضاء.

٤ـ أخوك من صدقك، وعدوك من نافقك.

٥ـ الإضرار لأهل الإيمان محاريب الشيطان.

٦ـ أقرب الخلق إلى الله أبعدهم عن السلطان.

٧ـ إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى.

٨ـ إذا أراد الله بأهل بيت خيراً رزقهم الرفق بالمعيشة.

٩ـ إصلاح المال من الإيمان.

١٠ـ الأنس في ثلاث: في الزوجة الموافقة، والولد البارّ، والصديق المصافي.

١١ـ أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال: الرأفة، والجود، والعدل.

١٢ـ إني لأرحم ثلاثة، وحقٌّ لهم أن يرحموا: عزيزٌ أصابته مذلة بعد العزّ، وغنيٌّ أصابته حاجة بعد الغنى، وعالم يستخفّ به أهله والجَهَلة.

١٣ـ إن في الجنة درجة، لا ينالها إلاّ إمام عادل، أو ذو رحم وصول، أو ذو عيال صبور.

١٤ـ أورع الناس من وقف عند الشبهة.

١٥ـ أعبد الناس من أقام الفرائض.

١٦ـ أزهد الناس من ترك الحرام.

١٧ـ أشدّ الناس اجتهاداً، من ترك الذنوب.

١٨ـ أحلمكم عند الغضب أقربكم إلى الله منزلة.

١٩ـ أفضل كل فضيلة: التواضع للمؤمنين.

٢٠ـ أحبّ الخلق إلى الله المتواضعون.

٢١ـ أقربكم إلى الله أسخاكم.

٢٢ـ الإحسان قائدٌ ودليلٌ إلى الجنّة.

٢٣ـ إحذروا الحقد، فإن الله يخذل الظالم وينصر المظلوم.

٢٤ـ آفة الدين الحسد والعجب والفخر.

٢٥ـ أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيراً.

٢٦ـ إياكم والخصومة، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن.

٢٧ـ أضداد المؤمنين خادعوهم.

٢٨ـ إياكم والمزاح فإنه يسلب ماء الوجه.

٢٩ـ إذا أقبلت الدنيا على إنسان أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه.

٣٠ـ أبعد الناس من الله المتكبرون.

٣١ـ أقربكم إلى الحق: أحسنكم أدباً في الدين.

٣٢ـ إتقِ الله بعض التقى وإن قلّ، ودعْ بينك وبينه ستراً وإن رقّ.

٣٣ـ أحبّ أخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي.

٣٤ـ إذا أحبّ الله عبداً رزقه حسن الخلق.

٣٥ـ أحدث سفراً يحدث الله لك رزقاً، والزم ما عودت من الخير.

٣٦ـ إحذروا عواقب العثرات.

٣٧ـ إصنع المعروف إلى من هو أهله، ومن ليس هو أهله، فإن لم يكن من أهله، فأنت أهله.

٣٨ـ استنزلوا الرزق بالصدقة.

٣٩ـ الانتقاد عداوة.

٤٠ـ أوحى الله إلى الدنيا: أن اخدمي من خدمني، واتعبي من خدمك.

٤١ـ الإصرار أمنٌ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

٤٢ـ الاعتلال على الله ﷻ هلكة.

٤٣ـ إفشاء السرّ سقوط.

٤٤ـ أقلّ ما يجد العبد في الوحدة: الراحة من مداراة الناس.

٤٥ـ إن قدرت أن لا تُعرف، فافعل.

٤٦ـ إذا كان الزمان زمان جور، وأهله أهل غدر، فالطمأنينة إلى كل أحد عجزٌ.

(ب)

٤٧ـ البغي مصرع السوء.

٤٨ـ البغي أسرع الذنوب عقاباً.

٤٩ـ بئس الزاد: العدوان على العباد.

٥٠ـ برّوا آباءكم، يبرّكم أبناؤكم.

(ت)

٥١ـ تواضع الشريف يزيد في شرفه.

٥٢ـ التواضع أحد مصائد الشرف.

٥٣ـ التواضع مع البخل، أحسن من السخاء مع الكبر.

٥٤ـ التأني من الرحمن، والعجلة من الشيطان.

٥٥ـ تسعة أعشار الرزق في التجارة.

٥٦ـ التجارة تزيد في العقل.

٥٧ـ التدبير نصف العيش.

٥٨ـ التودد نصف العقل.

٥٩ـ تأخير التوبة اغترارٌ.

**(ث)**

٦٠ـ ثلاثة تورث المحبة: الدين والتواضع والبذل.

٦١ـ ثلاثة مكسبة للبغضاء: النفاق والظلم والعجب.

٦٢ـ ثلاثة تزري بالمرء: الحسد والنميمة والطيش.

٦٣ـ ثلاثة تدل على كرم المرء: حسن الخلق، وكظم الغيظ، وغضّ الطرف.

٦٤ـ ثلاثة تعقب الندامة: المباهاة، والمفاخرة، والمعاداة.

٦٥ـ ثلاثة يستدلّ بها على أصالة الرأي: حسن اللقاء، وحسن الاستماع، وحسن الجواب.

٦٦ـ ثلاثة ليس معهن غربة: حسن الأدب، وكفّ الأذى، ومجانبة الريب.

٦٧ـ ثلاثة لا يطيقهن الناس: الصفح عن الناس، ومواساة الأخ أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً.

٦٨ـ ثلاثة لا تعرف إلاّ في ثلاثة: لا يعرف الحليم إلاّ عند الغضب، ولا الشجاع إلاّ عند الحرب، ولا أخ إلاّ عند الحاجة.

٦٩ـ ثلاث من كن فيه كان سيداً: كظم الغيظ، والعفو عن المسيء، والصلة بالنفس والمال.

(ج)

٧٠ـ الجهلُ ذلٌّ.

٧١ـ الجود نجحٌ.

٧٢ـ الجدال يميت المودّة.

٧٣ـ الجنة محرّمة على كلّ بخيل.

(ح)

٧٤ـ حسنُ الخلق أحد مراكب النجاة.

٧٥ـ حسن الخلق مجلبة للمودّة.

٧٦ـ حسن الظن بالله: هو الدين الكامل.

٧٧ـ حسن الظن بالله: أن لا ترجو إلاّ الله، ولا تخاف إلاّ ذنبك.

٧٨ـ حسن الجوار: عمارة الديار، ومثراة المال.

٧٩ـ الحلم زينة أهل الفضل.

٨٠ـ حياة المؤمن لا تتم إلاّ بالصبر والمداراة.

٨١ـ الحقد لا يسكن قلب مؤمن.

٨٢ـ الحسود عدوٌ لله، لأنه يكره ما يحبه الله.

٨٣ـ حفظ الرجل أخاه بعد وفاته كرم.

٨٤ـ حقّ المؤمن على أخيه مساواته في الموت والحياة.

٨٥ـ حصّنوا أموالكم بالزكاة.

(خ)

٨٦ـ خمس هنّ كما أقول: ليس لبخيل راحة، ولا لحسود لذة، ولا لملول وفاء، ولا لكذاب مروءة، ولا يسود سفيه.

٨٧ـ خير الناس: أكرمهم خلقاً، وأشدهم إلفاً.

(د)

٨٨ـ الداعي بلا عمل، كالرامي بلا وتر.

(ر)

٨٩ـ الرغبة في الدنيا تورث الغم والحزن.

(ز)

٩٠ـ الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن.

(س)

٩١ـ السخاءُ فطنةٌ.

٩٢ـ السخاء خلقٌ حسن.

٩٣ـ السخاء شجرة على باب الجنة.

٩٤ـ السخاء في الله أول مرتبة الإيمان.

٩٥ـ السخاء في الله ينفي (يقي) مصارع السوء.

٩٦ـ السرور في ثلاث خلال: في الوفاء، ورعاية الحقوق، والنهوض في النوائب.

٩٧ـ سلوا الله الغنى في الدنيا والعافية، وفي الآخرة المغفرة والجنة. صلى الله عليه وآله وسلم

٩٨ـ الصدق عِزٌّ.

٩٩ـ الصبر دعاية الفرج.

١٠٠ـ الصفح عن الأخوان مكرمة.

١٠١ـ صحبة عشرين يوماً قرابة.

١٠٢ـ الصمت في دولة الطغاة عبادة.

١٠٣ـ صدرك أوسع لسّرك.

١٠٤ـ صلة الرحم هي الحبل الممدود إلى الله تعالى.

١٠٥ـ صلة الرحم تهوّن الحساب يوم القيامة.

١٠٦ـ صاحب النيّة الصادقة هو صاحب القلب السليم.

١٠٧ـ الصلاة قربان كلّ تقي، والحج جهاد كلّ ضعيف، وزكاة البدن الصيام.

(ط)

١٠٨ـ طوبى للمتحابين في الله.

١٠٩ـ طول التسويف حيرة.

(ع)

١١٠ـ العلمُ جُنّةٌ.

١١١ـ العقل دليل المؤمن.

١١٢ـ العزم حلية الأولياء.

١١٣ـ عليكم بالتجمّل، واحذروا النفاق.

١١٤ـ عليكم بالتجملّ، واحذروا الذلّ.

١١٥ـ عليكم بالورع، فإنه لا ينال ما عند الله إلاّ بالورع.

١١٦ـ عدو الحقّ من لم ينصح أهل الحق.

١١٧ـ عدو العمل الكسل.

١١٨ـ العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحاً من المسك.

١١٩ـ على جاحد الإحسان اللعنة.

١٢٠ـ العافية نعمة يعجز الشكر عنها.

١٢١ـ العافية نعمة خفيّة، إذا وجدت نُسيتْ. وإذا عُدِمتْ ذكرتْ.

١٢٢ـ العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به شركاءٌ ثلاثتهم.

١٢٣ـ العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير طريق، فلا تزيده كثرة السير إلاّ بعداً.

١٢٤ـ عالمٌ أفضل من: ألف عابد، وألف زاهد، وألف مجتهد.

(غ)

١٢٥ـ الغضب مفتاح كلّ شر.

١٢٦ـ الغضب ممحقة لقلب الحكيم.

١٢٧ـ الغيبة آفة القلب.

١٢٨ـ الغيبة حرام على كل مسلم، فأنها تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب اليابس.

(ف)

١٢٩ـ الفهمُ مجدٌ.

١٣٠ـ في المؤمن ثلاث علامات:

إذا حدّث صدق، وإذا أؤتمن أدّى الأمانة، وإذا وعد أنجز وعده.

(ق)

١٣١ـ القرآن ظاهره أنيقٌ، وباطنه عميقٌ.

١٣٢ـ القوّة علم الدين.

١٣٣ـ القوّة مفتاح اليقين.

١٣٤ـ قلة العيال إحدى اليسارين.

١٣٥ـ قلة الصبر فضيحة.

١٣٦ـ قد عجز من لم يعدّ لكل بلاءٍ صبراً، ولكلّ نعمة شكراً، ولكل عسر يسراً.

(ك)

١٣٧ـ كثرة النظر في الحكمة تلقح العقل.

١٣٨ـ كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا.

١٣٩ـ كفى بالحلم ناصراً.

١٤٠ـ كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار جهلاً.

١٤١ـ الكبر رداء الله، فمن نازع الله شيئاً من ذلك أكبه الله في النار.

١٤٢ـ كلّ عين باكية يوم القيامة إلاّ ثلاث أعين:

عين غضّت عن محارم الله، وعين سهرت في طاعة الله، وعين بكت في جوف الليل من خشية الله.

١٤٣ـ كمال المؤمن في ثلاث:

تفقهه في دينه، والصبر على النائبة، والتقدير في المعيشة.

١٤٤ـ الكذب مجانب الإيمان، والنفاق سنة الشيطان.

١٤٥ـ كفارة عمل السلطان: الإحسان إلى الإخوان.

(ل)

١٤٦ـ لا ينفع الإيمان مع بخيل.

١٤٧ـ لا تمارين حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يغلبك، والسفيه يؤذيك.

١٤٨ـ لا تصحب من يكتم علمه عنك.

١٤٩ـ لا ذمة لمن لا يعرف حق الصحبة.

١٥٠ـ لا تشاور أحمق، ولا تستعن بكذّاب، ولا تثق بمودّة الملوك.

١٥١ـ لا يجمع الله لمنافق ولا فاسق:

حسن السمت، والفقه، وحسن الخلق أبداً.

١٥٢ـ لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك.

١٥٣ـ لا تمار فيذهب بهاؤك، ولا تمازح فيجترأ عليك.

١٥٤ـ لا زاد أفضل من التقوى.

١٥٥ـ لا شيء أحسن من الصمت.

١٥٦ـ لا عدو أضرّ من الجهل.

١٥٧ـ لا داء أدوى من الكذب.

١٥٨ـ لا عيش أهنأ من حسن الخلق.

١٥٩ـ لا مال أنفع من القناعة باليسير المجزي.

١٦٠ـ لا جهل أضرّ من العجب.

١٦١ـ لا يتم المعروف إلا بثلاث خلال: بتعجيله، وتقليل كثيره، وترك الامتنان به.

١٦٢ـ ليس للبحر جارٌ، وللملك صديق، ولا للعافية ثمنٌ.

١٦٣ـ ليس لإبليس جند أشد من النساء والغضب.

١٦٤ـ ليس لك أن تأتمن الخائن وقد جربته، وليس لك أن تتهم من أئتمنت.

١٦٥ـ لم يخلق الله يقيناً لاشك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من الموت.

١٦٦ـ لكل داء دواء، ودواء الذنوب الاستغفار.

١٦٧ـ لئن أندم على العفو، خير من أن أندم على العقوبة.

١٦٨ـ اللؤم تغافلٌ.

(م)

١٦٩ـ من فرّط تورّط.

١٧٠ـ من لم يعلم لم يفهم.

١٧١ـ ما عُبد الله بشيء أحب إليه من الورع، والكفّ عن الناس.

١٧٢ـ ما اقترب شيء من شيء: أحسن من حلم إلى علم، ومن عفوٍ إلى مقدرة، ومسامحة إلى أخوة.

١٧٣ـ المؤمن قنوع شكور، والكافر ذو شرٍ كفور.

١٧٤ـ ما قام نبيٌّ في قومه إلاّ بالرفق والتواضع.

١٧٥ـ من أحسن، أحسن الله إليه.

١٧٦ـ المؤمن لا يكون حسوداً، ولا حقوداً.

١٧٧ـ المؤمن يغبط ولا يحسد.

١٧٨ـ المؤمن منزهٌ عن الحرص على ما ليس له.

١٧٩ـ المؤمن بريء من السفه.

١٨٠ـ المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

١٨١ـ المؤمن أخو المؤمن، وعينه، ودليله، لا يخونه ولا يخذله.

١٨٢ـ المنافق يحسد ولا يغبط.

١٨٣ـ المنافق في دين الله، كالسارق في حرام الله.

١٨٤ـ ما نافق أحدٌ قط، ورضي الله عن عمله.

١٨٥ـ من كثر نفاقه، عمي قلبه عن رشده، وهان على الخلق شخصه.

١٨٦ـ المؤمن بريء من السفه.

١٨٧ـ من اغتاب مؤمناً بما ليس فيه فقد قتله.

١٨٨ـ من نمّ أخاه أبلاه الله بضرّ يعتريه.

١٨٩ـ ما من مظلمة أشدّ من مظلمة لا يجد صاحبها عوناً عليها إلاّ الله.

١٩٠ـ ما نجا خائن، ولا فاز مهين، ولا يغني الله بخيلاً.

١٩١ـ من غش أخاه فليس منّا.

١٩٢ـ من حصن سرّه ستر عرضه في دنياه وآخرته.

١٩٣ـ مودّة يوم صلةٌ، ومودّة شهر قرابة، ومودّة سنة رحم.

١٩٤ـ من نفسّ عن أخيه كربة نفسّ الله عنه كرب الآخرة.

١٩٥ـ من أتاه أخوه المسلم فأكرمه، فإنما أكرم الله عزّ وجلّ.

١٩٦ـ من نصح أخاه أضعف الله عدوّه.

١٩٧ـ من روّع مؤمناً بسلطان ليصيبه، فهو مع فرعون وآل فرعون في النار.

١٩٨ـ من أعان على مؤمن بشطر كلمة، لقي الله يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمتي.

١٩٩ـ من ضرّ أخاه تبرأ الحق منه.

٢٠٠ـ من أنّب مؤمناً أنّبه الله في الدنيا والآخرة.

٢٠١ـ من عيّر مؤمناً بذنب لم يمت حتى يركبه.

٢٠٢ـ من ضرّ مؤمناً قطع الله حبله، ومن تعمد له بسبب ألبسه الله ثوب الذّل.

٢٠٣ـ من طلب التجارة استغنى عن الناس.

٢٠٤ـ من لم يشكر ألهمّة لم يشكر النعمة.

٢٠٥ـ من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان الوجع، وكتمان الصدقة، وكتمان الحاجة.

٢٠٦ـ من أنصف الناس رضي به حكماً لغيره.

٢٠٧ـ من استصغر زلة نفسه، استعظم زلة غيره.

٢٠٨ـ من حسن في الدنيا أدبه، حَسُنَ في الآخرة منقلبه.

٢٠٩ـ من خاف الناس لسانه فهو في النار.

٢١٠ـ الملوك حكّام الناس، والعلماء حكّام على الملوك.

٢١١ـ ما التقى المؤمنان قط، إلاّ كان أفضلهما أشدّهما حباً لصاحبه.

٢١٢ـ من ساء خلقه عذّب نفسه.

٢١٣ـ من لم يستح عند العيب، ويرعو عند الشيب، ويخشى الله بظهر الغيب، فلا خير فيه.

٢١٤ـ من أكثر ذكر الله أظله الله في جنته.

٢١٥ـ المرء بأخيه كثير.

٢١٦ـ من لم يملك غضبه لم يملك عقله.

٢١٧_ ما أقلّ من شكر المعروف.

٢١٨_ ما عال من اقتصد.

٢١٩_ ما أقبح الانتقام بأهل الأقدار.

٢٢٠_ من أحزن والديه فقد عقّهما.

٢٢١_ من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا.

٢٢٢_ من أوثق عرى الإيمان أن:

تحبّ في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله.

٢٢٣_ من رضي بالقليل من الرزق، قبل الله منه اليسير من العمل.

٢٢٤_ من كرم أصله لان قلبه.

٢٢٥_ من خشن عنصره غلظ كبده.

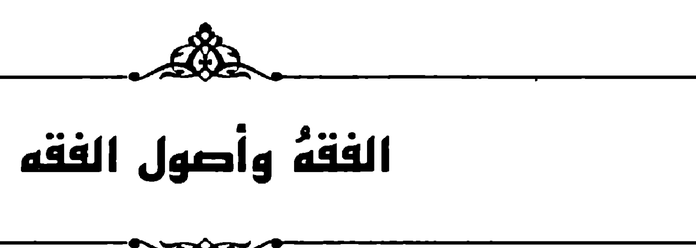
٢٢٦_ من هجم على أمر بغير علم، جدع أنف نفسه.

(ن)

٢٢٧_ النعم وحشية فاستكملوها بالشكر.

٢٢٨_ الناس ثلاث:

جاهلٌ يأبى أن يتعلم، وعالم قد شفّه علمه، وعاقل يعمل لدنياه وآخرته.



# الفقهُ وأصول الفقه

## الفقه الإمامي:

كانت الحياة السياسية قد امتدت بخطوطها العامة لحرمان أهل البيت عليهم السلام من الحقوق الأساسية، فكان العزل المرجعي، والاضطهاد الاقتصادي، ومراقبة التحرك، بعض مظاهر إقصاء أهل البيت عن قيادة الأمة، وإحلال البديل المتهافت سياسياً وفتوائياً بغية القضاء على الآثار التي تشير إلى أهل البيت قيادياً، وكان هذا الإقصاء قد أفضى بالضرورة إلى إقصاء فقه أهل البيت عن الميدان، فكانت خسارة التشريع الإسلامي قد ارتفعت إلى مستوى الكوارث الإنسانية والنكسات المدمّرة.

حتى إذا نهد الإمام محمد الباقر عليه السلام بوضع الحجر الأساس لصرح جامعة أهل البيت، بدأت الملامح العامة للفقه الإمامي تتراءى بكثير من الحذر في الأفق الدامي، بعد أن حيل بينه وبين المسلمين قرناً من الزمان.

وما أن أطلّ الإمام الصادق عليه السلام بطلعته المباركة في الحياة الفكرية، حتى غطّى تلك الأضواء الخافتة البديلة في سماء التشريع التي تحاول

حجب الرؤية المتألقة لتراث أهل البيت عليهم السلام فكان الفتح المبين، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره.

ويأتي هذا الإشعاع في الإضاءة الجديدة على يد الإمام الصادق في ظروف صعبة المراس، وأجواء داكنة المناخ، واستطاع أن ينهض بكشف الحجب عن ذلك اللهيب المتوهج لتراث أهل البيت عليهم السلام ويمزق الستائر المهلهلة لتلك الزعامات الزائفة التي ادّعت قيادة الأمة تشريعياً، ولا نصيب لها من ورع، ولا إثارة من علم.

قلنا في عمل سابق: «**لقد تسلم منصة الإفتاء غير المؤهلين، ففسروا الكتاب بما لم ينزل به الله سلطاناً، وقالوا في السنة بالأهواء، وأنزلوا الشريعة منزل الرأي، وذهبوا إلى الاستحسان دون الاستنباط، وإلى القياس دون الاجتهاد. وكان الفقهاء الرسميون قد إنتشروا في الممالك والأقاليم، ينفذون رغبة السلطان، ويفتون بما تملي عليهم ظروف الحاكمين، يفتعلون الأحاديث ويضعون الروايات، وينحلون السنن، إلا صبابة ضئيلة قد يمنعهم الوازع الديني عن العبث والإسراف**»[1].

وقد حسب الحاكمون أن الفراغ التشريعي يمكن له أن يملأ بهؤلاء المتنطعين، ولكنهم أخفقوا إخفاقاً فاضحاً، إذ استمدت المسائل الكثيرة في الفيء والخراج، والعتق والولاء، والغنائم والحقوق، وأفرزت الفتوح موجاً عارماً من الإشكاليات الفقهية، وقد ازدادت تعقيداً حينما لم تجد الحلول الشرعية الواقعية، لغياب القيّمين على الكتاب والسنة، وصدارة المتخلفين في الأداء والإفتاء الشرعيين..

وتعثرت الخطى، وتلكأت المسيرة، فجدّ الخلفاء الشعوبيون في طلب البديل بشكل جديد، إذ عمدوا إلى طائفة من فقهاء الموالي،

---

(١) المؤلف: الإمام محمد الباقر.. مجدد الحضارة الإسلامية ٢٣٢.

فقلدوهم أمر العرب والمسلمين في القضاء والإفتاء، فنبغ على أيديهم سليمان بن يسار فأدار شؤون المدينة المنورة، وسليمان بن موسى الأشدق (ت ١١٩هـ) فتولى الإفتاء في الحجاز، ومكحول بني هذيل (ت ١٣٠هـ) وإلى جنب هؤلاء من الموالي: عكرمة مولى ابن عباس، وسليمان بن طرخان واسماعيل بن خالد، ونافع مولى ابن عمر، وأبو حازم سلمة بن دينار الأعرج مولى بني مخزوم، حتى وصل الدور إلى أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ) ففتح باب القياس.

وهكذا أصبحت دائرة الفقه الإسلامي منحصرة بعلماء الموالي، وفقهاء البلاط، فنشأ جيل من الناس لا يعرف لأهل البيت رأياً، ولا لأئمتهم فقهاً.

وهنا يبرز الدور الريادي للإمام الصادق وهو يبدد السحب الكثيفة التي أحاطت بهذا المناخ القائم، فيستقطب الحركة الفكرية والعلمية في الإسلام، ويلقي بظلالها على الأفق البعيد، فينشأ جيل جديد من الفقهاء السائرين بركاب النبي٢ وأئمة أهل البيت عليهم السلام، ويبزغ فجر متلألأ بكوكبة صالحة من تلامذة الإمام تحمل العلم لواءً، وبذلك تتوطد مدرسة أهل البيت جذوراً، وتتجمل طلائعها نضالاً، وتتسع على يد الإمام الصادق مفرداتها ومناهجها ومعارفها، حتى سميت باسمه الشريف، وعاد المذهب الإمامي منتسباً إليه، ومستنداً عليه، فقيل: **(المذهب الجعفري)**.

وأظهر الإمام من العلم المكنون ما ذاع صيته في الآفاق، وانتشر ذكره في الأقاليم، فأعاد نضارة الإسلام غضاً مشرقاً حيوياً كما بدأ.

وكانت هذه المدرسة ذات طابع استقلالي، اتسمت بالواقعية في التبليغ، فلم تنطبع بطابع رسمي، بل حرصت على تقديم الشريعة في معارفها وعلومها نقية حرّة، خالصة من الشوائب، لم تتأثر باتجاه سلبي في القول والعمل، ولم تألف التردد والتخاذل في الإفتاء، وكان سبيلها الإيجابية بلغة قاطعة.

ومن البديهي الذي لا يحتاج إلى برهان، أن الإمام الصادق عليه السلام قد استوعب أبواب الفقه كافة، ففي كل مسألة له رأي، وفي كل معضلة له إفتاء، وفي كل شاردة له قول، وهذا ما جعل جمهرة المتعلمين على يديه غير منقطعين عنه في رواية أو دراية، وهم كالحلقة المفرغة في الإسناد والحديث والطريق إليه، حتى قال الحسن بن علي الوشا:

**«إني أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة تسعمائة شيخ، كل يقول: حدّثني جعفر بن محمد عليه السلام»[1].**

وهذا يعني أن تسعمائة أستاذ يشرف على تسعمائة حلقة دراسية، تستلهم لباب النقول عن الإمام الصادق في مختلف التخصصات.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي (دام علاه):

«واحتفى العلماء والفقهاء ورواة الحديث بالإمام الصادق عليه السلام، وهم يدونون ما يفتي به، ويرويه عن آبائه العظام.

وكان الإمام عليه السلام يشجعهم على تدوين الحديث والفقه، وسائر العلوم الإسلامية، وأكبر الظن أن جملة من الأصول الأربعمائة التي أخذت عن الإمام الصادق عليه السلام، قد دوّنت حينما كان مقيماً في الكوفة،

---

(١) النجاشي: الرجال ٣١.

وقد أغنى الإمام عليه السلام الفقه الإسلامي بفتاواه وآرائه التي تحمل الإبداع والأصالة، والتي هي المرجع الأعلى لفقهاء الإمامية فيما يفتون به»[١].

وكان هؤلاء العلماء أماثل تلامذة الإمام الذين حملوا علم أهل البيت، ودونوا مآثرهم الفقهية، التي عدّ منها الحرّ العاملي رضي الله عنه ستة آلاف وستمائة كتاب[٢].

وقد علل الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق هذه الظاهرة بمبدأ عصمة الأئمة، فقال: «**ومن المعقول أن يكون النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة، لأن اعتقادهم العصمة في أئمتهم، أو ما يشبه العصمة، كان حرياً إلى تدوين أقضيتهم وفتاواهم**»[٣].

وقد استوعبنا الحديث عن مصاديق هذه الظاهرة الفذة في كتب الفقه بخاصة، وتكلمنا عن أهم الموسوعات الفقهية حتى العصر الحاضر[٤].

ولا حاجة بنا إلى إعادته، فما يقال هناك يقال هنا بالضبط، إلا أننا نشير هنا إلى أبرز السمات والخصائص التي يمتاز بها الفقه الإمامي وأهمها:

١ـ استناده في الاستدلال إلى الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

٢ـ اتصاله المباشر بالرسول الأعظم٢ وبأئمة أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) باقر شريف القرشي: حياة الإمام الصادق٧/ ٩٨.

(٢) ظ: الحرّ العاملي: وسائل الشيعة ٣/ ٥٢٣.

(٣) مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتأريخ الفلسفة الإسلامية ٢٠٢.

(٤) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٢٣٧ـ٢٤٧.

٣ـ استيعابه لمشكلات الحياة الفعلية والمستقبلية بفتحه باب الاجتهاد.

٤ـ تمرسه بمختلف شؤون الفقه حتى الجزئيات، لكل واقعة حكم، ولكل حادثة قضاء.

٥ـ سيرورته الريادية في مواكبة التطور الحضاري في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والصناعية.

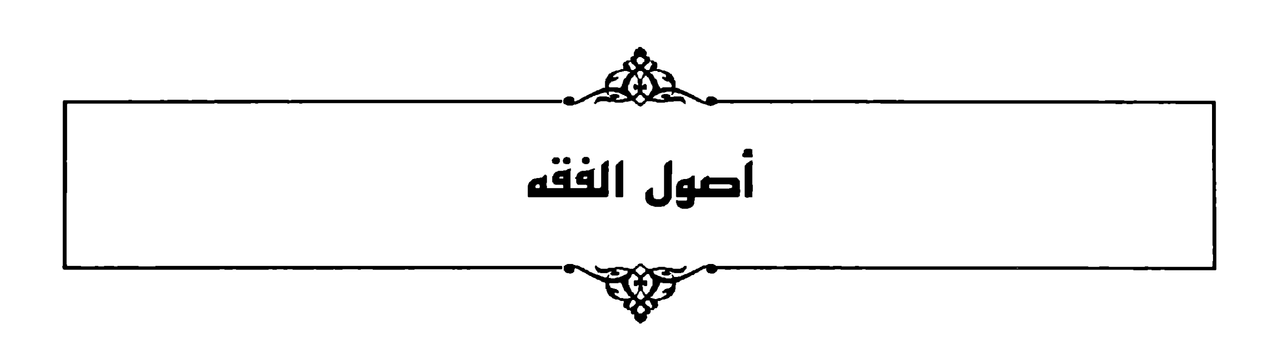
٦ـ دقته في اختيار الفتاوى طبق ضوابط علمية لا مكان معها للهوى والاستحسان.

٧ـ وضعه للأصول العامة في القواعد الفقهية ككليات يستند إليها في الجزئيات والفروع طياً للمسافات الواسعة في عملية الاستنباط.

٨ـ أصالته ومرونته في إطار موحّد لدى تخريج الفقهاء، وتجديد الأنظار في تراث موضوعي ضخم يستقبله الخلف عن السلف.

٩ـ اتساعه لاستقبال مستحدثات المسائل في ضوء التقدم الطبي والتقني والفضائي، وتيسير الحكم الشرعي في مختلف المشاهد الجديدة.

١٠ـ اعتماده الاستقلالية التامة في الإفتاء وطرح الآراء، فما اتفق ولا مرة واحدة أن أفتى بحكم شرعي في ضوء ضغط سياسي أو عنف سلطوي.



# أصول الفقه

أمّا أصول الفقه، فهو العلم الذي يبحث فيه عن حجية الدليل الفقهي بالاستناد إلى حجية أدلته في استنباط الأحكام الفرعية.

وبهذا يتضح أن علم الأصول من قبيل المقدمة اللازمة لعلم الفقه.

ولمّا كان علم الفقه معنياً بإيراد الحكم الشرعي كان علم الأصول معنياً بإثبات دليل الحكم الشرعي، سواء أكان الحكم واقعياً أم ظاهرياً، وسواء أكان الدليل اجتهادياً أم فقهياً، وسواء أكان الدليل مستمداً من اللفظ أم مستخرجاً من التكليف الذاتي، فالأول ما تكشف عنه مباحث الألفاظ في أصل الخطاب في مداليل ظواهرها المتعددة، والثاني ما تحققه الأصول العملية المناطة بالمكلّف كالاستصحاب، والاحتياط، والبراءة، والتخيير، وذلك عند فقدان الدليل الاجتهادي.

وعلى هذا فعلم الأصول بالإضافة إلى علم الفقه يكون من قبيل نسبة الحكم إلى موضوعه، أو المعلول إلى علته، وذلك أن علم الأصول يعنى بتشخيص جزئيات الأدلة التفصيلية، وتطبيق كبرياتها اللفظية أو العملية للوصول إلى الأحكام الشرعية النوعية.

وقد سبق لنا القول أن مصدر علم الأصول هو أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد ورد عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، القول: «**إنّما علينا أن نلقي الأصول، وعليكم أن تفرعوا**»[1].

وهي بادرة إلى قيام المصطلح بتسميته (الأصول) وهي دعوة أيضاً إلى أعمال الفكر وتجديد النظر، وهي رفض للجمود ومخلفاته.

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام: «**علينا الأصول وعليكم الفروع**»[2].

وما يدرينا؛ فلعلّ هذه الدعوة هي بداية البداية في الإذن بفتح باب الاجتهاد عندنا.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين (دام علاه):

«واستكمالاً لمباحث الفقه وأحكامه أولى الإمام إهتماماً كبيراً بعلم أصول الفقه، تعليماً وشرحاً وتبياناً لقواعده الرئيسة وأسسه الكبرى، ودلالة للمتعلمين على ما يصح وما لا يصح الاعتماد عليه من ذلك.

وقد روى لنا الباحثون القدامى، وفي طليعتهم الحافظ أبو نعيم والشيخ الطبرسي مناقشات الإمام الصادق لأبي حنيفة النعمان بن ثابت فيما ذهب إليه من العمل بالقياس وعدّه من أصول الفقه وأركان إستنباط الأحكام الشرعية، وتنبيه الإمام تلميذه على فساد ذلك وبطلانه»[3].

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة ٤١/١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ١٢١.

وقد رأينـا في عمل مسـتقلّ أن مصدر هذا العلم في التأسـيس هو الإمام محمـد الباقـر عليه السلام، وأن الإمام الصـادق حذا حـذو أبيه عليه السلام في إرساء دعائم هذا العلم، وتشييد صرحه الشامخ(١).

وقد أوردنا في البحث أهـم مصادره التأليفيـة، وكوكبة من جهابذة العلماء المشتغلين به، وتطور مباحثه وتوسع دلائله، وما يقال هناك يقال هنا، فهما يصـدران عن رافد واحد، يسـتقي من شـجرة مباركة زيتونة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

(١) ظ: المؤلف: الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية ٢٦٣ـ٢٧٠.

# الفصل الثالث

## العلومُ التجريبية

* أولاً: علم الكيمياء.
* ثانياً: علم الفيزياء:
* ثالثاً: علم الطب:
* رابعاً: علم الأفلاك والكواكب.





# علمُ الكيمياء

بدا للبحث واضحاً أن الإمام الصادقعليه السلام، قد أسهم في إرساء قواعد العلم التجريبي، ومهّد السبيل أمام المكتشفين لكثير من العناصر والجزئيات بدقةٍ وإمعان، وكان علم الكيمياء في طليعة مفردات العلم التجريبي الذي حقق فيه الإمام الصادق سبقاً علمياً، فإن لم يكن هو المكتشف الأول له عند العرب، فلا أقلّ أنه من أوائل الذين أفادوا به الأجيال المستقبلية، على أن الذي ثبت للبحث أن الرأي الأول هو الأقرب لدى التدقيق.

وكان تلميذه الأول في هذا الميدان هو جابر بن حيان الكوفي، وكان جابر من الأفذاذ الذين سبقوا إلى التخصص في (**علم الصنعة**)[1] وما زالت نظرياته في (**الكيمياء**) موضع عناية الدارسين في الشرق والغرب.

وهناك ظاهرتان أشار لهما الأستاذ محمد أبو زهرة:

١ـ إن الاتفاق منعقد على أن جابراً كان أول المشتغلين بالكيمياء في المسلمين.

---

(١) اصطلح القدامى على تسمية علم الكيمياء بـ (علم الصنعة) وهو مصطلح يطلق على عملية تحويل المعادن الرديئة (الخسيسة) إلى معادن ثمينة.

وكما شككوا في نسبة رسـائل جابر إليه، فقد شككوا في أن يكون ما ورد عنه باسم (**جعفر**) في رسائله: هو الإمام الصادق، بل ربما زعموا أنه جعفر بن يحيى البرمكي، والردّ على هذا بديهي أن جعفراً البرمكي لم يعـرف عنه الاشـتغال بالكيميـاء، وقد تكفـل الدكتـور زكي نجيب محمود بالردّ على هذا الوهم، فقال:

«أمّا جعفر الذي كثيراً ما يرد اسمه في كتاب جابر مشاراً إليه بقوله: (سـيدي) فهناك من يزعم أنه جعفر بـن يحيى البرمكي، لكن الشـيعة تقول: وهو القول الراجح الصدق أنه إنّما عنى به جعفر الصادق.

ونقول أنه مرجـح الصدق لأن جابراً شـيعي، فلا غرابـة أن يعترف بالسيادة لإمام شيعي، هذا إلى وفرة المصادر التي لا تتردد في أن جعفراً المشار إليه في حياة جابر ونشأته هو: جعفر الصادق»[١].

وقد فند كل من الأسـتاذ محمد حسن آل ياسـين[٢] والأستاذ محمد جواد فضل الله[٣] مزاعم جملة من المستشـرقين، سـواء الذين ذهبوا أن لا علاقة بين جابر بن حيّان وسـيده جعفر الصـادق، أو الذين زعموا أن شـخصية جابر بن حيّان وهمية، أو أولئك الذين قالوا بأن ما ألف باسم جابر منحول عليه. إذ ليس من المنطق أن ينسـب جهد إنسـان لإنسان مثله، فيعود بإبداع نفسه إلى عبقرية غيره في هذا الفن أو ذاك، دون أي مدرك عقلي.

(١) زكي نجيب محمود : جابر بن حيّان ١٧ـ١٨.
(٢) محمد حسن آل ياسين : الإمام جعفر الصادق ١٤٩ـ١٥٤.
(٣) محمد جواد فضل الله : الإمام الصادق خصائصه ومميزاته ٣٣٨ وما بعدها .

وهنا ينبغي قطع الشك باليقين فيما أفاده جابر بن حيّان نفسه من تصريحات دقيقة تنسب هذا العلم إلى سيده الإمام الصادق عليه السلام، وهي كثيرة نقتصر منها على شذرات من أقواله:

١ـ يتجرد جابر عن الأنانية الذاتية في دوره الكيميائي، وينسب أهم الجهود العلمية في ذلك إلى الإمام فيقول:

**«فوحق سيدي.. إنه لغاية العلم، ولو شئت لبسطته فيما لا آخر له من الكلام، ولكن هذه الكتب يا أخي معجزات سيدي، وليس وحقه العظيم يظفر بما فيها إلاّ أخونا..»**[١].

٢ـ يقول جابر: **«وحق سيدي.. لولا أن هذه الكتب باسم سيدي صلوات الله عليه، لما وصلتَ إلى حرف من ذلك إلى آخر الأبد لا أنت ولا غيرك إلاّ في كلّ برهة عظيمة من الزمن»**[٢].

وهذا النصّ يحدثنا إيحائياً أن جابراً أفاد من الإمام هذا الإلهام في مدة ما، لو كانت من غير الإمام لاحتاجت إلى زمن متطاول.

٣ـ ويورد جابر بعض الحقائق في النقد الموضوعي، وجزءاً من الإشارات في التقويم الذاتي الذي حباه إياه الإمام، ينقله بأمانة ودقة، فيقول:

**«ليس في العالم شيء إلاّ وفيه جميع الأشياء، والله لقد وبّخني سيدي على عملي فقال: والله يا جابر لولا أني أعلم أن هذا العلم لا يأخذه إلاّ من يستأهله، وأعلم علماً يقيناً أنه مثلك، لأمرتك بابطال هذه الكتب من**

(١) ظ: محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء ١١٤.

(٢) ظ: محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء ١١٦.

**العالم، أتعلم ما قد كشفت للناس فيها؟ فإن لم تصل إليه فاطلبه، فإنه يخرج لك جميع غوامض كتبي، وجميع علم الميزان، وجميع فوائد الحكمة»**[١].

٤ـ وهناك ملحظ جدير بالأهمية الكبرى أن جابراً ينسب ما تعلمه من هذا العلم وسواه على يد الإمام الصادق عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن الصادق كان الوريث لها، وقد تلقى ذلك رواية ودراية عن جده صلى الله عليه وآله وسلم.

يقول جابر: «**وانظر يا أخي، وإياك القنوط، فيذهب بعمرك ومالك، فوالله مالي في هذه الكتب إلاّ تأليفها، والباقي علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم** »[٢].

٥ـ وهناك محاورة تشتمل على مغزى عميق جداً، فالإمام وهو يعلم جابراً أسرار الكيمياء ويقذف بجواهرها إليه، نجده يدعو جابراً إلى تيسير مفردات هذا العلم ومركباته، وفك رموزه، وكشف غوامضه، واختصار مباحثه، ليفيد منها أكبر عدد ممكن، ولا يقتصر به على المتخصصين فحسب، أو المتوصلين إلى حقائق الأشياء فأنهم لا يحتاجون إلى ذلك. يقول جابر في كتاب الرحمة:

«قال لي سيدي: يا جابر، قلت لبيك يا سيدي.

فقال: هذه الكتب التي صنعتها جميعاً وذكرت فيها الصنعة وفصلتها فصولاً، وذكرت فيها من المذاهب وآراء الناس، وذكرت الأبواب وخصصت كل كتاب، بعيدٌ أن يخلص منها إلاّ الواصل، والواصل غير محتاج إلى كتب، ثم وضعت كتباً كثيرة في المعادن والعقاقير، فتحيّر الطلابُ، وضيّعوا الأموال، وكلّ ذلك من قِبلك.. والآن

(١) المصدر السابق.

(٢) المرجع نفسه: ١١٩.

يا جابر استغفر الله، وأرشدهم إلى عمل قريب سهل تكفّر به ما تقدم لك، وأوضح.

فقلت: يا سيدي أشر عليَّ، أي الباب أذكر؟

فقال الإمام: ما رأيت لك باباً تاماً منفرداً، إلاّ رموزاً مدغوماً في جميع كتبك، مكتوماً فيها.

فقلت له: وقد ذكرت في السبعين، وأشرت إليه في كتب النظم، وفي كتاب الملك من الخمسماية، وفي كتاب صنعة الكون، وفي كتب كثيرة من المائة ونيف.

فقال الإمام: صحيح ما ذكرته في أكثر كتبك، وهي في الجمل مذكور، غير أنه مدغم مخلوط بغيره، لا يفهمه إلا الواصل، والواصل مستغن عن ذلك، ولكن بحياتي يا جابر: أفرد كتاباً بالغاً بلا رمز، واختصر كثرة الكلام، بما تضيف إليه كعادتك، فإذا تمّ فأعرضه عليّ.. فقلت: السمع والطاعة[1].

وهذا أن يشتمل على جملة من الحقائق:

١ ـ أن الإمام كان يتابع كتب جابر بالنقد والتمحيص، وحق هذا أن جابراً كان يعرض كتبه على الإمام لتقويمها.

٢ ـ أن الإمام وجد كتب جابر كثيرة متعددة الأبواب والفصول، كثيرة الأبهام والغموض، فأمره بالاختصار والإبانة.

(١) محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء ١١١.

٣ـ أشار الإمام إلى صعوبة ما يكتبه جابر، مما يتحيّر معه الطلاب، فتضيع أموالهم، وكان ذلك من قِبل جابر نفسه، فأمره بالاستغفار وأمره بتوخي العمل السهل القريب ليكفّر به ما تقدم منه.

٤ـ أبان الإمام أن الأغراق في الصنعة، وإدخال علم بعلم، وخلط مفهوم بسواه، مما يتعسر فهمه إلاّ على المتوصل، والمتوصل مستغنٍ عن ذلك، فأمره بإفراد كتاب خال من الرموز، بعيد عن الاسهاب، يختصر به المطالب اختصاراً، ثم يعرضه على الإمام للتهذيب والتنقية.

وكل ما تقدم من النقد والتقويم والنصح الكريم، إنما يهدف الإمام من وراءه إلى إفادة الباحثين والدارسين، وتيسير هذا العلم بين يدي أكبر عدد ممكن من الناس.

ومهما يكن من أمر، فإن ارتباط علم الكيمياء بالإمام الصادق تأسيساً وتأصيلاً وفكراً وتخطيطاً لا يخامرنا فيه أدنى شك.

ولم يكن أمر ذلك مقتصراً على جابر وحده، فقد اعتاد جملة من أصحابه عليه السلام على مسائلته عن أصل الأشياء وكنهها، متطلعين إلى إجابات الإمام، فقد روى يحيى الحلبي قال:

«مررت مع أبي عبد الله عليه السلام في سوق النحّاسين، فقلت له:

جعلت فداك، هذا النحاس أيّ شيء أصله؟

فقال عليه السلام: أصله فضة، إلاّ أن الأرض أفسدته، فمن قدر على أن يخرج الفساد دمنه..»[1].

---

(١) الكليني: الكافي ٥/ ٣٠٧.

ومن الشائع الثابت لدى المسلمين وحتى الأوروبيين أن الإمام كان على علم بخواصّ الأشياء، منفردةً ومركبةً، وأنه درّس علم الكيمياء في مدرسته قبل إثني عشر قرناً ونصف قرن. **(ثلاثة عشر قرناً)** واشتهر من تلامذته في هذا العلم هشام ابن الحكم **(ت ١٩٩هـ)** وهو من أصحاب الصادق عليه السلام وتلامذته، وله نظرية في جسمية الأعراض كاللون والطعم والرائحة، وقد أخذ إبراهيم بن سيّار النظام المعتزلي هذه النظرية لمّا تتلمذ على هشام.

وقد أثبتت صحة هذا الرأي النظريات العلمية الحديثة القائلة:

إن الضوء يتألف من جزئيات في منتهى الصغر، تجتاز الفراغ والأجسام الشفافة، وإن الرائحة أيضاً من جزئيات متبخرة من الأجسام تتأثر بها الغدد الأنفية، وإن المذاق جزئيات صغيرة تتأثر بها الحليمات اللسانية[1].

إلاّ أن تخصص هشام بن الحكم بعلم الكلام حتى عرف به، لم يجعل له تلك الشهرة التي تمتع بها جابر بن حيّان الكوفي، حتى عاد له الفضل في اكتشاف كثير من الجزئيات، وتركيب كثير من المستحضرات في العقاقير حتى عاد ذا شهرة عالمية.

وقد ابتكر جابر ما أسماه بعلم **(الميزان)** وقد أشار له الإمام الصادق عليه السلام في تقويمه لكتب جابر في الفقرة الثالثة من هذا المبحث.

والمراد بعلم الميزان كما أوضحه الأستاذ عبد الله نعمة:

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٥٣.

**«أي معادلة ما في الأجسام والمعادن من طبائع، وقد جعل لكل جسد من الأجساد موازين خاصة بطبائعه، وكان ذلك بداية لعلم المعادلات في طبائع كل جسم»**[١].

وقد تحدث ابن النديم أن جابراً كان أكثر مقامه في الكوفة، وبها كان يدير (الإكسير) لصحة هوائها، ولما أصيب الأزج الذي وجد فيه هاون ذهب، فيه نحو مائتي رطل، كان من موضع جابر بن حيان.. فإنه لم يصب في ذلك الأزج غير المعادن فقط[٢].

وواضح أن هذا الأزج ومن ضمنه الهاون الذهبي: عبارة عن جهاز مختبري كان يحاول به جابر تحويل المعادن الرديئة إلى معادن ثمينة.

**«وكانت نظرية تحويل المعادن إلى ذهب أو فضة نظرية يونانية قديمة فُتِنَ بها المسلمون من بعدهم. فوضع جابر فيها رسائل كثيرة، وشرح قواعدها وأصولها في كتبه المتعددة»**[٣].

وقد أكبر المفهرسون وعلماء الببلغرافيا العرب منزلة جابر، وعدوّه مفخرة من مفاخر الإسلام، ولا بدع في ذلك، فإن من تزيد مؤلفاته على ثلاثة آلاف كتاب ورسالة وصحيفة ونظرية في مختلف العلوم التجريبية، لجدير بالتقدير والإكبار.

«وقد تمكن جابر من تحقيق وتطبيق طائفة من النظريات العلمية، أهمها: تحضير **(حامض الكبريتيك)** بتقطيره من الشبّة، وسماه (زيت الزاج) كما حضّر **(حامض النتريك)** و**(ماء الذهب)** و**(الصودا الكاوية)**.

---

(١) عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة ٦٣.

(٢) ابن النديم: الفهرست ٤٩٩.

(٣) جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٥٥.

وكان جابر أول من لاحظ ترسّب (**كلورود الفضة**) عند إضافة محلول الطعام إلى محلول (**نترات الفضة**).

وينسب إليه تحضير مركبات أخرى مثل (**كربونات البوتاسيوم**) و(**كاربونات الصوديوم**) وغير ذلك مما له أهمية كبرى في صنع المفرقعات، والأصباغ، والسماد الصناعي، والصابون»[١].

وقد علّمه الإمام الصادق عليه السلام طريقة تحضير (**مداد مضيء**) يستخدم في كتابة المخطوطات الثمينة، لإمكان قراءتها في الظلام.

وعلّمه أيضاً طريقة صنع من الورق غير قابل للاحتراق[٢].

يضاف إلى ما تقدم ما تعلّمه من سيده الإمام الصادق عليه السلام من استعمال (**ثاني أوكسيد المنغنيز**) في صنع الزجاج، واستحضار خصائص ومركبات (**الزئبق**)، واستطاعته (**تحضير الأوكسجين**) وكل أولئك مركبات ذات أهمية كبرى في عالم الصناعة[٣].

وقد ألف العالم الكيميائي السوري الدكتور محمد يحيى الهاشمي كتاباً صغير الحجم، عظيم القدر، أسماه (**الإمام الصادق ملهم الكيمياء**).

وكان لهذا الكتاب أثره الكبير وصداه الواسع قبل أكثر من نصف قرن[٤].

---

(١) المرجع نفسه: ٥٤.
(٢) أحمد أمين الكاظمي: التكامل في الإسلام ٣/ ٤٢.
(٣) ظ: أحمد أمين الكاظمي: التكامل في الإسلام ٥/ ٩٥.
(٤) طبع هذا الكتاب مرتين: الأولى ضمن سلسلة (حديث الشهر) الصادرة في بغداد مطبعة النجاح ١٩٥٠م، والثانية في دمشق ١٩٥٩م.

وكان قبل ذلك قد أصدر بحثاً بعنوان **(الإمام جعفر الصادق كملهم للكيمياء)** عام ١٩٤٩، ضمن سلسلة **(أشعة من حياة الصادق)** التي أصدرتها دار النشر والتأليف في النجف الأشرف بإشراف شيخ العراقيين آل كاشف الغطاء، وكان هذا البحث القيّم في أربع وعشرين صحيفة، أثبت فيه تلمذة جابر بن حيّان على يد الصادق، وأخذ عنه، وأبدى فيه جزءاً من النظريات التي كانت أساساً أو مقدمة لما كتبه فيما بعد عن الصادق.

واستنتج في هذا البحث أن جابراً كان يعتقد بوجود طريقين لإدراك الصنعة: طريق ظاهري، وذلك باقتفاء أثر الطبيعة والتداريب، وطريق باطني، وذلك بالفرضيات الكبرى، وفي فلسفة الطبيعة أيضاً.

وعلى ما يظهر إن ما استقاه جابر من معلمه الروحي **(الإمام الصادق)** كان في الطريق الثاني، لأنه نظراً للوثائق التي وصلت إلينا أن هناك تجارب قام بها جابر في علم المادة لم ينته الأخصائيون من دراستها بعد، وفرضيات كبرى قد أدرجها جابر في رسائله.

وإذا كان الباحثون لا يزالون يجهلون مصادر معلومات جابر عن العمليات الكيميائية الإيجابية، فمن الواضح الجلي أن من أهم مصادره الباطنية لهامات الخفيّة التي اقتبسها عن إمامه جعفر الصادق، التي ستحتل مكاناً سامياً في تأريخ الفكر البشري يوم تدرس بإمعان من قبل أخصائيين كرسوا حياتهم في سبيل كشف الغطاء عن غوامضها[1].

ويبدو أن الدكتور الهاشمي قد طوّر بحثه هذا فكان النواة الأساسية لكتابه **(الإمام الصادق ملهم الكيمياء)**، وأضاف إليه معلومات مهمة،

---

(١) محمد يحيى الهاشمي: الإمام جعفر الصادق كملهم للكيمياء ٣٢ـ٣٤.

واكتشــافات جديدة، كما ذهب فيــه أن جابر بــن حيّان نتيجــة تلمذته على يــد الإمــام عليه السلام، قــد توصــل إلــى اكتشــاف (الراديــوم) أو أحد الأجسام المشعّة.

وهو المراد في التعبير عنه بالإكسير.

قال الهاشــمي: «**وممّا يزيد إعجابنا إدّعاء جابر بأن هذا السر له دخل في جميع الأعمال، وإننا إذا أمعنّا النظر في الوقت الحاضر، لوجدنا إكتشاف الأجسام المشعّة التي تؤدي إلى قلب عنصر المادة وتحطيم الذرّة لم يكن من نتائجها القنبلة الذريّة فحســب، بل إيجاد منابع قوى جديدة لم تكن تطرق على بال الإنسان**»[1].

وإذا صحّ هذا الاستنتاج فإن جابراً قد ســبق باثني عشر قرناً ونصف قرن مدام غوري مكتشفة الراديوم.

وهناك بحث قيم للأســتاذ هاشم الحسني أســتاذ في جامعة بغداد[2] ألقى فيه الضوء على موسوعية الإمام الصادق عليه السلام في العلوم، وأشار به إلى اضطلاع الإمام في البحث الكيميائي، بما يشــكل دوراً بارزاً للإمام لم يسبق إليه. وردّ على (روسكا) في إنكاره صلة جابر بن حيّان بالإمام الصادق، وقدّم رسالة موجزة عن رســائل جابر وصلتها التعليمية بالإمام الصادق، ونسبة ما كتبه إليه، وكان دوره فيها دور المصنّف، ونقل أقوال ســيده الإمام الصادق، ومحاورته له في الصنعة، وتحدث عن مآثر جابر في الكيمياء وجملة آثاره.

---

(١) محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء ١٥٦ الطبعة الأولى.

(٢) ألقي هذا البحث في المهرجان التأريخي بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرناً على ميلاد الإمام الصادق عليه السلام، والذي أقيم بجامع براثا ببغداد بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٣٨٣هـ، وكنتُ أحد المشاركين فيه بقصيدة (المؤلف).

وردّ على الأستاذ (كراوس) في عدم اعترافه بإلمام الصادق بفنون كثيرة متنوعة، وخلص إلى أن جابراً بما حصل عليه من علم الإمام عليه السلام استطاع تحضير عنصري الزرنيخ والأنتيموني، وكذلك تحضير كاربونات الرصاص، وإيجاد طريقة كيميائية لتنقية المعادن، وصبغ الأقمشة، وصبغ الجلود، وأجرى عدة تجارب في التقطير والترشيح والتسامي والتكليس، وحصل على حامض الخليّك المركز من تقطير الخلّ، والتفت إلى زيادة وزن المعادن في البوتقة المفتوحة...[1]

هذه جولة مركّزة في آفاق علم الكيمياء عند الإمام الصادق عليه السلام، وقد توصل فيها البحث إلى بعض الحقائق الموضوعية، أهمها:

١ـ أن الإمام الصادق هو المؤسس والمؤصل لعلم الكيمياء عند العرب.

٢ـ أن جابر بن حيّان الكوفي كان تلميذ الإمام الصادق الذي أخذ عنه علم الكيمياء، وأثبت فيها تجاربه وآراءه دون الآخرين، وعبر عنه بـ (سيدي).

٣ـ أن التشكيك في نسبة مؤلفات جابر ورسائله إليه، لا يقوم على أساس علمي، ولا يستند إلى دليل نصيّ أو تأريخي.

٤ـ أن عصر الإمام الصادق لم يكن ليستوعب أهمية اكتشافات الإمام الصادق لكثير من العناصر، لأن الطبيعة البيئية لم تكن لتحفل بالعلوم التجريبية إدراكاً ومعرفةً وجزئيات.

---

(١) ظ: هاشم الحسني: الكيمياء عند الإمام الصادق (بحث) منشور في مجلة الإيمان النجفية العدد الأول والثاني الصادر في تشرين الأول ١٩٦٣م النجف الأشرف.

٥ـ أن الإمام الصادق قد سبق عصر الكيمياء العلمي، إذ ظهرت قيمتها العلمية في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي تدريجياً حتى اليوم، فبدا وجودها مقترناً بالتطور الحضاري القائم.



# علم الفيزياء

## الإمام الصادق والفيزياء:

لستُ فيزيائياً لأفرز نظريات الإمام الصادق في علم الفيزياء وحقولها المتعددة، ولكني أستطيع تصنيفها بحسب فهمي لها، فيكون دوري في هذا دور الناقل الأمين، والمعلّق لا المنظر، والمنظّم لجزء من أبعادها في ضوء ما استخرجه المتخصصون، واكتشفه روادّ هذا العلم والمبرمجون له، والنظر في إجماعهم أن الإمام الصادق سبق إلى نظريات فيزيائية دقيقة يسّرها بين يدي الباحثين.

ولا استغراب لدينا في إضافة هذا العلم الحضاري إلى مفردات علم الإمام الصادق المستفيض، فمصدر ذلك هو الرسول الأعظم٢ فيما أفاضه على أهل البيت، فتوارثوه واحداً بعد واحد، حتى عاد جزءاً من تراث الإمامة، ونشر كلٌ منهم ما استطاع بحسب ظروفه المعاصرة.

وكانت فرصة الإمام الصادق ذهبية حينما تفرغ لمدرسة أهل البيت فأشبعها بحثاً وتمحيصاً، ونشرها حقائق ونظريات، حتى عادت دساتير

لذوي التخصص الدقيق، وكما لا استغرب هذا، واستقبله حقيقة علمية، فلا يستغربن أحد ذلك عن الإمام بما أفاد وأجاد، وأبدع وابتكر، وكشف وسبق، فهو سليل النبوة ووريثها.

يقول الأستاذ أحمد أمين الكاظمي رحمه الله:

قد يتساءل الناس هل أن الإمام كان مستوعباً العلم الحديث، أو كان يعلم الفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم؟

إن ما نقرأه عن أحوال الأئمة عليهم السلام، يشير إلى ذلك، وأنهم كانوا يجيبون بصورة فورية على أسئلة في حقول العلم الحديث، مسائل يحتاج حلّها إلى تفكير ووقت لا يستهان به، مسائل ما كان ليقوى على حلّها العلماء من جميع الأمم في ذلك الوقت، ولم نجد فيما نقرؤه عن أحوال الأئمة عليهم السلام أنهم استمهلوا للإجابة على مسألة، أو عينوا موعداً للجواب...

هذا النوع من العلم، والعلم بما وراء الطبيعة، والوقوف على فلسفة الكون الحقّة، لا يتأتى إلاّ من ناحية التقوى وتزكية النفس وَمَنْ مثل الإمام المعصوم في مراتب التقوى وتزكية النفس، فنفوسهم عليهم السلام معصومة من الزلل، بالغة أسمى مراتب الزلفى نتيجة التقوى، تقوى لا عليها غيرهم، فهم منهج الإيمان، ومعادن الحقائق، وشفعاء الخلائق، ومفاتيح رحمة الله.

والإمام الصادق لم يجد بيئة صالحة لبث علومه الجمّة، إذ أن الوسط الاجتماعي لم يكن وسطاً علمياً مركزّاً، ولم يكن للمسلمين حظ وافر للإستفادة من علومه في حقول شتى[١].

وأنت ترى الباحث يربط بين الصفاء الروحي الخالص، ومراتب التقوى العالية، وبين علم الإمام عليه السلام وهذا مما لا يختلف به اثنان على أننا نختلف جزئياً مع الباحث حول عصر الإمام عليه السلام فقد كانت هناك بيئة متلقية لعلوم الإمام، وقد دونت فيها إفاضاته العلمية، فكانت منار الأجيال فيما بعد على أن عصره كان منفتحاً ببركة جهوده الخاصة، على قضايا الفكر والفلسفة والطب والعلم التجريبي بحدود ابتعاداً عن المسرح السياسي، نعم لو كان عصره متفتحاً بأفكاره أكثر فأكثر، لأفاض الإمام بنظريات ودساتير أعمق، إلاّ أنه راعى عقلية العصر العلمية، وقابلية تلامذته الثقافية، فغمرت مع ذلك أشعته الأفق الواسع البعيد.

وإلى هذا أشار أبو جعفر المنصور وهو يخاطب الإمام:

**«لا نزال من بحرك نغترف، وإليك نزدلف، تبصّر من العمى، وتجلو بنورك الطخياء[٢] فنحن نحوم في سحاب قدسك وطامي بحرك»**[٣].

ولعلّ من المفيد حقاً أن أبرمج بعض نظريات الإمام الفيزيائية، لتكون أكثر تناولاً، وأيسر تداولاً، والله المستعان.

---

(١) ظ: أحمد أمين الكاظمي: التكامل في الإسلام ٥/ ٨٧ وما بعدها بتصرّف.

(٢) الطخياء: الليلة المظلمة.

(٣) أسد حيدر: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ٤/ ٣٣٧.

## نشأة الكون:

للإمام الصادق عليه السلام آراء جزئية في الفيزياء الكونية، وغيرها من العلوم الصرفة، لا تختلف أبداً عن النظريات العلمية في عصرنا الحديث، وهي تقوم أساس تجريبي يخضع لمعادلات رياضية معقّدة.

ولو قرأ عالم فيزيائي اليوم نظرية الإمام جعفر الصادق عليه السلام في موضوع نشأة الكون في ضوء إطار القوانين الكونية، لتميزت نظرية الإمام بالأسبقية، لأنها انطلقت قبل ثلاثة عشر قرناً، وهي تطابق النظريات الفيزيائية الحديثة بشأن نشأة الكون، وهي لا تختلف أيضاً عن النظرية المعاصرة الخاصة بالذرة وجوهر الكون.

أشار الإمام عليه السلام إلى وجود قطبين متضادين، وهو ما يماثل القوتين الإيجابية والسلبية داخل الذرّة، ومنها تتألف الذرّة نفسها، وتتولد المادة من الذرّة.

والنقطة المحورية في نظرية الإمام الصادق عليه السلام هي موضوع القطبين المتضادين، وهي تتجلى بوضوح، بما لا يتضح في نظريات فلاسفة الإغريق القدامى أو فلاسفة الإسكندرية.

ولئن تردد الفلاسفة الذين ساقوا نظرية الأضداد في غير اطمئنان إلى صحتها، فإن الإمام عليه السلام قد جزم بها، واستغنى بذلك عن استخدام أي عبارة توحي بمعنى التحفظ أو الاحتياط، فهو قد كان واثقاً من سلامة رأيه، ولا يعتوره أي شك في صحة نظريته.

إن نظرية القطبين المتضادين التي طلع بها الإمام الصادق عليه السلام قد ظهرت أهميتها في القرن السابع عشر الميلادي، عندما أثبت علم الفيزياء وجود هذين القطبين. والذين عاصروا الإمام ظنوه قائلاً بما قالت

به الفلاسفة من قبله: من أن الشـيء يعرف بضده، ولهذا لم يعوا كلامه، ولا احتفوا به الحفاوة الخليقة به، ولكن ما نعرفـه اليوم من علوم الذرّة والكهرباء والإلكترونيات قد قطع بسـلامة هذه النظريـة، وأكد أن هناك قطبين متضادين في المغناطيس وفي الكهرباء وفي نواة الذرّة، وفي غير ذلك من ميادين العلوم[1].

## قانون الأجسام الصلبة:

عرض الإمام الصـادق عليه السلام في مباحـث الفيزياء لمسـائل مهمة لم يسبق إليها إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.

ومن ذلك قانون الأجسـام الصلبة، فقد صنّف الأجسـام إلى أجسام كدرة، وأخرى مصقولة شفّافة، إذ قال:

كل جسـم صلب جامد يكون كدراً، وكلّ جسـم جامد دافع يكون لماعاً وشفافاً..

وفي الردّ على سـؤال: ما الذي يجذب؟ قـال عليه السلام: إن الحرارة هي التي تجذب.

وقد أصبحـت هـذه النظرية فـي يومنا الحاضـر قانونـاً علمياً في الكهرباء والفيزياء. أفليس مما يدهش حقاً: أن يكون القائل بهذه النظرية منتمياً إلى منتصف القرن السابع ميلادي؟ ولعلنا في يومنا هذا لو سألنا مائة شخص: كيف أن من الأجسام الصلبة ما هو لمّاع وما هو كدر؟ لما

---

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٧٣ وما بعدها بتصرف وإضافة.

استطاع أحد منهم أن يجيء بالجواب الصحيح، أي أن يقول لنا سبب كون الحديد كدراً، أو الألماس والبلور لماعاً وشفافاً؟

ونعرف في قوانين الفيزياء الحديثة أن كل جسم كدر تصدر عنه أمواج وأشعة حرارية، فيكون موصلاً جديداً للحرارة وللأمواج الإلكترونية، وأن الأجسام التي لا تنتقل الحرارة منها بسهولة، أي غير الموصلة للحرارة الجاذبة لها أو الناقلة من الأمواج الألكترونية، تعتبر أجساماً عائقة، وتكون شفّافة لمّاعة.

والإمام الصادق عليه السلام لم يتحدث عن أمواج كهرطيسية وإنما تحدث عن الحرارة، وجاءت أقواله مطابقة لقوانين الفيزياء اليوم القائلة إن الأجسام الكدرة كالحديد تنقل الأمواج الكهرطيسية وتنقل الحرارة أو توصلها ببطء، وتحول دون الأمواج الكهرطيسية أجسام عائقة، وتكون لمّاعة شفافة.

وتقوم هذه النظرية عند الإمام الصادق في كدر الأجسام أو صفائها على أساس الجاذبية والقدرة على الشدّ والقبض.

ولما سئل الإمام عليه السلام عن سبب كدر الأجسام أو صفائها؟

قال عليه السلام: إن الجسم القابض للحرارة كدرٌ، والأجسام التي لا تمتص الحرارة شفّافة على إختلاف مراتبها.

وهذا نفسه يطابق قوانين الفيزياء الحديثة في تعليل كدر الأجسام الصلبة أو صفائها[1].

حركة الموجودات:

---

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٧٧ وما بعدها بتصرّف.

للإمام الصادق عليه السلام نظرية باهرة أخرى، تتعلق بحركة الأجسام، مؤداها أن لكل شيء حركة، وإن كان جماداً، إلاّ أن أعيننا لا ترى هذه الحركة.

وإذا كان هذا الرأي قد بدا غير متصور في أيام الإمام الصادق عليه السلام، فهو قد أصبح اليوم حقيقة علمية مقررة، لا سبيل إلى الشك فيها.

لقد ثبت علمياً بأنه لا يوجد جسم أو عنصر في العالم إلاّ وله حركة ما، وأن من المستحيل تصور جسم معدوم الحركة.

وهذا الرأي الذي ابتكره الإمام الصادق قبل ثلاثة عشر قرناً، هو من مكتشفاته التي سبق بها عصره، وأضاف إليه: أن توقف الحركة معناه موت بني البشر.

وقال أيضاً: إن الحركة تستمر حتى بعد الموت، ولكنها تتخذ شكلاً آخر، ولولا الحركة لما بليت الأجسام وصارت رميماً.

ولا يحسّ الإنسان بمرور الزمن، ولا يدرك كنهه إلاّ من خلال الحركة، فإن توقفت الحركة في الكون فقدنا الإحساس بمرور الزمن.

وقد أثبت العلم الحديث أن الحركة مستمرة وموجودة في الإنسان، وفي الأشياء حتى بعد الموت، وهذا نفسه هو الذي قال به الإمام الصادق عليه السلام عندما أكد أن الحركة باقية، وأن الإنسان وكل الأشياء سائرة إلى الخالق الفاطر، وأن الإنسان باقٍ ما بقي الدهر، وإن كانت ذرات جسمه تتغيّر وتتحوّل إلى طاقة دون أن تفقد الحركة التي تلازمها وتتحرك معها.

ويرى الإمام الصادق أن كل شيء يرجع إلى الله وينجذب إلى خالقه.

وهذا ما يسمى عند العرفانيين باسم: **(وحدة الوجود)** **(المعدّلة)** وفكرتها:

إن جميع ما في الكون من عناصر وكائنات ومنها الإنسان، إنما هو مظهر من مظاهر وجود الله تعالى(١).

وهذه النظرية وإن كانت عرفانية المنشأ، إلا أنها أصبحت من وجه آخر حقيقة فيزيائية تقول: أن كل الأشياء متحركة ومنجذبة إلى الله تعالى.

## الزمان والمكان نسبيان:

قد يعجب الباحثون الأوروبيون أن رجلاً عاش في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، وهو الإمام الصادق عليه السلام، يقول بنظريات دقيقة حول الزمان والمكان تتفق مع النظريات العصرية، وأن تعريفهما جاء مصوغاً في قالب سهل المأتى واضح المعنى، خلواً من المصطلحات المعقدة.

ففي رأي الإمام الصادق عليه السلام أن الزمان غير موجود بذاته، ولكنه يكتسب واقعيته وأثره من شعورنا وإحساسنا، كما أن الزمان حد فاصل بين واقعتين أو حدثين.

وهو يرى أن الليل والنهار ليسا من أسباب تشخيص الزمان ومعرفته، يضاف إلى ذلك أن الليل والنهار ليس لهما طول ثابت،

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٣٨٤ وما بعدها بتصرف.

فالليل يقصر في الصيف ويطول في الشتاء، والنهار عكسه، وهما يتعادلان أحياناً.

وفي رأي الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أن للمكان وجوداً تبعياً لا ذاتياً، وهو يتراءى لنا بالطول والعرض والارتفاع، ولكن وجوده التبعي يختلف باختلاف مراحل العمر، ومن ذلك مثلاً: أن الطفل الذي يعيش في بيت صغير، يرى بخياله وأحلامه أن فضاء البيت ساحة كبرى، ومتى بلغ هذا الطفل العشرين من عمره، رأى هذه الدار مكاناً صغيراً جداً، وأدهشه أنه كان يراها واسعة رحيبة في طفولته.

فللمكان، بناء على ذلك، وجود تبعي لا حقيقي، وفي هذا اتفقت آراء علماء الفيزياء في القرن العشرين، مع رأي الإمام الصادق في القرن السابع الميلادي[1].

## نظرية الضوء:

من إبداعات الإمام الصادق عليه السلام نظريته الخاصة بالضوء.

ففي رأيه أن الضوء ينعكس من الأجسام على صفحة العين البشرية، أمّا الأجسام البعيدة فلا ينعكس منها إلاّ جزءً صغير من الضوء، ولهذا تتعذر رؤيتها بالوضوح الكافي.

ونتيجة للاتصال الذي تحقق بين أوربا والشرق أثناء الحروب الصليبية، انتقلت هذه النظرية من الشرق إلى أوربا، ودرّست في

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٢٨٥.

المعاهد العلمية والجامعات الأوروبية، وكان من جملة المهتمين بها الدكتور روجر بيكون (ت١٢٩٤م) الأستاذ بجامعة أكسفورد.

وجاءت نظرية بيكون في الضوء مطابقة لنظرية الإمام الصادق عليه السلام. فلو استعنّا بما يقرّب ضوء الأجسام البعيدة إلى عيوننا، لأمكننا مشاهدتها، وقد قرّبت إلينا خمسين مرة عن بعدها الحقيقي.

ولما سُئل غاليلو عن سرّ رؤية سطح القمر وما عليه بوضوح، ردّد نظرية الإمام الصادق عليه السلام، وهي أن هذا نتيجة لانعكاس الضوء من سطح القمر، ووصوله إلى العين.

وقد فتحت هذه النظرية الطريق أمام الباحثين حتى انتهت بهم إلى صنع المنظار الفلكي، ورصد الأجرام السماوية، وقادتهم إلى انطلاقة عصر النهضة والتجديد.

ولو تقدّم العلم في عصر الإمام الصادق عليه السلام، لتمكن الإمام من صنع منظار أو مرقب فلكي لرصد الأجرام السماوية، وتسجيل حركة السيارات، ولنجح بفكره النافذ في تحقيق ما انتهى إليه علماء عصر النهضة في أوربا، وفي طليعتهم العالم البولوني كوبر نيكوس، والعالم الألماني كبلر، وكذلك غاليلو في تصويبه منظاره الفلكي إلى قبة السماء عام ١٦١٠م.

وللإمام الصادق عليه السلام نظرية أخرى عن الضوء وحركته وسرعته، لا تقلّ أهمية عن نظريته الخاصة بالضوء وانعكاساته.

فما قاله: أن الضوء ينعكس من الأجسام على العين بسرعة (**كلمح البصر**) أي أن الإمام عرف أن للضوء حركة كلمح البصر، ولو أسعفته الوسائل التقنية الحديثة لاستطاع أن يقيس هذه السرعة بدقة شديدة.

فهو إذن قد اكتشف نظرية الضوء، وأن للضوء حركة، وأن هذه الحركة سريعة جداً، أفلا يدل هذا كله على انه كان سابقاً على عصور علمية كثيرة[1].

## نظرية أشعة الليزر والضوء:

روي عن الإمام الصادق قوله في بعض دروسه: إن الضوء القوي الساطع يستطيع تحريك الأجسام الثقيلة.

ومن مؤدى هذه الرواية يبدو أن الإمام قد تنبأ بأساس نظرية: (**أشعة الليزر**)، وفي رأينا أن آراء الإمام الصادق في الضوء وحركته وانعكاس أشعته من الأجسام إلى العين، أهم من نظرية (**أشعة الليزر**) لأن هذه النظرية قد عرفت مقدماتها قبل الصادق عليه السلام، وفي الأزمنة القديمة، وعند مختلف الأقوام والشعوب.

وليست لدينا معلومات دقيقة عن مبدأ هذه الفكرة وتاريخها، ولكننا لو تركنا جانباً موضوع الطاقة الكامنة في الضوء، فإن الذي قاله الإمام الصادق عليه السلام عن الضوء وحركته، يتفق مع ما أثبته البحث العلمي المعاصر تماماً وبالضبط.

---

(١) المرجع نفسه: ٢٥٧ وما بعدها بتصريف وإيضاح.

وغاية ما فـي الأمر أن العلـم الحديث قاس سـرعة الضـوء، وهي ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، ولكن هذا المقياس لا يجدي في قياس المسافات الفلكية الشاسعة في الدراسات الفلكية[1].

## خلق الإنسان والطبيعة الأرضية:

يرى الإمام الصادق عليه السلام أن جسم الإنسـان يتألف من نفس العناصر الموجودة في الأرض، ولكن بنسـب متفاوتة، فهنـاك عناصر توجد في جسم الإنسان بنسبة أكبر من نسـبة وجودها في الأرض، وهناك عناصر أخرى توجد بنسـبة أقـلّ منهـا، وهناك أربعة أشـياء توجد في جسـم الإنسـان بصورة أكبر من سـواها، كما أن هنـاك ثمانية أشـياء تأتي في مرحلة ثانية، وثمانية أشياء أقل مما في القسمين الأولين.

ولا ريب أن ما قاله الإمام الصادق عليه السلام عن تشـريح جسـم الإنسان يكتب لـه بيـن المعاصريـن له مـن المشـتغلين بعلـم الأحيـاء منزلة النبوغ، لا سـيما وقد برهن التمحيـص العلمي الدقيـق أن نظرية الإمام نظرية صحيحة.

وقد قال الصـادق عليه السلام إن العناصر الموجودة فـي الأرض، وعددها مائـة واثنـان، موجـودة فـي جسـم الإنسـان بدرجـات متفاوتـة، وإن بعضهـا يذهب مـن القلـة مذهباً يحـول دون تعييـن مقـداره وحجمه بالدقة المطلوبة.

وقد قسـم الإمام هذه المـواد والعناصـر إلى ثلاثة أقسـام، يتضمن القسـم الأول منها العناصـر الأربعة الأساسـية التي يتوفـر وجودها في

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٢٦٨ بتصرف.

جسم الإنسان بكثرة، وهي: الأوكسجين، والكربون، والهيدروجين، والنتروجين.

ويتضمن القسم الثاني ثمانية عناصر توجد بنسبة أقل وهي المغنسيوم، الصوديوم، البوتاسيوم، الكالسيوم، الفوسفور، الكلور، الكبريت، الحديد.

ويتضمن القسم الثالث ثمانية عناصر هي أقلها توفراً، وتوجد بجسم الإنسان بمقدار ضئيل وهي: الموليبدنوم، والسلنيوم، والفلور، والكويلت، والمنغنيز، واليود، والنحاس والرصاص الخالصان.

صحيح أن الإمام الصادق لم يُسمِ هذه العناصر بأسمائها العلمية المعروفة اليوم، ولكنه استطاع تمييزها بعقله المستنير، في حين أن العلماء المحدثين لم يتسنَ لهم الاهتداء إليها إلاّ بعد بحث وتحقيق علميين، وتجارب واسعة، وعمليات تشريح دقيقة، استمرت منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي، وكان لفرنسا والنمسا دور بارز ريادي في أوربا في علم التشريح.

وهكذا جاءت التجارب العلمية التي أجريت في فترة تربو على مائة وخمسين عاماً مؤكدة النظرية التي أتى بها الإمام الصادق عليه السلام[1].

## الوجود والوجود المضادّ:

ومن النظريات الطريفة للإمام الصادق عليه السلام في الفيزياء نظرية الوجود والوجود المضادّ، وهي نظرية أكدتها التجارب العلمية الحديثة.

---

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٢٥١ وما بعدها بتصرف.

يروى أن الإمام قال:

**«إن لكلِّ كائنٍ موجود وجـوداً ذاتياً كائناً مضاداً لـه، ما عدا الله، ولكن الضدّين لا يتصادمـان ولا يجتمعان، ولو اجتمعـا أو تصادما لكانت في ذلك نهاية العالم»**.

وهذه النظرية هـي بعينها النظرية الحديثة القائلـة: إن للمادة نقيضاً أو مضاداً، وقـد قطعت هـذه النظرية شـوطاً بعيـداً في سـبيل إثباتها بالتجريب العلمي.

والفرق بين المادّة ومضـادّ المادة أو نقيضها يتحصـل في أن المادة في العناصر التركيبية المادية تتكون نواتها من نواة مركزية موجبة، تدور في فلكها الكترونات سالبة، في حين أن ذرات المادة المضادّة تتألف من نواة سـالبة، تدور في فلكها الكترونات موجبـة، أي أنها تماثلها، ولكن بصورة عكسية تماماً[1].

بعد هذه الجولة فـي رحاب نظريات الإمام في الفيزياء. واكتشـافاته التي أيّدهـا العلم التجريبـي الحديث، وسـجل له فيها قصب السـبق، يمكننا أن نختتم الحديث عنها بالقول بأني قد يسـرت مطالبها، وذللت مصاعبها، فجاءت سهلة سـمحة واضحة، اقتبسـتها من بحوث العلماء المتخصصيـن من الأوربييـن والمستشـرقين، وكنت أميناً علـى النقل، دقيقاً فـي الاختيار، متجاوبـاً مع الموضـوع، لندرته وطرافته ونفاسـته، ليرى شبابنا المثقف الواعي أن أئمتنا هم مصادر العلم، وكنوز المعرفة، وخزائن الثقافة، فيزدادوا إيماناً، ويطمئنـوا يقيناً، ويثبتوا على الحق، فما بعد الهدى إلا الضلال.

---

(١) ظ : جماعة كبار المستشرقين : الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٢٩٥ .

إن هذه الشـذرات النقيّة التي التقطناها من مـوروث الإمام الصادق الحضاري تمثل جزءاً من ذلـك التراث الضخم الذي حفـل به التاريخ، ولكنهـا تحقـق هدفـاً مركزياً فـي الأصالـة العلميـة لدى أئمـة أهل البيت عليهم السلام.



# علم الطبّ

ليس باستطاعتنا بهذا البحث استعراض فصائل علم الطب بشرائحه كلها، عند الإمام الصادق عليه السلام، ولكننا نشـير إلى بعـض الملامح العامة في الكشف والابتكار التي سبق إليها الإمام، متحدّياً قصور أطباء عصره عن إدراك كثير مـن الظواهر الطبية المعمّقة، فما اكتشـفه عصر النهضة والقرن العشـرين بأجهزته المتطـورة، ومختبراته التحليلية، وكشـوفاته الإشعاعية، توصل إليه الإمام بذائقته العلمية، وفطرته الخالصة.

ولا غرابة في ذلك، فللإمام الصادق «**آراء في تكوين الإنســان وطبّ الأجســام، فلم يقتصر - عليه السلام - على طبّ الأرواح بكلامــه الحق، بل تصدى لطبّ الجسم**»[1].

وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام في الطب أول مدرسة تؤسس في الإسلام في شبه الجزيرة العربية، ولم يكن للعرب يومذاك عناية بالعلاج والوقايــة، فمن اجتاز أمــراض الطفولة قلّ أن يمرض طـول حياته، نظراً لصلابة أجســامهم، وقوة احتمالهم لقســاوة البيئة في البادية، فإن مرض في كبره، تركوه عند الآلهة حتى يشفى أو يموت.

(١) محمد أبو زهرة: الإمام الصادق ١٨٤.

والقواعد العامة لعلم الطب التـي كانت تتداول وتدرس في مختلف المدارس هي قواعد متشـابهة، غير أننـا نرى في مدرسـة الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما لا نراه في مدرسة قبلها، مما يدل على أنه هو المستنبط لهذه القواعد، والواضع لهذه النظريات[1].

وهنا ينبغـي إلقاء الضـوء على قبس مـن تلك النظريـات المهمة، باعتبارها نماذج تشـير إلى السـبق الطبي الذي اضطلـع به الإمام عليه السلام قبل ثلاثة عشر قرناً، ومن قبل أن تستحدث دلالتها في الطب الحديث، وهذا ما نحاول إيجازه، وإلاّ فمفـردات هذا الموضوع قد أفرده الكثيرون بمؤلفات قائمة في حدّ ذاتها، بيد أننا على سـبيل الإفـراز لأبرز مظاهر الموضوع في الفقرات الآتية.

## اكتشاف المجهول:

ونعني به سـبق الإمام عليه السلام إلى اكتشـاف الحقائـق الطبية، وتكوين الخلق البشري، وتشـريح الأعضاء، وغوصه في علم الفسلجة، قبل هذا التطور الهائل المعاصر.

وهذا باب غماره أوسع من أن تشق، ولكننا نكتفي ببعض الظواهر:

أ) تؤكد الدراسات الأوربية أن الدكتور وليم هارفي (ت ١٧٥٦م) هو المكتشـف للدورة الدموية الصغرى التي تضخ الدم من الجانب الأيمن من القلب إلى الرئتيـن، وإعادته إلى الجهة اليسـرى من القلب لغرض توزيعه على بقية شـرايين الجسم البشـري، هذا ما توصل إليه الدكتور وليم هارفي.

---

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١١٧ بتصرف.

في حين نجد الإمام الصادق قد سبق إلى هذا الكشف، إذ تحدث عن الدورة الدموية مضيفاً إليها عمل المعدة في تمثيل الغذاء، والكبد في امتصاص عصارة ذلك، وجريانه في شرايين دقيقة تغذيه وتصبّ في روافده، وانسيابه دماً في العروق بعد طرح فضلاته، وعمل المرارة والطحال، وتغذية الأوردة بالدم حتى تكونه وجريانه من قبل مركز التوزيع وهو القلب، وذلك كله من المبتكرات الطبية التي توجه بها الإمام إلى تلميذه المفضل بن عمر قال الإمام عليه السلام: **«فكّر يا مفضّل في وصول الغذاء إلى البدن، وما فيه من التدبير، فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه، وتبعث بصفوه إلى الكبد في عروق دقاقٍ واشجة بينها، وقد جعلت كالمصفى للغذاء لكيلا يصل إلى الكبد منها شيء فينكأها، وذلك أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف، ثم إن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً، وينفذه إلى البدن كلّه في مجاري مهيئة لذلك بمنزلة المجاري التي تهيئ الماء ليطرّد في الأرض كلّها، وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مفائض قد أعدت لذلك، فما كان منه من جنس المرة الصفراء جرى إلى المرارة، وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال، وما كان من البلّة والرطوبة جرى إلى المثانة، فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن، ووضع هذه الأعضاء منه مواضعها، وإعداد هذه الأوعية فيه لتحمل تلك الفضول، لئلا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه، فتبارك من أحسن التقدير وأحكم التدبير، وله الحمد كما هو أهله ومستحقه»**[1].

هذا ما يؤيد قول بعض الأوروبيين المعاصرين:

(١) المفضل بن عمر: توحيد المفضّل ٥٦.

«كان الإمام الصادق عليه السلام ملمًّا بالطب، وكان يلقي دروساً فيه، أفاد منها كثير من الأطباء والباحثين والمرضى في القرنين الثالث والرابع.

ومن نظرياته التي انتفع بها الأطباء في عصره وبعد وفاته، رأيه في إمكان تنشيط الدورة الدموية عند حدوث سكتة مفاجئة، أو توقف مؤقت حتى ولو ظهرت على المريض إمارات الموت، أو علامات شبيهة بعلامات الموتى[١].

ب) وفي استعراض دقيق لأبعاد الهيكل العظمي لدى الإنسان، وحنايا الجسم ومفاصلة، وتركيبه الأساسي عظماً ولحماً وأعصاباً، نجد الإمام الصادق متحدثاً بتفصيلات خطيرة، لا عهد للتشريح والطب بها من ذي قبل.

يقول الإمام عليه السلام: «إن الله خلق الإنسان على اثني عشر وصلاً، وعلى مائتين وثمانية وأربعين عظماً، وعلى ثلاثمائة وستين عرقاً.

فالعروق هي التي تقي الجسد كلّه، والعظام تمسكها، واللحم يمسك العظام، والعصب يمسك اللحم.

وجعل في يديه اثنين وثمانين عظماً، في كل يد أحد وأربعون عظماً، منها في كفه خمسة وثلاثون عظماً، وفي ساعده اثنان، وفي عضده واحد، وفي كتفه ثلاثة، فذلك أحد وأربعون عظماً، وكذلك في الأخرى.

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١١٢.

وفي رجله ثلاثة وأربعون عظماً فيها في قدمه خمسة وثلاثون عظماً، وفي ساقه اثنان، وفي ركبته ثلاثة، وفي فخذه واحد، وفي وركه اثنان، وكذلك في الأخرى.

وفي صلبه ثماني عشرة فقارة، وفي كل واحد من جنبيه تسعة أضلاع، وفي وقصته (عنقه) ثمانية، وفي رأسه ستة وثلاثون عظماً، وفي فيه ثمانية وعشرون، أو اثنان وثلاثون عظماً»[1].

والشيء المدهش حقاً، أن يتوافق هذا العدد مع ما ذهب إليه علم التشريح حديثاً.

يقول الطبيب الأديب الشيخ محمد الخليلي: «**ولعمري إن هذا الحصر والتعداد هو عين ما ذكره المشرّحون في هذا العصر لم يزيدوا ولم ينقصوا، اللهم إلاّ في التسمية، أو جعل الاثنين لاتصالهما واحداً أو بالعكس، وهذا مما يدلنا على إطلاعه الكامل بالتشريح، ونظره الثاقب في بيان تفصيل الهيكل العظمي في بدن الإنسان**»[2].

ج) وفي السبق إلى مبادئ العلاج نجد الإمام عليه السلام ينازل أحد كبار الأطباء في مجلس المنصور، فيذهب إلى معالجة الضدّ بالضدّ، رادّاً الأمر إلى الله تعالى، ومؤكداً على تعليمات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسننه في حصر الداء بالمعدة، والدواء بالحمية، فيقول:

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٥٨/ ٣١٧.

(٢) محمد الخليلي: طب الإمام الصادق ٣٠.

**«أداوي الحارّ بالبارد، والبارد بالحارّ، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وأردّ الأمر كله إلى الله عزّ وجلّ، واستعمل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وأعلم أن المعدة بيت الداء، وأن الحمية هي الدواء. وأعوّد البدن ما اعتاد»**[1].

د) ومن النظريات التي قال بها الإمام الصادق عليه السلام، وكشفت عن نبوغه العلمي المبكر، نظريته بانتقال بعض الأمراض عن طريق الإشعاع من المريض إلى السليم.

ومؤدى هذه النظرية أن هناك أمراضاً ينبعث منها إشعاعٌ ما، فإذا أصاب هذا الإشعاع أحداً، انتابته العلة.

وهذا لا ينسحب على العدوى بطريق الهواء أو الميكروب، وإنما ينصبّ هذا القول على الضوء - وليس كل ضوء - بل الضوء الذي يشعه المريض، فإذا أصاب سليماً أمرضه.

وكان الاعتقاد السائد بين المتطببين قبل اكتشاف الميكروب، أن الرائحة هي السبب الفعّال في انتقال المرض، ولهذا صرفوا اهتمامهم إلى الحيلولة دون انتقال الرائحة من المريض إلى السليم.

أمّا ما ذهب إليه الإمام الصادق عليه السلام من أن الضوء المشعّ من المريض هو الذي يتسبب في نقل العدوى، فهو نظرية لم يقل بها أحد في أي مرحلة من مراحل تاريخ الطب الطويل.

وظلت هذه النظرية معدودة من الخرافات في رأي العلماء والباحثين، إلى أن جاءت التجارب العلمية المعاصرة معززة لها، ومثبتة لآراء الصادق هذه. فقد أقام العلم الحديث البرهان أن الأشعة فوق

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٥٧/ ٣٠٧.

البنفسجية المنبعثة من الخلايا المريضة تسبب في نقل الأمراض إلى الخلايا السليمة[١].

## الأمراض الباطنية:

وهي تشمل مفردات عديدة كالحمى، ومرض القلب، وأمراض المعدة وتوابعها، وأمراض الصدر سيما الربو، وسوى ذلك.

أ) في علاج الحمى، ورد عن محمد بن مسلم، قال:

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**ما وجدنا للحمى مثل الماء البارد والدعاء..**»[٢].

وعن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد ذكرت له الحمى فقال: «**إنّا أهل البيت لا نتداوى إلاّ بإفاضة الماء البارد يصبّ علينا، وأكل التفاح**»[٣].

وعنه عليه السلام: «**كل التفاح فإنه يطفئ الحرارة، ويبرّد الجوف، ويذهب بالحمى..**»[٤].

وقد أكدت الدراسات الطبية التجريبية صحة هذا الاتجاه في علاج الحمى، حتى تجاوزته في الحرارة العالية الدرجة إلى الكمادات وقطع الثلج، توضع على جبهة المريض وبعض أعضائه.

---

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٢٨٧ وما بعدها.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٥٩/ ٩٦.
(٣) المصدر نفسه: ٥٩/ ٩٣.
(٤) المصدر نفسه: ٥٩/ ٩٣.

ب) وفي علاج القلب ينظر الإمام الصادق إلى ما ينعش القلب ويبدد آلامه، ويدفع بشيء من الضنا ولو مرحلياً، فليس هناك ما يوسع الشرايين عقاراً، ولا جراحة القلب بمعروفة، ولذا نجده عليه السلام يستدفع المكروه بما ينفع القلب علاجاً أو وقاية أو قوة.

وهناك روايتان في هذا الجانب، يؤكد فيهما الإمام على أكل الكمثرى، فعن أبي بصير عنه عليه السلام، قال:

«**كلوا الكمثرى فإنه يجلو القلب، ويسكن أوجاع الجوف بأذن الله تعالى**»[١].

وشكا رجل للإمام عليه السلام وجعاً يجده في قلبه، وغطاءً عليه، فقال الإمام: «**كل الكمثرى**».

وما يدرينا فلعل من خصائصه ما يوسّع الشرايين التاجية للقلب.

ج) وفي أمراض المعدة والضغط، يبدو التأكيد في تعليمات أهل البيت عليهم السلام على التحذير من السرف والتخمة في الأكل، فقد قال الإمام الصادق في رواية: «**لو اقتصد الناس في المطعم لاستقامت أبدانهم..**»[٢].

والاستقامة في المأكل يتم معها ضبط ضغط الدم، وموازنة داء السكر، ومعالجة أمراض العدة والقلب، حتى لقد ربط بعض الدارسين الأوربيين بينها وبين إطالة عمر الإنسان في نظرية الإمام الصادق فقال:

«ومن النظريات العلمية البارعة ذات الأهمية الكبرى نظرية الإمام الصادق عليه السلام التي تدور حول عمر الإنسان، فمن رأيه أن الإنسان خلق

---

(١) الكليني: الكافي ٦/ ٣٥٨.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٥٩/ ٢٦٦.

لكي يعمر طويلاً، ولكنه يتسبب في تقصير عمره بنفسه، ولو أن كل إنسان اتقى ربّه، وأدّى الفرائض، وعفّ عن المحرمات، ولم يسرف في المأكل والمشرب، وذلك ما أمر به القرآن الكريم لاستمتع بحياة أطول.

ولا ريب في أن عمر الإنسان يتوقف بعد مشيئة الله، على أمرين هما: العناية بالصحة والاعتدال في الطعام»[١].

والإمام في هذا المنظور يربط بين الحظر الشرعي والملحظ الطبي في إطار موحّد، ويفيد من ذلك الاستشراف الصحيح في رفض العلاج بالمحرمات فالله ﷻ حينما حرّمها لم يقدّر فيها شفاءً ولا دواء، كما أثبت ذلك الطب في مذاهبه الحديثة.

لقد وصف لرجل الخمر في علاج مرضه، فقال الإمام عليه السلام:

**«لا ولا جرعة، وقال: إن الله ﷻ لم يجعل في شيء مما حرم شفاءً ولا دواءً»**[٢].

وهذا ما تعضده رواية أخرى مسندة عن قائد بن طلحة، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن النبيذ يجعل في دواء؟

فقال عليه السلام: لا ينبغي لأحد أن يستشفي بالحرام»[٣].

د) وأشار الإمام عليه السلام إلى الإحساس النفسي بالمرض، ففي بعض حكمه المأثورة: **«الإنسان إذا مرض أو وجع عرف نفسه»**.

---

(١) جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٣٧٣.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٩٧/٥٩.

(٣) المصدر نفسه: ٥٩/ ٨٧.

ولئن قال الصادق عليه السلام هذه الحكمة في سالف الزمان وهو في المدينة المنوّرة، إلاّ أنها شاعت في كل من آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا، ومن سمعها عرف أن قائلها أصاب الحقيقة، ففي هذا العصر نرى العالم النفسي الكندي (**مارشال ماك لوهان**) يعدّ هذه الحكمة من قوانين علم النفس، فيقول إن الإنسان نفسه فقط عندما يحل به ألم، إذ أنه كثيراً ما ينسى نفسه ووجوده في غياب الألم وتوافر الصحة.

ومما ساعد على انتشار هذه الحكمة الجعفرية في العالم: أنها حكمة صحيحة وسهلة الفهم في آن واحد، وفي وسع كلّ منا أن يتحقق من صدقها، فيعرف أن الإنسان لا ينسى نفسه، أو ينسى أنه حيّ إذا أصابه ألمٌ أو مرض.

فمهما تكن قدرة الإنسان على الصبر والتحمّل، فلا يسعه في حالة المرض أن ينسى نفسه، لأن الألم يشعره طول الوقت بأنه حيٌّ، ويصدق هذا في حالة إصابة الإنسان بألم روحي يزيد من شعوره بأنه حي يتألم[١].

ويبدو أن هذه الحكمة قد أصبحت أهم دساتير الطب النفسي لأنها تتسم بالأصالة والواقعية، فهذه المعرفة توقف الإنسان على حقيقة قدرته الواهنة لدى الاصطدام بالأمراض فجأة، فهو لا يستطيع دفعها ولا القضاء عليها، وتبدو له الإرادة ضئيلة محدودة التصرف، كما أنه ـ عندئذ ـ لا يمكنه أن ينسى لحظات الألم وساعات المحنة، وقد ينسى الكثير من الأحداث كما ينسى النفس عند السعادة والفرح الغامر والفهم

---

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٧٩ وما بعدها.

لهذه الحكمة ينبغي أن يكون مزوجاً إيجابياً وسلبياً في وقت واحد، وهو ما يلوح من إطلاق هذه النظرية.

هـ) وفي الأمراض الصدرية يبرز الربو وتضيق القصبات في الواجهة الأمامية منها، ويعتبر ـ في العصر الحاضر ـ تناول العسل علمياً من أفضل ما يمكن أن يخفف من النوبات الربوية، ويسكّن من حدة السعال، ويساعد على توسيع القصبات.

يقول الإمام عليه السلام: «**ما استشفى الناس بمثل لعق العسل**»[1].

والإمام في هذا الإطلاق الطبي إنما ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

فالعسل إذن بحسب منطوق الآية فيه شفاء للناس، وهذا الشفاء عام لا خاص، ومطلق لا مقيد، وقد نكّر لفظ (شفاء) للدلالة على عظم هذا الشفاء واستطالته.

وفيما يتعلق بالأمراض الصدرية استشفاءً به، يذهب باحث معاصر أن استعمال المنشقات (التبخير) في العسل كان متعارفاً في الأجيال السابقة، إذ أعطى ذلك نتائج جيدة في معالجة مجاري التنفس والقصبات، وعولج به المصابون بآفات ضمورية في طرق التنفس العليا، وذلك باستعمال محاليل العسل المائية بنسبة ١٠٪ ضمن أجهزة الاستنشاق العادية حيث يصل تأثير الرذاذ العسلي إلى الحويصلات

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٦٣/ ٢٩١.

(٢) سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩.

الرئوية، متجاوزاً أغشية الأنف والبلعوم، ومنها إلى الدم، كما استعمل رذاذ محاليل العسل بنسبة ٢٠ ـ ٣٠٪ لمعالجة الأنف والبلعوم الضموري، والتهاب الأنف الحاد المزمن.

وكذلك عولج بنجاح التهاب الجيوب الأنفية بغسلها بمحاليل عسلية، والتهاب الأذن الوسطى القيحي[1].

أمّا استعمال العسل شراباً أو ممزوجاً بالماء الدافئ، فهو تجريبياً نافع للنزلات الشعبية في الصدر، ومساعد على تخفيف حدّة الربو.

## طب الأطفال:

وفي مجال طب الأطفال يلحظ الإمام الصادق ظاهرة البكاء عند الأطفال حديثي الولادة، فيتعقبها بالإضافة والأفاضة، ويسرد ما في دخائلها من فوائد صحية ظلت مجهولة إلى ما بعد عصره بعدة قرون، وقد أثبت الطب الحديث صحة ما تناوله الإمام عليه السلام، واعتبره من الحقائق العلمية التي تواكب صحة الطفل، وسيرورة إنعاشه ويقظته من الخمول إلى الحركة الدائبة، مما يضمن صحة العين بخاصة وبدن الطفل بعامة.

يقول الإمام لتلميذه المفضل بن عمر الجعفي الكوفي: «**اعرف يا مفضّل ما للأطفال في البكاء من المنفعة، واعلم أن في أدمغة الأطفال رطوبة إن بقيت فيها أحدثت أحداثاً جليلة وعللاً عظيمة، من ذهاب البصر وغيره، والبكاء يُسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم، فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم، والسلامة في أبصارهم، أفليس قد جاز أن يكون الطفل**

---

(١) ظ: محسن عقيل: طب الإمام الصادق ٢٤٤ بتصرف.

**ينتفع بالبكاء، ووالده لا يعرفان ذلك، فهما دائبان يسكنانه، ويتوخيان في الأمور مرضاته، لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبة، فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالإهمال، ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء أنه لا منفعة فيه، من أجل أنهم لا يعرفونه، ولا يعلمون السبب فيه، فإن كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون، وكثيراً مما يقصر عنه علم المخلوقين محيط به علم الخالق جلّ قدسه، وعلت كلمته»**(١).

ويتحدث الإمام عن ظاهرة أخرى لدى الأطفال في حداثة أسنانهم فيشخصها ويقول: «**فأمّا ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق (اللعاب) ففي ذلك خروج الرطوبة، ولو بقيت في أبدانهم لأحدثت عليهم الأمور العظيمة، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة فأخرجته إلى حدّ البله والجنون والتخليط إلى غير ذلك من الأمراض المتلفة كالفالج واللقوة، وما أشبهها فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهم لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم، فتفضل على خلقه بما جهلوه، ونظر لهم بما لم يعرفوه...**»(٢).

وواضح أن هذين النصّين تحدثا عن ظاهرتين مصاحبتين للأطفال عند الصغر، وقد أظهر الإمام من عائدتيهما على الطفل ما جهله الآخرون، وقد يشذّ الفكر في معرفة دقائق الحكمة الإلهية، وقد لا يتوصل إلى علل ذلك كما رأيت.

---

(١) المفضل بن عمر: توحيد المفضل ٥٣.

(٢) المفضّل بن عمر: توحيد المفضّل ٥٣.

## الأمراض النفسية:

وعرض الإمام عليه السلام للأمراض النفسية والعقلية، وذلك بتسليط الضوء على القوى الكامنة في النفس الإنسانية، وأشار إلى فضلها وموقعها من حفظ التوازن العقلي، من خلال ما يفاجئ الإنسان من مكاره وطوارئ، ويحدد ما ينبغي له في التصرف والإرادة، ويرى هذا المناخ من نعم الله الفضلى على الإنسان، وبفقدها ينسلخ المرء من إنسانيته.

قال الإمام عليه السلام متحدثاً إلى تلميذه المفضّل بن عمر:

«تأمل يا مفضّل هذه القوى التي في النفس، وموقعها من الإنسان، أعني الفكر، والوهم، والعقل، والحفظ، وغير ذلك.

أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظ وحده، كيف كانت تكون حاله؟ وكم من خلل كان يدخل عليه في أموره ومعاشه وتجاربه؟ إذا لم يحفظ ما له وما عليه، وما أخذه وما أعطى، وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له، ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به، وما نفعه مما ضرّه، ثم كان لا يهتدي الطريق لو سلكه ما لا يحصى، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره، ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة، ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى، بل كان حقيقياً أن ينسلخ من الإنسانية»[1].

وهذا التشخيص وإن لم يكن نفسياً في ظاهره، ولكنه في واقعه يتحدث عن طوارئ ما يصيب الذهن من الشرود، والوعي من الإدراك، والذاكرة من الحفظ، وبذلك تكون عائدتيه على النفس، إذ يصاب

---

(١) المفضّل بن عمر: توحيد المفضّل ٧٧ وما بعدها.

بالشـــذوذ في التصرف، والابتعاد عـــن الهداية للأمـــور، ويكتب في عداد البله والمتخلفين، وذلك من الأمراض النفسية دون شك.

## الطب الوقائي:

ويتخذ الطلـــب الوقائي فـــي إفاضـــات الإمام الصـــادق عليه السلام مناحي جديـــدة فـــي تقريـــر الوقايـــة مـــن الأمـــراض، أكـــد صحتهـــا الطب في العصر الحديث.

تذكر دراســـة أوربية معاصرة أن الفيروس المســـبب لفقـــدان المناعة (مرض الإيدز) يفقد قدرته على النمو والانتشـــار في وجود الثوم، وذلك من خلال دراسة للفيروس في مزرعة من الأنسجة[١].

وقد وردت روايات عديدة عن الإمام الصادق في تناول الثوم.

فعن أبي بصير، قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن أكل الثوم والبصل، فقال: لا بأس بأكله نياً وفي القدر[٢].

والأطباء اليـــوم يحثون عليـــه لدوره في حفـــظ توازن ضغـــط الدم، ومكافحة تصلب الشرايين، وهو مادة مطهرة للفم والجهاز الهضمي من الجراثيم والطفيليات.

وفي استحباب السواك، وتطهيره للأســـنان، وإصلاحه اللثة، نموذج للوقاية من كثير من الأعراض.

---

(١) ظ: محسن عقيل: طب الإمام الصادق ٩٠.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٦٣/ ٢٤٩.

ورد عن الإمام الصادق أنه قال: «**في السواك عشر خصال: هو من السنّة، وهو مطهرة للفم، ومجلاة للبصر، ويرضي الرحمن، ويبيض الأسنان، ويذهب بالحفر، ويشد اللثة، ويشهي الطعام، ويذهب بالبلغم، ويزيد في الحفظ، ويضاعف الحسنات، ويفرح الملائكة**»(١).

وقال أيضاً عليه السلام: «**السواك يذهب بالدمعة، ويجلو البصر**»(٢).

وفي موازنة الحاجة إلى تناول الماء بقدر ودون إفراط، يقول الإمام: «**لا يشرب أحدكم الماء حتى يشتهيه، فإذا اشتهاه فليقلّ منه**»(٣).

وفي هذا وقاية من فساد المعدة، وإرباك عملية الهضم، وترهل البطن، وازدياد نسبة السوائل في الجسم دون حاجة، وعدم الارتواء.

وهناك إشارة للكحل، وهو مما يتزين به إلى عهد قريب، وهو مما تداوله الناس في عصر الإمام عليه السلام، وقد اعتبره أداة واقية عن ضعف البصر، وتساقط أشفار العينين، فقد روي عنه أنه قال:

«**الكحل يزيد في ضوء البصر، وينبت الأشفار**»(٤).

وربما كان من الوقاية الاعتماد على المناعة في جسم الإنسان بدل الدواء، واحتمال الداء فترة ما، عسى أن يتشافى المرء دون دواء، وقد ثبت طبياً أن في جسم الإنسان عدة معامل كيمياوية قد تصلح جملة من الأمراض دون حاجة إلى استعمال الدواء، وقد ورد عن الإمام الصادق أنه قال:

---

(١) المصدر نفسه: ٦٣/ ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٩/ ١٤٥.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة ١٧/ ١٩٠.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار ٧٣/ ٩٥.

**«اجتنب الدواء ما احتمل بذلك الداء»**[1].

وربما كان الاقتصاد في المأكل، والاقتصار على ما قلّ وكفى، من الوقاية التي هي خير من العلاج، فعن الإمام الصادق أنه قال:

**«أقرب ما يكون العبد من الله إذا خف بطنه، وأبغض ما يكون العبد من الله إذا امتلأ بطنه»**[2].

ويتحدث الإمام للوقاية من أمراض شتى حديثاً يستوعب آداب الأكل، قال عليه السلام: **«من أراد أن لا يضرّه طعام، لا يأكل طعاماً حتى يجوع، تنقى معدته، فإذا أكل فليسم الله، وليجد المضغ، وليكف عن الطعام وهو يشتهيه ويحتاج إليه»**[3].

وبهذا ننهي الحديث عن معالم الطب عند الإمام الصادق عليه السلام وقد اختزلناها اختزالاً كبيراً، لأنها من الوفرة في الكمية والمادة العلمية بحيث لا يتسع لها هذا الموجز من البيان، ومن أراد التوسع في الموضوع فعليه بالمطولات من المصنفات.

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة ١٧/ ١٩٠.

(٢) المصدر نفسه: طبعة مؤسسة آل البيت ٢٤/ ٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٦/ ٥٤٠.



## علم الأفلاك والكواكب

لم يكن الإمام الصادق عليه السلام فلكياً، ولم يكن منجماً، ولكنه كان من علماء الفلك والهيئة والكواكب، وفرق بين امتهان الشيء والعلم به.

وللإمام نظريات دقيقة في هذا الفن، جلبت إليه انتباه علماء عصره، فقد كان يحاججهم ويناظرهم، ويضع يده على مواطن الضعف في تخصصهم، فيصحح الأخطاء، ويجلو الحقائق، ويقف بهم عند الصواب.

وطالما قصده المنجمون للإفادة من علمه، فيصحح لهم الآراء، ويبين مبهمات الأمر، وله في هذا الملحظ محاورات وطرائف سجّلها التاريخ فقد قصده هاشم الخفاف، وهو فلكي عراقي، فقال للإمام: ما خلّفت في العراق أبصر مني بالنجوم، فقال الإمام: كيف دوران الفلك عندكم؟

قال: فأخذت قلنسوتي عن رأسي فأدرتها.

فقال الإمام: إن كان الأمر على ما تقول، فما بال بنات النعش والجدي والفرقدين لا يرون يدورون يوماً من الدهر في القبلة؟

قلت: والله هذا شيء لا أعرفه، ولا سمعت أحداً من أهل الحساب يذكره.

فقال لي: كم السكينة من الزهرة جزءاً في ضوئها؟

قلت: هذا والله نجم ما سمعت به، ولا سمعت أحداً من الناس يذكره.

قال الإمام: سبحان الله، فأسقطتم نجماً بأسره، فعلى ما تحسبون؟

إلى أن قال عليه السلام: صدقت، أصل الحساب حقٌ، ولكن لا يعلم ذلك إلاّ من علم مواليد الخلق كلهم[1]...

وللإمام عليه السلام مداخلة علمية في النجوم، يرويها أبان بن تغلب، نجتزىء منها بموضع الاستدلال فحسب.

قال: دخل على الإمام الصادق عليه السلام منجّم يماني، وبعد الترحيب به، سأله الإمام: ما صناعتك يا سعد؟

قال: أنا من أهل بيت ننظر في النجوم.

قال الإمام: كم ضوء الشمس على ضوء القمر درجة؟

قال: لا أدري.

قال الإمام: فكم ضوء القمر على ضوء الزهرة درجة؟

قال: لا أدري.

---

(١) الكليني: الكافي ٨/ ٣٥١، ابن شهرآشوب: المناقب ٣/ ٣٨٧ بتصرف.

قال: فكم للمشتري من ضوء عطارد؟

قال: لا أدري.

قال: فما اسم النجوم التي إذا طلعت هاجت البقر؟

قال: لا أدري.

قال الإمام: يا أخا أهل اليمن، عندكم علماء؟

قال: نعم، إن عالمهم ليزجر الطير، ويقفوا الأثر في الساعة الواحدة مسير الراكب المجدّ.

فقال الإمام عليه السلام: إن عالم المدينة أعلم من عالم اليمن، لأن عالم المدينة ينتهي إلى حيث لا يقفوا الأثر ويزجر الطير، ويعلم ما في اللحظة الواحدة مسيرة الشمس...

قال: ما ظننت أن أحداً يعلم هذا ويدري[١].

وقد استنتج باحث أوربي معاصر، أنه كان من توجيهات الإمام الصادق عليه السلام وإرشاداته في علوم الهيئة والفلك أن اهتمّ تلامذته بهذه العلوم، واشتغلوا بالأرصاد والأزياج والتقاويم والاختبارات وغير ذلك من فروع علم الفلك من أقدم الأزمنة[٢].

ولا يخلو هذا الرأي من وجه وجيه، إذ من الممكن توجيه الإمام بعض تلامذته لمدارسة بعض العلوم التي قد يحتاجها الشعب المسلم في حياته، فينهض بذلك طائفة منهم لتلبية ذلك الاحتياج.

---

(١) ابن شهر آشوب: المناقب ٣/ ٣٧٩، المجلسي: البحار ٤٧/ ٢١٨.

(٢) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٥٩.

على أن كتب الببلغرافيا والفهرسة قد زودتنا بنماذج من تلامذة الإمام المتخصصين في النجوم.

فقد ذكروا أن أبا إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري **(ت ١٦١هـ)** وهو من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام كان أول من عمل الاصطرلاب في الإسلام[١] وله في ذلك كتب مذكورة في محلها من تصنيف العلوم.

كما أن أبا علي الحسن بن فضال، وهو من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام له كتاب في النجوم[٢].

ويبدو أن كثيراً من العلماء قد اشتغلوا في هذا المجال مضافاً إلى تخصصهم الذي هم عليه، ومنهم محمد بن مسعود العياشي الذي ذكره ابن النديم بالقول أنه: «من فقهاء الإمامية، أو حد أهل دهره وزمانه في غزارة العلم، وله كتاب في النجوم[٣].

وكان أحمد بن الحسن بن أبي الحسن الفلكي الطوسي قد تخصص في علم الفلك حتى اشتهر به، وله في النجوم كتاب **«ريحان المجالس وتحفة المؤانس»** وقد تحدث فيه عن الكواكب وأسرارها واختيارها[٤].

وكان الخواجة نصير الدين الطوسي رضي الله عنه، قد عرف بأنه مصمم مرصد (مراغة) وهو أعظم رصد في الإسلام في القرن السابع.

(١) عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة ٧٤.

(٢) ابن النديم: الفهرست ٣١٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٤.

(٤) آغا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

وإذا تركنا هذا الجانب ورصدنا نظريات الإمام عليه السلام في ضوء النجوم، وحياة المجرّات، وعوالم الكون، وقفنا على ثروة علمية طائلة، فللإمام نظرية مهمة ـ كما ذكر ذلك أحد كبار الأوربيين ـ تتعلق بضوء النجوم مؤادها: أن بين النجوم التي نراها في الليل ما هو أضخم من الشمس، وإن شمسنا تعتبر بالقياس إليها صغيرة الحجم ضئيلة الضياء.

وقد أثبت العلم الحديث صحة نظرية الإمام الصادق إذ تبين للعلماء أن هناك مجموعات من النجوم السواطع تتضاءل الشمس إزاء حجمها وضوئها، ويطلق اسم **(الكوازر)** على هذه المجرّات.

وقد سبق للإمام الصادق عليه السلام أن ذهب أن الكون لا ينحصر في عالمنا وحده، وإنما هناك عوالم أخرى، وقد أثبت العلم صحة ذلك، وأقام الأدلة أن هناك آلافاً من العوالم، والمنظومات الشمسية الشبيهة بعالمنا ومنظومتنا الشمسية، وإنها تفنى وتزول ما عدا مجرات **(الكوازر)** فهي باقية على الدوام.

وقد قسم الإمام الصادق عليه السلام العالم إلى قسمين، هما:

العالم الأكبر والعالم الأصغر، أما العالم الأوسط فهو طبيعي.

وعندما سئل الإمام الصادق عن عدد العوالم في كل قسم، قال: إنها كثيرة، ولا يعلم ذلك إلاّ الله، وهي حقيقة أثبتها العلم الحديث.

والفرق بين العالم الكبير والعالم الصغير عند الصادق هو فرق في الحجم لا في الكتلة، وهذه أيضاً نظرية أخرى أثبتها علم الفيزياء.

وتذهب نظرية الإمام الصادق إلى أن لكل ما في العالم الأصغر شبيهاً في العالم الأكبر، ولكن على ضخامة في الحجم وسعة، وأن لكل

ما في العالم الأكبر شبيهاً في العالم الأصغر، على قلة في الحجم. ومن هنا يُستطاع تحويل العالم الأصغر إلى عالم كبير، والعالم الأكبر إلى عالم صغير.

ونحن حين نستمع إلى هذا الكلام منقولاً من ملفّات القرون الماضية، نحسّ وكأننا نصغي إلى حديث عالم فيزيائي في عصرنا الحاضر، أو كأننا نقرأ كتاباً في علم الفيزياء الحديث.

ولقد سئل الإمام الصادق عليه السلام: متى خلق العالم؟

فكان ردّه: إن العالم خلقه الله، ولا سبيل إلى تحديد زمانه أو وقته[1].

ونظرية الإمام الصادق بشأن الأرض في حركتها ودورانها قد سبقت التوجه المعاصر في اكتشافها، وقد يقال، والقول صحيح في حدود معينة: أن العالم الألماني (كبلر) بوضعه قوانينه الفلكية الثلاثة المشهورة بحركة السيارات، ومنها قوله: أن الكرة الأرضية تدور حول نفسها، أنه قد أثبت للعالم نبوغه العلمي، ولكن هذا يتقاطع مع ما سبقت الإشارة إليه: أن الإمام الصادق اكتشف هذه الحقيقة قبل ثلاثة عشر قرناً، وقال: إن الأرض تدور حول نفسها، وأن تعاقب الليل والنهار ليس سببه حركة الشمس حول الأرض، ثم قال: إن مثل هذه الحركة مستحيلة مع دوران الشمس في منطقة البروج، وأن الليل والنهار ناشئان عن حركة الأرض حول نفسها، فيصبح نصف الكرة الأرضية في نهار مشرق، ويصبح نصفها الآخر في ليل مظلم[2].

---

(١) ظ: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٣٠١ وما بعدها بتصرف.

(٢) ظ: نظرية الإمام مفصلة في الموضوع، الكليني: الكافي ٨/ ٣٥١، المناقب: ٤/ ٢٦٥.

وأثبت الإمام عليه السلام ما نحن بصدده من أن الأرض تدور حول نفسها، ثم تتحرك في دائرة أوسع حول الشمس، وأسقط نظرية دوران الشمس حول الأرض[١].

والذي يثير الدهشة في الأمر أن الإمام عليه السلام، قد اكتشف هذه الحقائق العلمية دون منظار فلكي، أو تلسكوب مجهري، أو علم صناعي تقني يساعد على الكشف والمشاهدة، وإنما توصل إلى ذلك الفكرة الثاقب ونظره العلمي الدقيق دون أجهزة مساعدة.

ودوران الأرض حول نفسها، وإن كان ثابتاً في حقيقته، ولكنه عند الفلكيين ظل مقتصراً على المستوى النظري دون التطبيق عملياً، حتى قال باحث أوربي معاصر:

**«ودوران الأرض حول نفسها لم يثبت علمياً إلا بعد ما وضع الإنسان قدميه على سطح القمر، وشاهد الكرة الأرضية من هناك وسجّل حركتها أما قائدو المركبات الفضائية فلم يتمكنوا من تسجيل حركة الأرض حول نفسها قبل وصول البشر إلى القمر، لأن مراكب الفضاء كانت تنطلق بسرعة فائقة، وتدور حول الأرض مرة في كل تسعين دقيقة، ولم تثبت أقدام روّاد الفضاء في نقطة ما، ليشاهدوا منها حركة الأرض، ولكن هذا تحقق من سطح القمر، ومع أجهزة التصوير الدقيقة، فشاهدوا عندئذ حركة الأرض، وصوروها أيضاً»**[٢].

(١) ظ: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٧١.

(٢) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٦٩.

ونظرية الإمام الصادق في انقباض العالم وانبساطه قد سجلت له سبقاً علمياً في الموضوع، فهو يرى أن العوالم الموجودة لا تبقى على حال دائم من الأحوال، فهي تتسع تارة، وتنقبض أخرى.

وقد أثبت العلم الحديث أن الكتل الضوئية المحيطة بمجموعتنا الشمسية تتحرك وتبتعد عنها، وهو ما يؤكد نظرية الإمام الصادق عليه السلام القائلة: إن العالم المحيط بمنظومتنا الشمسية يتمدد ويتسع.

والحديث عن الأجسام المظلمة التي تمتصّ أشعة الضوء عند سقوطها عليها فتنقبض وتتقلص، يؤكد نظرية الإمام بشأن انقباض أطراف العوالم الأخرى.

وربما تعرض جزءٌ من العالم ـ وليس العالم بأسره ـ للانقباض والتمدد، وهذا يؤكد ما قاله الإمام من أن في الكون عوالم كثيرة، فيها ما يجنح إلى الانقباض، ومنها ما يميل إلى التمدد والانبساط، أما العالم الذي ينقبض فليس فيه أثر للمادة[1].

وللإمام الصادق عليه السلام آراء جريئة بالنسبة لعصره جرى ذكرها والتأكيد عليها في توحيد المفضّل بن عمر الكوفي، وهو من أمالي الإمام من أجل الاستدلال على التوحيد، وفيه الاضطلاع بطائفة من الظواهر الكونية، شملت الحديث عن: طلوع الشمس لإقامة دولتي الليل والنهار، وغروب الشمس وأثره في الراحة والهدوء والقرار، والفصول الأربعة نتيجة ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة، وخصائص كل من الشتاء والربيع والصيف والخريف، وبيان دور الشمس عند تنقلها في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة، واعتباره السنة مقدار

---

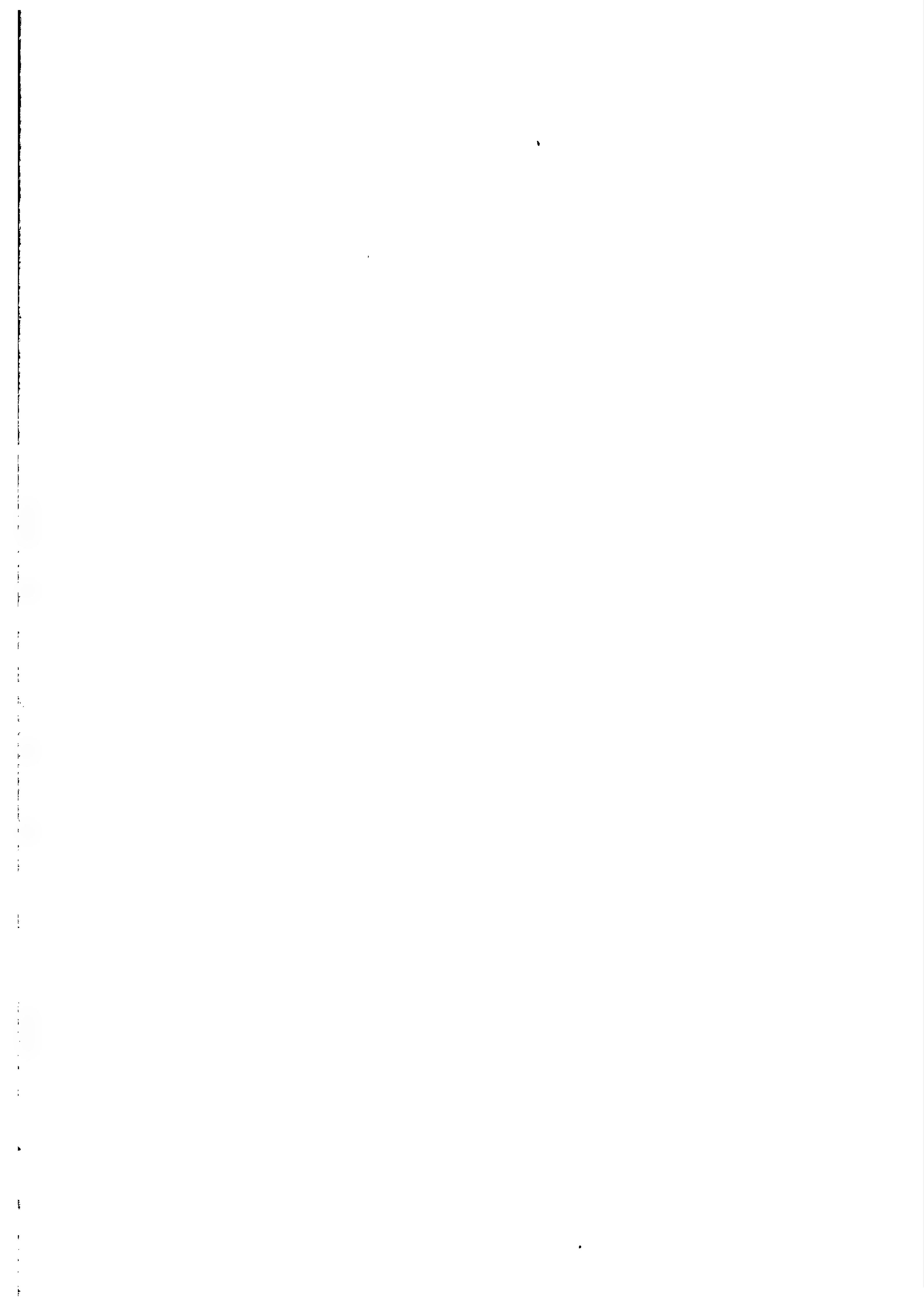
(١) ظ: المرجع نفسه: ٣١٣ وما بعدها بتصرف.



# الفصل الرابع

# الإنسانيات

* أولاً: مبادئ الفلسفة والأدب والنقد التاريخي والتطبيقي
* ثانياً: السلوك العرفاني ومجابهة الحياة الاجتماعية





# مبادئ الفلسفة والأدب والنقد التاريخي والتطبيقي



## ١ . مبادئ الفلسفة والحكمة عند الإمام :

يقول الدكتور محمد يحيى الهاشمي:

**«حقاً إن شخصية جعفر الصادق لا تزال غامضة تحتاج إلى من يكشف كنهها من المؤرخين، لا لأهميتها في تاريخ الفكر الإسلامي وتاريخ تطور الفكر البشري فحسب، بل لأن تاريخ العلوم يتطلب من يجلو كنهها لوجودها على مفترق الطرق... وما دام يكتنف مثل هذه الشخصية الظلام، فكثير من الحقائق ستظلّ في طيّ الخفاء، وستظلّ في جهل مدقع في فهم كثير من تراثنا الفكري، لأن التعصب الذميم هو الذي طمس المعالم، ووضع أمامنا سدّاً حائلاً دون تفهّم كنه الأساسات العميقة في بناء الحضارة العالمي»**[1].

وليس في هذا التقرير أيّ غلو أو تطرّف، بل جاء مواكباً لما نشاهده من التعثر التاريخي المرير وهو يقف في قبال مسيرة الإمام الصادق الصاعدة، لا لقصور في الأداء أو العطاء، وإنما هو التمييز المذهبي أو العرقي الذي لا مسوّغ له في حياة الأمم المتحضرة.

---

(١) محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء ٢٠٧.

لقد كانت مشاركة الإمام الصادق عليه السلام جادّة وفاعلة في التجديد المشرق لمآثر الحضارة العالمية، وكان هذا التجديد منزّهاً عن الإثارة والاضطهاد للرأي الآخر، إلاّ أن التحامل البذيء والحقد الدفين كانا عاملين ينخران في جسم الحياة الإنسانية، فطمست طائفة من الحقائق الصارخة، ليحل بدلها الجهل المطبق تلبية لنعرات ما أنزل الله بها سلطاناً، تمثل الأفق الضيق والانحراف الشّرير.

ومع هذه العقبات المعوّقة فقد برز عنصر الاستطالة في تعددية المدارك الحضارية لدى الإمام الصادق عليه السلام والتي ساعدت بقوة على إزاحة كثير من التراكمات التي حاولت حجب الإشراق والتطور.

وكما رأيت القوى العقلية الآخذة بأصول المعارف عند الإمام، فقد تعجب لاستحضاره جملة العلوم التشريعية والتجريبية والإنسانية في سياق واحد، فمضافاً إلى ما تقدم إيضاحه بإيجاز عن تلك الممارسات العلمية نجد الإمام في الذروة من إرساء مبادئ الفلسفة والعرفان والأدب، كما نجده في القمة الشاهقة في محور النقد التاريخي، وكذلك نجده وهو يبرمج نقد المنهج التطبيقي، وهذا ما يذهب بالبحث إلى تناول بعض المؤشرات البارزة لهذا التراث الأصيل.

يقول باحث أوربي معاصر:

«ولا نعرف في تاريخ العلوم في الإسلام من تناول الفلسفة قبل الإمام الصادق عليه السلام فقد ابتدأ الإمام عليه السلام بتدريس مبادئ الفلسفة، أو أسلوب الاستدلال والجدل المنطقي، وكانت مباحث الفلسفة في مدرسته تتناول بادئ الأمر آراء سقراط، وأرسطو، وأفلاطون، ثم استقلت... ومنذ أن أرسى الإمام الصادق عليه السلام مبادئ الفلسفة في مدرسته،

وقام بنفسه بتعليمها، أصبحت الفلسفة باباً متميزاً من تراث الشيعة وثقافتهم، وهي تنفرد به عن سائر الفرق والمذاهب الإسلامية، وتضيف إليه العرفان.

والعرفان وإن انحدر في بادئ الأمر من الشرق، ومن مدرسة الإسكندرية، إلاّ أن الإمام الصادق استطاع أن يخرج من هاتين المدرستين بنظرية عرفانية تتفق مع أصول الإسلام، ومبادئ الفكر الشيعي.

فالعرفان الجعفري له شخصيته المستقلة عن عرفان المتصوّفة في الشرق أو الإسكندرية، فهو يقول بأن أمور الحياة الدنيا ينبغي أن ينصرف إليها من الاهتمام ما لا يقل عن الاهتمام المنصرف إلى أمور الأخلاق وتزكية النفس.

- قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ..﴾[1].

وصفوة رأي الإمام في هذا الصدد أن الدنيا مزرعة الآخرة، ومن حقّ من زرعها أن يجني ثمارها، ولن يجني المرء إلا ما زرعت يداه، فمن التزم بدينه وزكى نفسه وخلقه، فلا خوف عليه في العالم الثاني.

ولا محلّ للمغالاة التي تجد مثلها عند العرفاء أو المتصوفة الآخرين، ولا محل أيضاً للقول بوحدة الخالق والمخلوق[2].

وفلسفة الإمام الصادق عليه السلام تنطلق في ميدان عقلاني متوازن يصدر عن مبادئ الإسلام وقيم القرآن، وإليه يعود الفضل الأكبر في إرساء

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

(٢) جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٩٣ وما بعدها بتصرّف.

قواعد الوحيد، كما يعود إليه الفضل في دحض شبهات المتشككين والمترددين، كما يعود إليه الفضل أيضاً في إزاحة الضبابية عن مجريات الحوادث والكوارث التي تجتاح حياة الإنسانية.

ففي ملحظ تقريره عن التوحيد الخالص، ودرء نزغات القائلين بتعدد الآلهة، نجده معالجاً لذلك بأسلوب الرائد الحكيم الذي يورد الشبهة، ثم ينقض عليها في جدل منطقي فائق، وهو يفندها ويحطمها وينقضها جملة وتفصيلاً، ففي حوار له مع قائل بالثنائية، قال الإمام:

«لا يخلو قولك: أنهما اثنان، من أن يكونا قديمين قويين، أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، فإن كان قويين لا يدفع كلٌّ منهما صاحبه وينفرد بالتدبير!! وإن زعمت أن أحدهما قويٌّ والثاني ضعيف، ثبت أنه واحد كما تقول للعجز الظاهر في الثاني.

فإن قلت: أنهما اثنان، لم يخلُ من أن يكونا متفقين من كل جهة، أو متفرقين من كل جهة، فلما رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، والتدبير واحداً، والليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صحة الأمر والتدبير، وائتلاف الأمر على أن المدبّر واحد، ثم يلزمك إن ادّعيت اثنين فرجة ما بينهما حتى يكونا اثنين، فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديم معهما، فيلزمك ثلاثة، فإن ادّعيت ثلاثة لزمك ما قلت عن الاثنين، حتى تكون بينهما فرجة فيكونوا خمسة، ثم يتناهى في العدد إلى ما لا نهاية له في الكثرة، وطلب الزنديق الدليل على وجود الخالق وحده، فأجاب الإمام:

**«وجود الأفاعيل دلّت على أن صانعاً صنعها، ألا ترى أنك إذا نظرت إلى بناء شيّد، مبني، علمت أن له بانياً، وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده...»**.

وطلب الزنديق من الإمام أن يعرفه الخالق، فقال الإمام:

**«شيء بخلاف الأشياء.. أو أنه شيء بحقيقة الشيئية، غير أنه لا جسم ولا صورة، ولا يحسّ ولا يجسّ، ولا يدرك بالحواسّ الخمس، لا تدركه الأوهام، ولا تنقصه الدهور، ولا تغيّره الأزمان»**(١).

وللإمام في هذا المجال استدلالات فلسفية وعقلية في مشاهد شتى، تتناول استحالة رؤية الله، ومعرفة الله، وصفة الله، وتنزيهه عن الجسم والصورة، وما جرى مجرى هذه الآفاق(٢).

وفي إرجاع أصل الحوادث إلى الله تعالى، تبدو نظريته في الشك واليقين، ونظام العالم.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«إنّ الشك مصدره الجهل. أمّا اليقين فهو علم لا يتطرّق إليه الشك عنده، وهو أصل من أصول الدين الإسلامي لأن مصدره هو الله جلّ جلاله»**.

يقول الإمام عليه السلام: **«إن الله واحد وهو خالق كلّ شيء وهو مدبّر العالم ومسيّره وفقاً لإرادته، ومن ينكر وجود الله، برهن على جهله المركّب، وكان كالأصم الأبكم الذي لا يسمع ولا ينطق»**.

إن الإمام الصادق على حق حينما اعتبر أن وجود الله لا ينكره إلاّ الجاهل المركب؛ أمّا من تسلّح بسلاح العقل والفهم، فلا يشك في وجود الله.

---

(١) الكليني: الكافي ١/ ٨٠ ـ ٨١.

(٢) ظ: على سبيل المثال الكليني: الكافي ١/ ٩٣ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤، المرتضى: الأمالي ١/ ١٤٩.

وللإمام الصادق عليه السلام نظرية حول العالم ونظامه لا تختلف عن نظريات علماء الفيزياء في هذا العصر، فهو يرى أن الحوادث الطارئة كالطوفان والسيل والزلازل وسواها من الظواهر الطبيعية في العالم، وإنها ليست دليلاً على أن العالم فقد نظامه، لأن هذه الكوارث تتبع قواعد ثابتة، ولا تقع واحدة منها صغيرة أو كبيرة إلاّ وهي في حسابٍ عند الله تعالى.

وعلماء العصر الحديث الذين يخضعون لقواعد رياضية وفيزيائية، ولا يخضعون لسواها من الغيبيات يقولون بهذه النظرية نفسها.

وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول لتلامذته: إن الذي يراه الناس ويحسبون أنه دليل على خلل في نظام الكون، إنّما يخضع لقوانين ثابتة لا تتغير.

والوحيد بين المفكرين القدامى الذي تنبه إلى ثبات قواعد الكون ونظمه هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ أن الاعتقاد السائد عند القدامى أن كلّ قاعدة في الكون قابلة للتغيير، وأرسطو نفسه اعتبر الاعتقاد بتغيير الكون ونظمه جزءاً من أساس تفكيره الفلسفي، بينما الدراسات الفيزيائية المعاصرة أيّدت رأي الإمام الصادق عليه السلام، وخطأت أرسطو فيما يذهب إليه[1].

وللإمام الصادق عليه السلام نظرية تكاملية في الفرق بين العلم والحكمة.

فقدماء الإغريق يرون أن كلّ معرفة تدخل في نطاق الفلسفة، بينما ترى مدرسة الإسكندرية أن الحكمة والعلم شيء واحد.

(١) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٣٥٧ بتصرف.

أمّا الإمام الصادق عليه السلام، فقد قسّم نظريته بشأن العلم والفلسفة إلى شيئين:

الأول: أن العلم يوصل المرء إلى نتيجة واقعية صغيرة أو كبيرة، وأمّا الفلسفة فلا توصله إلى نتيجة ما.

الثاني: أن العلم لا ينظر إلى حقيقة مطلقة، ولكن الفلسفة قادرة على ذلك.

والحقيقة المطلقة عند الإمام عليه السلام، هي الله تعالى وحده. والعلم قد يعجز عن اكتشاف الحقيقة الكبرى وإن توصل إلى الحقائق الصغيرة المحدودة.

أمّا الفلسفة، فإنها وإن لم تصل إلى حقيقة قاطعة، فهي تتطلع إلى معرفة الحقيقة المطلقة، وأخيراً تتطلع إلى معرفة سبب خلق العالم والبشر، والوصول إلى الخالق، ومصير الإنسان، ونهاية العالم.

ويلوح من هذا أن الإمام الصادق عليه السلام يضع الحكمة في منزلة مقدمة على العلم، لأن العلم لا يهدف إلى الوصول للحقيقة المطلقة، بينما الحكمة تهدف إلى ذلك، وتجتهد في بلوغه.

وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله، وانصحوا لأنفسكم وجاهدوا في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله»**[1].

ومناداة الإمام الصادق عليه السلام باستقلال العلم عن الحكمة كانت دعوة ثورية بمعنى الكلمة بمقاييس تلك الأيام.

---

(١) الأمين الحسيني العاملي: أعيان الشيعة ٤/ ق٢، ١٢٢ عن الإرشاد للمفيد.

ويتحصّل من هذا أن الإمام عليه السلام كان يرى للحكمة فضلاً في هداية الإنسان إلى معرفة الله تعالى، بينما العلم قاصر عن القيام بهذه المهمّة[1].

وفي هذا الضوء نجد الإمام عليه السلام داعية إلى النظرية العفوية في الجبلّة على الفطرة، والجنوح إلى الواقعية دون لف أو دوران، ويتمثّل هذا بأن يكون المسلم أميناً ودقيقاً في الأمانة، وصادقاً غير منحرف بكذب أو زور، وثابتاً في عقيدته غير متزلزل، وواقعياً في إرادته فما ينطق به لسانه تضطم عليه جوانحه، فلا رياء ولا نفاق ولا تذبذب.

وبهذا المنطلق الصحيح يضع الإمام إيديولوجية مثلى للنفس الإنسانية في تتبع الكمالات التي يسعى لها العقل الباطن في الإنسان.

يقول أحد الباحثين الأوربيين المعاصرين:

**«إن الإمام الصادق عليه السلام كان يبغض الكذب والنفاق، ويوصي تلاميذه بأن تكون أقوالهم مطابقة لنياتهم، وأن تكون عقيدة المسلم عقيدة صحيحة يرفدها العقل والخيال، فيؤمن الإنسان بعقله وقلبه وخياله ظاهراً وباطناً دون كذب أو نفاق. وكان يحضّ أصحابه على اجتناب النفاق والرياء في جميع أعمالهم وفي كلّ الظروف، ضارباً المثل بآبائه الكرام الذين استشهدوا في سبيل الذياد عن العقيدة، ولم يضعفوا أو يتخاذلوا تلقاء أي ضغط أو تهديد»**[2].

## ٢ - الأدب في مواكبة العلم:

وكان من رأي الإمام الصادق عليه السلام أن العلم والأدب يعمّقان إيمان المؤمن، وأن قيمة كل امرئ ما يحسنه، وكان يرى أن إيمان العالم أعمق

---

(١) ظ: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٣٤٥ بتصرف.

(٢) جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٣٤٤.

من إيمان العامي، وإن العامـي لن يعرف حدود إيمانـه ومبدأه ومنتهاه، ولن يسـلم من التغيير والتبديل إلاّ إذا تعلّم وأصبح إيمانه إيمان علم ووعي وفهم وإدراك.

ورأى الإمام عليه السلام أن الإسلام انتشـر في ربوع الأرض انتشاراً سريعاً ودخله الناس أفواجاً، ولكن أهل العلم والأدب في الأمم الأخرى تريثوا حتى استيقنوا من حقيقة الإسـلام، وعرفوا نظمه، واتضحت لهم مزاياه الاجتماعية والمعنوية، ثـم أقبلوا عليه وسـخّروا ملكاتهـم العلمية في استيعاب الدين وعلوم القرآن، وفهمها ونشرها.

وتعريـف الأدب عند الإمـام عليه السلام تعريف فريد ليس لـه مثيل، فهو يقول: إن الأدب هو لباس العلم والفكر الذي يقرّ بهما من فهم السـامع والقـارئ. وبهذا التعريـف وضع الأدب فـي موضعه الحقيقـي، دون أن ينتقص من منزلة العلـم والفكر، بل جعله مواكباً لهمـا، فللعلم قيمته، وللأدب زينته، وهو الوسيلة التي تقرّب العلم إلى الأذهان.

وهذا أشـمل تعريف للأدب منذ وفـاة الإمام عليه السلام، فلـم يأت أحد بتعريف أجمع منه وأوجز.

وللإمام تعريف آخـر للأدب مـؤداه: أن الأدب قد لا يكـون علماً، ولكن لا علـم يخلو من أدب. وهـذا أيضاً تعريف جامـع موجز لعلاقة الأدب بالعلم.

وكان الإمام الصادق يقول:

لَيسَ اليتيمُ الّذي قَد مات والدُهْ إن اليتيمَ يتيمُ العلمِ والأدبِ

وبفضل الإمام الصادق عليه السلام وتشـجيعه للأدب عنـد العرب، ظهرت كتابات منثورة اعتباراً من عصره.

وقد قيل: إن الإمام الصادق عليه السلام هو أول من رصد جائزة أدبية في تاريخ العرب، وكانت الجوائز تمنح للشعراء من الولاة إزاء مدحهم ليس غير.

ولكن العرب لم تألف تقريب أصحاب الأدب المنثور، أو مؤلفي الدراسات الأدبية والتاريخية إلى الولاة. وهنا جاء صنيع الإمام الصادق عليه السلام صنيعاً مقدّراً.

وشجع الإمام الأدب نثراً وشعراً، وعيّن جائزة له، وكانت هيئة التحكيم من الإمام نفسه واثنين من تلاميذه، ثم أصبحت تتألف من خمسة أعضاء، وتعطى الجائزة باتفاق ثلاثة منهم.

وكان الإمام يعطي الحرّية للأديب في اختيار موضوعه، ويرحّب بالأثر الأدبي نثراً ونظماً، ويتقبله برحابة صدر[1].

## ٣- النقد التاريخي والتطبيقي:

وإذا توجهنا نحو علم التاريخ رأينا للإمام الصادق عليه السلام نظرية في النقد التاريخي لها الأثر الفاعل في سلامة التاريخ من الزيف والتحريف لو طبّقت.

لقد كان علم التاريخ في المشرق قبل الإمام الصادق خليطاً من الأحداث التاريخية الصحيحة والأساطير، وبهذا الوضع تناقلته الألسن جيلاً بعد جيل، ومعروف أن الفترة السابقة على الإسلام انعدمت فيها الكتب المدوّنة ما خلا ما سجّل من نقوش حجرية في حضرموت، وبلاد

(١) ظ: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٢٣٦ بتصرف.

الشـام، وبابل، وأرض فارس، وتناولت بالسـرد وقائع وأحداثاً تاريخية، وإن كانت هذه النقوش دوّنت بلغات مهجورة.

وفي التاريخ الإسـلامي يعتبر الإمام الصـادق عليه السلام أوّل من نظر في الروايـات والتاريخ بعيـن النقد والتمحيـص، فكان بذلك قـدوة وإماماً ومرشـداً لإمام المؤرخين محمد بن جرير الطبري الذي آلى على نفسه أن لا يسجّل إلاّ الرواية الثابتة، وإلاّ ما يتقبله العقل، وأن يهمل الأساطير والأسمار وما إليها.

وكان الإمـام الصادق مـن قبل قـد أمر بتحكيـم العقل فـي تناول القضايا التاريخية، ومعرفة حظهـا من الصحة أو الزيف، وهو بهذا يطبق المناهج التي يطبقها المؤرّخ الناقد في عصرنا الحاضر.

وكان ديـدن الإمـام الصادق عليه السلام فـي الحكـم على كتـب التاريخ وفي التشـجيع على كتابتها، اجتناب الأكاذيب والأسـاطير التي يرفضها العقل السليم.

ويرى ابن أبي الحديد أن الإمام الصادق عليه السلام كان أوّل ناقد للتاريخ، وأوّل من وضع هذا الاسـم لهذا العلـم، فلم تكن للعـرب كتب منثورة تحمل هذا الاسـم (اسم التاريخ) وكانت الأحداث التاريخية تسجّل في قصائد الشـعراء المنظومة لأغراض شـتى، وليس من أهدافهـا المتوخاة تسجيل أحداث التاريخ، إذ أن الوقائع التاريخية تردّ في القصائد عرضاً، وبعد مجيء الإسـلام بدأ تسـجيل أحداث التاريخ ووقائعه، وكان يطلق عليها اسم السّير، أو السيرة، أو الرواية.

وكان من رأي الإمام الصادق عليه السلام أن اختلاط التاريخ بالخرافة والأسطورة يفقده أثره من حيث استمداد العبر، واستخلاص الموعظة والدرس، بغية اجتناب أخطاء السلف.

وهكذا نجد الإمام قد أكسب التاريخ فائدة اجتماعية أخلاقية تنأى به عن مقاصد التسلية وإزجاء الوقت.

ولا ريب أن الفضل يعزى إلى الإمام الصادق عليه السلام في وضع أساس المنهج النقدي في التاريخ الإسلامي بدعوته العلمية إلى نقد التاريخ، وتخليصه من الأساطير والأباطيل(١).

ويضاف إلى هذا منهج المنطق التطبيقي في نقد التاريخ وتخليصه من الشوائب، فكانت جذوره الأولى تمتد إلى ما أصّله الإمام الصادق عليه السلام، فيما كشفه العالم السوري المعاصر الدكتور محمد يحيى الهاشمي بقوله: «إن بذور هذا المنهج العلمي الدقيق نجده في مبادئ الإمام الصادق وتلميذه جابر، إذا أمعنا فيهما النظر، ودرسناهما دراسة متقنة، لأن انتقاد القياس، وترك مجال الفكر الحرّ للاعتبار بالكون وآياته البيّنات، مما يوسّع حقل المعرفة، ويفتح آفاقاً جديدة للبحث والتنقيب.

هنا لا نجد كشفاً تاريخياً مهماً في علاقة جابر بن حيّان بإمامه جعفر الصادق فحسب، بل نجد أن ينبوع هذا المنهج الواقعي الرائع الذي يتجلّى في تاريخ الفكر العربي لأول مرة ـ على ما يظهر عند يعقوب بن إسحاق الكندي والفلاسفة الذين أتوا من بعده ـ هو من مصدر الإمام الصادق أيضاً»(٢).

---

(١) ظ: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ٢٤٥ بتصرف.

(٢) محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء ١٣٩.

هذه المفردات والفقرات اللامعة التي ذكرناها في مبادئ الفلسفة والحكمة والأدب والنقد التاريخي والنقد المنهجي التي أفاضها سيدنا ومولانا الإمام جعفر ابن محمد الصادق هي التي أضفت الواقعية الاستنتاجية على ما ذهب إليه الأستاذ محمد حسن آل ياسين بقوله:

**«ولم يكن هذا الإمام العظيم المستوعب الوقب في جميع ما أسلفنا ذكره، من تعليم الدين، وإيضاح مسائل الشريعة، وتفسير القرآن والحديث، ومحاورة السائلين والمستفهمين، وبيان حقائق العلم والمعرفة في مختلف جوانبها وشتّى ألوانها، وسائر فروعها ومجالاتها، بعيداً عن دنيا الشعر، أو بمنأى عن عالم الأدب، رواية واستشهاداً وتمثلاً وإنشاداً، إن لم نقل بأن الأمثلة المرويّة قد دلّت على مستوى عالٍ جداً من رهافة الحسّ، وسرعة البديهة، وسمو الذوق، في انتقاء الأشعار، وجودة الاستحضار، وجمال الاختيار»[1].**

إن هذه اللمحات على اجتزائها وإيجازها وفطرتها لتمثل - حقاً - عمق ما يدور في ذهن الإمام الصادق عليه السلام، وهو يريد للإنسان أن يتبوّأ مقعد صدق في حياة العلم الشامل النافع.

(١) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ١٣٢.



## السلوك العرفاني ومجابهة الحياة الاجتماعية



### ١ - نظرة الإمام إلى التناقض السلوكي:

لم يكن الإمام الصادق عليه السلام ملك نفسه، بل هو ملك لأمته ورسالته، وممارسته العامة في الحياة نابعة من روح الإسـلام، وموقفه في مجابهة الانحراف لم يكن شكلياً، وإنّما يغوص فيه إلى أعماق النفس الإنسانية، واتجاهه في تغييـر الواقـع المعاصر وتحريـره من الأوهام والأسـاطير ضرورة رسالية.

وكانـت نظـرة الإمـام عليه السلام إلـى التناقضات السـلوكية فـي عصره تتطلب منـه المعالجة بتوءدة وأنـاة، بعيداً عن الضجيـج والإثارة، فكان إن ادّرع لذلك بالحكمة، والعودة بالمسلم إلى الإسلام شكلاً ومضموناً، وكانت تلك مهمـة ضخمة تجاه التزمّت الموروث، وقضية حسّاسـة في تعقيدها وتشـعبها، إلا أن الإمـام صمد لها صمداً فيه كثيـر من التروي والموضوعيـة، فهو عليه السلام إزاء سـيل جارف مـن التحديـات الاجتماعية والسياسية والسلوكية.

لقد سأم الشعب المسلم حياة التعسّـف الجماعي، وحملات الإبادة المنظّمة، ومصـادرة الآراء، واحتجان الأموال، فمال رعيـل كبير منه إلى

التظاهر بالأعـراض عن الدنيا وسـبلها، والفـرار من الواقـع إلى الزهد والعزلة، وانكمش الناس عن ممارسـة الإنتاج ومواكبة الحياة، مما أوجد ثغرة معمّقة في كيان الأمة قد تدفع به إلى الضياع والانحلال.

وكان سـواد الناس في دوّامـة من التوجـه المتأرجح، فقـد تنطلي المظاهر البرّاقة عليه، وقد تختفي الواقعيـة المثلى في نظرته للأحداث، فمال بطبيعة سـاذجة إلـى المظهر المصطنع والسـلوك الغائـم والقاتم، فانعدمـت لديـه الرؤيـة الواضحـة في معالـم دينه ومراسـم شـريعته، لاعتبـارات خارجية قـد تتنافى مع هدي الإسـلام، بل قـد تصطدم مع جوهر الإسلام البريء من التناقض والتداعي الرخيص الواهن.

وهنا نجد الإمام الصـادق عليه السلام متحفّـزاً لتلافي الأخطـار المحيطة بالكيان الإسلامي قدر المستطاع.

والإمام الصادق حيثما يتصرّف بشـكل من الأشـكال، فإنّما يتصرّف عقلانياً مـن خلال موقعـه القيـادي، فهو حينمـا يلحظ الإدراك يسـير القهقرى، والوعي في رقدة قاتلة، يتحرّك وفـق منظوره الخاص لتحرير العقول من التفكير السـطحي، فيؤكّد علـى المبدأ الثابـت في التقوى والورع والامتثال، ويشـجب الشـكليات المغلّفة التي تصاحب المظاهر المتزمتـة، لأنها غيـر قريبة مـن الإنابة لله تعالـى، وهي غيـر بريئة في السـلوك المضادّ لمسـلّمات التشـريع، فالورع الحقيقي ليـس تحريماً لما أحلّ الله عزّوجلّ، ولا تضييقاً لما وسّـع المشـرّع الأعظم، وإنّما هو التوقّف عند الشـبهات لا أكثـر ولا أقـل، والزهد الواقعي ليس شـكلاً مظهرياً يتمحور فـي لباس الذّل والهـوان، وإنّما هو الكـفّ عن محارم الله أولاً، وعدم الانجـذاب كلياً بمباهـج الحياة حتى الغفلـة، وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فالشوائب العالقة من هنا وهناك لا تمثّل وجه

التشريع المشرق، والتقوقع على الذات لا ينسجم مع العرفان الروحي المتفائل، والدعوة إلى الكسل والضجر والملل ليست من الدين في شيء، والعبث في الملبس والهيئة بما يثير الهزء والسخرية لا يجسّد نظرة الرسالة الغرّاء، والتصوّف الذي يخرج الإنسان عن الطبيعة الشائعة للإنسانية قد لا يحقق إلا الزيغ عن النهج السوي.

هذا كله مما جبهه الإمام الصادق عليه السلام بالتحدي والنزال، ليخلص بذلك صريح الدين، ويذهب الزبد جفاء.

فعنده عليه السلام: أن التنعّم في الحياة دون إسراف، وأناقة الشكل في المظهر، وطيب العيش مع التقوى، ومعايشة العصر في الحد الأدنى من التجمّل، ليس ركوناً للدنيا، ولا انفصالاً عن الآخرة، وإنما هو من وضع الشيء بموقعه حينما يراد عزّ المؤمن، وظهوره بما يناسب الطابع العام من الاعتيادية والكرامة في النفس والشكل والذوق.

الزهد الحق هو الذي يبتعد بالإنسان عن الشهوة المحرّمة، فلا يقترف لذّة محظورة، ولا يمارس حال شاذّة، أما الطيّبات التي أحلها الله تعالى، فلا محرّم لها على الإطلاق.

## ٢ - الإمام والطيبات من الرزق:

ولم يكن الإمام الصادق عليه السلام في معزل عمّا أحلّ الله من الطيبات، وقد يتفضّل بها على أصحابه، ويزهد هو في حد ذاته، وقد يتناولها أحياناً، وعلى ذلك شواهد كثيرة:

فعن بعض أصحابه، قال: كان أبو عبد الله ربما أطعمنا الفراني والأخبصة، ثم يطعم الخبز والزيت، فقيل له: لو دبّرت أمرك حتى يعتدل، فقال: إنما تدبيرنا من الله، إذا وسّع علينا وسّعنا، وإذا قتّر قتّرنا[١].

وكان ربما ائتدم بالزيت والخل[٢].

وكان يوزع خيار طعامه على أصحابه، ويبقى له منه رديئه[٣].

وكان يطايب أصحابه، ويدعوهم إلى طعامه، وقد يتأنف في ذلك، ردّاً على نزعات المتزهدين ظاهراً، المتنعمين باطناً، فعن أبي حمزة، قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة، فدعا بطعام مالنا عهد به لذاذة وطيباً، وأوتينا بتمر ننظر فيه إلى وجوهنا من صفاته وحسنه...[٤]

وعن عجلان، قال: تعشيت مع أبي عبد الله عليه السلام بعد عتمة، وكان يتعشّى بعد عتمة، فأتي بخل وزيت ولحم بارد، فجعل ينتف اللحم فيطعمنيه، ويأكل هو الخل والزيت ويدع اللحم، فقال: إن هذا طعامنا وطعام الأنبياء[٥].

وكان طعامه المعروف الخل والزيت[٦].

وهذا المنهج من الإمام كان تأسياً بالفقراء، لئلا يزري بالفقير فقره، وزهداً بالملذات فلم يكن يهتم لمعالم طعامه، وهي بعد قضية جزئية يختصّ بها لنفسه، ولكنه يظهر بالمظهر المناسب أمام الآخرين،

---

(١) البرقي: المحاسن ٤٠٠.
(٢) البرقي: المحاسن ٤٠٠.
(٣) المصدر نفسه: ٤٠١.
(٤) الكليني: الكافي ٦/ ٢٨٣.
(٥) المصدر نفسه: ٦/ ٣٢٨.
(٦) المصدر نفسه: ٦/ ٣٢٨.

وربما اعترض عليه في ذلـك، وقد يتجاوز فيه بعـض الجهلة، فيجيب جواب العارفين.

فقد قال له رجل: إن علي بن أبي طالب، كان يلبس الخشـن يلبس القميص بأربعة دراهم.. ونرى عليك اللباس الجديد؟

فقال له: إن علي بن أبي طالب كان يلبس ذلـك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم شهّر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله، غير أن قائمنا أهل البيـت إذا قام لبس ثياب علي عليه السلام، وسـار بسـيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام[1].

## ٣- الدعوة إلى الفرار من الحياة:

ولا تحسبن الدعوات إلى ترك الدنيا والفرار من الحياة، تمثل البراءة دائماً، فلربما صاحبها الرياء وحبّ الظهـور، وليس هذا عرفاناً بوجه من الوجوه، وقد يعبّر عن واقع مؤلم لا يقـرّه العرف ولا الدين، فيه مصادرة للآراء المتفتحة، واضطهاد للعقلية المتنوّرة، بـإزاء التطلع إلى امتيازات الشهرة والتصنع، والتدافع وراء جلب الانتباه الوهمي، واصطفاف الأقدام للاحترام المؤقت، وهذا كلـه مقامرة دنيوية على المواقـع واصطياد في الماء العكر لا يقرّه الإسلام.

هذا النوع من السـلوك المنحرف قد يرضي أنانيـة كثير من النفوس التي تشـعر بفراغ قاتـل، فتحاول خلق نبـرات هاتفة بأصـداء تجاوزها على الحقيقة، لأنها لم تسترشـد بنور الله، ولم تبتغ وجه الله، فهي تبرز

(١) المصدر نفسه: ٦/ ٤٤٤.

في رداء فضفاض ولكنه غير سليم، وتبدو مغلّفةً بإطار من الرياء غير مقبول، وتتصيد الدنيا بحبائل غير مشروعة.

إن حرمان النفس من الطيبات والامتهان في الهيئة والمظهر، ينافيان إباحة الإسلام للطيبات، وتأكيده على الأناقة والجمال والعزّة.

وقد يتذرّع هؤلاء بسيرة أمير المؤمنين عليه السلام وهم بذلك لا يحسنون الموازنة، ويخطئون القياس في المقارنة، فأمير المؤمنين حاكم عادل، تسلّم المسؤولية وهو على رأس الدولة، والناس في شظف من العيش، ومسحة من حياة الصحراء، وقد أكل الجشب، ولبس الخشن، وقتّر على نفسه ليتأسى بأقل طبقات الرعية إمكانية وأبسط الناس حياة، أليس هو القائل:

**«إن الله جعلني إماماً لخلقه، ففرض عليَّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس، كي يقتدي الفقير بفقري ولا يطغي الغني غناه..»**.

وما ذاك إلاّ لأنه في مركز المسؤولية في قيادة الدولة الإسلامية، وليس المراد منّا عين المراد منه، وهو القائل موجّهاً:

**«ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد»**.

ومؤدّى هذا الشعور عند أمير المؤمنين يوحى دون أدنى شكّ أن السيرة المثلى للإمام وهو قابض على زمام المسؤولية في الحكم، قد تختلف عنها وهو لم يتسلّم حكماً، ولا يمارس مسؤولية الدولة.

وأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، هو النموذج الأرقى للمسلم المتكامل، وقد نظّم حياته من شبابه حتى شيخوخته على نوع رفيع من الزهد لا يدانيه فيه أحد، لأنه الخلف الصالح للرسول الأعظم ﷺ في مواساته للمسلمين، سواءً أكان في موقع المسؤولية الرسمية أو

خارجها، فهو إمام مفترض الطاعة أتولى الحكم أم لم يتولاه، وشواهد التاريخ الاستقرائية دليل على سيرته الخاصة التي هي مضرب المثل، وحينما قاد الدولة كان مثال الحاكم العادل في الإسلام، ينطلق من أبعاد تحمله المسؤولية القيادية، فهو يريد أن يتمثل بالمستوى الأدنى من العيش ليشعر الآخرين بكرامتهم عنده، فهو لا يحتجن لنفسه شيئاً ليس للمسلمين، وهو لا يتناول ما لا يتناوله المؤمنون، فهو كأحدهم في كل الممارسات، وهو يختلف عنهم فيما فرض على نفسه من جشوبة العيش زهداً حقيقياً في الدنيا بضرب من التأله والعرفان لا يطيقه مستوى البشر، حتى إذا عاد حاكماً تمثل العدالة الاجتماعية منهجاً، فأنسى من قبله من الحاكمين وأتعب من بعده، فكان بذلك ظاهرة لن تتكرر؛ إلا بحكومة حفيده صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه.

## ٤- تجمّل الإمام الصادق:

كان الإمام متجمّلاً بلباسه، يتخيّر منه ما يناسب الحال، ويظهر فيه عزّ الإسلام، وجمال الحياة، وأثر النعمة، وقد يعجب من ذلك من لا دراية له بالحال، ولا خبرة لديه بأحوال الرجال، فيرى ذلك مما لا يتفق وقداسة الإمام، فيردّه الإمام بلطف ورفق، وقد يوقفه على أمر لا يخطر له ببال.

إن كثيراً من التساؤلات غير البريئة من قبل بعض المتزهدين الذين يحاولون الإيغال في متاهات من الاعتراض لا تمت إلى الزهد بصلة، بينما نجد الإمام وهو يظهر التجمّل، ينزع إلى الصفاء الواقعي لإذلال النفس بين يدي الله تعالى، لا بين يدي عباده الآخرين، ويتقرّب إلى

ربّه في شدّة من أمر ذاته، بعيداً عن مظاهر الاصطفاف الاجتماعي، فعن الحسين بن كثير الخزاز، قال:

رأيت أبا عبد الله عليه السلام وعليه قميص خشن تحت ثيابه، وفوقه جبّة صوف، وفوقها قميص غليظ، فمسستها، فقلت: جعلت فداك إن الناس يكرهون ثياب الصوف، فقال: كلا.. كان أبي محمد بن علي يلبسها، وكان علي بن الحسين يلبسها، وكانوا يلبسون أغلظ ثيابهم إذا قاموا إلى الصلاة، ونحن نفعل ذلك..[1].

وهنا نلحظ حالتين، الأولى: أن الإمام حينما يتجمّل فتجمّله ليظهر بالمظهر المناسب أمام الناس، والثانية: حينما يلتقي مع الله ويقف بين يديه، فإنه يرتدي ما غلظ من الثياب زهداً، فالحالة الأولى تجاري المجتمع في لباسه، والحالة الثانية ترضي واقع نفسه مع الله تعالى.

فقد روى محمد بن طلحة عن سفيان الثوري، قال: دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خزّ دكناء، وكساء خزّ، فجعلت أنظر إليه تعجباً، فقال:

يا ثوري مالك تنظر إلينا، لعلك تعجب مما ترى؟

فقلت: يا بن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك!!.

قال: يا ثوري كان ذلك زمان إقتار وافتقار، وكانوا يعملون على قدر إقتاره وافتقاره، وهذا زمان قد أسبل كل شيء عز إليه، ثم حسر ردن جبته، فإذا تحتها جبّة صوف بيضاء، يقصر الذيل عن الذيل، والردن

(١) ظ: محمد جواد فضل الله الإمام الصادق ٤٩ وأنظر مصدره.

عن الردن، وقال: يا ثوري لبسنا هذا لله تعالى، وهذا لكم، وما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبديناه[١].

وباستمرار تجمّل الإمام بما ينبغي له من الأناقة وإظهار نعمة الله عليه، كان تكرار اعتراض سفيان الثوري عليه دون مبرّر من شرع أو عرف، إلاّ أن الإمام ينفتح بموضوعية، ويجيب بواقعية، وقد يختصر الموضوع، وقد يطنب بعض الشيء، فكما للبليغ أن يوجز فله أن يطيل مراعاة لمقتضى الحال كما يقول البلاغيون.

فقد رأى سفيان الثوري الإمام وعليه ثياب بياض كأنها نمرقئ البيض، فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسك!!.

فقال له الإمام: اسمع منّي وعِ ما أقول لك، فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً إن متَّ على السنة والحق، ولم تمت على بدعة، أخبرك أن رسول الله ﷺ كان في زمان فقر جدب، فأمّا إذا أقبلت الدنيا، فأحقُّ أهلها بها أبرارها لا فجارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفارها، فما أنكرت يا ثوري؟[٢].

وكان سفيان بن عينية يحاكي سفيان الثوري حالاً بحال في هذا الملحظ، فقد قال للإمام الصادق: يروى أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن من الثياب، وأنت تلبس القوهي المروي[٣].

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ٢٢١.

(٢) الكليني: الكافي ٥/ ٦٥.

(٣) ضرب من الثياب البيض منسوب إلى قوهستان، وهي من أعمال خراسان.

قال الإمام: ويحك إن علياً عليه السلام كان في زمان ضيق، فإذا اتسع الزمان، فأبرار الزمان أولى[١].

ويبدو أن الإمام عليه السلام كان في معرض المعاناة في أناقته وحسن المظهر، وكان الترصد حوله والترقب نوعاً من الفضول حيناً، أو ضرباً من الرياء حيناً آخر، فقد جذب عبّاد بن كثير البصرة ثوب الإمام الصادق وهو في الطواف قائلاً:

يا جعفر تلبس مثل هذه الثياب في هذا الموضع من المكان الذي أنت فيه من علي عليه السلام؟

فقال الإمام: ثوب فرقبيٌّ اشتريته بدينار، وكان علي عليه السلام في زمان يستقيم له ما لبس فيه، ولو لبست مثل هذا اللباس في زماننا، لقال الناس: هذا مراءٍ مثل عبّاد[٢].

وليت شعري هل يدعو إلى الإنكار؟ ويجذب رداء الإمام دون حياء، لأنه يلبس ما قيمته دينار؟ ولكن الإمام لا يعتني بأقوال المراهقين رياءً، ولا الضّالين نفاقاً، لأنه فوق ما يحاك حوله من مؤامرات.

وكان الإمام يتوخى إعزاز نفسه، ولا يتهاون بشأن إدارته، فقد يأمر بما يناسب مقامه، وقد يرتفع إلى التفضل على الآخرين كما هو شأنه، وقد يقبل الهدية من أوليائه دون غضاضة أو استعلاء، فقد صنع عمران بن عبد الله القمي وهو من مواليه مضارب للرجال والنساء وقدّمها للإمام، بناءً على طلب سابق فيما يبدو فجهزت المضارب واستدعي عمران فأقبل، وقال للإمام: هذه المضارب التي أمرتني أن أعملها لك.

---

(١) الكشّي: الرجال ٢٤٨.
(٢) الكليني: الكافي ٦/ ٤٤٣.

فقال الإمام: بكم ارتفعت؟ فقال له: جعلت فداك إن الكرابيس من صنعتي، وعملتها لك، فأنا أحبّ جعلت فداك أن تقبلها هدية، وقد رددت المال الذي أعطيتنيه، قال: فقبض أبو عبد الله عليه السلام على يده ثم قال: اسأل الله تعالى أن يصلي على محمد وآل محمد، وأن يظلّك يوم لا ظلّ إلا ظلّه[1].

## ٥- بين الزهد وحياة العزلة الاجتماعية:

واتخذ الإمام الصادق موقفاً واضحاً وحازماً دون سقوط الشيعة وزوالها، في تصدّيه لموضوع العزلة عن المجتمع أو حياة الرهبانية، فقد ظهر لدى المسلمين منذ القرن الثاني الهجري ميل إلى الاعتكاف عن الدنيا والزهد في ملذّاتها، وظهرت فرق كثيرة عند المسلمين يدعو بعضها إلى الرهبانية وترك الدنيا، وكانوا يختلفون حول الذي يتعين على العارف أو الزاهد أن يفعله، فمنهم من قال: إن الصلاة هي أفضل عبادة للمعتكف، ومنهم من قال بالصوم لما فيه من حرمان النفس عما تشتهيه، ومنهم من رأى للمعتكف أو المتعبد أن يفكر في الله، ومنهم من قال بـ(الذكر) أي أن يذكر الله على نحو مخصوص.

ولم تهتم الفرق الصوفية التي حبّذت الاعتكاف والزهد بأمور المعيشة الخاصة لأتباعها، بينما نهى الإمام الصادق عليه السلام عن العزلة وترك الحياة الاجتماعية نهياً باتاً، وكان يردد: لا رهبانية في الإسلام[2].

---

(١) ظ: المفيد: الاختصاص ٦٨، المجلسي: البحار ٤٧/ ٣٣٥.

(٢) ظ: جماعة كبار المستشرقين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٥٥ بتصرف.

وكان المناخ العام مشحوناً بموجات زهدية لا أول لها ولا آخر، ولم تكن على نحو معقول متوازن، بل الأغلب فيها كان يمثّل الهروب من الحياة العامة بإلقاء الحبل على الغارب، والتنصل من المسؤولية دون مسوّغ شرعي أو فكر إسلامي.

يقول الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي: «**كانت جماعات الزهّاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهم إلى العزوف عن الدنيا.. وقد شجع حكّام بني أمية هذه الجماعات، ليصرفوا الناس عن التفكير في المظالم، ويصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكّام وفقر الحاكمين. وشجّع بنو العباس هذا الاتجاه إلى الزهد.. ومضى الإمام الصادق يناقش الزاهدين. فالزهد كما يفهمه هو الاكتفاء بالحلال لا التجرد من الحلال.. ورأى المنصور في الدعوة ضد الزهد والفقر تحريضا لعامة المسلمين أن يستمتعوا بحقوقهم في المال، ودعوة إلى إثارة التمرد**»(١).

ويشير الأستاذ محمد حسن آل ياسين إلى حقيقة زهد الإمام بالقول:

«**ومما ينبغي ذكره في هذا المقام، بل يجب التنبيه عليه بالقلم العريض: أن زهد الإمام لم يكن على غرار زهد الصوفية المتزمتين والرهبان المتقشفين، وإنما هو زهد الحكماء العارفين والفلاسفة المتبحرين**»(٢).

وكان الإمام عليه السلام يتعقب الحركة الزهدية الخارجة عن الإطار الإسلامي مما يعتبره خضوعاً وذلاً واستخداءً، فقد أتاه قوم يظهرون التزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل ما هم عليه من

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي: شخصيات إسلامية ٤٧.
(٢) محمد حسن آل ياسين: الإمام جعفر الصادق ٣٥.

التقشّف المدّعى، في إعطاء كل ما يملكون، وترك ذريتهم وعوائلهم يتكففون الناس.

ورأى الإمام في هذا المنحنى الخطر انحرافاً عن القصد، وإفراطاً في التوجه، وتخلفاً عن الركب الاجتماعي، فانبرى لهم يريهم خطأ الفكرة، وسذاجة التصوّر، وعدم المعرفة بالقرآن، وهم يريدون الاحتجاج عليه بالقرآن، فدحض شبههم، وسفّه هذا النوع من التصوف الذي يقضي على الشعور النابض، ويحجّم إرادة النفس في الحرية المسموح بها شرعاً، ويقاطع إباحة الطيبات التي أحلّ الله لعباده فقال في حديث طويل نقتبس بعض شذراته.

قال الإمام: «أمّا ما ذكرتم من إخبار الله عَزَّ وَجَلَّ إيّانا في كتابه عن القوم الذين أخبر بحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً، ولم يكونوا نهوا عنه، وثوابهم منه على الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك أن الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكان نهي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى رحمة منه للمؤمنين، ونظراً لكي لا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضَعَفَة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوزة الكبيرة، الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً، فمن ثمّ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: خمس تمرات أو خمس قرص، أو دنانير أو درهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله، وهو أحسنها أجراً.

وقال ٢ للأنصاري حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق، ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنونه مع المسلمين، يترك صبيه صغاراً يتكففون الناس؟

ثم قال: حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال:

إبدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى. ثم هذا ما نطق به الكتاب ردّاً لقولكم، ونهياً مفروضاً من الله العزيز الحكيم، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1].

أفلا ترون أن الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه...»[2].

## ٦- الإمام وعلم العرفان:

وقد يرى بعض الصوفية أن الإمام الصادق عليه السلام حلقة مهمة في سلسلة الصوفية والعرفان، ومن هؤلاء الشيخ فريد الدين العطّار النيسابوري.. وجار الله الزمخشري الذي عدّ في (**ربيع الأبرار**) من طلائع العرفاء وزعمائهم، بينما يراه العطّار النيسابوري رائداً للعرفان في كتابه (**تذكرة الأولياء**).

وشتان بين ما سجّله الزمخشري وهو عالم مدقق، وبين ما أورده العطّار، وهو صوفي جمّاعة، يجمع بدافع من المحبّة كل ما سمع وقرأ، ومؤلفه يثبت أنه كان مغرماً ومتيماً بحب العرفاء والصوفية العظام، فهو يكتب عنهم بعين الرضا والقبول، وبالمغالاة أحياناً.

---

(١) سورة الفرقان: ٦٧.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٢٣٣/٤٧ وما بعدها، وانظر مصدره.

ويمكن القول: إن القلم بيد الزمخشري يتحكم فيه العقل والدقّة، أمّا القلم في يد العطّار فيتحكم فيه الحبّ والعشق.

ومهما يكن من أمر فالصادق عليه السلام يعدّ في تاريخ العلوم الإسلامية من مؤسسي علم العرفان. والعرفان الذي أرسى الإمام الصادق عليه السلام معالمه، وأوضح سبله في مدرسته هو عرفان توحيدي، لا أثر للثنائية فيه كما هي الحال عند الزرادشتية، ولا أثر فيه للتثليث كما هي الحال عند المسيحية.

فعرفان الصادق عليه السلام هو أسمى ما وصل إليه الفكر البشري لبلوغ الصفاء والتكامل النفسي والروحي، وكان مذهبه من السمو والرفعة بحيث تقاصر عن فهمه وتحليله وتبيينه كثير من الناس، سواء في عصره أو في العصور التي تلته عندما تشعب العرفان، وأصبحت له مكاتب وفرق متعددة.

تميز عرفان الإمام الصادق عليه السلام عند ظهوره بالتوحيد، وهذا ديدنه في نبذ الثنائية والتثليث، تاركاً الغلو والسرف في تعريف صفات الخالق أو المخلوق، كما حدث للعرفان الإسلامي أحياناً في أدوار متأخرة.

كان عرفان الإمام الصادق عليه السلام بعيداً عن المبالغات والترهات، ومبنياً على أساس توحيدي في تنزيه الخالق عن صفات المخلوق والمخلوق عن الخالق، وهو يرتكز على التوكل على الله تعالى، وتنفيذ أحكامه وأوامره، والامتثال لنواهيه، دون إهمال شؤون الدنيا أو تركها، لئلا تضطرب الحياة اليومية، وتفقد صفاءها وسعادتها.

وليس في عرفان الإمام الصادق عليه السلام كلام عن وصول العارف إلى الله، وهو التفكير الأساسي الذي دان به كثير من الصوفية والعرفاء،

فالوصول إلى الله عند الإمام الصادق عليه السلام يطابق تماماً ما صوّره القرآن الكريم: أي أن الإنسان هو صنيع الله ومخلوقه، وهو يرجع إلى الله[١].

وكان الإمام الصادق في مدى انجذابه للحقيقة الإلهية بين الخوف والخشية، وفي حذره وإشفاقه بين يدي الله تعالى صورة حيّة تمثل العرفان التوحيدي الخالص النزيه.

حدث مالك بن أنس زعيم المذهب المالكي، قال:

«حججتُ معه سنة فلمّا استوت به راحلته عند الإحرام، كان كلّما همّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد أن يخرّ عن راحلته، فقلت: قل يا ابن رسول الله، ولا بدّ لك من أن تقول.

فقال: يا بن أبي عامر، كيف أجسر أن أقول لبّيك اللهم لبّيك؟ وأخشى أن يقول عزّ وجلّ لي: لا لبّيك ولا سعديك»[٢].

وكانت إنابته دليل عرفانه، وإخباته عنوان تعبّده، وتسليمه أصل فطرته، فقد روى الراوندي في دعواته: أن ولداً مات للإمام فلمّا أخرجه للدفن، قال: سبحان من يقتل أولادنا ولا نزداد له إلاّ حبّاً. فلمّا دفنه، قال: يا بني وسّع الله في ضريحك، وجمع بينك وبين نبيك، وقال عليه السلام: إنّا قوم نسأل الله ما نحب فيمن نحب، فيعطينا، فإذا أحبّ ما نكره فيمن نحبّ رضينا[٣].

ودخل عليه سفيان الثوري فرآه متغيّر اللون، فسأله عن ذلك، فقال: كنت نهيت أن يصعدوا فوق البيت، فدخلتُ فإذا جارية من جواريّ

(١) ظ: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب ١٣١ وما بعدها، بتصرّف.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ١٦ وانظر مصدره.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار ٤٧/ ١٨.

ممن تربي بعض ولدي قد صعدت في سلّم والصبي معها، فلما بصرت بي ارتعدت وتحيّرت وسقط الصبي إلى الأرض فمات، فما تغيّر لوني لموت الصبي، وإنما تغيّر لوني لما أدخلت عليها من الرعب.

وكان عليه السلام قد قال لها: أنت حرّة لوجه الله، لا بأس عليك[1].

وهذه الرأفة بالجارية، والانكسار النفسي لها، هو الملحظ العرفاني الدقيق الذي قلّ من يتوصل إليه إلاّ برياضة خاصة، وسلوك متميّز رفيع المستوى، وهما مما عرف به الإمام عليه السلام.

وعرفان الإمام الصادق عليه السلام قد يبتعد عن الفهم التقليدي لإطار العرفانيين العام، فلا أثر فيه للشكليات المزيّفة، ولا انحراف في مسلكيته عن التنظيم العرفاني الإلهي.

وكانت مظاهر الضعة والذلّ والصغار والتصعلك قد تبدو في مظاهر جملة من المتزهدين الذين يدّعون العرفان جهلاً وتزمتاً، بينما نجد الإمام يبدو بالمظهر الرزين الوقور، حتى أن مظهره الخارجي يحكي عن نعمة الله عليه، فلا يظهر إلا متجمّلاً مشرقاً رقيقاً.

وقد أورد الكليني وسواه عدّة روايات في هذا الجانب، منها:

**١ ـ عن الصادق: «إن الله عزّ وجلّ يحبّ الجمال والتجمّل، ويبغض البؤس والتباؤس».**

**٢ ـ وعنه عليه السلام: «إذا أنعم الله على عبده نعمة أحبّ أن يراها عليه لأنه جميل يحب الجمال».**

**٣ ـ وعنه عليه السلام: «إني لأكره للرجل أن يكون عليه من الله نعمة فلا يظهرها».**

---

(١) المصدر نفسه: ٤٧/ ٢٤.

٤ـ وعنه عليه السلام: **«إلبس وتجمّل فإن الله جميل يحبّ الجمال، وليكن من حلال»**.

وروى الشيخ الطوسي في التهذيب عن الإمام الصادق أنه قال: إن الله يحب الجمال والتجمّل، ويبغض البؤس والتباؤس، فإن الله إذا أنعم على عبده بنعمة أحبّ أن يرى عليه أثرها.

قيل: كيف ذلك؟

قال: ينظّف ثوبه، ويطيّب ريحه، ويجصص داره، ويكنس أفنيته...[1]

وهذه الآثار في تراث الإمام الصادق تجسد رؤية متجددة في النظرة العرفانية إلى آلاء الله سبحانه، ومحبوبية التزيّن بها، فما أكرم الله به الإنسان من الطيبات أراد الله إكرامه بها، وندب إلى ظهورها، وهي بعد نِعَمٌ مستفيضة تستحق الشكر بأبدائها، دفعاً لسلبيات السلوك في التداعي والاستخذاء وتصوير الشقاء والحرمان، وما هو بهذا المجرى من الشكليات الصوفية المقنّعة بالرياء، فحمّلت العرفان أكثر مما يتحمله سيرة وسلوكاً صحيحاً، ودخلوا في متاهات غائمة تكذب فيها العين والأذن، فما بلغوا بالإنسان مرتبته الواقعية، وظلوا يتخبطون بخواطر لا أصل لها، ويتشبثون بشطحات قد تصل إلى درجة الغلو والإلحاد.

وكان الفكر العرفاني قائماً على مبدأ المعاد، وأن الموت مجرد تغيير للمجلس، لأن الحياة مستمرة بعد الموت، وإذا كانت الحياة مستمرة بعد الموت فَلِمَ لا يرتقي الإنسان إلى أعلى المراتب والكمال والوجود في هذه الدنيا، مترقباً هذه المراتب بعد الموت؟

(١) ظ: الأمين الحسيني العاملي: أعيان الشيعة ٤ ق٢، ٩٤ ـ ٩٥ وأنظر مصادره.

وأصبح الهدف الأساسي عند كثير من أدعياء العرفان هو الوصول إلى الملكوت الأعلى أو إلى المراتب الإلهية فيما يزعمون، وإن شئت فقل إلى المكانة الإلهية، وهذا ضلال في ضلال.

واستطاع الإمام الصادق أن يغيّر هذا الإسفاف في التفكير، وأشاع بدله التوحيد النقي، فالإنسان لا يصل إلى مرتبة الإله لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة.

وكانت فلسفة الإمام الصادق في هذا تستند إلى أصلين:

الأول: الاعتقاد بحياة الإنسان بعد الموت.

الثاني: اشتراك الوجود لا وحدة الوجود.

ونظرية وحدة الوجود في الخلط بين الخالق وعبده المخلوق، أهم عنصر وأقوى أساس يستند إليه التفكير العرفاني المدّعى، والفكر الصوفي المتخلف، ولهذه النظرية جذورها في الشرق، وتنبع من عرفان الهند و فارس، ومنهما انتقلت إلى أوروبا بعدئذ. ولكن الإمام الصادق رفض هذه المقولة الباهتة ولم يقل بوحدة الوجود أبداً، وكان يرى أن الإنسان المخلوق شيء، و أن الخالق الصانع المدبّر وهو الله تعالى، شيء آخر فوق حقائق الأشياء.

أمّا القائلون بوحدة الوجود فلم يعينوا حداً فاصلاً بين وجود الإنسان وغيره من الموجودات وبين وجود الله تعالى، وفي زعمهم أن الوجود يشبه الشمس التي أطلقت ضوءها من خلال زجاج ملوّن فانعكس بألوان شتى، فلئن اختلفت ألوان ضوء الشمس، فكلها صادرة

من منبع واحد، وفي زعمهم أيضا أن الموت لا يعدو أن يكون رجعة إلى الأصل، كما المطر أو قطر الندى إذ يلتحق بالبحر، وهو منه[1].

وهذا التوجه قد أخرج المتصوفة والقائلين بهذا النحو من العرفان الفضفاض عن ملحظ العبودية لله تعالى إلى ملحظ المشاركة التجريدية شاءوا ذلك أم أبو. ولهذا رفض الإمام ذلك التوجه في السلوك والمظهر والفكر، وأرسى قواعد العرفان على أسس متينة من التوحيد.

يرى أحد الباحثين الأوروبيين: أن عرفان الصادق عليه السلام كان يلتزم حدود الاعتدال، يتوخى معرفة الدين على الوجه الصحيح والمذهب النقي، وتبصير الناس بحدودهم ومهامّهم، ولم يكن يريد للعرفان أن يصبح مذهباً شائعاً مستقلاً عن الدين[2].

أمّا التوسع بالإضافات الوهمية والذي ذهبت إليه بعض الفرق الصوفية، فقد اصطدم بتعاليم الإسلام مباشرة، وجعل هذا المخلوق العاجز متحداً مع الخالق العظيم، ومشاركاً له في القدرة، وأضفوا على أصناف ابتدعوها كالمرشد والقطب خصائص ترتفع بمستواهم عن مستوى البشر، وهو ما لا يقرّه الإسلام وعقيدة التوحيد، بل هو حرب على الإسلام و التوحيد.

(١) ظ: الإمام الصادق كما يراه علماء الغرب ١٤٢ بتصرف وإضافة وتهذيب.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٩.

## قصيدة المؤلف في ذكرى الإمام جعفر الصادق



من وحي المهرجان التاريخي[1]
وسواك لا صوت ولا أصداء

أشرق فملء فم الخلود ثناء
للسائرين، ومشعل وضاء

أشرق فمولدك المبارك جذوة
حتى أطل فشعت البيداء

قد كنت أرتقب السنين ليومه
للغيب، تشكر صنعها الظلماء

نور على نور، وتلك مشيئة
بالسير لا زلل ولا خيلاء

من عهد (جعفر) ما تزال مغذة
العقبات والنكبات والأعباء

تجتاح ألف مهمة وأمامها
بالزحف ليلة نورك العشراء

(١) ألقيت في المهرجان العالمي الذي أقيم بجامع براثا ببغداد بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرناً على ميلاد الأمام في ١٧ ٣ ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

حتى إذا أنجلت الغيوم وآذنت
عن نطقها النزعات والأهواء
برزت كأبلغ صورة لم تثنها
عزم وإنسانية وثناء
هاتيك فلسفة الخلود وصنوها
روح وروحانية ورواء
وكذاك عقبى المتقين وفيضها

***

هذا الإمام العبقري ونشره
الأرج الذكي، وذكره الأشذاء
الفاتح السباق ما وقفت به
سبل، ولا ألوى به الإسراء
ما قيمة الإنسان إن هي طوحت
بكيانه الأحداث والأرزاء
حوشيت أنت عقيدة هدارة
لا الخوف يلجمها ولا الأغراء
ولقد صمدت وكان عصرك مفعماً
بالطارئات، وموجهن وباء
فشققتها طلق الجبين وأوشكت
أن تستقيم قناتها العقفاء
تتحدث الأجيال أن رسالة
غراء أنت زعيمها البناء

شيدت من آفاق فكرك صرحها

فإذا البناء دعائم شماء

وسقيت من قطرات قلبك غرسها

فإذا الثمار جنائن فيحاء

ومددت من نبضات روحك زيتها

فإذا السناء أشعة زهراء

شرف الحياة بأن تظل مدوياً

وسواك لا نطق ولا إيماء

***

سبحان ربك أي فتح شامل

جلى له في الخافقين نداء

فتح من المتجسدات روائعاً

ما دنست عذراءه الفحشاء

لله أنت أكل ركب يقتفي

لهداك: ركب قائد حداء؟

تتواكب الأفلاك في خطواته

شرفاً، وتصحب سيره الجوزاء

متحدياً خبب الطريق مسارعاً

وخطى السراة المارقين بطاء

يلوي على مالا يطاق من الأذى

فإذا الأكف لنيله جذاء

وبزغت شبه الشمس في رأد الضحى

تزدان في قبساتها الأرجاء

فالحمد للتاريخ حين أبادها
تهماً بها تتشبث الخصماء
ما ضر لو أضفى عليك رداءه
وعليك من شرف النبي رداء
حشدوا عليك الحيف في صفحاته
والتبر وضاء به الألاء
وأعرتهم هزو الضمير فأيقنت
بالقتل تلك الحية الرقطاء
وحقيقة التاريخ تهدم ما ابتنى
الصفقاء واللصقاء والطلقاء

***

حييت مذهب جعفر فأمامه
تقف العقول وتخرس البلغاء
متجدد الآراء يفتح بابه
بالاجتهاد، لتنضج الآراء
يقتات من وحي السماء عصارة
سكرت بخمرة قدسها الندماء
أرأيتم فقهاً فريداً قيماً
حدبت على تدريسه الفقهاء
متماسك الحلقات لا متزمت
عنتاً، ولا متسامح معفاء
رمزان يزدهران ما عرف السنا
فقهٌ أغرّ، وحجة عذراء

قام الدليل عليهما فهما هما
أبداً، فلا تعب ولا إعياء
أو تستنير الفكرة الظلماء
أو تستفيق المقلة العمياء
هذا هو الإمداد فيض معارف
للآن ما هطلت به الأنواء
شهد العدو بفضله وبحقه
(والفضل ما شهدت به الأعداء)

***

يا أمة الإسلام أن نظامك
البنّاء فينا ما له أبناء
قد عاد سلعة بائع مرفوضة
أبداً ينقص بيعها شراء
الذنب ذنب المسلمين لأنهم
تركوا الكتاب وبالمهازل باؤا
مالي ارى الأهواء شتى ميلها
لا تستقيم ودونها الميناء
والمرفأ الإسلام، ما عصفت به
هوج الرياح ولا دنت نكباء
دال الزمان وغيرت سنن الحجى
وتنقلت بظلالها الأفياء
عدنا كمحتطب بقاع بلقع
أنى تلفت واحة جرداء

بالأمس والأمس القريب رواية
عقمت، فكل نتاجها أخطاء
حشدوا على الإسلام سيلا جارفاً
وتحكموا بالمسلمين و شاؤا
فحذار يا هذي الجموع وحافظي
من أن تسود صفحة بيضاء
فسياسة الإرهاب سوف تمجّها
الإبناء فهي سياسة خرقاء
والمجد للإسلام وهو القلعة
الشماء وهو الشرعة الغراء

***

يا أيها المتجمهرون إلى متى
نبقى يلاعب جفننا الأغفاء
في أي قانون و أي شريعة
هذا التناقض أيها الحكماء
أيعاب أنا بالنبي وآله
متمسكون، وأننا أمناء
نُرمى بأن مبادئاً هدامة
فينا، وأننا زمرة حمراء
هانحن صرحنا، وقلنا: أنها
كفر، وان رجالها عملاء
تلك الفتاوى ما يزال دويها
لليوم ترهب وقعه الأجراء

ولقد وقفنا موقفاً من دونه
طعم الردى، والطعنة النجلاء
في حين يهزأ بالجهاد مذبذب
بيد الظروف كأنه الحرباء
إن شئت فاسأل أينا سام العدى
خسفاً، تجبك صريحة أنباء
والتضحيات سجلها متفتح
وعياً، فلا حلم ولا إغماء
ومن الغري سرت وأول زاحف
فيها (الحكيم) وصحبه العلماء

***

الطائفية أي داء فاتك
نحن الدواء له ونحن الداء
الطائفية في البلاد تطورت
وعلا لها ظِلٌ، ورفّ لواء
والطائفية في البلاد تنوعت
أرأيت كيف تنوع الأزياء
والطائفية ما تزال كأمسها
يحدوا بها مستعمر مشّاء
يربوبها نحر وتضخم عندها
عصب، وتسمن باسمها الأشلاء
ويثيرها نفر لصالح أمرهم
وإذا ضحية كيدها الضعفاء

يا للحفاظ المر تغرس حبها

فينا، وتفرض نفسها اللقطاء

وإذا اجترأت وقلت صنع أجانب

نحن الوقود له ونحن الماء

ثاروا عليك فكنت وحدك والصدى

هيهات تسمع صوته الصحراء

وسقطت في الميدان تسأل أهله

أنى يكون مقامها الشهداء

***

مولاي يا نبع العواطف ثرة

مني عليك تحية عصماء

أنا إن أطلت فكي يتم أداء

وإذا أجترحت فكي تصان دماء

ولأنت من عليائك أسمى رفعة

من أن يزينك جانباً إطراء

أنى يصورك الخيال وقد مشى

معنى المحال به، وأنت خفاء

لكن بما أدركت جزاء لم أدع

كلا، فقد تستلهم الأجزاء

وهنا أقول: وكل معنى يرتمي

خجلاً على قدميك فهو هراء

أنـــــى ومـــــلء فـــم الـــخـــلـــود ثـــنـــاء

تـــــرقى لـــقـــمـــة مـــجـــدك الـــشـــعـــراء

***



# خاتمة المطاف والنتائج



بعد هذه المسيرة النيّرة في إضاءة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، والوقوف على طائفة من أبعادها الإنسانية، والخوض في غمار مخزونها التراثي الأصيل، رأينا الإمام الصادق عبقرياً في قيادته، حكيماً بأداء رسالته، وريثاً لمدرسة أهل البيت بآفاقها الحضارية المتطورة، حافلاً سجّله بصدى الأجيال تقييماً ومنزلة ومكانة، واهباً من خصائصه ومميزاته ما يذكي شعلة العلم اتقاداً، ويرضي النفس ضميراً نابضاً بالاتجاه المستقيم الرائد.

ولمسنا الإمام الصادق في خضمّ الأحداث السياسية في عصره، يجانب سيرة طواغيت بني أمية، ويطوّح بأحلامهم المتغطرسة، ويراقب قيادة الانقلاب العباسي بحذر ويقظة، فيجد في السفّاح سفاحاً مبيراً، وفي المنصور طاغية جباراً، فلا يستجيب لسلطان الحكم، ولا يهادن جبروت السلطة، ويعتمد النضال السلبي في الرفض والمجابهة والتحدي.

وأدركنا الإمام في الحياة العقلية يقود الثورة المضادّة الهادرة في وجه الغلاة، ويطوّح بحركات الإلحاد والزندقة، ويقابل المذاهب الكلامية بالردّ والنقض والحجاج الهادف.

وشاهدنا الإمام مكتوباً بلهيب الكفاح المسلّح، وهو يقيّم المناخ الثوري العارم برؤية سياسية متفوقة حكيمة، فيبتعد عن الأضواء المحرقة الدامية، ويتعايش مع ثورة عمه زيد بن علي بحكمة وروية، ويعارض بيعة الحسنيين لذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم، وينبئ عن المصير المتوقع لهما بسابق علم، وبادرة أثر، وتنتهي الثورتان بنتائج مأساوية تزيد من رعيل الشهداء، وسفك الدماء، ومواكب الأسرى.

كان هذا استنتاجاً لما كتبناه في الباب الأول من هذا الكتاب فإذا صاحبنا الباب الثاني في فصوله الأربعة، فوجئنا بالأبعاد العلمية الهائلة لدى الإمام الصادق، وكشفنا عن موارد هذا العلم، وحققنا القول في ظواهره الفذّة، وتحدثنا بتركيز عن أثر تلامذة الإمام في انتشار علم الإمام، وهم يحملون الرسالة ويؤدون أمانة التبليغ.

ووقفنا عند علوم التشريع الإسلامي لدى الإمام، وكان القرآن أمامها فيما استند إليه الإمام في الدلالة على توحيد الله، والنصّ على ولاية أهل البيت، ومدارك تهذيب النفس الإنسانية، وآراء الإمام في فقه القرآن باستنباطه لآيات الأحكام.

ورصدنا الإمام في مسيرة الحديث الشريف يشرف على تدوين علم الحديث بعد أن أوشك على الضياع نتيجة المنع من التدوين، فكان رائد التدوين في الإسلام دون منازع.

وعالجنا أحوال الرجال في إخضاعهم لعلمي الجرح والتعديل، صيانة للحديث من الإضافة أو الكذب أو الانتحال.

وعرضنا مشكلة السند للتقويم العلمي، وكشفنا عن ملابساتها الفعلية، ووضعنا الحلول بأزاء كل معضلة وشائبة.

ثم توجنا عملنا هذا باختيار طائفة من الألفاظ الجارية مجرى الأمثال في أحاديث الإمام الصادق في شتى الأصعدة الإرشادية.

ووقفنا عند الفقه وأصول الفقه وقفة المشير إلى المصادر والموارد والمنابع والأصول والجذور بعد أن استوعبنا الحديث عنها في كتابنا السابق (**الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية**).

وخضنا غمار العلوم الصرفة والمعارف التجريبية لدى الإمام، وقدمنا أطروحة تستقطب علم الكيمياء في سبق الإمام لتأصيله، وعلم الفيزياء في نظريات مبتكرة للإمام، وعلم الطب في اكتشاف المجهول وريادة الموضوع، وأضفنا له أقسام الطب التي عالجها الإمام في أفكاره ونظراته وآرائه ومواصفاته.

وكان علم الكواكب والأفلاك محطتنا الأخيرة في هذا المجال، وشاركنا في استكناه الحقائق العلمية الرائعة التي توصل لها الإمام في الضوء والنجوم والمسافات وحركة الأرض وحياة الكواكب الثابتة والسيارة، ونور الشمس والقمر، وتكوين الفصول، وتخطئته لبطليموس في جملة من النظريات العلمية.

وكانت الإنسانيات عند الإمام مجالاً خصباً للتحدث عن مبادئ الفلسفة والحكمة، والإشارة إلى علاقة الأدب بالعلم، واستطالة أكاديمية فذّة في النقد التاريخي والتطبيقي، كل ذلك في معالجة رائدة تضع يد الإنسان على كنوز ثمينة من التقويم البناء.

وكان حديثنا عن نظرة الإمام إلى التناقض السلوكي، والانحراف عن مجابهة الحياة الاجتماعية موصولاً بالوعي لتداول الطيبات والمباحات تفضلاً من الله، ودلائل على نعمته وآلائه، ورفضاً عملياً لفلسفة الفرار

من الحياة، وكشفاً لظاهرة تجمّل الإمام وأناقته وحسن مظهره، ومقارنة بين الزهد الحقيقي الخالص، وشطحات الصوفية في حياة العزلة والتقوقع على الذات.

وكانت الخلاصة في إتاحة الفرصة بين يدي التعرف على نظرية الإمام في العرفان النقي النزيه الهادف إلى نبذ الأساطير والخرافات، وتوحيد الله تعالى، والالتزام بالمثل العليا.

هذه نظرة إجمالية عابرة فيما توصل إليه البحث من نتائج ألمحنا إلى أهمها، تاركين التفصيل إلى الأصل في الكتاب.

وكان رائدنا فيما أوردناه استقراء الحقائق، واستكناه المجهول، وبيان الأصول التاريخية لحركة التطور العلمي، وكشف الجذور المتأصلة لحياة الحضارة الإنسانية، وهي تنحدر من ذلك الشعاع الذي لا يخبو، وتنطلق من ذلك الفم الهادر بفنون المعارف، شعاع الإمام الصادق وفمه البليغ الناطق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

**النجف الأشرف**

**محمد حسين علي الصغير**



# المصادر والمراجع



(١) **خير ما نبتدئ به:** القرآن العظيم.

(٢) **ابن الأثير، أبو الحسن، علي بن أبي الكرم:** محمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ). أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة القاهرة/١٣٨٠هـ.

(٣) **ابن الأثير (نفسه):** الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي/ بيروت، د. ت.

(٤) **أحمد أمين (أستاذ في الجامعة المصرية):** فجر الإسلام، مطبعة دار الترجمة والتأليف والنشر ـ القاهرة١٩٥٥م.

(٥) **أحمد أمين الكاظمي (أستاذ الرياضيات في جامعة بغداد):** التكامل في الإسلام، مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف١٩٧٤م.

(٦) **أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ):** مسند أحمد، دار صادر ـ بيروت د.ت.

(٧) **الأربلي، علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت٦٩٣هـ):** كشف الغمة في معرفة الأئمة، مطبعة النجف ـ النجف الأشرف ١٣٨٥هـ.

(٨) **أسد حيدر (أستاذ في الحوزة العلمية في النجف الأشرف):** الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، طبع النجف الأشرف ١٣٧٧هـ.

(٩) **الأشعري، سعد بن عبد الله (ت ٣٠١هـ):** المقالات والفرق، طبع طهران ١٩٦٣.

(١٠) **الأصبهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ):** الأغاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨م.

(١١) **الأصبهاني (نفسه)**: مقاتل الطالبيين، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ١٩٥٦م.

(١٢) **ابن أعثم**: أبو محمد، أحمد بن أعثم الكوفي (ت٣١٤هـ): كتاب الفتوح، طبعة الهند ١٣٨٨هـ.

(١٣) **آغا بزرك الطهراني (أبرز علماء الببلغرافيا والتصنيف في القرن العشرين)**: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، طبعة النجف الأشرف ـ طبعة طهران، دار الأضواء ـ بيروت ١٤٠٦هـ.

(١٤) **الأميني، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (ت١٣٩٠هـ)**: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتب الإسلامية ـ طهران ١٣٦٦هـ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

(١٥) **باقر شريف القرشي (أستاذ في الحوزة العلمية في النجف الأشرف)**: حياة الإمام الباقر، مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

(١٦) **باقر شريف القرشي (نفسه)**:حياة الإمام الصادق، دار الأضواء ـ بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(١٧) **البحراني، هاشم الحسيني البحراني (ت١١٠٧هـ)**: البرهان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية ـ النجف الأشرف ١٣٩٤هـ.

(١٨) **البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)**: صحيح البخاري، المطبعة الأميرية الكبرى ـ بولاق، القاهرة ١٣١٤هـ.

(١٩) **البرقي، أبو عبد الله، محمد بن خالد (ت٢٧٤ ـ ٢٨٠هـ)**: كتاب المحاسن، دار الكتب الإسلامية ـ طهران د.ت.

(٢٠) **بروكلمان، المستشرق الألماني الأستاذ كارل بروكلمان (١٨٦٨م ـ ١٩٥٦م)**: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٠م.

(٢١) **البلاذري، أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ)**: أنساب الأشراف، دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٥٩م.

(٢٢) **الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ)**: سنن الترمذي، نشر المكتبة الإسلامية ـ القاهرة د.ت.

(٢٣) **ابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن**: يوسف بن تغري بردي الظاهري (ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد ـ القاهرة.

(٢٤) **الجاحظ**: أبو عثمان، عمر بن بحر (ت٢٥٥هـ): البيان والتبيين، تحقيق: حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ١٩٣٢م.

(٢٥) **الجاحظ (نفسه)**: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة المصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٣٨م.

(٢٦) **جماعة من كبار المستشرقين**: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، ترجمة: د. نور الدين آل علي، دار الذخائر للمطبوعات ـ بيروت ١٩٩٨م.

(٢٧) **جمهرة من المستشرقين**: دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ـ طهران، مصوّرة.

(٢٨) **الجهشياري، محمد بن عبدوس**: الوزراء والكتّاب، مطبعة المصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٥٧هـ.

(٢٩) **الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله (ت٤٠٥هـ)**: المستدرك على الصحيحين، طبعة الهند ١٣٣٤هـ.

(٣٠) **ابن حجر، أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)**: الإصابة في تمييز الصحابة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / د.ت.

(٣١) **ابن حجر (نفسه)**: تهذيب التهذيب، دار صادر ـ بيروت / د.ت.

(٣٢) **ابن حجر الهيثمي، شهاب الدين، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي المكي (ت٩٧٣هـ)**: الصواعق المحرقة ـ القاهرة ١٣١٢هـ.

(٣٣) **ابن أبي الحديد:** أبو حامد، عز الدين: عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت٦٥٦هـ): شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٩م.

(٣٤) **الحرّ العاملي:** محمد بن الحسن (ت١١٠٤هـ): وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، دار إحياء التراث ـ بيروت / د.ت.

(٣٥) **حسين يوسف مكي (من علماء دمشق الشام):** عقيدة الشيعة في الإمام الصادق وسائر الأئمة عليهم السلام، دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٣م.

(٣٦) **حسن الصدر (من علماء الكاظمية المقدسة):** تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت / د.ت.

(٣٧) **الحضرمي، محمد بن عقيل:** النصائح الكافية، مطبعة النجاح ـ بغداد ١٣٦٧هـ.

(٣٨) **الحمويني، إبراهيم بن محمد بن المؤيد الجويني (ت٧٣٠هـ):** فرائد السمطين، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي ـ بيروت ١٤٠٠هـ.

(٣٩) **ابن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين، محمد بن الحسن البغدادي (ت٥٦٢):** تذكرة ابن حمدون، مطبعة النهضة ـ القاهرة ١٣٤٥هـ.

(٤٠) **الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت (ت٤٦٣هـ):** تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي ـ بيروت / د.ت.

(٤١) **ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ):** وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٤٩م.

(٤٢) **الخوئي:** أبو القاسم الموسوي الخوئي (المرجع الديني الأعلى الراحل) (ت ١٤١٣هـ): معجم رجال الحديث، إخراج: مرتضى الحكمي. مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف ١٣٩٠هـ.

(٤٣) **الدارمي، أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي (ت٢٥٥هـ):** سنن الدارمي، طبعة دار إحياء السنة المحمدية ـ القاهرة / د.ت.

(٤٤) **دونلدسن، مستشرق أوربي:** عقيدة الشيعة، الترجمة العربية ـ القاهرة ١٣٦٥هـ.

(٤٥) **الديلمي، أبو محمد، الحسن بن محمد (من علماء القرن الثامن الهجري):** إرشاد القلوب، الطبعة الرابعة، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٣٩٨هـ.

(٤٦) **الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ):** تذكرة الحفّاظ، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ١٣٨٣هـ.

(٤٧) **الذهبي (نفسه):** سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٦هـ.

(٤٨) **الذهبي (نفسه):** ميزان الاعتدال، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

(٤٩) **الراغب، الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني (ت٥٠٢هـ):** المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة١٩٦١م.

(٥٠) **زكي نجيب محمود (أستاذ الدراسات الفلسفية في جامعة الإسكندرية):** جابر ابن حيّان، سلسلة أعلام العرب ـ القاهرة١٩٦١م.

(٥١) **الزيدي، أبو طالب الزيدي:** تيسير المطالب، بيروت ١٣٩٥هـ.

(٥٢) **سبط ابن الجوزي، يوسف بن فرغلي البغدادي الحنفي (ت٦٥٤هـ):** تذكرة الخواص، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٨٣هـ.

(٥٣) **ابن سعد، أبو عبد الله، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ):** الطبقات الكبرى، دار صادر ـ بيروت١٣٨٨هـ.

(٥٤) **ابن سلاّم الجمحي:** طبقات الشعراء، ليدن ١٩١٣هـ.

(٥٥) **السيوطي، أبو بكر، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ):** تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة ـ القاهرة١٩٥٠م.

(٥٦) **الشبلنجي، مؤمن بن حسن الشافعي المدني (ت أوائل القرن الرابع عشر)**: نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، مطبعة عاطف ـ القاهرة١٣٨٤هـ.

(٥٧) **ابن شعبة، أبو محمد، الحسن بن علي الحرّاني الحلبي (من أعلام القرن الرابع)**: تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: محمد صادق آل بحر العلوم. المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٨٠هـ.

(٥٨) **ابن شهرآشوب، أبو جعفر، رشيد الدين، محمد بن علي السروي (ت٥٨٨هـ)**: المناقب: مناقب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٧٥هـ.

(٥٩) **الشهرستاني، أبو الفتح، محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ)**: الملل والنحل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة١٤١٠هـ.

(٦٠) **شوقي ضيف (الدكتور) رئيس المجمع اللغوي في القاهرة**: التطور والتجديد في الشعر الأموي، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة ـ القاهرة١٩٥٢م.

(٦١) **ابن الصبّاغ، علي بن محمد المغربي المالكي (ت٨٨٥هـ)**: الفصول المهمة في معرفة الأئمة، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٨١هـ.

(٦٢) **الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت٣٨١هـ)**: التوحيد، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٨٣هـ.

(٦٣) **الصدوق (نفسه)**: الخصال، دار التعارف ـ بيروت١٣٨٩هـ.

(٦٤) **الصدوق (نفسه)**: معاني الأخبار، نشر جماعة المدرسين ـ قم١٣٦١هـ.ش.

(٦٥) **الصدوق (نفسه)**: من لا يحضره الفقيه، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، مطبعة النجف ـ النجف الأشرف١٣٧٧هـ.

(٦٦) **الصفّار، محمد بن الحسن بن فروخ (ت٢٩٠هـ)**: بصائر الدرجات الكبرى، منشورات الأعلمي ـ طهران، د.ت.

(٦٧) **ابن طاووس، رضي الدين، أبو القاسم، علي بن موسى بن جعفر الحسني (ت٦٦٤هـ)**: مهج الدعوات، طبعة طهران ١٣٢٣هـ.ش.

(٦٨) **الطبرسي، أحمد بن علي بن أبي طالب (ت٥٨٨هـ)**: الاحتجاج، دار النعمان ـ النجف الأشرف١٣٨٦هـ.

(٦٩) **الطبرسي (نفسه)**: إعلام الورى بأعلام الهدى، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٩٠هـ.

(٧٠) **الطبرسي، أبو علي، الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ)**: مجمع البيان في تفسير القرآن، مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٣٣هـ.

(٧١) **الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ)**: تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية ـ القاهرة١٣٢٦هـ طبعة دار المعارف بمصر.

(٧٢) **ابن طلحة، كمال الدين، محمد بن طلحة بن محمد الشافعي (ت٦٥٢هـ)**: مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٧١هـ.

(٧٣) **الطوسي، شيخ الطائفة، أبو جعفر، محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)**: تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية ـ النجف الأشرف١٣٧٧هـ.

(٧٤) **الطوسي (نفسه)**: رجال الطوسي، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٨١هـ.

(٧٥) **الطوسي (نفسه)**: كتاب الغيبة، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

(٧٦) **عارف ثامر**: الحكم الجعفرية (للإمام الصادق)، جمع: عارف ثامر، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت١٩٥٧م.

(٧٧) **عباس محمد رضا القمي النجفي (ت١٣٥٩هـ)**: سفينة النجاة، المطبعة العلمية ـ النجف الأشرف١٩٥٥م.

(٧٨) **عباس محمد رضا القمي (نفسه)**: الكنى والألقاب، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ١٣٧٦هـ.

(٧٩) **ابن عبد البر، أبو عمر، يوسف بن عبد البر القرطبي المالكي (ت٤٦٣هـ)**: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مطبوع بهامش الإصابة، دار المعارف ـ القاهرة١٣٥٨هـ.

(٨٠) **ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧هـ)**: العقد الفريد، تحقيق أحمد الزين وجماعته، مطبعة دار التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧م.

(٨١) **عبد الرحمن الشرقاوي (أديب مصري)**: شخصيات إسلامية، دار اقرأ ـ بيروت، د.ت.

(٨٢) **عبد الرزاق الموسوي المقرم (باحث ومحقق نجفي)**: زيد الشهيد، مطبعة الغري ـ النجف الأشرف ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م.

(٨٣) **عبد العزيز سيد الأهل (باحث مصري)**: جعفر بن محمد، دار الشرق الجديد ـ بيروت١٩٥٤م.

(٨٤) **عبد الله نعمة (من علماء لبنان)**: فلاسفة الإسلام، دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

(٨٥) **ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧٣هـ)**: تاريخ دمشق، تحقيق: محمد باقر المحمودي، دار التعارف ـ بيروت١٩٧٠م.

(٨٦) **ابن عساكر (نفسه)**: تهذيب ابن عساكر، دار السيرة ـ بيروت١٣٩٩هـ.

(٨٧) **العسكري، السيد مرتضى العسكري (عميد كلية أصول الدين ببغداد)**: معالم المدرستين، مؤسسة البعثة ـ طهران١٤١٥هـ.

(٨٨) **العياشـي، أبو النضر، محمد بن مسعود بن عياش السلمي (ت ٣٢٠هـ):** تفسير العياشي، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية ـ قم١٣٧١هـ.

(٨٩) **فان فلوتن، مستشرق ألماني:** السيادة العربية ـ القاهرة ١٩٣٣م.

(٩٠) **الفتّال، محمد بن الفتّال النيسابوري (ت ٥٠٨هـ):** روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، تحقيق: السيد محمد مهدي الموسوي الخرسان، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٨٦هـ.

(٩١) **أبو الفداء، الأمير:** إسماعيل بن علي بن محمود (ت٧٣٢هـ): تاريخ أبي الفداء، القاهرة١٣٢٥هـ.

(٩٢) **فلها وزن (مستشرق أوربي):** الدولة العربية وسقوطها، دار صادر، بيروت، د.ت.

(٩٣) **القاضي عبد الجبار، عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادي (ت٤١٥هـ):** شرح الأصول الخمسة، تحقيق: الدكتور عبد الكريم عثمان. طبع مكتبة وهبة ـ القاهرة١٣٨٤هـ.

(٩٤) **ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ):** الإمامة والسياسة، الطبعة الثانية ـ القاهرة١٣٢٥هـ.

(٩٥) **القلقشندي، شهاب الدين، أحمد بن علي بن أحمد المصري (ت ٨٢١هـ):** مآثر الأناقة في معالم الخلافة، طبع الكويت، الأولى ١٩٦٤ والثانية ١٩٨٥.

(٩٦) **القمي، أبو الحسن، علي بن إبراهيم الأشعري الكوفي (من علماء القرن الرابع):** تفسير القمي، تحقيق: السيد طيّب الموسوي الجزائري، مطبعة النجف ـ النجف الأشرف١٣٨٦هـ.

(٩٧) **القندوزي، سليمان بن إبراهيم الحنفي البلخي (ت ١٢٩٤هـ):** ينابيع المودّة، مطبعة أختر ـ استانبول١٣٠١هـ.

(٩٨) **ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)**: البداية والنهاية، طبعة مكتبة المعارف ـ بيروت١٩٦٦م.

(٩٩) **الكراجكي، أبو الفتح، محمد بن علي بن عثمان (ت ٤٤٩هـ)**: كنز الفوائد، الطبعة الحجرية ـ طهران١٣٢٢هـ طبع دار الأضواء.

(١٠٠) **الكشّي، أبو عمرو، محمد بن عبد العزيز (من علماء القرن الرابع)**: رجال الكشّي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف ١٩٧٠م.

(١٠١) **الكليني، أبو جعفر، محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي البغدادي (ت ٣٢٩هـ)**: أصول الكافي، دار الكتب الإسلامية ـ طهران١٣٨٣هـ.

(١٠٢) **الكليني (نفسه)**: فروع الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري ونجم الدين الأملي، المطبعة الإسلامية ـ طهران١٣٨٨هـ.

(١٠٣) **الكميت، أبو المستهل، الكميت بن زيد الأسدي الكوفي (ت ١٢٦هـ)**: الهاشميات، شرح محمد محمود الرافعي، القاهرة ١٩١٢م.

(١٠٤) **المبرد، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)**: الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف ـ بيروت، د.ت ـ تحقيق المرصفي، القاهرة.

(١٠٥) **المتقي الهندي، علاء الدين، علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ)**: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ.

(١٠٦) **المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ)**: بحار الأنوار ج٤٧، تحقيق: السيد محمد مهدي الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية ـ طهران١٣٨٦هـ.

(١٠٧) **محسن الأمين الحسيني العاملي الشقرائي (ت ١٩٥٢م)**: أعيان الشيعة ج٤، القسم الثاني، مطبعة الإنصاف ـ بيروت١٣٦٨هـ.

(١٠٨) **محسن الأمين الحسيني العاملي (نفسه)**: المجالس السنية ج٥، الطبعة الثالثة، دار النعمان ـ النجف الأشرف١٣٨٤هـ.

(١٠٩) **محسن الطباطبائي الحكيم، المرجع الديني الأعلى الراحل، (ت١٣٩٠هـ):** مستمسك العروة الوثقى ط٣، مطبعة النجف - النجف الأشرف١٣٨٤هـ.

(١١٠) **محمد أبو زهرة، (أستاذ في كلية الحقوق - جامعة القاهرة):** الإمام الصادق، حياته وعصره، آراؤه وفقهه، مطبعة أحمد علي مخيمر - القاهرة، د.ت.

(١١١) **محمد جواد فضل الله العاملي (ت١٩٧٥م):** الإمام الصادق، خصائصه - مميزاته، دار الزهراء - بيروت١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(١١٢) **محمد حسن آل ياسين (من علماء الكاظمية المقدسة):** الإمام جعفر الصادق، المطبعة العربية - بيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

(١١٣) **محمد حسين علي الصغير (المؤلف):** الإمام زين العابدين، القائد - الداعية - الإنسان. الطبعة الثانية، مؤسسة العارف للمطبوعات - بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

(١١٤) **محمد حسين علي الصغير (نفسه):** الفكر الإمامي من النصّ حتى المرجعية، الطبعة الأولى، دار المؤرخ العربي- بيروت ٢٠٠٠م.

(١١٥) **محمد حسين علي الصغير (نفسه):** الإمام محمد الباقر عليه السلام، مجدد الحضارة الإسلامية، مؤسسة العارف للمطبوعات - بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

(١١٦) **محمد حسين الطباطبائي (من أعاظم مفسري القرآن في القرن العشرين):** الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الثالثة، مؤسسة الأعلمي - بيروت١٣٩٣هـ.

(١١٧) **محمد يحيى الهاشمي، الدكتور:** الإمام الصادق ملهم الكيمياء، سلسلة حديث الشهر، مطبعة النجاح - بغداد١٩٥٠م.

(١١٨) **محمد يحيى الهاشمي (نفسه):** الإمام الصادق كملهم للكيمياء (بحث)، دار النشر والتأليف - النجف الأشرف ١٩٤٩م.

(١١٩) **محمد محمد فياض (الدكتور)**: جابر بن حيّان وخلفاؤه، سلسلة اقرأ ـ القاهرة ١٩٥٠م.

(١٢٠) **محسن عقيل**: طب الإمام الصادق، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت١٩٩٨م.

(١٢١) **المسعودي، علي بن الحسين بن علي البغدادي (ت٣٤٦هـ)**: التنبيه والأشراف، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، د.ت.

(١٢٢) **المسعودي (نفسه)**: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ـ بيروت١٩٦٥م.

(١٢٣) **مسلم، أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)**: صحيح مسلم، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ القاهرة١٣٣٤هـ.

(١٢٤) **مصطفى عبد الرزاق (أستاذ في الجامعة المصرية)**: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة١٩٥٩م.

(١٢٥) **المرتضى، علم الهدى، السيد مرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ)**:

(١٢٦) **أمالي المرتضى، تحقيق**: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة١٩٥٤م.

(١٢٧) **المفضّل بن عمر الجعفي الكوفي (ت١٨٣هـ)**: توحيد المفضّل، إملاء الإمام الصادق عليه السلام، تقديم: الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، بيروت، ١٣٧٦هـ، تحقيق وتعليق: الشيخ محمد الخليلي، النجف، ١٣٧٤هـ.

(١٢٨) **المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ)**: الاختصاص، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ١٣٩٠هـ.

(١٢٩) **المفيد (نفسه)**: الإرشاد، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ١٣٩٢هـ.

(١٣٠) **موسى جواد السبيتي (من علماء لبنان)**: حياة الصادق، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٥٦هـ.

(١٣١) **مير علي الهندي (أستاذ في الحضارة الإسلامية)**: الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، طبع دار الفكر والتوزيع ـ عمّان.

(١٣٢) **مير علي الهندي (نفسه)**: مختصر تاريخ العرب، الترجمة العربية ـ القاهرة١٩٣٨م.

(١٣٣) **النجاشي، أحمد بن علي بن أحمد (ت ٤٥٠هـ)**: رجال النجاشي، نشر جماعة المدرسين ـ قم١٤٠٧هـ.

(١٣٤) **ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن إسحاق البغدادي (ت ٣٨٥هـ)**: الفهرست، نشر الأستاذ فلوجل، لايبزك، ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧١م.

(١٣٥) **النراقي، محمد مهدي بن أبي ذرّ (ت ١٢٠٩هـ)**: جامع السعادات، تحقيق السيد محمد كلانتر وجماعته، مطبعة الزهراء ـ النجف الأشرف١٩٤٩م.

(١٣٦) **النعماني، محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني**: كتاب الغيبة، مكتبة الصدوق ـ طهران.

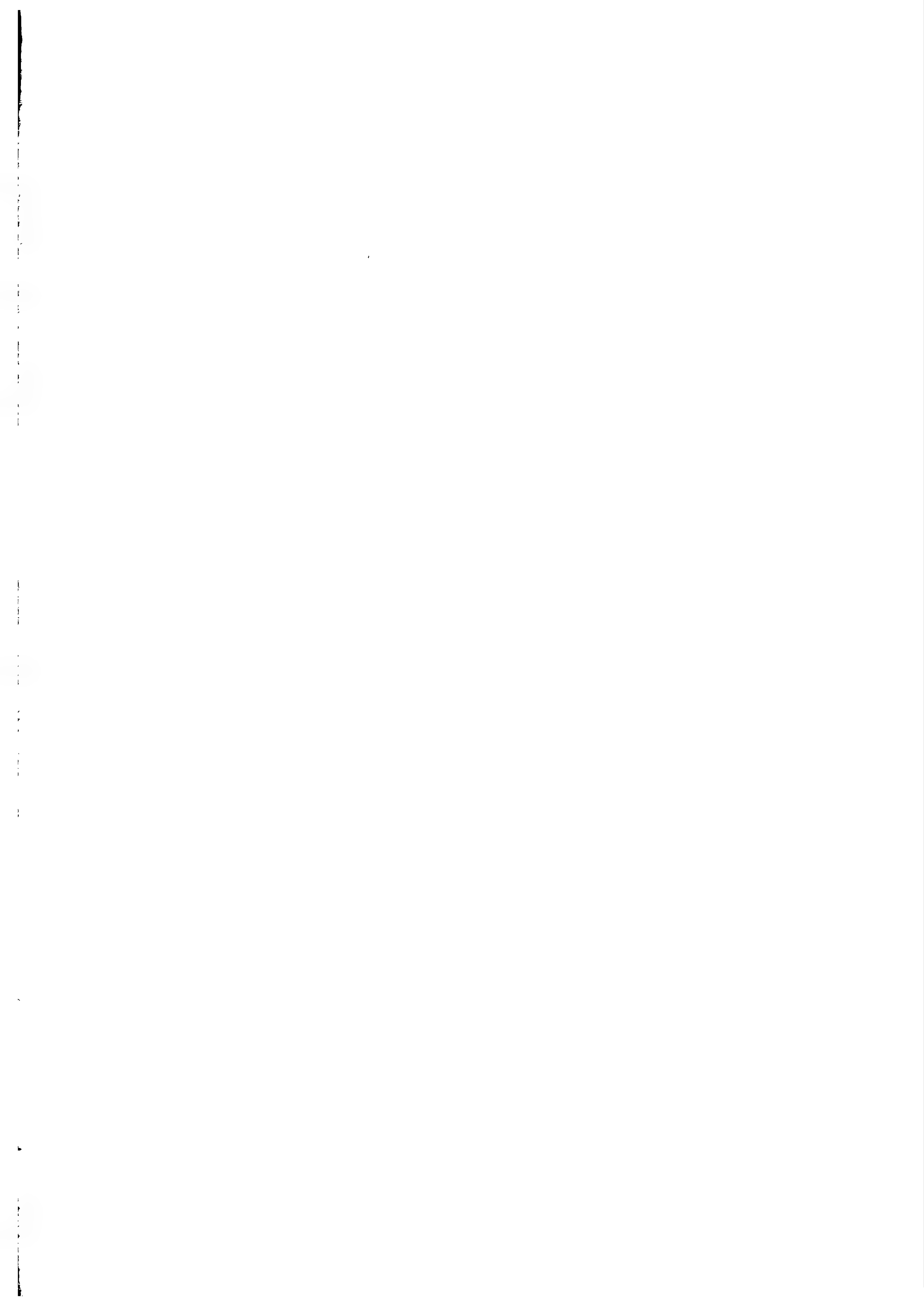
(١٣٧) **أبو نعيم، الحافظ، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)**: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر العربي ـ بيروت١٤٠٥هـ.

(١٣٨) **النووي، أبو زكريا، محي الدين، يحيى بن شرف النووي الشافعي (ت ٦٧٧هـ)**: تهذيب الأسماء واللغات، دار الفكر ـ بيروت١٩٩٦م.

(١٣٩) **النوبختي، أبو محمد، الحسن بن موسى (من أعلام القرن الثالث الهجري)، فرق الشيعة، تحقيق**: محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

(١٤٠) **هاشم الحسني (أستاذ الكيمياء في جامعة بغداد، الكيمياء عند الإمام الصادق (بحث)**: مجلة الإيمان، العدد ١ ـ ٢، النجف الأشرف، ١٩٦٣م.

(١٤١) **هاشم معروف الحسني (من علماء لبنان)**: سيرة الأئمة الاثني عشر، الطبعة الثانية، دار القلم ـ بيروت١٩٧٠م.





# المحتويات